

جَهْرُ خَطِّ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَ الْعَرَبِ فِي الزَّاهِرَةِ

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلك ، ومزيد تطولك ، وأصلى وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فها هو ذا « الجزء الثانى - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأمرء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافردواعى الخطابة فى هذا العصر ، ونفاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يميظ اللثام عن خفايا مراميها ، وغواءض مغازيها ، فجاء بحمده تعالى وافيًا مرضيًا ، والله نسأل أن يكلائنا برعايته ، وأن يمن علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى ونعم النصير ؟

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مآخذ الخطب فى هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : » الثانى - السابع - الثالث عشر -
- : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
- : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : » الخامس - السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : » الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : » الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : » الأول - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة : للشرىف الرضى : » الأول
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
- جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : » الأول

- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : الجزء الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : » السادس - السابع - الثامن - التاسع
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : » الثالث - الرابع
- مروج الذهب : للمسعودي : » الثاني
- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : » الأول - الثاني
- معجم البلدان : لياقوت الحموي : » الثالث
- أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : » الثالث
- النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : » الأول
- لابن تفرى بردى :
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : » الأول - الثاني
- معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : » الأول
- نفع الطيب ، للمقرئ : » الأول
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الأوسى : » الثالث
- مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : » الثاني
- محمد البيهقي العلوي
- سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي
- » » » » : لابن عبد الحكم
- شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري
- أنباء نجباء الأنبياء : لابن ظفر المكي
- الحسن البصري : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاى

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطبة والوصايا

في

العصر الأموي

الخطب

خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه^(١)

خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعماء فقال :

« لقد قتلتم الليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتي موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه أحدٌ كان

(١) في الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن علي توفي سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ :

ص ٤) أنه توفي سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفي سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُذَرِّكه أحد يكون بعده ، والله إن كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبيعه في السَّريَّة^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنفته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) ، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت . »

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبَّه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

(١) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) الرجم : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر

من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

تعبثه الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويحتمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرْهًا ^(١) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فلو سلم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزهقنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا رحكم الله إلى معسكرهم بِالْخَيْلَةِ ، حتى تنظر وتنظروا ، و نرى وترَوْا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فأتكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! لا يُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُصَرِّ الدين أَلَسِنَتُهُمْ كَالْخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ ^(٢) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ

(١) يشير إلى قوله تعالى « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ » .

(٢) جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضا المنديل يلف ليضرب به) وفي الدعة : أي وقت الدعة : أي الخفض والسلم .

فَرَوَّاغُونَ كَالثَعَالِبِ ، أَمَا تَخَافُونَ مَقْتَ اللَّهِ ! وَلَا غَيْبَهَا وَعَارَهَا ^(١) .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أَصَابَ اللَّهُ بِكَ الْمَرَّاشِدَ ، وَجَنَّبَكَ الْمَسْكَارَةَ ، وَوَقَّقَكَ لِمَا تَحْمَدُ وَرُودَهُ وَصُدُورَهُ ، قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَتَكَ ، وَانْتَهَيْنَا إِلَى أَمْرِكَ ، وَسَمِعْنَا لَكَ ، وَأَطَعْنَاكَ فِيمَا قُلْتَ وَمَا رَأَيْتَ ، وَهَذَا وَجْهِي إِلَى مَعْسُكِرِي ، فَن أَحَبُّ أَنْ يُؤَاقِبَنِي فُلْيُؤَافٍ » ثم مضى لوجهه ، إِلَى النَّخِيلَةِ .

وَقَامَ ثَلَاثَةَ آخِرُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ ، فَأَتَبَوْا النَّاسَ وَلَا مَوْمَ وَحِرْضُومَ ، وَكَلُّوا الْحَسَنَ بِمَثَلِ كَلَامِ عَدَى بْنِ حَاتِمٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : صَدَقْتُمْ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ، مَا زِلْتُمْ أَعْرِفَكُم بِصَدَقِ النِّيَّةِ وَالْوَفَاءِ وَالْقَبُولِ وَالْمُودَةِ الصَّحِيحَةِ ، فَجَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، ثُمَّ نَزَلَ ، وَخَرَجَ النَّاسُ فَمَعْسُكَرُوا وَنَشِطُوا لِلْخُرُوجِ ، وَسَارَ الْحَسَنُ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ ، وَعِدَّةٌ حَسَنَةٌ .

(شرح ابن أبي الحديد م : : ص ١٤)

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط ^(٢) ، فَلَمَّا أَصْبَحَ نَادَى فِي النَّاسِ : الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ ، فَاجْتَمِعُوا ، فَصَعِدَ الْمُنْبَرِ ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلِّمَا حَمِدَهُ حَامِدٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كُلِّمَا شَهِدَ لَهُ شَاهِدٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ ، وَأَتَمَّنُّهُ عَلَى الْوَحْيِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنِّهِ ، وَأَنَا أَنْصَحُ خَلْقَهُ خَلْقَهُ ، وَمَا أَصْبَحْتُ مُحْتَمِلًا عَلَى مُسْلِمٍ ضَعِيفَةٍ ، وَلَا مُرِيدًا لَهُ بِسُوءٍ وَلَا غَائِلَةً ^(٣) ، أَلَا وَإِنْ مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا تَحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ ، أَلَا وَإِنِّي نَازِلٌ لَكُمْ خَيْرًا مِنْ نَظَرِكُمْ

(١) أى عار فقلتكم هذه : وعى تقاعسهم عن إجابة الحسن إلى مداعاهم إليه ، وفى الأصل : «وعارتها»

وإراء محرفا إذ العارة هى العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمداثن .

(٣) الغائلة : الشر والفساد واللاهية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولکم ، وأرشدنى وإياکم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصلح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فأنهبوه ، حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطَرَفَه^(١) عن عاتقه ، فبقي جالسا متقلدا سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولا موه وضيقوه لما تكلم .

فلما مرّ فى مُظَلِّم^(٢) ساباط ، قام إليه رجل من بني أسد يقال له جراح بن سنان ، وبيده مِعْوَل^(٣) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت فى فخذه فشققته ، حتى بلغت أُرْبَيْتَه^(٤) ، وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده واعتنقه فخرّا جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ - خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - فى أشياء اشتراطها - ثم قام الحسن فى أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخطى بنفسى عنكم ثلاث : قتلکم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابکم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

(١) رداء من خز مريع ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك .

(٣) المعول : القأس العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأربية : أصل الفخذ .

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإنفاذ الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنني أريد أن يبدؤ عيّه للناس^(١) ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وحقق دماءكم بآخرننا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت ، وتسلمون من سلمت ، وقد سلمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ أَدْرَى أَعْلَهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قال معاوية اجلس ، فلم يزل ضرمًا^(٢) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠ ،

وأنباء نجباء الأنبياء ص ٥٦ وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٢٢٤)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى اللدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال :

(١) روى أبو الفرج الأصبهاني أنه كان في لسان الحسن ثقل كالأفأة (شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١) .

(٢) ضرم عليه كفرح : احتدم غضبا فهو ضرم .

« الحمد لله الذى توحد فى ملكه ، وتفرّد فى ربوبيته ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعُه عن يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحققَ دماءَ آخركم ، قبلّاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء ^(١) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن ربَّ عَلَىَّ كان أعلم بعلَى حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثلهُ ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فبهيات هيبات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم فى بدر وأخواتها ، جرّعكم رتقاً ^(٢) ، وسقاً علقاً ^(٣) ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فليستم بملومين على بفضه ، وإيم الله لا ترى أمةٌ محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمة ، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تصدّروا عنها حتى تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(٤) ، وانضوائكم ^(٥) إلى شياطينكم ، فعند الله أحنسبُ ماضى ، وما ينتظر من سوء دعتكم ، وحيف ^(٦) حكمكم ، ثم قال :

« يأهل الكوفة لقد فارقتكم بالأمس سهم من مراى الله ، صائب على أعداء الله ، نكالٌ على فجّار قريش ، لم يزل آخذاً بمناجرها ، جائماً على أنفاسها ، ليس باللومة فى أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفرؤقة ^(٧) فى حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجاب ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجِلٌ أو كَاد ، وأصاب متثبت أو كاد ، ماذا أردتُ من

خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٠)

(١) البلاء يكون منعة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول .

(٢) ماء رنق : كمدل وكشف وجيل كدر . (٣) العلق : الدم ودويبية فى الماء تمس الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضمامكم .

(٦) الحيف : الظلم : (٧) الفروق والفروقة : شديد الفزع .

٨ - خطبة معاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلاح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك - وهو لى حلال - لصلاح الأمة وألقهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يا أهل الكوفة ، أنزاني ، فانتلستم على الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجّون ، ولكنى فانتلستم لأنأمركم عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شَرَطْتَه فمحت قديمي هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإيقال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزُوهم غزَوكم » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام ، فقال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ابيرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذّاكر عليّاً : أنا الحسن ، وأبى عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأُمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتَيْبَةُ بن ربيعة ،

(١) إرجاعهم وردهم .

وجدتني خديجة ، وجدتك قُتَيْلَة ، فلعن الله أئمتنا ذكراً ، والأئمة حسباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ، أتى سليمان ابن صُرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم - فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَعَجُّبُنَا لا ينفِضُ من بيعتك معاويةَ ومعه مائة ألفِ مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء ، مع مثاهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعة من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ، ولا حظاً من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت كتبت عليك بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، أن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولـسـكنه أعطاك هذا ، فرضيت به من قوله ، ثم قال ، وزعم كل رءوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عِدَاتٍ ، ومنيتهم أمانى ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفقتنا ، فإن كل ما هنالك نحت قدمي هاتين ، والله ما عني بذلك إلا نَقْضَ ما بينك وبينه فَأَعِد الحرب جَذَعَةً^(١) ، وأذن لي أشخص إلى الكوفة ،

(١) هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أى فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وأنبذ إليه ^(١) عَلَى سَوَاء ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

ثم سكت ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعث سليمان
ابن صرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعه .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بال نصيحة والاستقامة لنا ، وقد
فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، والدنيا أعمل وأنصب ، ما كان
معاوية بأبأس مني وأشد شكيمه ، ولكن رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله
وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقَنَ دماءكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ،
وارضوا بقضاء الله ، واصلحوا لأمر الله ، والزموا بيوثكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برئ
أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سَيَلِي الأمر ، فوالله لو سرنا إليه
بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ^(٢) ، إن الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ،
وأما قولك يا مُذِلِّ المؤمنين ، فوالله لأن تَذَلُّوا وتُعاَفُوا أحب إلى من أن تَعِزُّوا وتُقْتَلُوا ،
فإن رَدَّ الله علينا حَقَّنَا في عافية ، قَبِلْنَا وسألنا الله العون عَلَى أمره ، وإن صَرَفَ عنا رَضِينَا
وسألنا الله أن يبارك في صَرَفِهِ عنا ، فليكن كل رجل منكم جَلِيساً ^(٣) من أحلاس بيته ،

(١) معناه إذا هادنت قوما ، فعلمت منهم النقص للمهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقص ، حتى تعلمهم
أنك نقصت المهد ، فتكونوا في علم النقص مستوين ، ثم أوقع بهم . (٢) يطلب .

(٣) المجلس : بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة
كن حلما من أحلاس بيتك حتى تأتئك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أي لا تبرح .

مادام معاوية حياً ، فإن يَهْلِك ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمه عَلَى رشدنا ، والمعونة عَلَى أمرنا ، وأن لَا يَكِلِنَا إِلَى أنفسنا ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِتْرَةُ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون .
وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثَّقَلَيْنِ^(٢) اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعوّل عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئُنَا تَأْوِيلُهُ ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فإطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مَقْرُونَةً^(٣) : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياته الذين قال لهم : (لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَائِغَ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي

(١) العترة : ربط الرجل وعشيرته الأدنون . (٢) الثقل : كل شيء نفيس مصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ) فَيَقْلَقُونَ للرماح أَزْرًا^(١) ، وللسيوف جَزْرًا^(٢) ، وَلِلْعُمُدِ^(٣) حَظًّا ،
وللسهام غَرَضًا ، ثم : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٢)

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلّموا أنّ الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صَلف^(٤) ،
والمَجَلَّة سَفَه ، والسَّفَه ضَعْف ، والقلق وَرْطَة ، ومجالسة أهل الدناءة شَيْن ، ومخالطة
أهل الفسوق رِيبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

(١) الأزر: جمع إزار، وهو الملحفة وكل ماواراك وسترك: أى فتكونون أجربة للرماح تغيب فأيديكم
وتستمر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الظهر: أى تركيبكم الرماح وتعاونكم ، والمراد تطعنون وتضربون بها
والأول أوجه . (٢) أى قطعاً . (٣) عمد بفتحيتين ، وعمد بضميتين : جمع عمود ، وهى من
الآلات التى كانت تستعمل فى القتال . (٤) الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبك والمدح بما ليس عندك ،
أو مجاوزة قدر الطرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المغاخرات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط ، وعُتْبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام قوارص^(١) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحمأ أباه وذِكره ، وقال فصْدُق ، وأمر فأطيع ، وخَفَقَتْ^(٢) له النعالُ ، وإن ذلك لَرَأْفَةٌ إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلُغنا عنه ما يسوءنا . قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا: ابعث إليهِ فليحضر لِنَسَبِهِ ونسب أباه ونعيِّره ونوبِّحه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرِّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا: عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لِنَفْعَلَنَّ ، فقال : وبحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالسا عندى إلا خفت مقامه وعيَّبه لى ، قالوا ابعث إليهِ على كل حال . قال : إن بعثت إليهِ لأنصفته منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يُرْجى قوله على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليهِ لآمرته أن يتكلم بلسانه كَلَّه . قالوا : مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتهمونى وبعثتم إليهِ وأيتم إلا ذلك ، فلا تَمْرَضُوا^(٣) له

(١) القوارص من الكلام: التي تنفصك وتؤلك . (٢) الخفق : صوت النعل .

(٣) تمرض : ضعف في أمره .

في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يَمِيبُهُم العائب ، ولا يَلْصَقُ بِهِم العارُ ، ولكن اذْفَوْهُ بِحَجَرِهِ ؛ تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وَكَرِهَ خلافة الخلفاء من قبله ؛ فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأله . فقال الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغيني ثيابي ، اللهم إني أَعُوذُ بك من شرورهم ، وأدرا^(١) بك في نحورهم ، وأستمين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأتني شئت ، بحول منك وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد^(٢) القوم ، وَخَطَرُوا^(٣) خطرَ ان الفحول ، بغيا في أنفسهم وعُلُوًّا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني . فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحيي لك من الفُحْشِ ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف ، فأيهما تُقَرِّ وَأَيُّهُمَا تُنْكِرُ ؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمنزلهم من بني عبدالمطلب ، ومالي أن أكون مستوحشا منك أو منهم ؟ إن وليي الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(٤) ومني ، وإنما دعوناك لنقرررك أن عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

(١) أدفع . (٢) الارتداد : الذهاب والمجيء . (٣) خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعها واهتز وتبختر ، وخطر بسيفه ورمحه : رفعه مرة ووضعه أخرى خطرا نا (بالتحريك) وخطر الفحل بذنبه : ضرب به يمينا وشمالا . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مُكَرَّهًا ، وشَرِكَ في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادَّعى من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يميِّره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرَّم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ؛ ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قريش ، يُسَخَّر منك ، ويُهْزَأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ؛ وإنما دعوناك لنُسَبِّتَ وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثمٌ من الله ، ولا عيبٌ من الناس ؛ فهل تستطيع أن ترد علينا وتسكِّد بنا ؟ فإن كنت ترى أننا كذَّبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال :

« يا بنى هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعرَّفَ حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصَّهرُ كان لكم يُكرمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حُجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لِبَنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . »

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حَسَنُ : كان أبوك شرَّ قریش لقریش ، لِسَفْكِهِ الدِّمَاءَ ، وقَطْعِهِ لأَرْحَامِهَا ، طَوِيلَ السِّيفِ واللِّسَانِ ، يَقْتُلُ الْحَيَّ وَيُعِيبُ الْمَيِّتَ ، وإِنَّكَ مِنْ قَتَلِ عُثْمَانَ وَنَحْنُ قَاتِلُوكَ بِهِ . وأما رجاؤك الخِلافةَ فَلَسْتُ فِي زَنْدِهَا ^(١) قَادِحًا ، وَلَا فِي مِيزَانِهَا رَاجِحًا ، وإِنَّكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ قَتَلْتُمْ عُثْمَانَ ، وَإِنْ فِي الْحَقِّ أَنْ نَقْتُلَكَ وَأَخَاكَ بِهِ ، فَأَمَّا أَبُوكَ فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَقَادَ ^(٢) مِنْهُ ، وَأَمَّا أَنْتَ فَوَاللَّهِ مَا عَلَيْنَا لَوْ قَتَلْنَاكَ بِعُثْمَانَ إِنْهُمْ وَلَا عُذْوَانِ » .

١٧ - مقال المغيرة بن شعبه

ثم تكلم المغيرة بن شعبه ، فشمّ عليا وقال : والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولا في حكم يميل ، ولسكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فإها هؤلاء شتموني ، ولسكنك شتمتني ، فُحْشًا أَلْفَتْهُ ، وسوء رأي عُرِفَتْ بِهِ ، وَخُلُقًا سَيِّئًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ ، وَبُغْيَا عَلَيْنَا ، عداوة منك لحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا ، فَلَا قَوْلَنَ فَيْكَ وَفِيهِمْ مَا هُوَ دُونَ مَا فِيكُمْ ، أَنشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الرُّهْطُ ، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين ^(٣) كاتبيهما ، وَأَنْتَ يَا مُعَاوِيَةَ

(١) للزند : العود الذي يقدح به النار . (٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت

المقدس تألفا لليهود ، فصل إلى ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول .

بهما كافر ، تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى^(١) غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح^(٢) وبيعة الرضوان^(٣) ، وأنت يامعاوية يا حداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تُسرُّون الكفر وتُظهرون الإسلام ، وتُسمِّلون بالأموال ، وأنشدكم الله أستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويُفْلِح^(٤) حُجَّتُهُ ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط ؛ وأنشدك الله يامعاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق » أنسى يامعاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك - لما تمَّ أن يُسلم - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَيَفْضَحَنَا بَعْدَ الدِّينِ بِيَذْرِ أَصْبَحُوا مِرْقًا^(٥)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ ثَالِثُهُمْ وَحَنَظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَا^(٦)

(١) اللات : صنم ثقيف بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان يبطن نخلة .

(٢) روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكان معاوية ممن أسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان . (٤) ينصر .

(٥) المزق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره . (٦) أى لشدة الحزن والأسى .

لَا تَهْ كَنْنَ إِلَى أَمْرٍ تُسَكَّلَفْنَا وَالرَّافِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرَفَا^(١)

فَلَمَوْتُ أَهْوُونَ مِنْ قَوْلِ الْمَدَاةِ «لَقَدْ حَادَّأُ بْنُ حَرْبٍ عَنِ الْمَرْمَى إِذَا قَرَفَا»^(٢)

والله لما أخفيتُ من أمرِك ، أ كبر بما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرهط أن تعلمون أن علياً حرّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أ كابر أصحابه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالريّة ؛ فاستنزهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيرٍ مِثْلَهَا ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جَذِيمَةَ^(٣) فبعث إليك ونهَمَكَ^(٤) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

(١) الخرق محركة : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور ، والحقق . (٢) فرق : فزع .

(٣) في الأصل « خزيمة » ، وهو تحريف ، وهم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضموا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكثفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما - فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال : يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي بيلغة الكلب ، (والميلغة بالكسر : الإناء يلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسن ، ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذي في كتب اللغة : « نهمة : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا يستطيعون ردّها؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو تقيفاً إلى الدين؛ فوقع به، وسبه وسفه، وشتمه وكذّبه وتوعده. وهم أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه. والثانية يوم العير^(١) إذ مرّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جاثية من الشام. فطردها أبو سفيان وساحل^(٢) بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها. والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه، وهو ينادى أعلُّ هبل^(٣) مراراً فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ولعنه المسلمون. والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل. والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والمذبح معكوفاً أن يبلغ محله^(٤) ذلك يوم الحديبية. فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله وأله أبا سفيان، ولعن القادة والأنباع، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن. فقيل يا رسول الله أفأيرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحداً من الأنباع. وأما القادة فلا يفلح منهم أحد^(٥). والسادسة يوم الجمل الأحمر. والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنقروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان. فهذا لك يامعاوية.

وأما أنت يابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من غير^(٦)

(١) العير: الإبل تحمل الميرة: (٢) أتى بها ساحل البحر. (٣) أي اعل وانصر يا هبل:

وهو صنم كان في الكعبة. (٤) والهدى معطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدى ما يهدى إلى مكة، ومعكوفاً أي محبوساً وهو حال. أن يبلغ محله أي مكانه الذي ينحر فيه عادة وهو الحرم.

(٥) لا يتعارض مع هذا أن أبا سفيان أفلح بعد وأسلم، إذا التقى فيه بلا، وليس الذي بلن.

(٦) فجور: ذكروا أن النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عنزة (بالتحريك) فسيبت:

فاشترها عبد الله بن جدهان التيمي بمكة، فكانت بغياً، ثم أعتقها، فوقع عليها أبو لب بن عبد المطلب، =

وَسَفَاحٍ ففتحناكم فيك أربعة من قریش . فقلب عليك جزأرها . الأهمم حسباء ، وأخبرهم مَنْصِبًا . ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأَبتر^(١) . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقالت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع للمشاهد . وهجوته وآذيته بمكة ، وكذته كيدك كله . وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجمعفر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبًا وأكذبك وأشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي حسدا لما ارتكب من حليته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك . فأنت عدو بني هاشم

= وأمية بن خلف الجمحي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبوسفيان بن حرب ، والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ، وذلك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبوسفيان لاشك قد بدت لنا فيك منه بينات الشائيل

ويقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال : أيسلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عنزة أصابها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشترها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ . (ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

(١) الشافي المبغض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم أبتر عند موت ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المتقطع عن كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيق حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبتر لأنات .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جمعفر بن أبي طالب ، ولما رأت قریش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبيين ، وأبي النجاشي أن يخفّر ذمته .

(٣) وذلك أن عمرا وعمارة ركبا البحر إلى الحبشة كما قدمنا — وكان عمارة جميلا وسيما تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته — فلما صاروا في البحر ليالي أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة فقال لامرأة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبل ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، =

في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك إذن من الله مالا يُحصى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنْتَ سَعَرْتَ^(٢) عليه الدنيا نارا ، ثم لَحِقْتَ بِفِلَسْطِينَ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نَكَأَتْ قَرْحَةً أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله مانصرت عثمان حياً ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! ألسن القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السيرُ مني بمُسْتَنْكَرٍ

= فامتنت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هوسكانها الذي تعدل به » فدفعه عمارة في البحر ، فلما وقع عمرو سيج حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى نزل الحبشة ، فلما اطمأنأ بها لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته ومبيته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ماعرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فإني أعرفه وأتني بشيء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل ، فسألها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا في قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ماسمعا بمثل هذا ، ثم سكنت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة آخر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن يتفغن في إحليله ثم خلى سبيله فخرج هاربا .

(١) سمر النار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول خلافة عثمان واليا على مصر — منذ خلافة عمر ابن الخطاب — ثم إن عثمان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح — وهو أخو عثمان من الرضاع — خراج مصر ، وولى عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يطلع على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعي فأعرضه عليه (نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرا فندبت) .

قلت : ذَرِينِي فَإِنِّي أَمْرُ أُرِيدُ النَّجَاشِيَّ فِي جَعْفَرٍ
لِأَكْوِيهِ عِنْدَهُ كِيَّةٌ أَقِيمُ بِهَا نَخْوَةَ الْأَصْعَرِ (١)
وَشَانِي أَحَدَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِدًا وَلَوْ كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ (٢)
وَلَا أَتَنِي عَنْ بَنِي هَاشِمٍ وَمَا اسْتَطَعْتُ فِي الْغَيْبِ وَالْمَحْضَرِ
فَإِنْ قِيلَ الْعَتَبُ مِنِّي لَهُ وَإِلَّا لَوَبْتُ لَهُ مِشْفَرِي (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في الحُرِّ (٤) .
وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صَبْرًا (٥) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق

(١) الصعر محرّكة : الميل في الخد ، صعر : كفرح فهو أصعر ، وصعر خده تصعيرا : أماله من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة عتبة بن غزوان ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعني عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أي في صعوبة الوصول إليه . (٣) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . (٤) وذلك أن عثمان رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولّى عليها الوليد بن عتبة - وهو أخوه لأمه - ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم وأنه تكلم في الصلاة والتفت إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتا وأراد أن يحده فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلبده به .

(٥) القتل صبْرًا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عتبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة ولية ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي ابن خلف الجمحي ، وكان صديقا له ، فقال ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهدت له ، قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبرق في وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عتبة رسول الله -

وسمى علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت يا علي ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي اسكت يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : (أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١)) ويحك يا وليد ؟ مهما نسبت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتاب عزيز) في علي وفي الوليد قرأنا ^(٢)
فتبينوا الوليد إذ ذاك فسقاً وعلي مَبُوءاً إيماناً ^(٣)
ليس من كان مؤمناً (عَمَزَكَ اللَّهُ) كمن كان فاسقاً خوَّانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلي إلى الحساب عياناً
فعلى يُجْزَى بذاك جنانا ووليد يجزى بذاك هواناً
رب جد لعقبة بن أبان لابس في بلادنا تَبَاناً ^(٤)

= صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَيَوْمَ يَعْصِي الْأَمْرُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي في حجر الكعبة فأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لأخذ الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه فحبسهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهم يقتلهم ، فأثرو متكرين ما قاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) مسهل من « قرأنا » . (٣) فتبينوا : مسهل من « فتبينوا » .

(٤) أهان : هو والد أبيه عقبة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والتبان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للداحين .

وما أنت وقريش ! ، إنما أنت عِلْجٌ من أهل صَفُورِيَّة^(١) ، وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة ، فوالله ما أنت بِحَصِيفٍ^(٢) فأجيبك ، ولا عاقلٍ فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرْجى ، ولا شرٌّ يُتَّقَى ، وما عقلك وعقل أُمّك إلا سواء ، وما يضر عليًّا لو سببته على رهوس الأثمهات ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتل اللّحيانِ إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يَا لَرَّ جَالٍ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَلِسَبِيَّةٍ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ^(٣)

نُبِذْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عَرْسِهِ جِنْسَ لَتِيمِ الْأَصْلِ مِنْ لِحْيَانٍ^(٤)

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ؟ ولم تقتل فاضحك . وكيف ألومك كلّى بغض على ، وقد قتل خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدره ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حَنْظَلَةَ في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخلق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكى فإني طائرةٌ عنك » فقالت النخلة : وهل علمتُ بكِ واقعةً كلّى ، فأعلم بكِ طائرةٌ عني ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، اعلمه بأنك زان . وأما

(١) صفورية : بلد بالأردن (بضم الهمزة والdal وتشديد النون) ، والمليح : الرجل من كفار العجم .
وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفورى . ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان هذا كان دولى لأمية بن عبد شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بنى أمية لصلبه (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤) .
(٢) حصيف : ككرم استحكم عقله فهو حصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس الرجل : امرأته : وبنو لحيان : حى من هذيل ، وهو لحيان بن هذيل بن مدركة .

نُفِرْكُمْ عَلَيْنَا بِالْإِمَارَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا^(١) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .

ثم قام الحسن فنفّض ثوبه فانصرف ؛ فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ شَهِدْتَ قَوْلَهُ فِيَّ وَقَذَفَهُ أُمِّي بِالزَّنا ، وَأَنَا مُطَالِبٌ لَهُ بِحَدِّ الْقَذْفِ .

فقال معاوية : خُلِّ عَنْهُ ، لِأَجْزَالِكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَتَرَكَهُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : قَدْ أَنْبَأْتُكُمْ أَنَّهُ مِنْ لَا تُطَاقُ عَارِضَتُهُ ، وَنَهَيْتُكُمْ أَنْ تَسُبُّوهُ فَمَصِيتُمُونِي ، وَاللَّهِ مَا قَامَ حَتَّى أَظْلَمَ عَلَى الْبَيْتِ ، قَوْمُوا عَنِّي ؟ فَلَقَدْ فَضَحَكُمْ اللَّهُ وَأَخْزَاكُمْ بِتَرْكِكُمْ الْحَزْمَ ، وَعُدُولِكُمْ عَنِ رَأْيِ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعْمَانِ . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لَمَامَاتِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَدْخَلَهُ قَبْرَهُ الْحُسَيْنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ^(٢) وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَبْرِهِ ، وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

« رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا مُحَمَّدٍ فَلَنْ عَزَّتْ حَيَاتُكَ لَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتُكَ ، وَلِنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ تَضَمَّنَهُ بَدَنُكَ ، وَلِنِعْمَ الْجَسَدُ جَسَدٌ تَضَمَّنَهُ كَفَنُكَ ، وَلِنِعْمَ الْكَفَنُ كَفَنٌ تَضَمَّنَهُ لَحْدُكَ ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ ، وَأَنْتَ سَلِيلُ الْهَدْيِ ، وَخَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ^(٣) ؛ وَخَلَفُ

(١) أَيْ كَثَرْنَا ، أَمَرَهُ : كَنَصَرَهُ ، وَأَمَرَهُ : كَثَرَهُ ، (وَفِي قِرَاءَةٍ : آمَرْنَا) أَوْ الْمَعْنَى أَمَرْنَاكُمْ بِالطَّاعَةِ فَفَسَقُوا وَعَصَوْا ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِمَارَةِ أَيْ جَعَلْنَاهُمْ أَمْرًا . (٢) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : وَالْحَنْفِيَّةُ أُمُّهُ ، وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي حَنْفِيَّةَ بْنِ لُجَيْمٍ وَتَسْمَى خَوْلَةَ بِنْتُ جَعْفَرٍ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٨١ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٨٣ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٧٢ ، وَقِيلَ سَنَةَ ٧٣ . (٣) الْكِسَاءُ : هُوَ كِسَاءُ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَضَافُونَ إِلَيْهِ ، فَيَقَالُ : « آلُ الْكِسَاءِ » وَهُمْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَعَلِيٌّ ، وَفَاطِمَةُ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، قَالَ دِيكَ الْجَنِّ :

أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك على المرتضى ، وأملك فاطمة الزهراء ،

= وقال أبو عثمان الخالى :

أعاذل إن كساء التقي كسانيه حي لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ما روت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحسى الموتى ويبرى الأكمة والأبرص ويخلق من الطين كهية الطير ، وباعنا على أنه ابن الله ونحن نباعك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فزالوا يحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله : (قَدْ حَاجَّكَ فِيهِ) أى فى عيسى (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم - والمباهلة الملائنة - فقالوا يا أبا القاسم : بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت فى معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا . . . الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ، واقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ما باهل قوم نبيا قط ، فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أو خز » وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إني لأرى وجوها أو سأأوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا فهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصارى إلى يوم القيامة » ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نتركك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباہلة فأسلموا ، بكن لكم مالمسلمين وعليكم ماهل المسلمين » فأبوا ، فقال : فإني أنا جزكم القتال ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لاتنزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن تؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ، ألفا فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درهما عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدل على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولا اضطرم عليهم الرادى نارا ، ولا تستأصل الله نجران وأهلها ، حتى الطير على رهوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى =

وعمك جعفر^(١) الطيار في جنة المأوى ، وغذتك أكف الحق ، ورُبِّيت في حجر الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حيا وميتا ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك ، إنها غير شاكّة أن قد خير لك^(٢) ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج في المطر الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سمي الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازي مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

البارحة ، فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة وجناحه مضرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ - . (٢) خار الله لك في الأمر . : جعل لك فيه الخير .

مقتل الحسين بن علي

رضي الله عنه

تأنيه عن بيعه يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولي الخلافة يزيد بن معاوية (في هلال رجب سنة ٤٠ هـ) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة^(١)، فبعث الوليد إلى الحسين رضي الله عنه ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين: «إن مثلي لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجتري بها مني سراً، دون أن تُظهرها على رموس الناس علانيةً، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً» فقال له الوليد - وكان يحب العافية - «فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس».

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء، فقال: «أصبحوا ثم ترون ونرى» فكفوا عنه تلك الليلة ولم يلحقوا عليه، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيام رجب سنة ٤٠ هـ) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له:

(١) الرخصة: التسهيل.

٢٠ — نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنحّ بِتَبَعَتِكَ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حِثَّتَ الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم يَنْقُصِ الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يُذهِبُ بِكَ مَرُوءَتَكَ ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، ففهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوّل الأسنة ، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيّعها دماً ، وأذلها أهلاً » .

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نَبَتَ^(٢) بك لَحِقْتَ بالرمال ، وَشَعَفَ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلّام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أضوب ما يكون رأياً ، وأحزمه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً » .

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موقفاً » . وسار إلى مكة ، فاتاه أهل الكوفة ورسلم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فأقدم علينا^(٤) — وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة —

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الشعف : جمع شعبة مجركة ، وهى رأس الجبل .
(٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة في منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيته » ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدوه عدوه فاكثبوا إليه و إن خفتم الوهل (بالتحريك =

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمر مسلم بن عقيل ، فقال له :

« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ، فخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

= الضعف والفرع والفضل) فلا تغزوا الرجل من نفسه» قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه » قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من سلبان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى (وثب) على هذه الأمة فأبترها أمرها ، وغصبها فيها ، وتأمّر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعدا له كما بعدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ، لستنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيلا (أي أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى لهم في غيرك ، فالعجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجنب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جهم بالفتح ، وهو معظم الماء وطى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملائمة المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هائلا وسعيدا (وهما هاني بن هاني وسعيد بن عبد الله) قدما على بكتيكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جللكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقى من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافي أنفسهم ، وما أغرؤك منهم ،
والله أحذثك عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيبنَّكم إذا دعوتهم ، ولأقاتلنَّ معكم
عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .
فقام حبيب بن مظاهر الفقمسي فقال :

« رحمك الله قد قضيت مافي نفسك بواجزٍ من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي
لا إله إلا هو طي مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولها .

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ - خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلكُ
الرجال ، وتُسْفَكُ الدماء ، وتُنْقَصُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال :
إني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ عليّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرشُ
بكم ، ولا آخذ بالفرقة^(١) ولا الظنَّة ولا التَّهمة ، ولكنكم ، إن أبديتم صفحتكم^(٢) لي
ونسكتنم ببيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبتت
قائمه في يدي ولولم يكن لي منكم ناصر ، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق
منكم أكثر ممن يرديه الباطل » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

(١) الفرقة : التهمة ، وقرفه بالشيء : أهمله .

(٢) أي جاهرتموني بالعداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا الغُشم^(١) ، إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُستضعفين » فقال : « أن أكون من المُستضعفين فى طاعة الله أحبُّ إلىَّ من أن أكون من الأعزَّين فى معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قوياً غير النعمان ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) ولأتى مصركم وثغركم^(٢) ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لحسنكم ومطيعكم كالوالد الأبرّ ، وَسَوْطِي وسيفى على من ترك أمرى ، وخالف عهدى ، فليُتيق امرؤ على نفسه ، الصدق يُنبئُ عنك لا الوعيد » .

ثم نزل فأخذ العُرفاء^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار المختار ، حتى انتهى إلى دار هانىء بن عروة المُرَادِى لا يُدْأ به ، وَتَمَى خبره إلى ابن زياد ، فبعث إلى هانىء فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال : لا والله لا أُجِيتُك به أبداً أنا أُجِيتُك بضيقى تقتله ! وطال بينهما اللّجاج فى ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

(١) الغُشم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سُمى لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون الرئيس .

٢٤ — خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هاتئنا وحبسه ، خَشِيَ أَنْ يَنْتَبِ الناس به ، فخرج فصعد المنبر ومعه أشرف الناس وشُرطُهُ وحشمه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تَخْتَلِفُوا ، ولا تَفَرِّقُوا ، فَهَلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجَفَّوْا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقَكَ ، وَقَدْ أَعْذَرَ مِنْ أَنْذَرَ » .

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشرف فجاءهم إليه ، ثم قال : « أشرُّ فوا على الناس ، فَتَنُّوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزِّيَادَةَ وَالْكِرَامَةَ ، وَخَوَّفُوا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ الْحُرِّمَانَ وَالْعَقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ فُصُولَ ^(١) الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ — خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :
« أيها الناس : احْتَفُوا بِأَهَالِيكُمْ ، وَلَا تَعَجَّلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ ، فَإِنْ هَذِهِ جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدٌ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرُ عَهْداً لَنْ تَمْتَمَ ^(٢) عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرِفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتَكُمْ الْعَطَاءَ ، وَيَفَرِّقَ مُقَاتِلَتَكُمْ فِي مَغَارِي أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبَرِيءُ بِالسَّقِيمِ ، وَالشَّاهِدُ بِالْغَائِبِ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ فِيكُمْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَذَاهَا وَبَالَ مَا جَرَتْ ^(٣) أَيْدِيهَا » .

(١) فصل من البلد فصولاً : خرج منه . (٢) يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

(٣) جر جريرة : اجترم جريمة .

وتسكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه فأوته في دارها .

٣٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر فنودي « أَلَا بَرِئَتِ الذِّمَّةُ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْمَغْتَمَةَ ^(١) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيف الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فَبَرِئْتُ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيَّتُهُ ، اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالْزَمُوا طَاعَتَكُمْ وَبَيْعَتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنَ بْنَ نَمِيرٍ ^(٢) ، ثَكِلَتْكَ ^(٣) أُمُّكَ إِنَّ صَاحَ ^(٤) بَابِ سِكَّةٍ مِنْ سَكِّ الكوفة ، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطنتك على دُور أهل الكوفة ، فابعث مُرَاصِدَةً عَلَى أَفْوَاهِ السَّكِّ ، وَأَصْبِيحْ غَدًا وَأَسْتَبِيرِ الدُّورَ ^(٥) ، وَجُسْ خِلَالَهَا ، حَتَّى تَأْتِنِي بِهِذَا الرَّجُلِ » . ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب

(١) التمة : وقت صلاة العشاء . (٢) وكان حل شرط ابن زياد . (٣) ثكله : فقده .

(٤) صاحبه يصوحه فأنصاح : أي شقه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

(٥) سبر الجرح وغيره واستبره : امتحن غوره .

عنقه ، فهَوَى رأسَهُ إلى الأرض ، وأُتْبِعَ جَسَدُهُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِانِيُ بْنُ عُرْوَةَ ، فَأَخْرَجَ
إِلَى السُّوقِ ، فَضْرَبَتْ عُنُقَهُ .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانيء ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من
أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فَمَجَّلَ الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك
ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوَى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ،
وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن علي رضي الله عنه المسير إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقال : « يابنَ عَمِّ إنك قد أرحف الناس أنك سائر إلى العراق ، قَبَّيْنِ لِي مَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟ » قال : « إِنِّي قَدْ أَجَمْتُ الْمَسِيرَ فِي أَحَدِ يَوْمَيَّ هَذَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » ، فقال له ابن عباس : « فَإِنِّي أَعِيذُكَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، أَخْبِرْنِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَتَسِيرُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ ، وَضَبَطُوا بِلَادَهُمْ ، وَنَفَقُوا عَدُوَّهُمْ ؟ فَإِنْ كَانُوا قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَسِيرْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ ، وَأَمِيرُهُمْ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرٌ لَهُمْ ، وَعُمَّالُهُ تَجَبَّى بِلَادَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَغْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيُخَالِفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فقال له حسين : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ثم قال :

« مَا أَدْرَى مَا تَرَى كُنَّا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكُنَّا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبَّرَنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ؟ » فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة : ولقد كتب إلى شيعتي بها وأشراف أهلها ، وأستخير الله » فقال له ابن الزبير : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شِيعَتِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ثم إنه خشي أن يتهمة فقال : « أَمَا إِنَّكَ لَوَأَقَتَ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتَ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُولَفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم قام فخرج من عنده . فقال الحسين : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْتَاهُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معنى شيء ، وأن الناس لم يَعدِلوه^(١) بى ، فَوَدَّ أنى خرجت منها لَتَخْلُوَ له .

فلما كان من العشيِّ أو من الغد ، أتى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يا بن عم ، إني أَتَصَبَّرُ ولا أَصبر ، إني أَخُوفُ عليك في هذه الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قومٌ غُدُرٌ^(٢) ، فلا تَقَرَّبْ بَنَهُم ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فليَنفُؤا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيتَ إلا أن تخرج ، فَمِرْ إلى الين ، فإن بها حصونا وشِعَابًا^(٣) وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُّ دُعَاكَ ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحبُّ فى عافية .

فقال له الحسين : « يا بن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ولكنى قد أزمعت وأجمعت^(٤) على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائرا ، فلا تَمِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليطك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك^(٥) ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علىّ وعليك الناس أطعنى ، كَفَعَلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير . فقال : قرّت عينك يا بن الزبير ، ثم قال :

(١) أى لم يسووه . (٢) جمع غدور كصبور .

(٣) الشعب بالكسر : الطريق فى الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمتم عليه وثبت عليه .

(٥) أى مع وجودك .

يَا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَاكَ الْجَوْفِيُّ وَاصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي^(١)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ - نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٢) على الحسين رضي الله عنه . فقال :

« يَا بَنَ عَمِّ ، إِنْ الرَّحِمَ يُظَاثِرُنِي^(٣) عَلَيْكَ . وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَنَا فِي النَّصِيحَةِ لَكَ ،
فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا أَنْتَ بِمَنْ يُسْتَفْشُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

« كَانَ أَبُوكَ أَشَدَّ بَأْسًا ، وَالنَّاسُ لَهُ أَرْجَى ، وَمَنْهُ أَسْمَعُ ، وَعَلَيْهِ أَجْمَعُ ، فَسَارَ إِلَى
مَعَاوِيَةَ ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ - إِلَّا أَهْلَ الشَّامِ - وَهُوَ أَعَزُّ مِنْهُ ، فَخَذَلُوهُ وَتَنَاقَلُوا عَنْهُ
حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا وَضِنًا بِهَا ، فَجَرَّعُوهُ الْفَيْظَ وَخَالَفُوهُ ، حَتَّى صَارَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ كَرَامَةِ
اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ، ثُمَّ صَنَعُوا بِأَخِيكَ بَعْدَ أَبِيكَ مَا صَنَعُوا ، وَقَدْ شَهِدْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَرَأَيْتَهُ . نِمِ

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : يضم القاف والباء ، والجمع قنابر .
قال صاحب القاموس : وَلَا تَقُلْ قُبْرَةَ (كَقَنْفَذَةٍ) أَوْ هِيَ لَغِيَّةٌ ، وَقَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ وَالصَّحَاحُ : « وَالْعَامَّةُ
تَقُولُ : لِلْقُبْرَةِ وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي الرَّجَزِ » وَرَوَى شَاهِدًا عَلَيْهِ أَنْشَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ . وَالْمَعْمَرُ : الْمَنْزِلُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ
وَالْكَأْذُ ، وَهُوَ مِثْلُ . وَأَوَّلُ مَنْ قَالَهُ طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ عَمِّهِ فِي سَفَرٍ وَهُوَ صَبِيٌّ ، فَتَزَلُّوا عَلَى
مَاءٍ ، فَذَهَبَ طَرَفَةُ بِفَخِيخٍ لَهُ ، فَتَصَبَّهَ لِلْقَنْابِرِ وَبَقِيَ عَامَةً يَوْمَهُ فَلَمْ يَصْدُ شَيْئًا ، ثُمَّ حَمَلَ فَخَهُ وَرَجَعَ إِلَى عَمِّهِ ،
وَتَحْمَلُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَرَأَى الْقَنْابِرُ يُلْقِطُنْ مَازْنَهُ لَهَا مِنَ الْحَبِّ ، فَقَالَ ذَلِكَ ، يَضْرِبُ فِي الْحَاجَةِ بِتَمَكُّنٍ
مِنْهَا صَاحِبَهَا .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

(٣) الرحم : القرابة ، ويظاثرني : يمطئني . يقال : ظاثرني فلان على أمر كذا ، وظاثرني وظامرنني :

أَيَّ عَطْفِي .

أنت تريد أن تسير إلى الدين عدّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطفوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره ، فاذا ذكر الله في نفسك .

فقال الحسين : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن » فقال : « وعند الله نحتسب أبا عبد الله » .

٢٩ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما نى إلى عبيد الله بن زياد خبر الكتاب الذى كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشرف البصرة يستنصرهم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد فوالله ما تفرّن بى الصعبة ، ولا يقيم لى بالشنان ^(١) ، وإنى لنكّل ^(٢) لمن عادانى ، ومُسّم لمن حاربى ، أنصف القارة ^(٣) من رامها .

يأهل البصرة : إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة ، وأنا غاد إليها الغداة ؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبى سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذى لا إله غيره لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولأخذنّ الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لى ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاق .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطى الحصى ، ولم ينتزعى شبة خال ولا ابن عم .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

(١) القعقة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا قمع بالشنان للإبل نفرت . وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .

(٢) يقال إنه لنكّل شره : أى ينكل به أعداؤه . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة .

٣٠ خطبة للحسين رضي الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحصين بن نمير التميمي، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالِح^(١)، وقدم الحر بن يزيد التميمي بين يديه، في ألف فارس من القادسية، فيستقبل حسينا، وكان الحسين قد سبقه إلى ذي حُسَمٍ ونزل به، فسار إليه الحر حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظهيرة، وحضرت صلاة الظهر؛ فخرج الحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس: إنها معذرة إلى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رُسُلُكم أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فإن تعطوني ما أطمئنُ إليه من جهودكم وموائيقكم أقدم مضرّكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المسكان الذي أقبلت منه إليكم» فسكتوا عنه، ثم أقيمت الصلاة. فقال الحسين للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ قال: لا بل تصلي أنت، ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين.

٣١ -- خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وصلى ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد: أيها الناس فإنكم إن تفقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله،

(١) المسالِح: جمع مسلحة بالفتح، وهي القوم ذوو السلاح.

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجوَرِ والمُعدوان ، وإن أنتم كَرِهْتُمونا وجهتكم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم ، وقَدِمْتُ به على رسلكم انصرفت عنكم .

فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له الحسين خُرُجَيْن مملوءين صُحُفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه والحرُّ يسايره .

٣٢ — خطبة أخرى له

وقام الحسين رضى الله عنه بذى حُسَم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد تَرَوْنَ ، وإن الدنيا قد تَغَيَّرَتْ وتَنَكَّرَتْ ، وأدْبَرَ معروفها ، واستمرَّت^(١) جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابَةٌ كصُبابَةِ الإِنَاءِ ، وخَسِيسٌ عَذِيشٌ كالمرعى الوَبِيلِ ، ألا تَرَوْنَ أن الحق لا يَعْمَلُ به ، وأنَّ الباطل لا يُتْنَاهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًا ، فَإِنِى لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرًّا ما^(٢) » .

٣٣ — خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ الْبَجَلِيُّ ، فقال لأصحابه : تَكَلَّمُونَ أم أُنْكَم ؟ قالوا : لا ، بل نكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) في كتب اللغة : « مر الشيء يمر بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر » ولا نافع منه على أن الهمزة والسين والتاء للصيرورة: أى صارت مرة ، وتظيره استحجر الطين ، واستحصن المهر (صار حصاناً) واستعرب القوم . وفي الأمثال : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » « كان عنزا فاستتيس » « قد استنوق الجمل » .
(٢) البرم : السامة والضجر ، برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يا بن رسول الله مقاتلتك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ،
وكنا فيها مُخْلِدين ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة
فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ - خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً
مُسْتَعِلاً حَرَمَ اللهِ ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يعمل في عباد الله بالإثم والعُدْوَان ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن
يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ » ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا
الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنبي ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا
أحق من غير ، وقد أثنى كتبكم ، وقدمت على رسلكم ببيعتكم أنكم لا تُسَلِمُونِي^(١)
ولا تُخَذِلُونِي ، فإن تَمَسَّمتُ على بيعتكم تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم في
أُسْوَةٍ ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتُم بيعتي من أعناقكم ، فلعمرى ما هي لكم
بُنُكْرٌ^(٢) ؛ لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم
أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(١) أسلمه : خذله .

(٢) النكر بضم وبضتين : المنكر .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كربة بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجدية^(١) . فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُهُ عَلَى السَّراءِ والضَّرَّاءِ ، اللهم إني أحمدُكَ على أن أكرمَتنا بالنبوة ، وعلمَتنا القرآن ، وقمَّمتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماء وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد : فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبَرَّ ولا أَوْصَلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ، ليس عليكم من ذمام ، هذا الليلُ قد غَشِيَكُمْ فاتخذوه جَمَلاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما يطلبونني ، ولو قد أصابوني لَهَوَا عن طلب غيري » .

(١) التقي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن نسيره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيها بينه وبينه رأيهُ ، وفي هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنتيه السلامة والبقاء ، ولا لتقمع له عندي شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم » .

٣٦ - رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته: « لِمَ نَفْعَلُ؟ إِنِّي بَعْدَكَ؟ لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا » فقال الحسين: « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبُكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمَسْلَمٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ » قالوا: « فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ يَقُولُونَ إِنَّا تَرَكْنَا شَيْخَنَا وَسَيِّدَنَا وَبَنِي عَمُومَتِنَا خَيْرَ الْأَعْمَامِ ، وَلَمْ نَرْمِ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ ، وَلَمْ نَطْعِنْ مَعَهُمْ بِرُمْحٍ ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ بِسَيْفٍ ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا ، لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ ، وَلَكِنْ تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا وَأَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ، وَنَقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى نَرِدَّ مَوْرِدَكَ ، فَتَقْبَحَ اللَّهُ الْعَيْشَ بِمَعَكَ » .

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ فقال: « أَنَحْنُ نُخَلِّي عَنْكَ وَلَمَّا نَعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْبِرَ فِي صُدُورِهِمْ رَمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا تَبَتَّ قَائِمُهُ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتِلُهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَوْتَ مَعَكَ » .
وقال سعد بن عبد الله الْحَنْفِيُّ: « وَاللَّهِ لَا تُخَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَا قَدْ حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أَقْتُلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذَرَّ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَلْقَى رِجَامِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكَرَامَةُ الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا » .
وقال زهير بن الْقَيْنِ: « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ حَتَّى أَقْتُلَ كَذَا أَلْفَ قِتْلَةٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَعَنْ أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ » .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، نَقِيكَ بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتِلنا كنّا وفينا ، وقضينا ما علينا . »

٣٨ - خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« يا عبادَ الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حَذَرٍ ، فإن الدنيا لو بَقِيَتْ على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غيرَ أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجديدها بالِ ، ونعيمها مُضْمَحِلٌ ، وسرورها مُكْفَهَرٌ ، والمنزل تَلْعَةٌ ^(١) ، والدار قُلْعَةٌ ^(٢) ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

٣٩ - دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صَبَّحَتْهُ الخيل رفع يديه فقال :
« اللهم أنتِ ثَقَّتِي في كل كرب ، ورجائي في كل شِدَّةٍ ، وأنتِ لي في كل أمرٍ نزل بي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ ، كم مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فيه الفؤاد ، وتَقَلُّبٍ فيه الحيلةُ ، وَيَحْذُلُ فيه الصديقُ ، ويشمَّت فيه العدوُّ ، أنزائته بك ، وشكواته إليك ، رغبةً مني إليك عن سِوَاكَ ، ففَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فأنتِ وَلِيٌّ كُلِّ نعمةٍ ، وصاحبُ كُلِّ حَسَنَةٍ ، ومنتهى كل رغبةٍ » .

(١) التلعة : مجرى الماء من أعلى الوادئ إلى بطون الأرض ، والنزول بالتلعة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قلعة : أى انقلاع ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومنزلنا منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لا نملكه أو لاندرى متى نتحول عنه .

٤ - خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، ولا تُعجلوني حتى أعْظَمَكم ، بما لَحِقَ لَكُمْ عَلَى ،
وحتى أعتذر إليكم من مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي ، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي ، وَأَعْطَيْتُمُونِي
النَّصْفَ ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ ، ولم يكن لَكُمْ عَلَى سَبِيلَ ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّي الْعَذْرَ ، وَلَمْ
نَعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ . وَشُرَكَاءُكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَةً ، ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُوا - إِنْ وَابَّ إِلَيْهِ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ
وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل
إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنيه ، وقال لهما : أَسْكِنِيَاهُنَّ ، فلعمرى لَيْسَ كَثْرَتُهُنَّ
بَسْكَوْهُنَّ

٤١ - خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه
وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فانسِبُونِي فَانظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُواها ، فَانظُرُوا
هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي ، وَانْتِهَاكُ حُرْمَتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْنُ
وَصِيِّهِ ، وَابْنُ عَمِّهِ ! وَأَوَّلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟
أَوْ لَيْسَ حِزَّةُ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَمِّي أَبِي ؟ أَوْ لَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَفَّاحِينَ عَمِّي ؟
أَوْ لَمْ يَبْلَغْكُمْ قَوْلُ مُسْتَفِيضٍ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي :

هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تعمّدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ، ويضرُّ به من اختلقه ، وإن كذبتُموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم . سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ، يخبركم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي ، أفا في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي ؟ » .

ثم قال : « فإن كنتم في شك من هذا القول ، افتشكّون أثراً^(١) ما أنى ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري منكم ، ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة ، أخبروني أطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ؟ أو بقصاص من جراحة ؟ »

فأخذوا لا يكلمونه ، فنادى ياشبث بن ربعي ، وياحجار بن أبيجر ، وياقيس بن الأشعث ، ويازيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إلى أن قد أيفعت النار ، واخضرّ الجناب ، وطمّت الجمام ، وإنما تقدّم على جندك مجتد ، فأقبل ؟ قالوا لم نفعل ، فقال : سبحان الله بلى ، والله لقد فعلتم ، ثم قال : « أيها الناس : إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مآمنى من الأرض » . فقال له قيس بن الأشعث : أولاً تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يرؤوك إلا ماتحِبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه . فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء اللّيل ، ولا أقرّ إقرار العبيد ، عباد الله ، إننى عذتُ برَبِّي ورَبِّكُمْ أن تَرَجُوجُونِ ، أعوذُ برَبِّي ورَبِّكُمْ من كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا بُؤُونُ يَوْمِ الحِسَابِ » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

(١) أثراً منصوب على نزع الخافض ، أى افتشكّون فى أثر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذَنُوبٌ ^(١) شاكٍ ^(٢) في السلاح فقال :

« يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، نَذَارٍ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ نَذَارٌ ، إِنْ حَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِ نَصِيحَةُ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، وَنَحْنُ حَتَّى الْآنَ إِخْوَةٌ ، وَعَلَى دِينٍ وَاحِدٍ ، وَمِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ، مَا لَمْ يَقَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السَّيْفُ ، وَأَنْتُمْ لِلنَّصِيحَةِ مِنْ أَهْلِ ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ انْقَطَعَتِ الْعِصْمَةُ ^(٣) ، وَكُنَّا أُمَّةً وَأَنْتُمْ أُمَّةٌ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ ابْتَلَانَا وَإِيَّاكُمْ بِذَرِيَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِيَنْظُرَ مَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَامِلُونَ ، إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى نَصْرِهِمْ ، وَخِذْلَانِ الطَّاغِيَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، فَإِنْ كُمْ لَا تُدْرِكُونَ مِنْهُمَا إِلَّا بَسْوَةً ، تُعْزِرُ سُلْطَانَهُمَا كُلَّهُ ، لَيْسَ مُلَانٍ أَعْيُنَكُمْ ^(٤) ، وَيَقْطَعَانِ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ وَيُمَثِّلَانِ بِكُمْ ، وَبِرَفْعَانِكُمْ عَلَى جَذْوَعِ النَّخْلِ ، وَيَقْتُلَانِ أَمْثَالَكُمْ وَقُرَاءَكُمْ ؛ أَمْثَالِ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ ^(٥) وَأَصْحَابِهِ ، وَهَانِيٍّ بْنِ عُرْوَةَ وَأَشْبَاهِهِ . »

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكاً أى لبسه تاماً فلم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شائك السلاح ، وشاكى السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشائك : من شاك للرجل يشاك شوكة (كنام نوما) أى ظهرت شوكته وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكى مقلوب من شائك ، ويقال أيضاً رجل شاك السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شاك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرح) قلت شاك (بضم الكاف) وهو مثل جرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل مال وقال (بالضم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . (٣) العصمة : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانفطرت عقد جماعتنا . (٤) سمل عينه : فقأها بحديدة محمأة .

(٥) هو حجر بن عدى بن جبلة الكننى من كبار الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية في أمره فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهوداً =

فَسُبُّوهُ وَأَثْنُوا عَلَى عبيدِ اللَّهِ بنِ زياد، ودَعَوْا لَهُ، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سَلِمًا .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد قاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالود والنصر من ابنِ سُمَيَّةَ ، فإن لم تنصروهم ، فأُعِيزْكم بالله أن تقتلوه ، فخلُّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلمعمرى إن يزيدَ لَيَرْضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمرُ بن ذى الجَوْشَنَ بسهم وقال : « اسكت ، أسكت الله نَأْمَتَكَ ^(١) ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البَوَّالِ على عَقِيْبِهِ ، ما إِيَّاكَ أَخاطِبُ ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِرْ بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوِّفنى ؟ فوالله لَلْمَوْتِ معه أحبُّ إلىَّ من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يَغْرُنْكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهُهُ ، فوالله لا تنال شفاعَةُ محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هَرَّاقُوا دماءَ ذرِّيَّتِهِ وأهل بيته ، وقَتَلُوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أَقْبِلْ ، فلمعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبأغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء ، وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

= أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة : ولعن الخليفة ، ودما إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلا ، فلما قدموا على معلوية شفع في بعضهم فخلى سبيلهم ، وقال رسول معاوية للباقيين إذا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عل واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرءوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نتولاه ونتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . (١) النامة : الصوت .

٤٣ — خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحر بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال : « إى والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرؤوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خَصَلَةً من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربه وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلّمه ، فكلّمه بمثل ما كلّمه به من قبل ، وبمثل ما كلّم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَصّت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « ياهل الكوفة : لَأُمُّمُكُمُ الْهَبْلَ وَالْعَبْرَ ^(١) إذ دعوتموه ، حتى إذا أنا كم أسلمتموه ^(٢) ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسي ، وأخذتم بكظمه ^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب . فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرا ، وحلّلتموه ^(٤) ونساءه ^(٥) وأصيّبيته ^(٥) وأصحابه عن ماء الفرات الجارى ،

(١) الهبل : الشكل ، هبلته أمه : كفرح ثكلته وفقدته ، والعبر والعبر (كسبب وقفل) سحنة فى العين

تبيكها ، عبرت العين كفرح جرى دمعها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاء عليه .

(٢) خذلتموه . (٣) الكظم : مخرج النفس . (٤) حلاؤه عن الماء تحليشا وتحلثة : طرده ومنعه .

(٥) مصفر صبية على غير قياس .

الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى ، وتمرَّغُ فيه خنازيرُ السواد وكلابُه ، وهام
قد صرَّعهم العطش ، بئسما خلَقتم محمداً فى ذريته ، لأسقام الله يوم الظام إن لم تتوبوا ،
وتنزِعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، فى ساعةكم هذه .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فنُّوا ، وقتل
الحسين رضوان الله عليه . قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطف^(٦) يوم عاشوراء
سنة ٤٠ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطنوا خيالهم الحسين ، فوطنوه بخيلهم ، ثم حمل
النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى « حسين » لرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاوريا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهادته فصاربت عنه الشائنين الأعاديا

سقى الله قبراً ضمن المجد والنقى بغريبة الطف الغمام الغواديا

طلب التوايين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماع بالأنخيلة المسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندثم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُفَسَّلُ عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرط منهم في ذلك « فسمُّوا التَّوَايِينَ » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صُرَد الخزاعي ، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسيَّب بن نجبة الفزاري ، وإلى عبد الله بن سعد ابن نُفَيْل الأزدي ، وإلى عبد الله بن والٍ التيمي ، وإلى رِفاعَةَ بن شداد البجلي ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيَّب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٤ — خطبة المسيَّب بن نجبة الفزاري

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغبُ إلى ربنا ألا يجعلنا من يقول له غدا : (أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مُعَرِّمِينَ بتركِ أنفسنا ، وتقرِيطِ شيهتنا ، حتى

بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين في موطين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبته ، وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً ، وعلانية وسراً ، فبحلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لأنحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بالسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصره إلى عشائرتنا ؛ فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ؛ فمسي ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ؛ وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن ، أيها القوم ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، ورأية تحفون بها ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

فبدر^(١) القوم رفاة بن شداد بعد المسيب الكلام .

٤٥ — خطبة رفاة بن شداد

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد هداك لأصوب القول ، ودعوت إلى أرشد الأمور ، بدأت بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فسموع منك ، مستجاب لك ، مقبول قولك : قلت ولوا أمركم رجلا منكم تفزعون إليه ، وتحفون برأيه ، وذلك رأيي ، قد رأينا مثل الذي رأيت ، فإن تسكن أنت ذلك الرجل تسكن عندنا مرصيا ، وفيينا متنصحا ، وفي جماعتنا محبا ، وإن رأيت (ورأى أصحابنا ذلك) ولينا هذا الأمر شيوخ الشيعة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد ، المحمود في بآسه ودينه ، والموثوق بحزمه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

ثم تكلم عبد الله بن والٍ ، وعبد الله بن سعد ، فحمدَا ربهما وأثنيا عليه ، وتكلما بنحوٍ من كلام رفاعه بن شداد ، فذكرَا المسيب بن نَجَبَةَ بفضلِه ، وذكرَا سليمان ابن صرد بسابقته ورضاهما بتوليته ، فقال المسيب بن نَجَبَةَ : « أصبتم ووفقتم ، وأنا أرى مثل الذى رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن صرد » .

٤٦ — خطبة سليمان بن صرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن صرد^(١) وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم فى داره ، قال : فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول فى كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أثنى عَلَى الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، أما بعد : فإنى والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر (الذى نَكِدَت فيه الميمنة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجورُ أولى الفضل من هذه الشيعة) لِمَا هو خيرٌ ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، وَنُمَتِّعُهُم النصرَ ، وَنُحْشِيهِمْ عَلَى القدوم ؛ فلما قَدِمُوا وَنَبَدْنَا وَعَجَزْنَا وَأَذْهَبْنَا وَتَرَبَّصْنَا وَانْتَظَرْنَا مَا يَكُونُ حَتَّى قُتِلَ فِينَا وَلَدُنَا وَلَدُ نَبِينَا وَسَلَّالَتِهِ وَعَصَّارَتِهِ وَبَضْعَةُ^(٢) مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ ، إِذْ جَمَلَ يَسْتَصْرِخُ وَيَسْأَلُ النَّصْفَ^(٣) فَلَا يُعْطَاهُ ، انْخَذَهُ الْفَاسِقُونَ غَرَضاً لِلنَّبْلِ ، وَدَرِيَّةً^(٤) لِلرِّمَاحِ ، حَتَّى أَقْصَدُوهُ^(٥) وَعَدَّوْا عَلَيْهِ فَسَلَبُوهُ ، أَلَا انْهَضُوا فَقَدْ سَخِطَ رَبُّكُمْ ، وَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الْخِلَائِلِ^(٦) وَالْأَبْنَاءِ حَتَّى يَرْضَى اللهُ ، وَاللهُ مَا أَظْنَهُ رَاضِياً دُونَ أَنْ تُتَاجَزُوا مِنْ قَتْلِهِ أَوْ تُبَيِّرُوا^(٧) ، أَلَا لَا تَهَابُوا

(١) وقد سُمى أمير التوابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) مهمل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرى عليها .

(٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٦) جمع حليلة : وهى الزوجة . (٧) بار يبور بوارا : هلك . وأباره أهلته ، لى تهلكوا أنفسهم .

الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم » فافعل القوم ؟ جنوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ اشحدوا السيوف ، وركبوا الأسنة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ^(١) » حتى تدعوا وتستنفروا .

٤٧ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسي يُخرجني من ذنبي ، ويرضى عني ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين ^(٢) » .

وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حسبكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبد الله بن وال التيمى تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجهم من أموالكم ، جهزنا به ذوى الخلة ^(٣) والمسكنة من أشياعكم » .

(١) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمرباطة ، أو جمع رباط

نفيل بمعنى مفعول . (٢) الجائرين ، قسط كجلس قسوطا : جار وعدل عن الحق .

(٣) الخلة : الحاجة والفقير ، وفى المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والمعرفة .

٤٨ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يجثوا ويستعدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطننا يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمَعِينَ على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه ، فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتله ، والله مُثَبِّبكم على حُسْنِ النية ، وما أجمعهم عليه من النصر أحسنَ المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضلَ الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى مادَعُونَا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسَرَّخْنِي إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لاتعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير ونسير » .

وكتب سعد إلى ابن صرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٥ - خطبة عبید الله بن عبد الله المری

وحدث رجل من مُزَينة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبغ من عبید الله بن عبد الله المُرِّي في منطق ولا عِظة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان ابن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكة ، وآمن به سبلكم للخوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم تروا ويبلغكم ما أجترم^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وخذلته ، وترميلهم^(٣) إياه بالدم ، ونجس أراضهم ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٤) ، فله عينا من رأي مثله ! والله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلتُ حمانته ، وكثرتُ عُداته^(٥) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ، ولا لخاذله معذرة ، إلا أن يُنصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العثرة

(١) الشفا : حرف كل شيء . (٢) ارتكب واقترب . (٣) رماله : لطمه بالدم .

(٤) قطعاً . (٥) العداة : جمع عاد ، وهو العدو .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُجِلين
والمارقين ، فَإِنْ قُتِلْنَا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل
بيت ندينا .

قال : « وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عَامَتَنَا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَحِدُّونَ في جمع
آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه
حتى كثر تبعهم ، وكان الناس إلى أتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية (في ١٤ ربيع الأول
سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقدم المختار بن أنى عبید النقفى الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد
اجتمعت ردوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يَعْدِلُونَهُ به ، فكان
المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان
ابن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد
جئتكم من قِبَلِ المهديّ محمد بن عليّ (ابن الحنفية) مؤمناً مأموناً ، مُنْتَجِباً^(١)
ووزيراً » فزال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعْظِمُهُ وتجيبه وتنظر أمره ، وعُظُم
الشيعة مع سليمان بن صرد .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قِبَلِ عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على
حربها وتفرها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبید الله التيمي أميراً على خراجها
(وذلك بعد مقدّم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يَذْبُوا
بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم
قام في الناس .

(١) المنتجب : المختار .

٥١ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لى زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن على ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِّتُ على أما كنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلوننى ؟ فوالله ما أنا قتلـتـ حـسينا ولا أنا من قاتلـه ، ولقد أصيبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير^(١) ، هذا ابن زياد قاتِلُ الحسين وقَاتِلُ خياركم وأمانلكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به^(٢) على مسيرة ليلةٍ من جسر مَنبِج^(٣) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجمعوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيأقاكم ذلك العدو غداً وقد رَفَقْتُمْ^(٤) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وَلِيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يُقْلِحَانِ عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلـكـم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أُتِيتُمْ ، والذى

(١) معين . (٢) وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني

(سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبيع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييتك عما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنعه ! وشد من عزيمته حتى نهض فى طلب الخلافة وتمت له فبوع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة بعث جيشا إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثا . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضممت .

قتل من تشأرون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحمدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحا^(١) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أمتنا .

٥٢ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة^(٢)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يفرّتكم من السيف والفتش^(٣) مقالة هذا المداهن الموادع ؛ والله لأن خرج علينا خارج لنقتله ، ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لناخذن^(٤) الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن^(٥) الحميم بالحميم ، والعريف^(٦) بما في عرافته ، حتى يدينوا للحق ، ويذلّوا للطاعة . »

٥٣ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين^(٧) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذلّ من ذلك ، إنا لافلومك على بفضنا وقد قتلنا أباك^(٨) وجدك ، والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

(١) أي لم أقصر في نصحكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قریش .

(٣) الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدة . (٤) حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره .

(٥) العريف : رئيس القوم ، سمى لأنه عرف بذلك ، أو للثقب ، وهو دون الرئيس ، عرف

ككرم وضرب عرافة صار مريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جده طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام

علياً ثم فكث بيعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسياف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم

الجلمل مع أبيه ومرو به على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولاً سديداً ، إني والله لأظن من يريد هذا الأمر^(١) ، مستنصحاً لك ،
وقابلاً قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إى والله ليقتلن وقد أذهنن ثم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمي

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعترضك يا أخا بني تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمير ،
ولالك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلممر الله لنن كفت
مفسداً ، ما أفسد أسراً هذه الأمة إلا والدك وجدك الننا كثنان ، فكانت بهما اليديان^(٢)
وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :
« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا نرجو أن تكون به عند العامة محموداً ، وأن تكون
عند الذي عنيّت واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَّصَ سليمان بن صرد في وجوه أصحابه ،
وقد كان واعد أصحابه عامةً للخروج في تلك الليلة للمسكر بالذخيلة ، وأقام بها ثلاثاً يبعث
ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب
ابن نجبة ، فقال : « رحلك الله إنه لا ينفك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته

(١) أى الطلب بدم الحسين رضى الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أى فعل الله به

مايقوله لى ، ومرقوم من الخوارج يقوم من أصحاب على وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليدان أى حاق
بكم ما تدعون به وتبسطون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرن أحدا ، واكش^(١) في أمرك » قال : « فإنك والله لنعمي رأيت » فقام سليمان بن صرد في الناس متوكئا على قوس له عريضة فقال :

٥٥ - خطبة سليمان بن صرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، فرحة الله عليه حيا وميتا . ومن كان إنما يريد الدنيا وحزنها^(٢) ، فوالله ما نأتى فينما نستفيثه ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة^(٣) إلى لقاء عدونا ، فن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا » .

٥٦ - خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني فقال :

« آتاك الله رشدك ، ولقأك حجتك ، والله الذي لا إله غيره مالنا خير في محبة من الدنيا همته ونيته . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبا والطلب بدم ابن ابنة نبيينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما تقدم على حد السيوف وأطراف الرماح » فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

٥٧ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادي الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رموس أصحابه جلوس حوله :

(١) أسرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أى سريع .

(٢) أى كسبها ومتاعها . (٣) ما يتبلغ به .

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفق ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نصحاً ، خطأً كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقبلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورووس الأربع^(١) وأشراف القبائل ، فأني نذهب هاهنا ونَدع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ » .

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلتقي من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأَمْضِي فيه حكى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظْهِرَكم الله عليه ، رجونا أن يكون مَنْ بعده أهون شوكةً منه ، ورجونا أن يدين لكم مَنْ وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنتظرون إلى كل من شَرِك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تَفْشِمُوا^(٣) ، وإن تَسْتَشْهِدُوا فَإِنَّمَا قَاتَلْتُمُ الْمُحَايِنَ ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب أن تجملوا حدكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مدحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفته العامة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويحسن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب »

(٢) الأقتال : جمع قتل بالكسر ، وهو العدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والثأر ، أى وقدع

أعادها وذوى ثاراتنا . (٣) غشمة : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غداً أهل مصركم ، ما عدِم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ،
أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا « فتهيأ الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد وأصحابه
فراياً أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى ابن سرد دخلا عليه .

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

فحمد الله عبدُ الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يَفُشُّهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ، وأحبُّ أهل
مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تَفْجَمُونَا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصُوا عددنا
بمخروءكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيَسَّر ونهَيَّا ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف
بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .

وتسكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٦٠ — خطبة سليمان بن سرد

فحمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لها :

« إني قد علمت أنكما قد تحَضَّمتا^(١) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله
وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا
إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نَعْبِي معكم جيشاً كثيفاً فتلَقُوا عدوكم

(١) محضه الود والمحضه : أخلصه .

بِكَتْفٍ^(١) ، وَجَمَعَ وَحَدَّ « فقال له سليمان : « تنصرفون وئزى فيما بيدنا ، وسيأتىكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخصوص ، واستقبال ابن زياد .

٦١ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام فى الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطالبون ، وإن للدنيا ثَجَارًا ، وللآخرة تجاراً ؛ فأما تاجر الآخرة فساع إلىهما متنصب^(٢) بتطلّابها ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا يرمى إلا قائمًا وقاعدًا ، وراكعًا وساجدًا ، لا يطلب ذهبًا ولا فضة ، ولا دينًا ولا لذة ؛ وأما تاجر الدنيا ، فكسب عليها ، رافع فيها ، لا يبتغى بها بدلًا ، فعليكم (يرحمكم الله) فى وجهكم هذا بطول الصلاة فى جوف الليل ، وبذكر الله كثيرًا على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدّرتُم عليه ، حتى تلقّوا هذا العدو ، والمُحِلَّ القاسِط فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظمُ عنده ثوابًا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سَنَامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء^(٣) وإنا مُدْجِلُونَ^(٤) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلّوا »

فأدلى عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردة^(٥) فنزل فى غربيّتها .

(١) الكتف : الجماعة . (٢) أى قد نصب نفسه طالبًا لها ، نصب الشيء : رفعه فانتصب وتنصب .

(٣) الشدة . (٤) أدلىج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادلىج بالتشديد .

(٥) هى رأس العين : بلد فى وسط الجزيرة .

٦٢ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة . قال عبد الله ابن غزيرة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم أحصه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء^(١) الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذرين ، فقد جاءوكم بل جثموم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليئهم امرؤ دبره إلا متحرفاً^(٢) لِقِتَالِ أَوْ مُتَحَيِّزاً^(٣) إِلَى فِتْنَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ دَعْوَتِكُمْ^(٤) إِلَّا أَنْ يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قَتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ » .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رهوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله بن والير ، فلما رأى من بقي

(١) آناء الليل : ساعاته واحداً إلى (كألى) أو إلى (كحمل) أو إنو كذلك .

(٢) أى منعطفا يريد الكر بعد الفر وتغيرير العدو ، فإنه من مكاييد الحرب .

(٣) أى منحازا إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم .

(٤) ملئكم .

من التوابع أن لا طاقة لهم بمن يذايبهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم
رفاعة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ) ^(١) .

٦٣ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأنى عبد الملك بن مروان بيشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رموس أهل العراق مُلقِح ^(٢) فتنة ، ورأسَ
ضلالة ، سليمان بن صُرَد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريِف ^(٣) ،
ألا وقد قتل من رموسهم رأسين عظيمين ضالَّين مُضايين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ،
وعبد الله بن وائل أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دِفَاعٌ ولا امتِناعٌ .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

(١) وقال المسعودى فى مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الوردة كانت فى سنة ٦٦ هـ » .

(٢) أصله : من ألحق النخلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت السيوف رأسه
خذاريِف : أى قطعاً كل قطعة كالخذروف ، والخذروف : كمصفور شئ يدوره الصبى بخيط فى يديه فيسمع
له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ،
فأناه بعض الشيعة ليلاً ، فسأله عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة
قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .
فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب
رضي الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع المشي بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم
ثلاثة أيام ، فلا يندب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول مندب أبو عبيد
ابن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في تشيعة لآل علي بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه
في أمر الحسن بن علي رضي الله عنه يوم طعن في مظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد
ابن مسعود عاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق
الحسن وتمتأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأوثقه ! بنس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضي الله تعالى عنه نزل دار
المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر
بالمختار فمسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت
صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخل سبيله ، فشفعه فيه ، وخل
ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقايل له حين حاصر مكة جيش
يزيد - وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكوفي - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة
في منتصف رمضان سنة ٦٤ .

« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ، وَمُنْتَجِباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحدين ، والطلب بدماء أهل بيتي ، والدفع عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئكم من قِبَل وَلِيِّ الْأَمْرِ ، وَمَعْدِنِ الْفَضْلِ ، وَوَصِيِّ الْوَصِيِّ ، وَالْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ ، بِأَمْرِ فِيهِ الشِّفَاءُ ، وَكُشْفُ الْغِطَاءِ ، وَقَتْلُ الْأَعْدَاءِ ، وَتِمَامُ النِّعَمَاءِ . إن سليمان بن صُرَدَ يرحمنا الله وإياه ، إنما هو عَشْمَةٌ ^(١) من الْقَسَمِ ، وَحِفْشٌ ^(٢) بَالٍ ، ليس بذي تجربة للأُمُور ، ولا له علمٌ بالحروب ، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إني إنما أعملُ على مِثَالٍ قد مُثِّلَ لي ، وأمرٌ قد بُيِّنَ لي ، فيه عزٌّ وليكم ، وَقَتْلُ عَدُوِّكُمْ ، وَشِفَاءُ صُدُورِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنِّي قَوْلِي ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، ثُمَّ أَبْشِرُوا وَتَبَاشَرُوا ، فَإِنِّي لَكُمْ بِكُلِّ مَا تَأْمَلُونَ خَيْرُ زَعِيمٍ » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وَعَظَّمَهُمْ يَوْمَئِذٍ مع سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري — أمير الكوفة من قِبَلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ — أن يثب المختار عليه ، فزجَّه في السجن .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَّا وَرَبُّ الْبِحَارِ ، وَالذَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْمَهَامَةِ ^(٣) وَالْقِفَارِ ، وَالْمَلَأْسَكَةِ الْأَبْرَارِ ،

(١) العشمة : الشيخ الفاني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحنى الظهر ، وكان عمر بن صرد حين

قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الشيء البالي ، والجوالق العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآتية كالقوارير وغيرها ، وأحفاش البيت : زдал متاعه .

(٣) المهامة : جمع مهمه كجعفر ، وهو البلد المقفر ، والمفازة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنِ الأخيار، لأَقْتَنَ كُلَّ جَبَّارٍ ، بكلِّ لَدْنٍ خَطَّارٍ^(١) ، ومُهَنْدٍ بَقَّارٍ^(٢) ،
في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمِيلٍ أَغْمَارٍ^(٣) ، ولا بِمُزْلِ^(٤) أَشْرَارٍ ، حتى إذا أَقْتُ
عمودَ الدين ، وَرَأَبْتُ شَعْبَ^(٥) صَدْعِ المسلمين ، وَشَفَيْتُ غَلِيلَ صدور المؤمنين ،
وأدركت بنار النبين ، لم يكبرُ عَلَى زوالِ الدنيا ، ولم أَحْجِلْ بالموت إذا أتى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه
الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل
أصحابه يكثرُونَ ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابنُ الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة
وولى عليها عبد الله بن مُطِيع العَدَوِ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٦ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع العدوي الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى عَلَى مِصْرِكُمْ وَتُغُورِكُمْ ،
وَأَمَرَني بِجَبَايَةِ فَيْئِكُمْ ، وَأَنْ لَا أُحْجِلَ فَضْلَ^(٦) فَيْئِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيْفَ
عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته^(٧) ، وبسيرة عُثْمَانَ بن عفان التي سار بها
في المسلمين ، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، وإلا تفعلوا

(١) الرمح اللدن : اللين ؛ وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن كسكرم لدانة ولدونة ،
والرمح الخطار : أى المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ،
والبتار : القطاع . (٣) ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن
لا ترمى معه أولا سيف أو لارمح ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور .
(٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . (٥) الشعب : الصدع أى الشق ، ومن
معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .
(٧) انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلُمُونِي ، فَوَاللَّهِ لَا وَقِعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَا أَقِيمَنَّ دَرًا^(١)
الْأَصْعَرِ^(٢) الْمَرْتَاب .

٦٧ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رهوس أصحاب المختار -
فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك أَلَّا تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشهدك
أنا لآنرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُستارَ فينا إلا بسيرة
على بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلكَ رحمةُ الله عليه ، ولا حاجة
لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت أثرةَ وهوى ، ولا في سيرة
عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين علينا ضرًا ، وقد كان لا يَألو
الناسَ خيرًا » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرٌّ ، رأينا مثلُ رأيه ،
وَقَوْلًا مثلَ قوله ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وَهَوَيْتُموها ،
ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها يا سائب ، لا يَعدَمُك المسلمون !

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

(١) الدرا : الميل والعوج في القناة ونحوها . (٢) الصمر محرّكة : ميل في العنق وانقلاب

في الوجه إلى أحد الشقين ، صمر كفرح فهو أصمر ، وربما كان الإنسان أصمر خلقة ، وصمر خذه بالتشديد :
أماله عن الناس إعراضا وتكبرا .

٦٨ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة في المحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهمضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا . »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووقفتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة أخرى له

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهلُ بيتٍ خَصَّكم الله بالفضيلة ، وشرفكم بالنبوة ، وعَظَّمَ حقكم على هذه الأمة ، فلا يَجْهَلُ حَقَّكُمْ إِلَّا مَغْبُونُ الرَّأْيِ ، مَخْسُوسُ النَّصِيبِ ، قد أصبتم بحسينٍ رحمة الله عليه ، عَظُمَتِ مصيبتُهُ ! ما قد خَصَّكم بها ، فقد عُمِّ بها المسلمون ، وقد قَدِّمَ علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ، ثم إننا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبَنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا -
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٧٠ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان
في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحة ^(٢) كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع
بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضّح بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولا ،
وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدماننا ،
فوالله لو ددّت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم » .

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله انتصر لنا
من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لاتفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة المختار

وبلغ المختار مخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذّل الشيعة عنه ،
فكان يقول :

« إن نُفَيْرَا منكم ارتابوا ، وتحيرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبِلوا وأُناَبوا ، وإن هم

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) الملحة : الوقعة المظيمة القتل .

كَبَرُوا وَهَابُوا ، واعترضوا وانجأوا^(١) ، فقد ثَبَرُوا^(٢) وَخَابُوا^(٣) » وأقبل القوم فدخلوا
على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتِنْتُمْ وارتبتم ، فقالوا له : قد أُمِرْنَا بنصرتك ،
فقال : الله أكبر ! أنا أبو إسحق ! اجمعوا إلى الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً
فقال :

« يا معشر الشيعة : إن نفرأ منكم أحبوا أن يعلموا مِصْدَاقَ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَرَحَلُوا
إلى إمام الهدى ، والنقيب المرتضى ، ابن خير من طَشَى^(٤) ومشى ، حاشا النبي الْمُجْتَبَى^(٥)
فسألوه عما قَدِمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فنبأهم أني وزيره وظهره ، ورسوله وخليله ، وأمركم باتباعى
وطاعى فيما دعوتكم إليه ، من قتال الْمُحِلِّينَ ، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم الْمُصْطَفَيْنَ .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإننا قد كننا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع
إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدي بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه
المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة ، وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا

(١) انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقوا علينا .

(٢) ثبر ، كقعد ثبوراً : هلك . (٣) حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفى الأصل
خابوا ، وأرى أن تكون بالحاء لتقدم كلمة خابوا فى أول قوله .

(٤) هكذا فى الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » فى كتب اللغة ، وفى لسان العرب « تطشى المريض برى »
ولست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه إتباع لفعل قبله
اتقويته وتوكيده ، وهو كثير فى كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفريت ، وعطشان نطشان
وشحيع بحيج ، وكثير بثير ، وحيالك الله وبياك - وإن قيل إن الإتباع لا يكاد يكون بالواو - اقرأ باب
الإتباع فى الزهر للسيوطى (١ : ٢٤٤) وفى الأمال (٢ : ٢١١) . (٥) المختار .

منشرفة صدرُنا ، قد أذهب الله منها الشكَّ والفيلَّ والرَّيبَ ، واستقامت لنا بصيرتنا
في قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدُكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .
وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه ، فاستجمعت له الشيعة وحَدِّبَتْ^(١) عليه .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ — خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر^(٢)
يدعوه أن ينصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائِدَ فجلسوا عليها ،
وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ، أما بعد :
فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خيرُ أهل الأرض
اليومَ ، وابنُ خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن
تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطتَ ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ،
وسيفي الله المهدي محمداً وأولياده عنك^(٣) » فبايعه إبراهيم .

(١) عطف . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمريتهم فقال : إني قد أجبتمكم
إلى مادعوتكم إليّ على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالمقاتلة وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رد عليهم .

(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففحص خاتمه وقرأه ، فإذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد المهدي إلى
إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإني قد بعثت
إليكم بوزيري ، وأميني ، ونجيبتي الذي ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بمقاتلة عدوى ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرته وأجبت دعوته ، وساعدت وزيري كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمانة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين
الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل ، =

وجمل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشَب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٨)

٧٤ - خطبة يزيد بن أنس الأسدى

ولما حلت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدى محرّضاً، فقال :
« يا معشر الشيعة : قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمِّل أعينكم ، وترفعون على جذوع النخل ، فى حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون فى بيوتكم وطاعة عدوكم ، فاذنوا لى قوم إن ظهرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عينا تطرف^(١) ، وليقتلنكم صبرا^(٢) ، ولآتروُن منهم فى أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خيرٌ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظعن الصائب فى أعينهم ، والضرب الدراك على هامهم ، فتيسروا للشدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رابتي مرتين فاحلوا » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٤)

٧٥ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام فى الناس ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

— الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكا لاتستقبله أبدا ، والسلام عليك » فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ، قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فا كان يكتب إلى إلا بإسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : ابسط يدك أبابعدك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبرا : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجَزَكم عن عصبة منكم ، قليلٍ عددها ،
خبِيثٍ دينها ، ضَالَّةٍ مُضِلَّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حرِّمكم ، وقاتلوهم عن مصركم ،
وامنعوا منهم فيثكم ، وإلا ليشارككم في فيثكم مَنْ لا حَقَّ له فيه ، والله لقد بلغني
أن فيهم خمسمائة رجل من محرِّريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهابُ عزِّكم وسلطانكم ،
وتغيُّرُ دينكم حين يكثرون » . ثم نزل . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٦ - تحريض ابن الأشتر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدَّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشتر في أصحابه
فقال لهم :

« قَرَّبُوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُضِلِّين ^(١) السيوف ،
وَلَا يَهْوُلَنَّكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بنِ رَبِيعٍ ، وآلُ عُتَيْبَةَ بنِ النَّهَّاسِ ، وآلُ الْأَشْعَثِ ،
وآلُ يَزِيدَ بنِ الْحَارِثِ ، وآلُ فُلانٍ - فسمي بيوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال :
إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا ^(٢) عن ابن مطيع انصفاقَ الْمَعْزَى
عن الذئب » ثم قال لأصحابه شُدُّوا عليهم ، فِدَاكم عَمِي وَخَالِي .

فما لبَّتهم أن هزموهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا
السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٧ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بنِ رَبِيعٍ أن يخرج
من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويثق به ،
ولا يُعْلَمُ بمكانه إلى أن يخرج فيأحق بصاحبه (ابن الزبير) .

(١) أصلت السيوف : جرده من غده . (٢) انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صَنَعُوا هذا مِنْكُمْ مَنْ هُمْ ، وقد علمت إنما هم أرادوا لكم وسُفْهَاءُكُمْ وَطَغَامَكُمْ وَأَخْسَاءُكُمْ ، مَاعِدَا الرَّجُلِ أَوْ الرَّجُلَيْنِ ، وَأَنْ أَشْرَافَكُمْ ، وأهل الفضل مِنْكُمْ لم يَزَالُوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبْلِغُ ذلك صاحبي ، ومُعَلِّمُهُ طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتكم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » .

فقال له شَبَّثَ : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَفْتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاك الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعد وليّه النصرَ ، وعدوّه الخُسْرَ ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من انترى ، أيها الناس : إنه رُفِعَتْ لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غايةٌ ، فقليل لنا في الِراية أن ارفعوها ولا تَضَعُوهَا ، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تَعُدُّوها ، فسمعنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لَقَتْلَى

فِي الْوَاعِيَةِ^(١) وَبَعْدَ الْمَنْطَى ، وَأَدْبَرَ وَعَصَى ، وَكَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَبَايَعُوا بَيْعَةَ هَدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَمَلَ السَّمَاءَ سَقْفًا مَكْفُورًا^(٢) ، وَالْأَرْضَ فُجَاجًا^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطالب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحاجين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سلمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا نقياكم ولا نستقيلكم ، فإذا قال الرجل نعم : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايعين طَلْحَةَ ، فقتل من قَدَّرَ عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ، وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٩ - خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له^(٤) نادى المختار فى الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب نعيمهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أعدائهم الذين لم يكفهم ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حبال الصائد ، وكل مستدر . (٣) الفجاء : جمع فج ، وهو الطريق الواضح الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة - وكان ابن الزبير يفضيه ويحسده على أيده وقوته - فحبسه مع أربعة عشر رجلا من

« هذا كتاب مَهْدِيٌّكُمْ ، وصريح^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا مَحْظُورًا^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، في آناء الليل وتارات^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مُؤَزَّرًا^(٤) ، وإن لم أسرِّب إليهم الخليل في إثر الخليل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحُلَّ بابن الكاهلية^(٥) الويلُّ » .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٣٦)

بنى هاشم في سجن عارم وقال : لتبايمن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجلاً . فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستصرخاً ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسرون الليل ويكنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : دخل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إني لا أستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء . (٢) حظر الشيء وعليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما حظر به على الغنم وغيرها لينعها ويحفظها حظيرة . (٣) جمع تارة ، وهي هنا الحين .

(٤) نصر مؤزر : أي بالغ شديد من التآزير وهو التقوية .

(٥) ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت عمرو ابن خنسر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبي الأسدي - من بني أسد بن خزيمه - أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتي ، ونقبت راحلتي (نقب الخلف كفرح : رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها ففعل ، فقال : « أرقعها بسبت ، واخصفها بهلب ، وأنجد بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ . والهلب كقفل : الشعر أو ما غلظ منه أو شعر الذئب أو شعر الخنزير الذي يخرز به ، والبردان بفتح الباء وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشي) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مستحملاً ، ولم آتلك مستوصفاً ، فلن الله ناقة حملتني إليك (مستحملاً أي طالباً أن تحملني على ناقة أخرى تعطينها) قال ابن الزبير : « إن وراكها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فأنصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعراً منه قوله :

٨٠ - خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣) فقال للناس:

أقول لفلنّ شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد
فالي حين أقطع ذات مرق إلى ابن السكاھلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهات قمير في بها وهي خير عمامة » - انظر الأغاني
« ١ : ٨ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » وجمع الأمثال للميداني (١ : ٧٥) وفيه « فلما
بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما الأم من عمته لسنني بها » وبهذه المناسبة نقول : إن ابن الزبير كان
شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، روي أنه كان يطعم جنده تمرًا
ويأمرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لأمهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم :
ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يبنى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رمحا أعطاه رمحا ، فشق عليه
ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا . وجاءه أعرابي سائل فردّه ، فقال له : لقد
أحرقبت الرمضاء قدى ، فقال : بل عليهما يردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس
بمكة ، فأنزله دار الضيفان - وكان ينزلها الغرباء وأبناء السبيل والضيّافان - فأقام يومه لم يطعم شيئا ، حتى
إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهلم نيف وسيمون رجلا ، فغضب
معن وخرج من عنده ، فأقى ابن عباس فقراء وحمله وكساه ، ثم أقى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ،
وأقام عنده ثلاثا حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا) بتيس من الشام الحجازى أعفر
وقال : اطعموا منه « ونحن ثلاثة وسيمون إنسانا » فوالقوم مخبر !
فقلنا له : لا تقربوا ، فأمانا جفان ابن عباس العلا وابن جعفر
وكن آمنة وارفق بتيسك إنه له أعنز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ » .

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل
الصلاة كثير الصيام ، ولسكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا » « تاريخ الطبري ج ٨ : ص ٥٨ » .

(١) قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشا عليه عبيد الله بن زياد ،
وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردة من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على
شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا
إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدماي في نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعه فرسخين .

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن =

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حِصتم حِيَصَةً ^(١) فإني أجد في مُحْكَمِ الكتاب ،
وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيِّدٌكم بملائكته غِضَابٍ ، تأتي في صُورِ الحمام دُورِينَ ^(٢)
السحاب . »
(الكامل للمبرد ٢ : ١٦٩)

٨١ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مُصْعَب بن الزبير إليه من البصرة ^(٣) ، قام في أصحابه فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة ، يأهل الدين ، وأعوأَن الحق ، وأنصارَ الضعيف ، وشيعةَ
الرسول ، وآل الرسول ، إن فرَّاركم الذين بَغَوْا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين
فاستغفروهم عليكم ، لِيَمْصَحَ ^(٤) الحقُّ ، وَيَنْتَعِشَ الباطلُ ، وَيُقْتَلَ أولياء الله ، والله
لو تهيلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالقرَئِ ^(٥) على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ،

= رأيت الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة في أول النهار ، فأرسل أصحاب
المختار الطير ، فعصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل في
أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأثير : لقد ضربت رجلا على
شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداما وجراة فصرعته ، فذهبت يده
قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فانتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٨٦٧ هـ .

(١) حاص يحص حصا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أي قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير بعثه عليها (سنة ٨٦٧ هـ) بعد عزل القباع عنها (والقباع كشجاع
هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب
شيث بن ربيعي ، وجاءه أشرف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب
عبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولي لون زهره : والظال قصر .

(٥) فرى الكذب كرمى : اختلقه كافتراه .

أَتَتَدَبُّوا^(١) مع أحرر بن شَمِيط : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد^(٢) ولأزم .

وتزاحف الجندان ، واهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧)^(٣) .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٤٨)

(١) افتدب إليه : أسرع . (٣) أى أبدتموهم كما باد هؤلاء .

(٢) قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا في ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمر تكون ثم يحتمل فيوقها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَقَبْرُؤُاَنَّ مِنَ السَّمَاءِ نَارٌ دَهْمَاءُ ، فَلْتَحْرِقَنَّ » دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع أبو إسحق ؟ هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَا وَالَّذِى شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لَا تُفْتَلَنَ أَرْدُعَمَانَ ، وَجُلَّ قَيْسِ عَمِلَانَ ، وَتَمَيَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبَ ظَبْيَانَ » فكان ظبيان النجيب يقول : « لم أزل في عمر المختار أنقلب آمنا » .

وقال ابن عدي ربه في العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يتتبع قتلة الحسين بن عل ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أقتنهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبل ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعنى مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البده على الله تعالى ، والبده له معان ، البده فى العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبده فى الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبده فى الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبده ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما يوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شئ وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله =

٨٢ — خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وضع له كرسى قدّامه ، فعلاه وقال :

« يا معشر قريش ، شأنت الوجوه ^(١) ، أَيْنَقَصَ على وأنتم حضور ؟ إن علياً كان ستمهاً صادقاً ، أحد مرأى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهوئهم ^(٢) ما كلبهم ، فنقل عليهم ، فرموا بصرفة الأباطيل ^(٣) ، وإنا معشر له على نهج ^(٤) من أمره بنو الحسبة ^(٥) من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة نثر عظامهم ، ونحسر ^(٦)

دايلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ووجاهه ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهبة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولستم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت في بني إسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم أخذوا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ » ، إن في ذلك لآيةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار — انظر قصته في تاريخ الطبري (٧ : ١٤٠) .

(١) شاه وجهه : قبح . (٢) هو ع ما أكل : قياها . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة أو لإبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .

(٥) الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو بها . (٦) حصره كنصر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .
 فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتسكلمون ، فما بال
 بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(١) ، ومالي لا أتسكلم ؟ أليست فاطمة
 بنت محمد حَلِيلَةَ ^(٢) أبي وأمّ إخوتي ؟ أليست فاطمة ^(٣) بنت أسد بن هاشم جدتي ؟
 أليست فاطمة ^(٤) بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ^(٥)
 ما تركت في بنى أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت .
 (مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قریش ، فلما سلم وجلس ،
 قال له معاوية : « إني أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » قال :
 « ما تقول في أبي بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن
 المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ،
 وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ^(١) ، وسادهم زهداً وعفافاً ،
 فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه » قال معاوية : « إيهي ^(٢) يابن عباس ، فما تقول
 في عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ،

(١) أم رومان بنت عامر هي زوج أبي بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .

(٣) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام علي كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد عشر

من المسلمين فكانت الحادي عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

(٤) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبي طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم . (٥) هي زوج النبی صلى الله عليه وسلم وعمّة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

(٦) أي رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت

أي حبسك .

ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحلّ الإيمان ، وَكَهَفَ^(١) الضعفاء ، وَمَمَقِلَ
الحنفاء^(٢) ، قام بحق الله عزّ وجلّ صابراً مُحَدِّسِياً^(٣) ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد
وَأَمَّنَ العبادَ ، فأعقب الله على من يَنْقُصُهُ اللعنة إلى يوم الدين . قال : « فما تقول
في عثمان ؟ » قال : « رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجماعة^(٤) ، وأفضل البرّة ،
هَيَّجَآدًا^(٥) بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نَهَاصًا عند كل مَكْرُمة ، سَبَّاقًا
إلى كلِّ مَنَحَةٍ ، حَمِيًّا أَيْبًا وَفِيًّا ، صاحب جيش العُسْرَةِ^(٦) ، وَخَنَ رَسُولَ اللَّهِ^(٧)
صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال :
« فما تقول في علي ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله عَلمَ الهدى ، وَكَهَفَ
الثَّقِي ، وَنَحْمِلَ الْحِجَابَ^(٨) ، وَبَجَرَ الْبُغْدَى ، وَطَوَّدَ الثُّغَى^(٩) ، وَكَهَفَ الْعَلَا ، لِلْوَرَى داعيًا
إلى الْمَحَجَّةِ^(١٠) ، متمسكا بِالْمُرْوَةِ الْوُثْقَى ، خير من آمَنَ واتقى ، وأفضل من تقمّصَ
وارتدى ، وأبرّ من اتعمل وَسَعَى^(١١) ، وأفصح من تنفّسَ وقرا ، وأكثر من شهّدَ
النَّجْوَى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبلتين ، فهل يوازيه أحد ؟
وأبو السَّبْطَيْنِ^(١٢) فهل يقارنه بشر ، وزوج خير النِّسْوَانِ^(١٣) ، فهل يفوقه قاطنُ بلد ؟
لِلْأَسْوَدِ قِتَالٌ ، وفي الحروب خِتَالٌ^(١٤) ، لم تر عيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه

-
- (١) الكهف: الملجأ، وكذا المعقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .
(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوئ به وجه الله . (٤) الكرام ، يقال للكرم :
جمع يفتح فسكون ، فأما إذا قيل فلان جمع اليمين أو جمع الأناامل فهو البخيل ، وربما لم يذكروا معه اليد .
(٥) الهجاء والمجود : يفتح الهاء ، والمتجد : المصل بالليل . (٦) تقدم شرحه في خطبة ذى
الكلع الحيمرى . راجع الجزء الأول ص ٣٤٠ . (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة
أم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٨) الحمل فى الأصل : شقان على التعبير يحمل فيهما
العدلان ، والحجاء : المعقل والفتنة . (٩) الطود : الجبل ، والنهى المعقل . (١٠) الطريق الواضح .
(١١) فى الأصل «واسما» وهو تحريف . (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهما سبطا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، (والسبط ولد الولد) . (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها .
(١٤) خداع ، من الختل : وهو الخداع ، والمراد أنه ذو بصير بالحروب .

لعنة الله والعباد ، إلى يوم التَّناد^(١) » قال : « إِيَّهَا يَا بَنِي عَبَّاس ، لقد أكَثَرْتُ فِي ابْنِ عَمِّكَ » قال : « فَمَا تَقُولُ فِي أَبِيكَ الْعَبَّاس ؟ » قال : « رَحِمَ اللَّهُ الْعَبَّاسَ أَبَا الْفَضْلِ ، كَانَ صِنْفُ^(٢) نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقُرَّةَ عَيْنِ صَفِيِّ اللَّهِ ، سَيِّدَ الْأَعْمَامِ ، لَهُ أَخْلَاقُ آبَائِهِ الْأَجْوَادِ ، وَأَحْلَامُ أَجْدَادِهِ الْأَعْجَادِ ، تَبَاعَدَتْ الْأَسْبَابُ فِي فَضِيلَتِهِ ، صَاحِبَ الْبَيْتِ وَالسَّقَايَةِ وَالْمَشَاعِرِ^(٣) وَالتَّلَاوَةِ ، وَلَمْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ ، وَقَدْ سَاسَهُ أَكْرَمُ مِنْ دَبٍّ^(٤) » فقال معاوية : « يَا بَنِي عَبَّاس ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ كَلَّمَانِي^(٥) أَهْلَ بَيْتِكَ » قال : « وَلَمْ لَا أَكُونُ كَذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يَا مُعَاوِيَةَ ، إِنْ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، خَصَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَحَابَةٍ آثَرُوهُ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، وَبَذَلُوا النَفُوسَ دُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَوَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يُبَتِّغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَامُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ) ، قَامُوا بِمَعَالِمِ الدِّينِ ، وَنَاصَحُوا الْجَاهِدَ لِلْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى تَهَذَبَتْ طَرَفُهُ ، وَقَوِيَتْ أَسْبَابُهُ ، وَظَهَرَتْ آيَاتُ^(٦) اللَّهِ ، وَاسْتَقَرَّ دِينُهُ ، وَوَضَعَتْ أَعْلَامُهُ ، وَأَذَلَّ اللَّهُ بِهِمُ الشُّرَكَ ، وَأَزَالَ رُوحَهُ ، وَمَحَا دَعَائِمَهُ ، وَصَارَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا ، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى تِلْكَ النَفُوسِ الزَّائِكَةِ ، وَالْأَرْوَاحِ الطَّاهِرَةِ الْعَالِيَةِ ، فَقَدْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَكَانُوا بَعْدَ الْمَوْتِ أَحْيَاءَ أَمْحَاءَ ، رَحَلُوا إِلَى الْآخِرَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهَا ، وَخَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَهُمْ بَعْدُ فِيهَا » ، فَقَطَعَ عَلَيْهِ مُعَاوِيَةُ الْكَلَامَ ، وَقَالَ : إِيَّهَا ابْنُ عَبَّاس ، حَدِّثْنَا فِي غَيْرِ هَذَا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنان صنوان والجمع صنوان برفع النون . (٣) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشمارية بالفتح ، والمشرع : موضعها ، والمشرع الحرام بالمزدلفة . (٤) في الأصل : « من دب » أى مثى والمعنى عليه صحيح ، ولكنى أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشددة اللام ، وبكسرتين مشددة الميم وتكلام بكسر فسكون وتشد لاهما : جيد الكلام فصيح . (٦) الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وآلى (بفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حقاراً له^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمه ، فقال معاوية :

٨٤ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صَفِيَّيْنِ^(٢) دون الناس ، فحَفِظْتُ الميت في الحى ، والحى في الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك^(٣) على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَنَأْتَكُمْ^(٤) ما في أيديكم ، ولم أكشفكم عما وَعَت غرائركم^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللوم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقِيَّأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتهموني بِصِفِّيْنِ ، ولعمري لَبَنُو تَيْمَ وَعَدِيَّ^(٦) أعظم ذنباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسئوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أُغْضِي الجفون على الْقَذَى^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

(١) أى كثير التحقير له . (٢) الصنى : الحبيب المصافى . (٣) لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة قثم بن العباس (قثم كعمر) وخرج إليهم . (٤) هنأه كنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (الشوال) . (٦) يعنى ببني تيم أبا بكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى ببني عدى عمر ابن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . (٧) القلى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٥ - مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك ، إخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام^(٢) ، وأما استعمال علي إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلا لهواك لانفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبُسر بن أرطاة على اليمى فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُدَّ ، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة فُخِصِبَ ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسها ، وأما خذلنا عثمان فلو لمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق وادعائك الباطل ، ولما أغراوك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها « وسكت . (المقد الفريد ٢ : ١١٠) »

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٦ - مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أنيتم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صبرت عليه منكم ، إني لا أريد أسراً إلا أظلماتم

(١) للتفاوض : الاشتراك في كل شيء . والمساواة . (٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند

النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدَرَهُ ^(١) ، وَلَا آتَى مَعْرُوفًا إِلَّا صَغَّرْتُمْ خَطَرَهُ ^(٢) ، وَأَعْطَيْكُمْ الْعَطِيَّةَ فِيهَا قِضَاءَ حَقُوقِكُمْ ، فَتَأْخُذُونَهَا مَتَكَارِهِينَ عَلَيْهَا ، تَقُولُونَ قَدْ نَقَصَ الْحَقُّ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأَيُّ أَمَلٍ بَعْدَ أَلْفِ أَلْفٍ أُعْطِيَهَا الرَّجُلَ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أَمْ كُنْ أَسْرًا بِإِعْطَائِهَا مِنْهُ بِأَخْذِهَا ؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَخَذْتُ لَكُمْ فِي مَالِي ، وَذَلَّلْتُ لَكُمْ فِي عِرْضِي ، أَرَى أَخْذَاعِي كَرَمًا ، وَذُلِّي حِلْمًا ، وَلَوْ وَلِيْتُمُونَا رِضِينَا مِنْكُمْ بِالْإِنْتِصَافِ ، وَلَا نَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ لَعَلَّمْنَا بِحَالِكُمْ وَحَالِنَا ، وَيَكُونُ أَبْغَضُهَا إِلَيْنَا أَحَبَّهَا إِلَيْكُمْ أَنْ نُعْفِيَكُمْ .

٨٧ - مقال ابن عباس

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :

« لَوْ وَلَيْنَا أَحْسَنُهَا الْمَوَاسَاةَ ، وَامْتَنَنَّا بِالْأَثَرَةِ ^(٣) ، ثُمَّ لَمْ نَفْشِمِ ^(٤) الْحَيَ ، وَلَمْ نَشْتَمِ الْمَيِّتَ ^(٥) ، فَلَسْتُمْ بِأَجْوَدَ مِنَّا أَكْفَا ، وَلَا أَكْرَمَ أَنْفُسًا ، وَلَا أَصَوْنَ لِأَغْرَاضِ الْمُرُوءَةِ ، وَنَحْنُ وَاللَّهِ أَعْطَى لِلْآخِرَةِ مِنْكُمْ لِلدُّنْيَا ، وَأَعْطَى فِي الْحَقِّ مِنْكُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَأَعْطَى عَلَى التَّقْوَى مِنْكُمْ عَلَى الْهَوَى ، وَالْقَسَمِ بِالسَّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ يَأْتِيَانِ عَلَى الْمَنَى وَالْأَمَلِ ، مَا أَرْضَاكُمْ مَتًا بِالْكَفَافِ ، فَلَوْ رَضِيتُمْ مَتًا لَمْ تَرْضَ بِأَنْفُسِنَا بِهِ لَكُمْ ، وَالْكَفَافُ رِضًا مِنْ لَاحِقٍ لَهُ ، فَلَا تُبْخَلُّونَا ^(٦) حَتَّى تَسْأَلُونَا ، وَلَا تَلْفِظُونَا حَتَّى تَذُوقُونَا .

(المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه : أى رجع صدره « بسكون الدال » وصدورا والاسم منه الصدر « بفتح الحين » أى أصدرتم ورددتم واردة ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتننا أى وتفضلنا وأنعمنا بما نستأثر به . (٤) فشمه غشما : ظلمه . (٥) يعرض به فى سبه عليا على المناير . (٦) لآرمونا بالبخل (بخله بالتشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجده بخيلا) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ — مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لمنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علة^(١) ، ولا يؤصّد^(٢) بابى دونكم مسألة ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما فى يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا ، وقصّر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . »

٨٩ — مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا فى كتاب الله حَقان : حق فى الغنيمة وحق فى الفىء . فالغنيمة : ما غلبنا عليه . والفىء : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خف ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفانى فإنك لا تمز^(٣) ، ولا تشج^(٣) . » (المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) أى ولا يفلق وفى الأصل « ولا يوجد » وهو تحريف .

(٢) لا تمز أى لا تغلب ، مزه يمزه (كنصره) عزاء (بالفتح) غلبه وفى الأصل « لا تفر » وهو مصحف .

(٣) شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديهما وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بوافدها وديانتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجباتها ولوائها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدى ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بآرائها ودهائها وبنو جهم ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر بن لؤى بفارسها وقريعتها ^(١١) ، فمن ذا يُحْمَلُ مضمارها ، ويجرى إلى غايتها ، ماتقول يا بن عباس ؟ » .

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابة : سدة البيت الشريف ؛ أى تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلونها على رمح وينصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى محاربة العدو فيجتمعون تحته ويقاثلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنتى دارا بها وهى دار الندوة : وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورقى ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضميما ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى ، وعبد - « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم للكمبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحرب إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاه داره دار الندوة ، وأعطاه الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . (٥) بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٦) بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى . (٧) بنو عدى بن كعب بن لؤى . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزير) بن كعب بن لؤى ، ومنهم عمرو بن العاص السهمي . (٩) بنو جهم بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) القريع : المقارع .

٩١ - مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حى يَفْخَرُونَ بأمر إلا وإلى جنبهم من يشرّكهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفْخَرُونَ بالنبوة التى لا يشاركون فيها ، ولا يُسَاوَوْنَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله فى بنى عبد المطلب إلا وهم خير بنى هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فُتِحَ الأمر وبنا يُخْتَم ، ولك مُلْكٌ مُعَجَّل ، ولنا ملكٌ مُؤَجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(المقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نَفَى الحسن بن على رضى الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن بن على ، ولم يظهر حزنا؟ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إن الله وإننا إليه راجعون ، ترجيعا مُكْرَرًا ، وقد باننى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسدُه حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِيبْنَا به لقد أصبنا بمن كان خيرا منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخير الله مصيبتَه ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سنّته ؟ قال : مولده أشهر من أن تُتعرّف سنّته ! قال : أحسبه ترك أولادا صغارا ؟ قال : كلنا كان صغيرا فكبير . ولئن اختار الله لأبى محمد

ما عنده وقبضه إلى رحمته ، لقد أبقى الله أبا عبد الله (يعني الحسين) ، وفي مثله الخلف الصالح ، ثم شفق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٩٣ — عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين ؟ » قال : « منعه والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ، ومبرماً لما نقض ، أسف^(١) إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » .

(إعجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٠٧) .

(١) أسف للطائر : دفا من الأرض في طيرانه .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وفد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزياد بن سُمَيَّة . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومَرْوَانَ بن الحكم . وعمر بن العاص . والمُغِيرَةَ بن شُعْبَةَ . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرَ^(١) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدَفِعَ عنه^(٢) ، فخرَّ كوه على الكلام انبلغ حقيقة صفته ، ونَقَفَ على كُفِّهِ معرفته ، ونعرف ما صُرف عنا من شَبَابٍ^(٣) حَذَّه . ووُورِي عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأعطى من النعت والاسم مالا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأه ابن أبي سفيان فقال : يا بن عباس مامن عليا أن يُوجَّه بك حكما ؟

٩٤ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرنَ عَمْرًا بِصَفِيَّةٍ من الإبل ، يُوجِعَ كتفيه مِرَاسُهَا^(٤) ولأذهلت عقله ، وأجرضتُه بريقه^(٥) ، وَقَدَحْتُ في سُوَيْدَاءِ قلبه ، فلم يُغِرِمَ أمرًا ،

(١) شجر بينهم الأمر: تنازعوا فيه. (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم

بقبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

(٣) الشبا : جمع شبابة ، وهي حد كل شيء . (٤) أى علاجه وقيادتها . (٥) جرح بريقه

كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وأجرضه بريقه : أغضه .

ولم ينفذ تراباً إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نكته أرمت^(١) قواه ، وإن أرمت^(٢) قصمت^(٣) عراه ، بغرب^(٤) مَقُولٍ لَا يُقَلُّ حَدُّهُ ، وأصالة رَأْيٍ كَمُتَاجِ^(٥) الأجل لاوَزَ منه ، أضدع^(٦) به أدیمه^(٧) ، وأفلَّ به شَبَا حَدُّهُ ، وأشَحَذَ به عزائم المعتيز^(٨) ، وأزيج به شَبَهَ الشاكِّين^(٩) .

٩٥ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين مُنْجُومٌ^(١) أول الشر ، وأفول آخر الخير ، وفي حسنه قطع مادته ، فبادرته بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، وادع بالتفكيك به غيره ، وشرّد به من خلقه » .

٩٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يا ابن النّابغة ، ضلّ والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاّ توليت ذلك بنفسك يوم صِفِّين حين دُعِيَتْ نَزَالِ^(١) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرِّماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مُصَاوِلًا ، فأنسكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٢) من الموت ، أعددت حيلة السلامة

(١) أرم الحبل: قتله شديدا . (٢) حلت . (٣) الغرب : حد كل شيء ، والمقول: اللسان .

(٤) من إضافة الصفة للموصوف أى كالأجل المتناح : أى المقدر . والتوزر: الملجأ . (٥) أشق ، والأديم :

الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . (٦) فى الأصل « المعتيز » وقد بحث فى كتب اللغة

عن مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها محرفة عنها ، ورجع لدى أنها

محرفة عن « المعتيز » من اعتنز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين على ومعاوية

وكانوا محايدين . (٧) ظهور (مصدر نجم) . (٨) نزال : اسم فعل بمعنى انزل . أى حين قال

الأبطال بعضهم لبعض نزال . (٩) جمع كثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر .

قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، ففتحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن يسطلمك^(١) بسطوته ، أو ياتهمك بمحلتك ، ثم أشرت على معاوية كالتامع له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تستقي مئنته ، وتعدم صورته ، فعمل غلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلّك ، وعرف مقرّ سهمك في غرضك ، فاكفّف غرّب لسانك ، واقمّع عوّراء^(٢) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٣) ، وبحر زاهر ، إن تبرزت للأسد افترسك ، وإن عُمت في البحر قَمَسَكَ^(٤) .

٩٧ - مقال مروان بن الحكم^(٥)

فقال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لتَصْرِف^(٦) بنا بك ، وتُورِي نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمّل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٧) ، ولامرئى لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائمكم لقد يما ما نسب إلى ذلك » .

(١) اصطلمه : استأصله . (٢) العوراء : الكلمة أو الفعل القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومنه قيل أسد خادر . (٤) غمسك وأغرقتك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٥٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . (٦) صرفت البكرة تصرف كضرب صريفاً : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، وللباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أثباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثاره لأخذك به ، ولو نظري في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لى : إنك لتصرف بنابك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « ويطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويبين طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاتساكني في بلد أبدا » أوقعته فيه ، قيل : كان يسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متغيا حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم عمه - رده ، وقال : « كنت قد شغفت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدي برده » وقد توفي في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفي أبيه بها . (٢) أى في فتنة عثمان ، وذلك أن الثوار بعد أن هذا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى عامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذي كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . (٣) جمع وديج (محركة) وهو مرق الأخدع الذي يقطعه الذابح ، فلا يبقى معه حياة . (٤) جمع ثبج (محركة) وهو ما بين السكاهل إلى الظهر .

وعمرًا يخبرك ليلة الهرير^(١) كيف ثَبَّاتُنَا لَلْمُثَلَّاتِ^(٢) ، واستخفَّأْنَا بِالْمُعْضَلَاتِ ، وصدق جِلَادُنَا عِنْدَ الْمَصَاوِلَةِ ، وصَبَرْنَا عَلَى اللَّأْوَاءِ^(٣) ، والمطَاوِلَةِ ، ومصَاحَفَتُنَا بِجِبَاهِنَا السِّیُوفَ المَرْهَفَةَ^(٤) ، ومبَاشَرَتُنَا بِفُحُورِنَا حَدَّ الْأَسِنَّةِ ، هل خِفْنَا^(٥) عَنْ كِرَائِمِ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ ؟ أَمْ لَمْ نَبْذُلْ مُهَجَّنَا^(٦) لِلْمُتَالِفِ ؟ وَلَيْسَ لَكَ إِذْ ذَاكَ فِيهَا مَقَامٌ مَحْمُودٌ ، وَلَا يَوْمٌ مَشْهُودٌ ، وَلَا أَمْرٌ مَعْدُودٌ ، وَإِنِّهْمَا شَهِدَا مَا لَوْ شَهِدْتَ لِأَقْلَقَتَكَ ، فَارْبَعَ عَلَى ظِلْمِكَ^(٧) ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِمَا لَيْسَ لَكَ ، فَإِنَّكَ كَالْمَغْرُورِ فِي صَفَدٍ^(٨) ، لَا يَهْبِطُ بِرِجْلِ ، وَلَا يَرْقَا^(٩) بِيَدٍ .

٩٩ — مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس : إني لأعلم ، ما منع حَسَنًا وَحُسَيْنًا مِنَ الْوُفُودِ مَعَكَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَا سَوَّلَتْ لَهَا أَنْفُسُهُمَا ، وَغَرَّمَا بِهِ مَنْ هُوَ عِنْدَ الْبِأْسَاءِ يُسْلِمُهُمَا^(١٠) ، وَإِيمَ اللَّهِ لَوْ وَلِيْتُهُمَا لِأَدَّابَا^(١١) فِي الرَّحْلَةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمَا ، وَلَقُلَّ بِمَكَانِهِمَا كِبُيْتُهُمَا » .

١٠٠ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إِذْنُ وَاللَّهِ يَقْصُرُ دُونَهُمَا بِأَعْيُنِكَ ، وَيَضِيقُ بِهِمَا ذِرَاعُكَ ، وَلَوْ رُمِتْ ذَلِكَ لَوَجَدْتَ مِنْ دُونِهِمَا فِئَةً صِدْقًا صَبْرًا^(١٢) عَلَى الْبَلَاءِ ، لَا يَخْشَوْنَ عَنِ الْإِقَاءِ ،

-
- (١) هِيَ لَيْلَةُ الْعَاشِرِ مِنْ صَفَرٍ سَنَةِ ٣٧ ، وَفِيهَا حَمَلَ جَيْشٌ عَلَى جَيْشٍ مُعَاوِيَةَ فِي وَقْعَةٍ صَغِيرَةٍ حَمْلَةً عَنِيفَةً ، وَاقْتَتَلُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ كُلَّهَا حَتَّى الصَّبَاحِ ، وَأَوْشَكَ جَيْشٌ عَلَى أَنْ تَكُونَ لَهُ الْغَلْبَةُ .
 (٢) جَمْعُ مَثَلَةٍ (كَفَرَفَةٍ) مِنْ مَثَلَتْ بِالْقَتِيلِ : إِذَا نَكَلْتَ بِهِ . (٣) اللَّأْوَاءُ : الشَّدَّةُ .
 (٤) الْمَرْقَقَةُ . (٥) خَامٌ عَنْهُ يَخْجُمُ : جَبِينٌ وَنَكْصٌ . (٦) جَمْعُ مَهْجَةٍ ، وَهِيَ الدَّمُ أَوِ الرُّوحُ .
 (٧) رُبِعٌ كَنَعَ : وَقَفَ وَانْتَظَرَ وَتَحَبَّسَ ، وَظَلَعَ ظُلْمًا كَنَعَ : غَمَزَ فِي مَشْيِهِ ، وَارْبَعَ عَلَى ظُلْمِكَ أَيْ أَنْكَضَ ضَمِيمٌ فَانْتَهَ عَمَلًا تَطْلِيْقَهُ وَاسْكَتْ عَلَى مَا نَبَيْكَ مِنْ عَيْبٍ . (٨) الصَّفَدُ : الْقَيْدُ ، وَفِي الْأَصْلِ « كَالْمَغْرُورِ فِي صَفَدٍ » وَأَرَاهُ « كَالْمَقْرُونِ فِي صَفَدٍ » . (٩) أَيْ يَصْعَدُ وَيَعْلُو : رَقَاً فِي الدَّرَجَةِ صَعِدَ : يُقَالُ رَقَاتُ وَرَقِيتُ (كَرَضِيتُ) وَتَرَكَ الْهَمْزَةَ أَكْثَرَ . (١٠) أَسْلَمَهُ : خَذَلَهُ . (١١) أَجْهَدَا وَأَتَمَّيَا .
 (١٢) أَيْ ذَاتَ صِدْقٍ وَصَبْرٍ عَلَى الْبَلَاءِ أَوْ هُوَ « صِدْقًا صَبْرًا » بِضَمِّتَيْنِ جَمْعُ صِدْقٍ وَصَبُورٍ .

فَلَمَرَ كُوكٌ بِكَلَالِكِهِمْ ^(١) وَوَطِئُوا بِمَنَاسِمِهِمْ ^(٢) وَأَوْجَرُوا ^(٣) مَشَقَّ رِمَاحِهِمْ ، وَشَفَّارَ ^(٤) سِيوفِهِمْ ، وَوَخَزَ أَسِنَّتَهُمْ ، حَتَّى تَشْهَدَ بِسُوءِ مَا أَتَيْتَ ، وَتَذِينَ ضِيَاعَ الْحَزْمِ فِيمَا جَنَيْتَ ، فَحَذَارِ حَذَارٍ مِنْ سُوءِ النِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَرُدُّ الْأُمْنِيَّةَ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ هَذَيْنِ الْحَيِّينَ بَعْدَ صَلَاحِهِمَا ، وَسَعْيًا فِي اخْتِلَافِهِمَا بَعْدَ اخْتِلَافِهِمَا ، حَيْثُ لَا يَضُرُّهَا إِبْسَاسُكَ ^(٥) ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمَا إِبْنَسَاكَ .

١٠١ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أُمِّ الْحَكَمِ :
« اللَّهُ دُرٌّ ابْنُ مُلْجَمٍ ^(١) ، فَقَدْ بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَأَمَّنَ الْوَجَلَ ، وَأَحَدَ الشَّفَرَةَ ، وَأَلَانَ الْمُهْرَةَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَنَفَى الْعَارَ ، وَفَازَ بِالْمَنْزِلَةِ الْعُلْيَا ، وَرَقِيَ الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى » .

١٠٢ - جواب ابن عباس

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :
« أَمَّا وَاللَّهِ لَأَقْدَرُ كَرَعَ ^(٢) كَأْسَ حَتْفِهِ بِيَدِهِ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بَرُّوحَهُ وَلَوْ أَبَدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، خَالَطَهُ الْفَحْلُ الْقَطِمْ ^(٣) ، وَالسَّيْفُ الْخَلْذِمَ ، وَلَا لَعَفَهُ صَابَا ^(٤) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا ^(٥) ، وَالْحَقُّهُ بِالْوَلِيدِ وَعُتْبَةَ وَحَنْظَلَةَ ^(٦) ، فَكَلِمَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً ^(٧) ،

(١) جمع كل شكل وهو الصدر . (٢) جمع منم (كجلس) وهو خف البعير .
(٣) أوجره الرمح : طعنه به فيه ، والمشق : سرعة في الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب مشوق : أى طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهى حد السيف . (٥) الإبسّاس : التلطف بالناقة وقت حلبها ، بأن يقال لها بس بس (يفتح فسكون) تسكينها لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله قاتل الإمام على . (٧) كرع في الماء : تناوله بفيه من موضعه . (٨) قطم الفحل كقرح فهو قطم : اشتبهى الضراب . (٩) عصارة شجر مر . (١٠) جمع سم مثلث اللعين .
(١١) الوليد بن عتبة : خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ أَخُوهُ ، وَقَدْ قَتَلَهُمْ عَلَى يَوْمِ بَدْر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أى أنف أبى لا ينقاد .

وَأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَقَرَى بالسيف هَامَهُمْ ^(١) ، وَرَمَلَهُمْ ^(٢) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذُّنَابَ أَشْلَاهُمْ ^(٣) ، وَفَرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ ، أُولَئِكَ حَصَبٌ ^(٤) جَهَنَّمُ لَهَا وَارْدُونَ ، فَهَلْ تُحْسِثُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ^(٥) ؟ وَلَا غُرُورًا إِنْ خُتِلَ ، وَلَا وَصْمَةً إِنْ قُتِلَ ، فَإِنَّا لَكَمَا قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّعَّةِ :

فَإِنَّا لَلْحَمُ السِّيفِ غَيْرَ مُكْرَمٍ وَنُلْجِمُهُ طَوْرًا وَلَيْسَ بِذِي نُكْرٍ ^(٦)
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتْرِينَ فَيُشْتَفَى بِنَا إِنْ أَصَبْنَا أَوْ نُغَيِّرُ عَلَى وَتَرٍ ^(٧)

١٠٣ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَى عَالِيٍّ بِالنَّصِيحَةِ ، فَأَثَّرَ رَأْيُهُ ، وَمَضَى عَلَى غُلَّوَانِهِ ^(٨) ، فَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَإِنِّي لِأَحْسِبُ أَنْ خَلْفَهُ يَقْتَدُونَ بِمَنْهَجِهِ » .

١٠٤ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ وَاللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِوُجُوهِ الرَّأْيِ ، وَمَعَاقِدِ الْحَزْمِ ، وَتَصْرِيفِ الْأُمُورِ ، مِنْ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَتَكَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْفَ عَلَيْهِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

(١) هام : جمع هامة ، وهى الرأس . (٢) رمل الثوب : لطمه بالدم ، ويجوز أن يكون وزملهم أى لفهم بدمائهم (على المجاز) . (٣) أشلاه : جمع شلو ، وهو العضو ، وقري الضيف قري (بالكسر) : أضافه . (٤) الخطب ، وما يرى به فى النار . (٥) الصوت الخفى .

(٦) ألحمه : أطمعه اللحم . (٧) الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره . (٨) الغلواء : الغلو ، وذلك أن المغيرة جاء عليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : إن النصيح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان عاملك هذا ، فاكتب إليهم بأثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايموا لك ، واطمأن =

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفك على ذكر مبین وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا » . وهل كان يسوع له أن يُحَكِّمَ في دماء المسلمين ، وَفِيءَ الْمُؤْمِنِينَ ، من ليس بآمون عنده ، ولا موقوف به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبَيِّنَ خلافَ ما يُظْهِرُ إِلَّا لِلتَّقِيَّةِ^(٢) ، ولات حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف المصلّت^(٣) في أمر الله ، مُؤَثِّرًا لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٥ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يابن عباس ، إنك لتتطرق بلسان طليق^(٤) ، ينبي عن مكنون قلب حرق^(٥) ، فاطو على ما أنت عليه كشحاً^(٦) ، فقد محاضوه حقناً ظلمة باطلكم » .

= أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطى الرياء في أمري ، قال : فإن أبييت فانزع من شئت وأترك معاوية فإن له جراءة وهو في أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة في إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعل : فإن بايع لك فعل أن أقلمه من منزله ، فقال عل : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه . (٢) التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين . (٣) المسلول .

(٤) لسان طلق : (بسكون اللام وكسرهما) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفي الحديث « المحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق النار (بفتحيتين) فيلتهب ، والمحرق محرقة : النار ولهبها ، وفي الحديث « المحرق والفرق والشرق شهادة » وحرق شعره كفرح : تقطع ونسل . (٦) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلا يزيدُ ، فوالله ما صَفَّتْ القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالحبة إليكم ، منذ نأت بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ما سَخِطْتَ بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ (١) الأيامُ نستقصِ ما شَدَّ عنا ، ونسترجع ما ابتَزَّ (٢) منا ، كيلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله ولياً لنا ، ووكيلاً على المعتدين علينا » .

١٠٧ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحَزَازَاتٍ يابني هاشم ، وإني لخليق أن أذكر فيكم الثَّار ، وَأَنْفِي العار ، فإن دماءنا قَبِلَكم ، وظَلَّامَتُنَا فيكم » .

١٠٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمتَ ذلك يامعاوية كَثِيرُونَ عليك أسدًا مُخْدِرَةً (٣) ، وأفاعي مُطْرِقَةً ، لَا يَفْتَوُهَا (٤) كثرة السلاح ، وَلَا تَمُضُّهَا نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ،

(١) أداله الله من عدوه : فصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزِمَ الأجمة ،

وأخدر للعرين الأسد : ستره فهو مخدر (بكسر الدال وفتحها) . (٤) فتأ الغضب كنع : سكنه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

يَضْرِبُونَ قُدُمًا قُدُمًا مِنْ نَاوَاهُمْ^(١) ، يَهْوُونَ عَلَيْهِمْ نُبَاحَ السَّكْلَابِ ، وَعُجُوءَ الْقُنَابِ ، لَا يُفْقَاتُونَ بَوْتِرَ ، وَلَا يُسْبِقُونَ إِلَى كَرِيمٍ ذَكَرَ ، قَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ ، وَسَمِعَتْ بِهِمْ إِلَى الْعِلْيَاءِ هَمَّهُمْ ، كَمَا قَالَتِ الْأَزْدِيَّةُ :

قَوْمٌ إِذَا شَهِدُوا الْهِجَابَ فَلَا ضَرْبَ يَنْهَنَّهُمْ وَلَا زَجْرَ^(٢)
وَكَاثِمِهِمْ آسَادُ غِيْثَةٍ قَدْ غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتُونَهَا الْقَطَرُ^(٣)

فَلَتَكُونَنَّ مِنْهُمْ بِمِثْلِ لَيْلَةِ الْمَرِيرِ لِلْهَرَبِ فَرَسَكَ ، وَكَانَ أَكْبَرُ هَمِّكَ سَلَامَةُ حُشَّاشَةٍ^(٤) نَفْسِكَ ، وَلَوْلَا طَعَامُ^(٥) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَقَوَّكَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَبَذَلُوا دُونَكَ مُهْجَهُمْ ، حَتَّى إِذَا ذَاقُوا وَخَرَ الشَّفَّارَ ، وَأَيَقَنُوا بِمَجْلُولِ الدَّمَارِ ، رَفَعُوا الْمَصَاحِفَ مُسْتَجِيرِينَ بِهَا ، وَعَانِدِينَ بِعَصْمَتِهَا ، لَكُنْتُ شَلَوًا مَطْرُوحًا بِالْعَرَاءِ^(٦) ، تَسْفِيْ عَلَى رِيَا حُجَاهُ^(٧) ، وَيَعْتَوِرُكَ ذُنَابُهَا ، وَمَا أَقُولُ هَذَا أُرِيدُ صَرْفَكَ عَنْ عَزِيْمَتِكَ ، وَلَا إِزَالَتِكَ عَنْ مَعْقُودِ نَبِيَّتِكَ ، لَكِنَّ الرَّحِمَ الَّتِي تَعْطِفُ عَلَيْكَ ، وَالْأَوَاصِرَ^(٨) الَّتِي تَوْجِبُ صَرْفَ النَّصِيْحَةِ إِلَيْكَ .
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : « اللَّهُ دَرَكُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، مَا تَكْشِفُ الْأَيَّامُ مِنْكَ إِلَّا عَنْ سَيْفٍ صَقِيلٍ ، وَرَأَى أَصِيلًا ! وَبِاللهِ لَوْلَمْ يَلِدْ هَاشِمٌ غَيْرَكَ ، لَمَّا نَقَصَ عِدْدهُمْ ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ لِأَهْلِكَ سِوَاكَ لَكَانَ اللَّهُ قَدْ كَثُرَ » ! نَحْمُ نَهْضَ فِقَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَانْصَرَفَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

(١) القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوَاهُمْ : عاداهم . (٢) نهْنَهُ عَنْ الْأَمْرِ : كَفَهُ وَزَجَرَهُ .
(٣) الغَيْثَةُ : بِالْكَسْرِ الْأَجْمَةُ ، وَالْغَيْثَةُ بِالْفَتْحِ : الْأَشْجَارُ الْمُتَلَفِتَةُ فِي الْجِبَالِ وَفِي السَّهْلِ بِلَا مَاءٍ ، فَإِذَا كَانَتْ بِمَاءٍ فَهِيَ غَيْثَةٌ ، وَغَرِثَتْ : كَفَرَحَ جَاعَ فَهُوَ غَرِثَانُ . (٤) الْحُشَّاشَةُ : بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْمَرِيضِ وَالْجَرِيحِ .
(٥) الطَّعَامُ : أَوْغَادُ النَّاسِ . (٦) الْعَرَاءُ : الْفُقَاءُ لَا يَسْتَتِرُ فِيهِ شَيْءٌ . (٧) سَفَتُ الرِّيحِ التُّرَابَ تَسْفِيهِ : ذَرْتَهُ ، أَوْ حَمَلْتَهُ . (٨) فِي الْأَصْلِ « وَالْأَوَامِر » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

عبد الله بن عباس وعمر بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَهُ بِصِفَيْنِ ، واجتمعت قریش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، وَمَتَّكَ ما بيد غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى ^(١) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعزل والتنغيص ^(٢) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها إليه ، وذكرت يومك مع أبي موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوى لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصر فأربح صفقة أخذت بها شيئا يضر وينفع

ثم إنه بعثه سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام علي فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميرا . (٢) روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر اعمرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتيديره وعنائه وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشأم مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالطا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فخرت إلا بالقدر ، ولا مَنَنْتُ إلا بالفجور والنش ، وذكرت مشاهدك بصفين ،
فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نَكَيْتَنَا^(١) فيها حربك ، ولقد كَشَفْتَ فيها
عورتك ، وإن كنت فيها لَطَوِيلَ اللسان ، قصير السَّنان ، آخر الخليل إذا أقبلت ، وأولها
إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تَبْسُطُها إلى خير ، وأخرى لا تَقْبُضُها عن شر ، ولسان غرور
ووجهان : وجه مُوحِش ، ووجه مُؤَنِّس ، ولعمري إن من باع دينه بدنياه غيره لَحَرَى أَنْ
يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خَطَل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك
قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١١٠ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله ما في قريش أثقلُ على مسألة ، ولا أمرٌ جواباً منك ،
ولو استطعتُ ألا أجيبك لفعلت ، غير أنني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بت الله
نفسى ، ولم أنس نصيبى من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تَعْلَمُ الْقَوَانُ
الْخِمْرَةَ^(٢) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يَغَيِّرْنى له ، وأما خفة وطأنى
عليكم بصفين ، فلما استنقلتم حياتى واستبطأتم وفاتى . وأما الجبن فقد علمت قريش أنى
أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لسانى ، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

= وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر
سبع سنين ، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوثاقا وتماخذا على ذلك ، وأشهدا عليهما به شهودا ،
ثم مضى عمرو بن العاص إلى مصر واليا عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين
أو ثلاثا حتى مات . (١) نكح المدونة نكحة : قتل وجرح . (٢) في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة »
والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختيار ، واختمرت المرأة ، لبست الحمار بكسر الخاء
(الطرحة) يضرب الرجل المجرّب .

لسانى طويل فاحترس من شِدَاتِهِ عليك ، وسيفى من لسانى أطول^(١)
وأما وجهائى ولسانائى ، فإنى ألتى كلَّ ذى قدر بقدره ، وأرجى كلَّ ناجٍ بحجره ،
فمن عرف قدره كفانى نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسه ، ولعمري ما لأحد من
قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعنى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشمٍ مالى أراكم كأنكم بى اليوم جهالٌ ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنى جسور على الوغى سريعٌ إلى الداعى إذا كثر القتل
وأول من يدعو « نزالٍ » طبيعةً جُبِلْتُ عليها ، والطَّبَاعُ هو الجبل^(٢)
وأنى فصَلْتُ الأمر بعد اشتباهه بدوامةٍ إذ أعيأ على الحكم الفصل^(٣)
وأنى لا أعيأ بأمر أريده وأنى إذا عَجَّتْ بِكأركمُ فَعَلُ^(٤)

(المقد الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح بن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ — عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فَرَّ بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هَيِّية
الناس له ، وموقعه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتنى وليتني
القَصْرَة^(٥) ، وكان بين عينيك دَبْرَة^(٦) ، وإذا كنت فى ملأ من الناس كنت

(١) الشدة : الحدة ، والشذا والشذا بالذال والذال : حد كل شيء . (٢) أى نازلونى أيها الأقران ،
والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هى دومة الجندل التى اجتمع
فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري . (٤) البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة
الفتية ، وعجت : أى صاحت ورفعت صوتها . (٥) القصرة : أصل العنق فى مركبه فى الكاهل ، ويقال
لعنق الإنسان كله قصره ، والمعنى وليتني عنقك لإعراضا عني . (٦) الدبرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمه
فى القتال : وهو اسم من الإِدْبَار والمراد بها هنا الإفشاء وعدم الإقبال .

الهُوَاهُةُ^(١) أَلْهُمَزَةً ؟ فقال ابن عباس : « لأنك من اللثام الفَجَرَةِ ، وقر يشُّ الكرام
الْبَرَّةَ ، لا ينطقون بباطل جهلوه ، ولا يكتمون حقاً علموه ، وهم أعظم الناس أعلاماً ،
وأرفع الناس أعلاماً . دخلت في قر يش واست منها ، فأنت الساقط بين فراشين ،
لا في بني هاشم رَحْلُكَ ، ولا في بني عبد شمس راحلتك ، فأنت الأثيم الزَّئِيمُ^(٢) الضَّالُّ
المُضِلُّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بجمه ، وتسمو بكرمه » فقال عمرو :
أما والله إنى لمسرور بك ، فهل ينفعنى عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ،
وحيث سلك قَصَدْنَا .
(المقد للفريد ٢ : ١١٢)

١١٢ — عمرو بن العاص وابن عباس

قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس :

« إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر
منا ومنكم ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا ، ولسنا نقول : ليت الحرب
عادت ، ولكننا نقول : ليتها لم تكن كانت ، فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فإنك رأس
هذا الأمر بعد على ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاور مأمون ، وأنت هو .
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أمَّ عمرو بنت منظور بن زَبَّانِ الْفَزَارِيَّةِ ، فلما دخل بها قال
لها تلك الليلة : أتدريين من معك في حَجَلَتِكَ^(٣) ؟ قالت : نعم ، عبد الله بن الزبير بن

(١) قال صاحب اللسان : وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهُةُ الهُمَزَةُ » الهوَاهُةُ : الأحمق ،
وقال أيضا : « رجل هوَاهٍ وهوَاهَةٌ وهوَاهٌ بفتح الأول ضميم الفؤاد جبان ، ورجل هوَهَةٌ بضم الأول
جبان أيضا . (٢) الزَّئِيمُ : المستلحق في قوم ليس منهم والدعى . (٣) الحجلة : كالقبة ، وموضع يزين
بالثياب والستور للعروس .

العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى . قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : مملك من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بنى عبد مناف حَضَرَكَ ، لقال لك خِلاف قولك ، فغضب وقال : الطعام والشراب على حرام حتى أَحْضَرَكَ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مناف ، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أطقنتى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك ، فخرج إلى المسجد فرأى حَلْفَةً فيها قوم من قريش ، منهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الحَصَيْن بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير : أَحِبُّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفوا على باب بيته ، فقال ابن الزبير : يا هذه اطرَحى عليك سِتْرَكَ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فَتَغَدَّى^(١) القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتكم لحديثِ رَدَّتْهُ عَلَى صاحبةُ السُّر ، وزعمت أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أَقَرَّ لى بما قلت ، وقد حضرتهم جميعاً ، وأنت يا بن عباس ماتقول ؟ إني أخبرتها أن معها فى خِذْرِها مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردَّتْ عَلَى مقالتي .

فقال ابن عباس : أراك قَصَدْتَ قَصْدِي ، فإن شئت أن أقول قلتُ ، وإن شئت أن أكفّ كُفْتُ . قال : بل قل وما عسى أن تقول ؟ أأست تعلم أن أبى الزبيرَ حوَارِيٌّ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين^(٣) ؟

(١) تغدى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للمفطر) . (٢) الحواري : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمى ، وحوارى من أمى » . (٣) كان يقال لأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقاً على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل فى الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار . قال الأزهري : وهذا أصح القولين ، وقيل : إنها شقت نطاقها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شداًداً ازادها . وجاء فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير =

وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين ؟ وأن صفيّة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي^(١) ؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وغزراً فاخراً ، غير أنك تفاخر من يفخره فخرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ مَنْ راماهما^(٢) ، نشدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد في قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تَنَافَرْنِي يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

= بمكة ناداه ويك يا بن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحك الله ما يقول القوم ، وما يدعوني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتم لعنهم الله ! فإجملهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم فخر لك عندهم ، قال : وما ذلك يا أماء ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضي الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيأت لها سفرة ، فطلبها شيئاً يربطانها به فإ وجداه ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقي في الجنة ، وفي القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقيها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاماً لقربته . (١) هي جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتني ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماهما إنا إذا مافئة تلقاهما
ترد أولاه ا على أخراهما

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فواده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته وَلَكِنَّا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَائِلِ^(١)
 قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افترقت فرقتان إلا
 كنتُ في خيرهما » فقد فارقناك من بعد قُصَى^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟
 إن قلتَ نعم خُصِمْتَ ، وإن قلتَ لا كُفِرْتَ ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير :
 أما والله لولا تحرُّمُكَ^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت^(٤) جبينك قبل أن تقوم من
 مجلسك . قال ابن عباس : وَلِمَ أَيْبَاطِل ؟ فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق
 لا يخشى من الباطل .

فقال المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترون ،
 فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقْنَعِي بِيَعْلِكَ ، فما أعظمَ الخطرَ ، وما أكرمَ الخبرَ ،
 فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عَمِيَ ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفضحتك غير
 مرة ، فنهض وقال :

أَلَا يَا قَوْمَنَا ارْمَحُوا وَسِيرُوا فلو تُرِكَ الْقَطَا لَفَنَّا وَنَامَا^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أَقْبِلْ طَيِّبًا ، فما كنتَ لَتَدْعَنِي حَتَّى أَقُولَ :
 وَيَمُّ اللَّهِ لَقَدْ عَرَفَ الْأَقْوَامُ أَنِّي سَابِقٌ غَيْرُ مَسْبُوقٍ ، وابن حَوَارِيٍّ وَصِدِّيقٍ ، مُتَّبَعٌ^(٦)
 فِي الشَّرَفِ الْأَنِيقِ ، خَيْرٌ مِنْ طَلِيْقٍ^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس : رُسِفَتْ

(١) الأصائل: جمع أصيل، وهو المثنى « مابعد صلاة المصير إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده

عبد العزيز بن قصي (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصي (ومن سلالة بنو هاشم) . (٣) تحرم منه

بحرمة : تمنع وتحمي بدمه . (٤) أي ذكرت لك من المساوي ما يهرق له جبينك ويندى خجلا .

(٥) غفا وأغنى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبعك به : إذا اقتخر وتمعظم ، وأرجح أنه « متبجح »

من تبجح : أي تمكن في المقام والحلول . (٧) يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع

المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « وروى

أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ مني للفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهوني ، فقال له صلى الله

عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

بِحُرَّتِكَ^(١) فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنت سابقاً فإلى من سبقت ؟ وإن كنت فاحراً فبمن خُزْتُ ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكُشْكُثُ^(٢) في فك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطَّلِيق ، فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وإن كان والله لوفياً كريماً ، غيرَ نَاقِضٍ بَيْعَةٍ بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأمُر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجنين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلَافَ ذلك ، قال ابن عباس : والله إني لا أعلم إلا أنه فرّ وما كرّ ، وحارب فما صَبَرَ ، وباع فما تَمَّمَ ، وقطع الرَّحِمَ ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرّى الكرام وبلدًا
وما كان إلا كالمهجين أمامه عِتَاقٌ ، فجراه العِتَاقُ فَأَجْهَدًا^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يَبْقِ يابني هاشم غيرُ المشائمة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

(١) الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تغيب في التراب للظبي يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا هطلت يده في الحباله انمقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفلت فد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير : شد رسغ يديه بخيط . والمعنى وقعت في حبالتك ، وعاد ما فخرت به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزاً للنفع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت بحجرتك » من رصعه بالرمح إذا طعنه طعناً شديداً غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجتك ، ومعناه كالأول . (٢) الكشكث (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفتات الحجارة .

(٣) يعرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم نكث بيعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

(٤) أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر اهلاً

ولا أولى به منا » . (٥) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق : أى كريم والجمع عتاق ، وفي

الأصل « عتاق » بالنون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أقمناه عنك يا بن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عورك ، ما كنت إلا كالسَّغْب^(١) الظَّمآن ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيح ، فلا يشبع من سَغْب^(٢) ، ولا يروى من عطش ، قل إن شئت أو فدّع ، وانصرف القوم .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سيريره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أحدث تجاه^(٣) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلّةً ومُعَالَبَةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ! يزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقاً من أبي بكر ، فن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقّد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجدهم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ،

(١) الجائع . (٢) جوع . (٣) تجاهه ووجاهه مثلثين : تلقاء وجهه .

فأخبر الله سَنَهُم ، وأدحض جَدَّهُم ، وَوَلَّى الأمر عليهم من كان أحقَّ به ^(١) منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غِرَّةً ^(٢) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قِتْلَةٍ ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٥ — مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك ^(٣) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدّم إعيب عَيْنَاهُ عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظَّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلمتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تَبْناً لَتَيْمٍ ، وعدِيّاً لعدى ^(٤) وأُمِّيَّةً لأمية ، ولو كلنى تَيْمِيٍّ أو عَدَوِيٍّ أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبرَ حاضر عن حاضر ، لا خبرَ غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ، فإن يكن في أسد بن عبد العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيتَ تظن أنك تصلو به علينا ، وما أخلق ثوبُ صفيّة بعدد ، والله المستعان على ما تصفون . »

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٦ — خطبة عبد الله بن عباس

يردّ على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بفضهم وعآبهم ، وهم بما هم به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ،

(١) يشير إلى اختيار عمر رضى الله عنه أصحاب الشورى الستة ، وفيهم الإمام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضى الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرفق والتؤدة . (٤) تيم رهط أبي بكر الصديق ، وعدى رهط عمر الفاروق .

عانبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءوا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك علانيةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثر منه ، لكنني رأيت بنى هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشراً بؤاً^(١) وانحرفت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ، ثم أضرمها عليهم نارا ، فإني لا أقتل منهم إلا آثماً كفاراً سحاراً ، لا أنماهم الله ، ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال : « وفقك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : والله ما قلت صواباً ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ، والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ، ما سوغه الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مغضباً ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فيأعجبا كل العجب ، لافترائه وتكذيبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

(١) اشرب إليه : مد عنقه لينظر أو ارتفع . (٢) في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال استفرغ فلان مجهوده : إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا !) . (٣) الناموس : الحاذق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع على باطن أمرك . (٤) تكذب : تكلف الكذب . (٥) روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالساع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا =

وَحَمَى عِزَّاتٍ^(١) قريش لهاشيم ، وإن أول من سَقَى بمكة عَذْباً ، وجعل باب الكعبة

= كذلك، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة ثريد، ويجمع من حوله فياً كلون، وكان هاشم من أجل الناس وأتمهم، فذكر ذلك لقيصر، فقيل له: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويُنْفِغ عليه اللحم — وإنما كانت العجم تصب المرق في الصِّحَاف ثم تأتدم بالخبز — فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجِب به، فكان يبعث إليه في كل يوم، فيدخل عليه ويحادثه، فلما رأى نفسه تمكن عنده، قال له: «أيها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرون من أدَم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم» فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً — والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الطريق — وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع، فيكفونهم حتملاًنها، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم ورجلهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجرّوزهم؛ يترفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، حتى أوردتهم الشام، وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بَغْزَةً، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجرّ إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفَيْض، وهلك برَدَّمان من اليمن، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب، وهلك عبد شمس بمكة فقبّره بالحِجْجُون، وخرج نوفل بن عبد مناف، وكان أصغر ولد أبيه، فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش، وإيلافاً ممن مر به من العرب، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسَلْمان، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام» — ذيل الأمل ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكسر الإبل تحمل الميرة: بلا واحد من لفظها، أو كل ما متير عليه إبلا كانت أو حيراً أو

بغالا وجمه كمنيات ويسكنه .

ذَهَبًا ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) وَاللَّهُ لَقَدْ نَشَأَتْ نَاشِئَتُنَا مَعَ نَاشِئَةِ قَرِيشٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَقَاءَ لَتَهُمْ ^(٢) إِذَا قَالُوا ، وَخُطْبَاءَهُمْ إِذَا خُطَبَوْا ، وَمَا عُدَّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قَرِيشٍ مَجْدٌ لَغَيْرِنَا ، لِأَنَّهَا فِي كُفْرٍ مَاحِقٍ ، وَدِينٍ فَاسِقٍ ، وَضِلَالَةٍ ^(٣) فِي عَشَوَاءٍ ^(٤) عَمِيَاءَ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَاتَّبَعَتْهُ ^(٥) طَيْبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَبُّ بِمُسَبَّةٍ ، وَلَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدُنَا وَلَدُنَا وَعَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مِنْنَا وَابْنُ عَمْنَا ^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلَحْمَتُنَا ^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ نَخِيرَ النَّاسَ بَعْدَهُ أَكْرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَحِمًا .

وَاعْجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لَابْنِ الزَّيْرِ ! يَعِيبُ بَنِي هَاشِمٍ ، وَإِنَّمَا شَرُفٌ هُوَ وَأَبُوهُ وَجَدُّهُ بِمَصَاهِرَتِهِمْ ، أَمَّا وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمُصْلُوبٌ قَرِيشٍ ، وَمَتَى كَانَ الْعَوَامُّ بَنَ خُوَيْلِدٍ يَطْمَعُ فِي صَفِيَّةِ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؟ قِيلَ لِلْبَعْلِ : مَنْ أَبُوكَ يَا بَعْلُ ؟ فَقَالَ : خَالِي الْفَرَسُ « ثُمَّ نَزَلَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ — خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : « إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَعَمَّى اللَّهُ قَلْبَهُ كَمَا أَعَمَّى بَصَرَهُ ، يَزْعُمُ أَنَّ مُتَعَةَ النِّسَاءِ حَلَالٌ مِنْ

(١) قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفونا ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية » ومرج القلعة محركة : موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف بابا للكعبة ، وضرب في الباب الفزالي صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليته فيما قيل للكعبة » تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ «
(٢) القائلة جمع قائل . (٣) الضلة والضلالة : ضد الهدى . (٤) أى في جهالة وقتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهى عشواء (والعشواء أيضا الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تخبط بيدها كل شئ ، لأنها ترفع رأسها فلا تتمهد مواقع أخفافها) . (٥) انتجبه : اختاره . (٦) يعنى الإمام عليا كرم الله وجهه .
(٧) اللحمة : القرابة .

الله ورسوله ، وَبُفَّتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمْلَةِ ، وقد احتمل بيت مال البصرة^(١) بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضخون^(٢) النوى ، وكيف أؤمهُ في ذلك : وقد قاتل أم المؤمنين وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ بِيَدِهِ^(٣) .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمله قط ، فقال له يوما : كدت أستملكك ، ولكن أخشى أن تستحل النوى على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى » ، واستحل لقربائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومر ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت بحلا ، ولو كنت راعيا ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي ، فكتب أبو الأسود إلى على كتابا يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ماتحت يديه بغير علمك ، فلم يسعني كتابك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك » فكتب على إلى ابن عباس « أن ارفع إلى حمايك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلغك باطل » . فكتب إليه على : « إنه لا يسعني تركك ، حتى تعلمني ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « ابعث إلى عمك من أحببت ، فأني ظاعن منه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبودلت الكتب بين على وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه على ، - انظر المقد الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ - .

وقال آخرون : إن ابن عباس ما فارق عليا ولا باينه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وبعد مقتل على حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة - انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ . (٢) رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يرتضخون أى يكسرون الخبز فإيا كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرتضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذي جاء « وهو يرتضخ لسكنة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى المعجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والفاقة . (٣) كان طلحة بن عبيد الله عن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١٢٨ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بنى أسد بن خزيمه - وكان ابن عباس قد كفّ بصره - استقبل بى وجه ابن الزبير وارفع من صدرى ، فاستقبل به قائده وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فحسّر عن ذراعيه ، ثم قال : « يابن الزبير :

قد أنصف القارة من رامها إنّا إذا مافئة نلقاها
نردّ أولاهما على أخراها حتى تصير حرضا دعوها^(١)

يابن الزبير : أما العى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فتياى فى القملة والنملة ، فإن فيها حكمين لاتعلمهما أنت ولا أصحابك . وأما حلى المال ، فإنه كان ما لا جبيناه ، فأعطينا كل ذى حق حقه ، وبقيت بقية هى دون حقنا فى كتاب الله ، فأخذناها بحقنا ، وأما المتعة فسلّ أمك أسماء إذ نزلت عن بُردى عوسجة ، وأما قتالنا أم المؤمنين ، فبنا سُميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك^(٢) إلى حجاب مدّه الله عليها ، فهتكاه عنها ، ثم اتخذها فتنة يقاتلان دونها ، وصانا حلائلها فى بيوتهما ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زحفاً ، فإن كنا كفاراً فقد كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا مكان صفية فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركتُ لبني أسد بن عبد العزى عظما إلا كسرتة .

(١) الخرض : الفساد فى المذهب والعقل والبدن . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر

الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبوبكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جعله خاله باختيار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنهلك عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) » فقال : بَلَى وعصيتُكَ ، فقالت : يا بُنى احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقته الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأشرفها ، فإياك وإياه آخر الدهر .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِمَكْرِمَةَ : أقم وجهي نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نَوْرَهَا فَنِي فَوَادِي وَعَقْلِي مِنْهَا نَوْرُ

وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان على مؤمناً فقد ضلَّمت بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بُوِّئتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

(١) كعم البعير كنع : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يجعل على فمه ، والجمع كعم ككتب . والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخروسة تلجم أفواه مناظرهم .

(٢) بدده بأمر كنعته : استقبله به أو بدأه به . (٣) جاء في المصباح المنير : « المتعة اسم الفتح ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت في العقد ، وقال في الباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخل سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فاستمتعتم » فأنكحتم على الشريطة التي في قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين النكاح ، واستمتعتم بكذا وتمتعتم : انتفعت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج : إذا أحرمت بالعمرة في أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتعاً » اهـ . =

وأول مجمر^(١) سَطَعَ في الْمُتَعَةِ مجمر آل الزبير^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٨٩ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب . فقال عمرو : والله لأسوأَنَّهُ اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تظهر لنا من مَنَقَبَتِهِ^(٣) ما هو خفي عنا ، ومالا نحب أن نعلمه منه ، وغَشِبَهُم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام جهارا غير سائر له وتَلَبَّه تَلَبًّا^(٤) قبيحا ، فامْتَقِع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أَفْكَل^(٦) ، حتى أُرْعِدَت خصائله^(٧) ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْق^(٨) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أُم لك ، ثم قال :

أظن الحلم دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء في التفاسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم سمى بها ، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتعها بما تعالى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه .

(١) المجمر : العود ، واستجمر بالمجمر : تبخر بالعود . (٢) قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عني متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلنا ، فكيف تكون متعة النساء ؟ » .

(٣) المنقبة : المفخرة . (٤) تلبه : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأفكل : الرعدة .

(٧) جمع خصيلة : وهي لحم الفخذين والعصدين والذراعين ، أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

(٨) الفنيق : الفحل المكروم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

« يامعاوية حَتَّامٌ تَجَرَّعَ غِيظَكَ ، وإلى كم الصبر على مكروه قولك ، وسيء أدبك ،
وذميم أخلاقك ، هَبَلْتَكَ الْهَبُولُ (١) ، أما يزجرك ذِمَامُ (٢) المجالسة عن القَذْعِ (٣) لجليسك
إذا لم تكن لك حُرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ، والله لو عطفك أو أصر (٤)
الأرحام ، أو حاميت على سهمك من الإسلام ، ما أرعيت بنى الإماء المُتَكِّ (٥) ، والعبيد
السَّكَّ (٦) أعراض قومك ، وما يحبل موضع الصَّفوة (٧) إلا أهل الجفوة ، وإنك لتعرف
وشائج (٨) قريش ، وصفوة غرائرها ، فلا يدعوك تصويب مافراط من خطئك في سفك
دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذى فيما قد وضع لك الصواب في خلافه ،
فاقصِدْ لمنهج الحق فقد طال عمهك (٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك في دَبْجُور (١٠) ظلمة
الغى ، فإن آيت أن لاتتابعنا في قبح اختيارك لنفسك ، فأعفنا عن سوء القالة (١١) فينا ،
إذا ضَمَّنَا وإياك النَّدَى (١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حسيبك ، فوالله لولا
ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن كلفتني ما لم أطق ، ساءك ما سئرت مني
من خلق . »

(١) هبلته أمه : ثكلته ، والهبول : المرأة لا يعيش لها ولد . (٢) الذمام : الحرمة . (٣) قذعه وأقذعه :
رماه بالفحش وسوء القول . (٤) جمع آصرة ، وهى القرابة وحبل صغير يشده أسفل الخباء . (٥) المتك : جمع
متكاه (كحمراء) وهى البطراء والمفضاة ولتى لاتمسك البول . (٦) السك جمع أسك من السكك (محركة) ،
وهو صغر الأذن وإزوقها بالرأس ، أو صغر فوف الأذن وضيق الصباخ . (٧) أى صفوة القوم وسادتهم .
(٨) فى الأصل « وشائك » وقد بحث فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والوشيك السريع والقريب ،
وامرأة وشيك : أى سريعة » فلو جعلنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على التأنيث » لم يستقم معنى العبارة ،
وأراء محرفا عن « وشائج » بالجم . جمع وشيجة ، وهى عرق الشجرة ، فعنى وشائج قريش أصولها وعروقها
« والعرق أصل كل شيء » أى وإنك يامعاوية لتعرف أصول قريش للكرمية الزاكية التى تأبى الضيم ولا تحتمل
الثلب والإهانة « والوشيج أيضا شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق « مشتقة من رسول الله
نبيته » - والنبي : شجر تتخذ منه القسي والسهام . (٩) الغمة محركة : التردد فى الضلال .
(١٠) الديجور : الظلام . (١١) القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر . (١٢) النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغَيِّر الخطأ ، أقسمت عليك لتَجْلِسَنَّ ، لمن الله من أخرج خَبَّ صدرِكَ من وَجَّارِهِ^(١) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن مَحْمُودُكَ^(٢) ومنصِبِكَ لكان خُلُقُكَ وَخَلْقُكَ شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازعهما في ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كأنه ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما في هذا في المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكان رسول الله صلى الله عليه وآله مشيئهُ وَخَلْقُهُ وَخُلُقُهُ ، وإنه لمن مَشْكَاة^(٣) ، لو دِدْتُ أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنك ازدراك واستحقرك ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له جوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب فيما يرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ - الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن عليّ رضي الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أَفْءُ^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

(١) جحره . (٢) أصلك . (٣) المشكاة : السكوة التي ليست بنافذة .

(٤) أفء : وصف من الفهامة ، وهي المي ، وفعله فهو كفرح ، وقياس الوصف منه أفء على أفعل لأنه

يدل على خلقه « عيب » كعمور وعمى وعرج ، واسكن الذي في كتب اللغة : فله كعذب وفيه وفهفه .

طلبتم ابنا لبنيكم ما بين جابرئس إلى جابلق^(١) لم تجدوه غيري وغير أخى : (وإن أذرى
لقله فتنه لكم ومتاع إلى حين) فساء ذلك عمرًا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له :
أبا محمد ، هل تنمت الرطب^(٢) ؟ فقال : « أجل تُلقيحه الشمال ، وتُخرجه الجنوب ،
ويُنضجه برزء الليل ، بحرّ النهار^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنمت الخراة^(٤) ؟ قال :
« نعم ، تُبعد الممشى فى الأرض الصصح^(٥) ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل
القبلة ، ولا تستدبرها ، ولا تستنجد بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبلى فى الماء الراكد »
وأخذ فى كلامه .

(المقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ — الحسن بن على ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبى سفيان جالس فى أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال
معاوية : إن دخل أفسد علينا مانحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإنى أسأله
ماليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام وأذن له ،
فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال إن ذلك
من الخرق^(٦) ، فقال الحسن : ليس كما بقلك ، ولكننا ممشرون بنى هاشم ، أفواهُنا عذبة

(١) جابرئس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت فى معجمه
بسكون اللام ، وفى القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفى رواية : جابلص » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام . وفى القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه أنسى ، وفى العقد
الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لابتها » ولا بتا المدينة : حرتان تكتنفانها . (٢) يسأله هذا
وما بعده تعجيزا له . (٣) وفى العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » . (٤) خرى كسمع
خرارة بفتح الخاء وكسرها : سلح . (٥) الصصح : ما استوى من الأرض . وفى العقد الفريد
« للصحيح » وهو تحريف . (٦) الخرق كسبب : الحق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور
والاسم الخرق كقفل .

شِفَاهُهَا ، فَنَسَاؤُنَا يُقْبِلُنَ عَلَيْنَا بِأَنْفَاسِهِنَّ وَقُبُلِهِنَّ ، وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ بَنِي أُمَيَّةَ فِيكُمْ بَحْرٌ^(١) شَدِيدٌ ، فَنَسَاؤُكُمْ يَصْرِفُنَ أَفْوَاهَهُنَّ وَأَنْفَاسَهُنَّ عَنْكُمْ إِلَى أَصْدَاغِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ مَوْضِعُ الْمِذَارِ^(٢) . مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ . قَالَ سِرْوَانُ : إِنْ فِيكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ خَصَالَةٌ سَوَاءٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْعُلَمَةُ^(٣) . قَالَ : أَجَلٌ ، نُزِعَتِ الْعُلَمَةُ مِنْ نِسَائِنَا ، وَوُضِعَتْ فِي رِجَالِنَا وَنُزِعَتِ الْعُلَمَةُ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَوُضِعَتْ فِي نِسَائِكُمْ ، فَمَا قَامَ لِأَمَوِيَّةٍ إِلَّا هَاشِمِيٌّ ؛ فَغَضِبَ مَعَاوِيَةُ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى سَمِعْتُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْكُمْ بَيْنَكُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكُمْ مَجْلِسَكُمْ » (المقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٢ — عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَعَاوِيَةَ مُضَاضِبًا لِأَخِيهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ^(٤) ، فَأَكْرَمَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ : « وَاللَّهِ إِنْ عَلِيًّا غَيْرُ حَافِظٍ لَكَ ، قَطَعَ قَرَابَتُكَ ، وَمَا وَصَّلَكَ ، وَلَا اصْطَنَعَكَ » قَالَ لَهُ عَقِيلُ : « وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْعَطِيَّةُ وَأَعْظَمَهَا ، وَوَصَلَ الْقَرَابَةَ وَحَفِظَهَا ، وَحَسَّنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ إِذْ سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ ، وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ ، إِذْ خُنِمَ وَأَفْسَدْتُمْ وَجُرْتُمْ ، فَا كَفَفَ لَا أَبَالَكَ فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعْزِلٍ » .

وَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « أَبَا يَزِيدَ ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٍّ » قَالَ « صَدَقْتَ ، إِنْ

(١) البخر : التَّنَنُّ فِي الْفَمِ وَغَيْرِهِ . (٢) المذار : جَانِبَا اللَّحْيَةِ .

(٣) العُلَمَةُ : شِدَّةُ الشَّهْوَةِ كَالشَّبَقِ بِالتَّحْرِيكِ . (٤) وَكَانَ قَدْ قَدَّمَ عَلَيْهِ بِالسَّكُوفَةِ ، فَسَأَلَهُ أَنْ

يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنَهُ ، قَالَ : وَكَمْ دَيْنُكَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُونَ أَلْفًا ، قَالَ : مَا هِيَ عِنْدِي ، وَلَكِنْ أَصْبِرْ حَتَّى يَخْرُجَ عَطَافِي فَإِنَّهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَأُدْفَعُهُ إِلَيْكَ ، قَالَ : بَيَّوتَ الْمَالَ بِيَدِكَ وَأَنْتَ تَسْوَفُنِي بِعَطَافِكَ ؟ قَالَ : أَتَأْمُرُنِي أَنْ أَدْفَعُ إِلَيْكَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أَتَمَّنُونَنِي عَلَيْهَا ؟ قَالَ : فَإِنِّي آتٍ مَعَاوِيَةَ ، فَأَذُنْ لَهُ فَقَدِمَ عَلَيْهِ « انْظُرْ أَسَدَ الْغَابَةِ ٣ :

٤٢٣ والفخرى ص ٧٦ » أَقْرَأَ أَيْضًا كَلِمَةً فِي هَذَا الصَّدَدِ فِي شَرْحِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ م ٣ : ٨٢ . وَفِي تَرْجُمَةِ عَلِيِّ

ابْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْمُؤَلِّفِ ص ٨٣ .

أَخِي آثَرَ دِينَهُ عَلَى دِينِي ، وَأَنْتِ آثَرْتَ دِينِي عَلَى دِينِكَ ، فَأَنْتِ خَيْرُ لِي مِنْ أَخِي ، وَأَخِي خَيْرٌ لِنَفْسِهِ مِنْكَ ^(١) .

وَقَالَ لَهُ مَرَّةً : « أَنْتِ مَعْنَا يَا أَبَا يَزِيدَ » قَالَ : « وَيَوْمَ بَدْرٍ قَدْ كُنْتُ مَعَكُمْ ! » .
وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : إِنْ عَلِيًّا قَدْ قَطَعَكَ وَوَصَلَتْكَ ، وَلَا يُرْضِيَنِي مِنْكَ إِلَّا أَنْ تَلْعَنَهُ عَلَى
عَلَى الْمَنْبَرِ . قَالَ : أَفْعَلُ ، فَأُصْعِدُ فَصْعِدِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ : « أَيُّهَا النَّاسُ
إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ أَمَرَنِي أَنْ أَلْعَنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَالْعَنُوهُ ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ثُمَّ نَزَلَ ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : إِنَّكَ لَمْ تَبَيِّنْ - أَبَا يَزِيدَ - مَنْ
لَعَنْتَ بَنِي وَبَيْتَهُ . قَالَ : وَاللَّهِ لَا زِدْتُ حَرْفًا وَلَا نَقَصْتُ آخِرَ ، وَالْكَلَامُ إِلَى
نِيَّةِ الْمُكَلِّمِ .

وَدَخَلَ عَقِيلٌ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَقَدْ كَفَّ بَصَرَهُ ، فَأَجْلَسَهُ عَلَى سُرِيرِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :
« أَنْتُمْ مَعْشَرُ بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ » قَالَ : « وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ بَنِي أُمَيَّةٍ تُصَابُونَ
فِي بَصَائِرِكُمْ » .

وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : مَا أُبَيِّنَ الشَّبَقَ فِي رِجَالِكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ قَالَ : لَسَكُنْهُ فِي نِسَائِكُمْ
أُبَيِّنُ يَا بَنِي أُمَيَّةٍ .

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « يَا أَهْلَ الشَّامِ ، هَلْ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ : (تَبَّتْ
يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ) ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنْ أَبَا لَهَبٍ عَمَّ ، فَقَالَ عَقِيلٌ : فَهَلْ سَمِعْتُمْ
قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ ^(٣)) قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّهَا عَمَّتْهُ ، ثُمَّ

(١) وَفِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ : هَذَا أَبُو يَزِيدَ ، لَوْلَا أَنَّهُ عَلِمَ أَنِّي خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَخِيهِ لَمَا أَقَامَ
عِنْدَنَا وَتَرَكَه ، فَقَالَ لَهُ عَقِيلٌ : « أَخِي خَيْرٌ لِي فِي دِينِي ، وَأَنْتِ خَيْرُ لِي فِي دُنْيَايَ » . (٢) هُوَ أَبُو لَهَبٍ
ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْإِذَاءِ لَهُ ، يَرْمِي الْقَدْرَ عَلَى بَابِهِ .

(٣) هِيَ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةٍ أُخْتُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَقِيلَ لَهَا حَمَّالَةُ الْخَطْبِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ
الشُّوْكَ وَالسَّعْدَانَ وَتُلْقِيهِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ ذَاكَ لَهَا وَكَانَتْ جَارَتَهُ ، أَوْ هُوَ الْفَيْمَةُ إِذْ كَانَتْ
تَسْمَى عَلَيْهِ بِالْفَنَاءِ وَتَتَوَقَّدُ بِذَلِكَ نَارَ الْخُصُومَةِ ، أَوْ حَطَبَ جَهَنَّمَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الْأَوْزَارَ بِمَعَادَاتِهِ ، وَتَحْمِلُ
زَوْجَهَا عَلَى إِذْنَانِهِ .

قال « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لهب ، مفترشا
عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تمجبنى يا بني هاشم . قال : وما هي ؟
قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تُعَيِّر يا معاوية ؟ أَجَلْ والله
إن فينا لَليِّنًا من غير ضَعْف ، وعزا من غير جَبْرُوت ، وأما أنتم يا بني أمية ، فإن لينكم
غَدْر ، وعزكم كُفْر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .
وقال معاوية لعقيل : لِمَ جَفَوْتُنَا يَا أبا يزيد ؟ فَأَنشَأَ يقول :

إني امرؤ مني الشكر ثم شيمة إذا صاح بي يوما على المون أضيرا
ثم قال « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مهْدَتِكَ مِهَادَهَا ، وأظَلَّتْكَ
بِحَذَافِير^(١) أهلها ، ومدَّتْ عليك أطناب سلطانها ، ما ذاك بالذي يَزِيدُكَ مني رغبة ،
ولا تخشعًا لرغبة » قال معاوية : « لقد نَعِمْتُ يَا أبا يزيد نَعْمَتًا هَشَّ لها قلبي ، وإني لأرجو أن
أن يكون الله تبارك وتعالى مارَدًا نِي بَرْدَاءِ مَلِكِهَا ، وَحَبَانِي بِفَضِيلَةِ عَيْشِهَا ، إِلَّا لِكِرَامَةِ
أَدْخَرِهَا لِي ، وَقَدْ كَانَ دَاوُدَ خَلِيفَةً ، وَسَالِمَانَ مَلِكًا ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلثَّالِ يُحْتَذَى عَلَيْهِ ،
وَالْأُمُورُ أَشْبَاهُ ، وَايْمُ اللَّهِ يَا أبا يزيد ، لقد أَصْبَحْتَ عَلَيْنَا كَرِيمًا ، وَإِلَيْنَا حَبِيبًا ،
وَمَا أَصْبَحْتُ أَضِيرُكَ إِسَاءَةً . »

(المقد الفريد ٢ : ١١٠ — ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) الحذافير : جمع حذفور أو حذفار (كمصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٣٣ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأُدخلَ النِّسوة من كَرْبَلَاءَ إلى الكوفة جعلت نساؤها يلتدِمْنَ ^(١) ، ويهْتِكْنَ أَلْبِيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ ^(٢) من المرض - يا أهل الكوفة إنكم تَبْكون علينا ، فمن قَتَلْنَا غَيْرُكُمْ ؟ وأومأت أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَأَتِ الأَجْرَاسَ ^(٣) ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على أبيّ ^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهل الْخَلْزِ ^(٥) وَالْخَذَلِ ، لا ، فلا رَقَاتٍ ^(٦) الْعَبْرَةَ ، ولا هَدَأَتِ الرَّنَّةَ ^(٧) ، إنما مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ^(٨) ، تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا ^(٩) بَيْنَكُمْ ، أَلَا واهل فيكم إلا الصِّلَفُ ^(١٠) وَالشَّنْفُ ^(١١) ، ومَلَقَ ^(١٢) الإمام ، وَغَمَزُ الأعداء ، واهل أنتم

-
- (١) لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وضربت صدرها في النياحة ، ويهتكن : يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص . (٢) كنع وعلم ونصر وكرم .
 (٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدّي سيد المرسلين » . (٥) الغدر والخديعة ، أو أفيح الغدر .
 (٦) رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض . (٧) الرنة : الصوت .
 (٨) أنكاثا : جمع نكت كحمل ، وهو مانقض ليغزل ثانية - حال من غزلها ، أو مفعول ثان لنقضت لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنقضه .
 (٩) الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخِل من فساد في عقل أو جسم ، والغدر والمكر والخديعة . (١٠) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمعترض عليه ، أو كالمتعجب منه ، أو كالسكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتنبكره . (١٢) ملق الجارية : بجامعتها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملقى : الملقى .

إِلَّا كَمَرَعَى عَلَى دِمْنَةٍ (١) ، وَكَفِضَةً عَلَى مَلْحُودَةٍ (٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَايْكُؤْا ، وَإِنَّا لَنَكْمُ أَعْرِيَاءَ (٣) بِالْبَيْكَاءِ ، فَايْكُؤْا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَزَنِمَ بَعَارَهَا وَشَنَارَهَا (٤) وَلَنْ تُرْحَضُوهَا (٥) بِفَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَأَنْتَى تُرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبِوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسِيدِ شَبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَةِ (٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخِ (٧) نَازِلَتِكُمْ ، فَتَعَسَّأَ وَنُكْسَا (٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّمَى ، وَخَسِرَتِ الصَّفْقَةُ (٩) ، وَبُؤْتُمْ (١٠) بَغْضَبِ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١١) ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٢) ؛ أَتَدْرُونَ أَيْ كَبِدَ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرِئْتُمْ ، وَأَيْ كَرِيمَةً لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيْ دَمَ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرْقَاءَ (١٣) ، شَرُّهَا طِلَاعُ (١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أُنْفَعِجْتُمْ أَنْ قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ؛ فَلَا سَتَخْفَنُكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفِزُهُ الْمُبَادَرَةُ (١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ فَوْتُ النَّارِ ، كَلَّا ، إِنْ رَبُّكَ لَنَا لِهْمٌ لِبِالْمِرْصَادِ (١٦) » ثُمَّ

(١) اللبنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرها ، أخذت هذا القول من قول

جدها عليه الصلاة والسلام : « إِيَاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ » وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنْبَتِ السُّوءِ .

(٢) ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جدبرون .

(٤) الشنار : أقبح العيب . (٥) رخصه كنعته وأرخصه : غشله . (٦) دره عن القوم

كنع : إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . (٧) أى مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر

وبضم الراء من روعك - أى اسكن وأمن ، والروع : القلب . (٨) التمس : الهلاك ، ونكسه نكسا :

قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويقال : تمسا له ونكسا ، بضم النون وقد

يفتح ازدواجاً . (٩) البيعة . (١٠) رجعت . (١١) أى فظيماً منكراً . (١٢) يتشققن ،

وتخر : تسقط ، هذا : أى تهد هذا . (١٣) بها أى بفعلكم هذه ، وخرقاء من الخرق : وهو ألا يحسن

الرجل العمل والتصرف في الأمور . (١٤) طلاع الشيء : ملؤه . (١٥) أى لا تدفعه إلى العقوبة

المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده :

رقبه ، أى يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شيء .

ولت عنهم ، فظل الناس حيَّارِي ، وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من بني جُعْفَى - وقد اخضَلَّت (١) لحيته من دموع عينيه .

كُوهْلُهُمْ خَيْرُ الْكُوهْلِ وَنَسْلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَحْزَى

(بلاغات النساء ص ٢٧)

١٢٤ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام

بين يدي يزيد

ولما وجّه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طسّنت ، فجعل ينسكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو يقول من أبيات (٢) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدِرُ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَرْجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ (٣)

لَأَهْلُوا وَأُسْتَهْلُوا فَرَحًا نِمَ قَالُوا : يَا يَزِيدُ لَا تَشَلْ (٤)

فَجَزَيْدَاهُم بَسْدِرٍ مِثْلَهَا وَأَقْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدِلْ (٥)

فقال زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! (ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا الشؤءى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) أغضبت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكذاف السماء فأصبحنا نساق كما يساق

(١) ابتلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الأبيات وهو لعبد الله بن الزبيرى ، قالها في غزوة أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .

(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخرج : قبيلة من الأنصار . (٤) كل من رفع صوته فقد أهل إهلا ولا واستهل استهلا ، وشلت يده تشل كتعب يتعب ، وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست وهى جملة دعائية ، يقال فى الدماء : « لا تشل يدك ولا تكلل » - والبيت من قول يزيد - . (٥) لاتنس ما قدمناه لك من أن عليا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان ويذر ، فقتل حنظلة بن أبي سفيان أخا معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

الْأَسَارَى ، أَنْ بَنَاهَوَانَا عَلَى اللَّهِ ، وَبِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةٌ ؟ وَأَنْ هَذَا لِعَظِيمِ خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، وَنَظَرْتَ فِي عِطْفَيْكَ ^(١) ، جَذْلَانِ فَرِحَا ، حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا مُسْتَوَسِّقَةً لَكَ ، وَالْأُمُورَ مُتَسِّقَةً ^(٢) عَلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِيتَتْ وَنُفِستَ ^(٣) ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْمَاءُ نُمُوتُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) أَيْنَ الْعَدْلُ ، يَا بَنِي الطَّلَقَاءِ تَحْدِيرُكَ ^(٥) نِسَاءَكَ وَإِمَاءَكَ وَسَوَقَكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ هَتَكَتَ سِتُورَهُنَّ ، وَأَصْحَلْتَ ^(٦) صَوْتَهُنَّ ، مَكْنَثَاتٍ تَخْدِي ^(٧) بَنِي الْأَبَاعِ ، وَيَحْدُو ^(٨) بَنِي الْأَعَادِي ، مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ ، لَا يُرَاقِبُنَّ وَلَا يُؤَوِّنُ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ ^(٩) الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، لِبَسِّ مَعْنٍ وَلِي ^(١٠) مِنْ رَجَالِهِمْ . وَكَيْفَ يُسْتَنْبَطُ فِي بَغْضَتِنَا مِنْ نَظَرِ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ ^(١١) وَالشَّنَّانِ ، وَالْإِحْنِ وَالْأَضْغَانِ ؟ أَتَقُولُ « لَيْتَ أَشْيَاخِي يَدْرُسُهُمْ » غَيْرَ مُتَأَمِّنٍ وَلَا مُسْتَعِظٍ ؟ وَأَنْتَ تَنْتَكِرُ ثَنَابًا أَيْ عَبْدَ اللَّهِ بِمُخَصَّرَتِكَ ^(١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونِ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ ^(١٣) الْقَرْحَةَ ، وَاسْتَأْصَلَتِ الشَّافَةَ ^(١٤) ، يَا هَرَاكَ دِمَاءَ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنُجُومِ

-
- (١) أَيْ جَانِبَيْكَ ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ إِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ . (٢) مِنْ اسْتَوَسَّقَتْ الْإِبِلُ : أَيْ اجْتَمَعَتْ ، وَتَسَّقَتْ : مُتَسَّقَةٌ . (٣) أَيْ فَسَحَ لَكَ فِي أَمْرِكَ ، مِنْ نَفْسِ اللَّهِ كَرِهَتْ : فَرَجَهَا . (٤) نَمَلٌ . (٥) صَوْتُهُنَّ فِي خِلْوَرِهِنَّ . (٦) أَبْجَحَتْ ، صَحَلَ صَوْتُهُ كَفَرَجَ : بَجَحَ . (٧) خَدَى الْبَعِيرَ وَالْفَرَسَ كَجَرَى : أَمْرَعُ وَزَجَّ بِقَوَائِمِهِ ، أَوْ هُوَ ضَرْبٌ مِنْ سِيرِهَا . (٨) يَسُوقُ . (٩) يَتَطَاوَلُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ وَيُشْرِفُ عَلَيْهِنَّ . (١٠) قَرِيبٌ أَوْ نَصِيرٌ . (١١) سَبَقَ تَفْسِيرُهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « بِالشَّنْقِ » وَهُوَ تَحْرِيفُ (وَالشَّنْقُ : أَنْ تَكْفُفَ الْبَعِيرَ بِزِمَامِهِ حَتَّى تَلْزُقَ ذِفْرَاهُ بِقَادِمَةِ الرَّحْلِ ، وَالذَّفْرَى بِكَسْرِ الدَّالِ : الْعَظْمُ الشَّائِخِ خَلْفَ الْأُذُنِ) ، وَالشَّنَّانُ : الْكِرَاهِيَةُ ، وَالْإِحْنُ : الْأَحْقَادُ . (١٢) الْمَخْصَرَةُ : مَا يَأْخُذُهُ الْمَلِكُ يَشِيرُ بِهِ إِذَا خَاطَبَ . (١٣) نَكَأَ الْقَرْحَةَ كَنَعَ : قَشَرَهَا قَبْلَ أَنْ قَبَرَ فَنَدَيْتَ ، كُنَايَةٌ عَنْ نَبَشِهِ عَمَّا كَادَ يَنْسِي مِنَ الْعِدَاوَةِ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمِيَّةٍ . (١٤) الشَّافَةُ : قَرْحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ فَتَكْوِي فَتَذْهَبُ ، وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ شَافَتَهُ : أَذْهَبَهُ كَمَا تَذْهَبُ تِلْكَ الْقَرْحَةُ .

الأرض من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكَاً^(١) مَوْرِدُهُمْ ، وَلَتَوَدََّنَّ أَنَّكَ
عَمِيتَ وَبَكِمْتَ وَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرَحًا » اللَّهُمَّ خذْ بِحَقِّنَا ، وَانْتَقِمْ لَنَا
مَنْ ظَلَمَنَا . وَاللَّهُ مَا قَرَّبْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ . وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لَحْمِكَ ، وَسَتَرْدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَنُحْمِكَ^(٢) . وَعِثْرَتُهُ وَأُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ^(٣) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ
شَمْلَهُمْ مَلُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ^(٤) . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ^(٥) وَمَكْنِكَ مِنْ
رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحُكْمَ اللَّهُ ، وَالْخَصَمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَوَارْحُكَ
شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ فَيَنْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَبْشِكُمْ شَرًّا مَكَانًا وَأَضْعَفُ جَنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ
يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْفِرُ قُدْرَكَ ، وَأَسْتَعِظُمُ تَقَرُّيْعَكَ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَبْرَى
وَالصُّدُورَ حَرَى^(٧) ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ؛ وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحَزَبُ
الشَّيْطَانِ^(٨) يَقْرَبُنَا إِلَى حَزْبِ السَّفَهَاءِ^(٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ مُحَارِمِ اللَّهِ ،
فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطَفِ^(١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحْلَبُ^(١١) مِنْ لَحُومِنَا ، وَتِلْكَ الْجُثَثُ
الزَّوَاكِي يَمْتَامُهَا عَسَلَانِ الْقَلَوَاتِ^(١٢) ، فَلَنْ اتَّخَذْتُمَا مَغْنَمًا لَتَتَّخِذَنَّ مَغْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ
إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ^(١٣) : يَا بَنَ مَرْجَانَةَ ، وَيَسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَقْعَاوِي وَأَتْبَاعُكَ

(١) سريعا . (٢) الرغم : الدل . (٣) العترة : رهط الرجل وعشيرته الأذنون ،
واللحمة : القرابة ، والقدس : الطهر ، - أي في الجنة - . (٤) التفرق .
(٥) أي أهلك في كرسى الخلافة وهو معاوية . (٦) التقرع : التأنيب . (٧) عين عبري : جرت
عبرتها ، والصدر حرى : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبيد الله بن زياد ورجاله .
(٩) أي إلى يزيد وشيعته . (١٠) نطف الماء كنصر وضرب : سال ، ونطف كفرج ، وعنى :
تلطخ بغيبي . (١١) تحلب العرق : سال وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . (١٢) الزواكي : جمع
زاكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل الغائب عسلانا
بكجري جريانا : أعنت وأسرع ، والعاسل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والمراد هنا معنى الجمع لا المصدر :
أي ذؤبان القلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لعاسل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
(١٣) تستغيث .

عند الميزان ؛ وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاوية فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ،
فوالله ما اتقيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكذلك كيدك ، واسع سعيك ،
وناصب جهلك^(٢) . فوالله لا يرضخ عنك عار ما أثبت إلينا أبدا ، والحمد لله الذى ختم
بالسعادة والمغفرة اسادات شتبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم
الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ - رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن على عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :
« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصر الحق مظانته^(٣) ، وتؤثر الله عند
تداحض^(٤) الباطل فى مواطن التقيّة بحسن الروية ، وتستشف^(٥) جليل معاطم الدنيا
بعين لها حارقة ، وتفيض عليها يدا طاهرة الأطراف ، نقيّة الأسيرة^(٦) ، وتردع بادرّة
غرب أعدائك بأيسر المئونة عليك . ولا غرور وأنت ابن سلاله النبوة ، ورضيع لبان
الحكمة . فإلى روح ورينحان وجنته نعيم . أعظم الله لنا واسم الأجر عليه ، ووهب
لنا ولكم السّلوّة وحسن الأسمى^(٧) عنه » (عيون الأخبار م ٢ : ص ٣١٤)

(١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه العداوة : أظهرها له .

(٣) فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراه بالنون ، وقوله « مظانته » أى فى مظانته ، أو هو بدل .

(٤) هى تفاعل من الدحض ، دحض برجله كمنع : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمعنى :

عند تطاحن الباطل ومغالبة بعضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ماوراءه . (٦) الأسيرة جمع سرار

ككتاب : الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجهة . (٧) الأسمى بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة بالضم

والكسر أيضا : ما يمتزى به .

١٢٦ — عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص

في مجاس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ على كَرَمِ الله وجهه ، كان في نفس معاوية من يوم صَفِينِ عَلَى هاشمِ ابنِ عُتْبَةَ بنِ أُمَيٍّ وَقَاصِ المِرْقَالِ وولده عبد الله بن هاشمٍ إْحَنٌ ؛ فلما استعمل معاوية زياداً على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عُتْبَةَ فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعت به إلى » فحمله زياد من البصرة مُقَيَّدًا مَقْلُولًا إلى دِمَشْقَ ، وقد كان زياد طَرَفَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمر بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صَفِينِ ^(١) :

إِنِّي شَرِيتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلَا ^(٢)

أَعُورُ يَبْغِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى بَلَا ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يُفْلَ أَوْ يُفْلَا يَتْلَهُمْ بِذِي السَّكُوبِ تَلَا ^(٤)

لاخير عندي في كريمٍ وَلَى

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور فقئت عينه يوم اليرموك بالشام)

فقال : يا هاشم ، أعورا وجبنا ! لاخير في أعور لا يثقى البأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم أتى الأحبة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أى بعته في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أى ادعى ذنبا لم يفعله) ، وقاطله

ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتل أى لما رماني عمار بالجبن . (٣) يبغى أهله محلا : أى يبغى محل أهله أى يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبغى لقاءهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يقل : يهزم ويفلب ، وتله صرعه ، أو ألقاه على عنقه وخذه (وفى الأصل : أسلمهم بذى السكوب

سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبرى ، وابن الأثير يتلهم بالتاء ، وأهو صحيح على معنى : أسل أرواحهم

وانتزعها) ، وذو السكوب : الرمح ، وكسوب الرمح : النواثر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو متمثلاً :

وقد يَنْبُتُ الرَّحَى عَلَى دِمَنِ النَّزَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ^(١)
« دونك يا أمير المؤمنين الضَّبُّ الضَّبُّ »^(٢) ، فَاشْخُبْ أوداجَهُ^(٣) عَلَى أَسْبَاجِهِ^(٤) ،
وَلَا تَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى النِّفَاقِ ، وَهُمْ أَهْلُ غَدَرٍ وَشَقَاقٍ ، وَحِزْبُ
إِبْلِيسَ لِيَوْمِ هِجَابِهِ ، وَإِنْ لَهُ هَوًى سَيُودِيهِ^(٥) ، وَرَأْيَا سَيُطْغِيهِ^(٦) ، وَبِطَانَةٌ سَتُقَوِيهِ ،
« وَجَزَاهُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهى ما اسود من آثار الدار بالبحر والرماد وغيرها ، وهذا البيت
لزفر بن الحارث السكلاي من قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راهط ، التى نشبت بعد
موت معاوية الثاقب بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودعا إلى الزيرية من الضحاك بن قيس
الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر السكلاي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبرى ،
ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الضب : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بحر
الشمس كما تتلون الحرباء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أخدع من ضب » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ،
فيأتى الحارث (حرس الضب واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها
فيأخذه ، ولكن الضب شديد الحذر فإنه يمد بلذبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر إن جاءه ،
فيجىء المحترش ، فإن كان الضب مجربا أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضربه وإلا بقى فى
جحره ، فهذا هو خدعه - يمتنون به شدة حذره - وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب ، لما بينها
من الألفة والاستعانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وَأَخْدَعُ مَنْ ضَبَّ إِذَا جَاءَ حَارِشٌ أَعَدَ لَهُ عِنْدَ الذَّنَابَةِ عَقْرِبَا

ويقولون : « فلان ضب ضب » (والخب بالفتح وبكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن فى قلبه
الذى يسرى ضرره ، بخدع الضب فى جحره (ومن أمثاله فيه أيضا) « أعق من ضب » - يريدون الأنثى ،
وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضبة إذا باضت حرست بيضها من كل ماقدرت عليه من ورل وحية
 وغير ذلك ، فإذا نعت أولادها ، وخرجت من البيض . ظننها شيئا يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ،
فلا ينجو منها إلا الشريد - وقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقدة
- « وأجبن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » - أى أطول عمرا .

(٣) الأوداج جمع ودج بالتحريك : عرق فى العنق ، وشخبت أوداج القتيل دما من بابى قتل ونفع :
جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : در وسال ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى . (٤) الأسباج جمع
سبجة « كفرصة » وسبجة القميص : لبنته - بنيقته . (٥) أى وإن له ميلا إلى آل على سبيلك .
(٦) طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والظلم .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أَقْتَلَ فرجُلٌ أَسْلَمَهُ ^(١) قَوْمُهُ ، وأدركه يومُهُ ، أَفَلَا كان هذا منك إِذْ تَحِيدُ عَنِ الْقِتَالِ ، ونحن ندعوك إِلى النَّزَالِ ، وأنت تَلُوذُ بِشَمَالِ النَّطَافِ ^(٢) ، وعقائِقِ الرِّصَافِ ^(٣) ، كالأَمَةِ السَّوْدَاءِ ، والنعْجَةِ الْقَوْدَاءِ ^(٤) لا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ . »

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعتَ فى لَهَازِمٍ ^(٥) شَدَقَهمُ الأَقْرَانُ ذى لَبِيدٍ ، ولا أَحْسَبُكَ مُنْفَلِتًا مِنْ مَخَالِيبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . »

فقال عبد الله : « أما والله يابن العاص ، إِنَّكَ لَبَطِرٌ فى الرَّخَاءِ ، جبانٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، غَشُومٌ ^(٦) إِذَا وَلِيْتَ ، هَيَّابٌ إِذَا لَقِيتَ ، تَهْدِرٌ ^(٧) كَمَا يَهْدِرُ الْعَوْدُ الْمَنْكُوسُ ، الْمُقَيَّدُ بَيْنَ مَجْرَمَى الشَّوْلِ ، لا يُسْتَفْجَلُ فى المَدَّةِ ، ولا يُرْجَى فى الشَّدَّةِ ، أَفَلَا كان هذا منك ، إِذْ غَمَرَكَ أَقْوَامٌ لَمْ يُعَفِّقُوا صَغَارًا ، ولم يُمَزِّقُوا كِبَارًا . لَهُمْ أَيْدٍ شِدَادٌ ، وَأَلْسِنَةٌ حِدَادٌ ،

(١) خذله . (٢) النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهى الماء الصافى ، قل أو كثر ، وفى الحديث « قطعنا لإيهم هذه النطفة » أى البحر وماده ، وفى حديث على : « وليلها عند النطاف والأعشاب » يعنى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدعها لترد وترعى . (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائيق : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسمه عقيق ، والجمع أعقة وعقائيق ، وقيل العقائيق هى الرمال الحمر . (٤) مؤنث الأقود : وهو الذاول المنقاد . (٥) جمع لهزم كجمفر : وهو القاطع من الأَسنة ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد مبتلع للأقران ، واللبد جمع لبة بالكسر ، ولبدق الأسد : ما تلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبة » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران . (٦) ظلوم ، غشمه كضربه غشما ظلمه .

(٧) هدر البعير وهدر بالتشديد : صوت ، وفى المثل « كالمهدير فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة . يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس فى الحظيرة ممنوعا من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسنن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل ما أنى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفت لبنها .

يَدْعُمُونَ الْعُوجَ^(١) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ^(٢) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُونَ الْغَلِيلَ ،
وَيُعِزُّونَ الدَّلِيلَ ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تحقّق^(٣) أحشائه ، وتَبَقُّ^(٤) أمعاؤه
وتضطرب أصلاؤه^(٥) ، كأنما انطبق عليه ضمد^(٦) » .

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلّوناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذّوباً غادراً ،
خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجنّد لا يسأمونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام ،
لجَحَظَ^(٧) إليه عقلك ، ولتاجاج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود^(٨) الذي
أثقله جملة » .

فقال معاوية : « إيهيأ^(٩) عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :
أمرتك أمراً حازماً فقصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه (يامعاوية) الذي أعان علياً يوم حزّ الغلاصم^(١٠)
فلم يثنني حتى جرّت من دماننا بصفين أمثال البحور الخضارم^(١١)
وهذا ابنه ، والمرء يشبه سنخه ويوشك أن تقرّع به سنّ نادم^(١٢)

-
- (١) العوج : بالفتح ، في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج
بالكسر ، ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعمه
(كنهه) مال فأقامه . (٢) حرج صدره كفرح حرجاً : ضاق . (٣) تضطرب .
(٤) تخرج ، بق التبت بقوفا : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن
كل ذي أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . (٦) ضمد جرحه : شده بالضمد والضماة (بالكسر)
أي العصابة ، والجمع ضمد ككتب . (٧) من جحظت العين جحوظاً : إذا برزت مقلتها ، والمراد
اضطرب عقلك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير . (٨) القعود من الإبل : الذي يقتمده الراعي في كل حاجة .
(٩) أمر بالسكوت . (١٠) الغلاصم : جمع غلصمة يفتح الغين والضاد ، وهي رأس الخلقوم
— الموضع الثاني في الخلق — أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر
المعظم . وإثبات النياء في يثنى مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف للجازم .
(١٢) قرع فلان سنه : حرقه ندما (حرق نابه — كنصر وضرب — سحقه حتى سمع له صريف)
وسكن الفعل للضرورة ، والسنخ : الأصل من كل ثوب ، (وقى الأصل شيخه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله بحبيبه :

مُعَاوِيَ : إِنَّ الْمَرْءَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ ضَغِينَةُ صَدْرِ غِشَّهَا غَيْرُ نَائِمٍ
يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَابْنَ هِنْدٍ) وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ
حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمُسَالَمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمٍ ^(١)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَإِسِ الذِي مَضَى وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمٍ ^(٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنْ ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي ^(٣)

فقال معاوية :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيٍّ قَرِيشَ وَسِيلَةٍ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَاطِرِ ^(٤)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنِ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ ثَارِي فِي لُؤَيٍّ وَعَامِرٍ ^(٥)
بَلِ الْعَفْوُ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاتِرِ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةً عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ ^(٦)

(١) نعر القوم كنخ : هاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونعر الرجل خالف ، وفي الأصل « نقرة » وهو

تصحييف . (٢) قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب . (٤) يوم عصيب :

شديد ، ويوم قاطر وقطير : شديد أيضا . (٥) العداة جمع عاد : وهو العدو ، ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية

وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن لثني عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤي .

(٦) النهابر : المهاالك جمع نهبرة بضم النون والباء وكذا النهابر جمع نهيرة .

١٢٧ — عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يُخْبِرُنِي عَنْ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ ؟ » فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،
أما الجود : فابتذالُ المال ، والمُعْطِيَةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجراءة على الإقدام ،
والصبر عند ازْوَارِ الأقدام ^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ،
والحماية عن الجار .
(مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليٍّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ — مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، يَمَّ تَطْلُبُونَ مَا قَبِيلِي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ، كثيرا
مع عليٍّ ، ولقد قَلَّتْمْ حَدَّيْ يَوْمَ صِفَيْنَ ، حتى رأيت المنايا تَلْظِي ^(٢) في أَسِنَّتِكُمْ ،
وهجوتُموني في أسلافي بأشدَّ من وقع الأسنَّة ، حتى إذا أقام الله منا ما حاولتم مَنِيْلَهُ ،
قلتم ازرعَ فينا وصيةَ رسول الله ^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيهات يا بني الحقير الغُدْرَةُ . »

(١) أى عند انحرافها وتزلزلها . (٢) تَلْظِي : أى تطلب . (٣) وقد وصى عليه الصلاة

والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

١٢٩ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما تمت به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك . وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كرمه كان منا . وأما فلنا حدك يوم صفين فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا أبى الحقير العذرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية . »

فقال معاوية يمؤه : « ارفعوا حواججكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صفصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء اليشكري
ورجالاً من أصحاب عليّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال :
« نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أى الخلقاء رأيتمونى ؟ » فقال ابن الكواء :
« لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ، ولسكننا
نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة ^(١) ، قريب الثرى بعيد المرعى ^(٢) ،
تجمل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات . » فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب الثرى : قريب الحلول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى : كناية عن أنه بعيد

الأميل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يقينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

بأهل الشام ، الذابئين عن بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنهكين لحارم الله ، والمُحِلِّين ما حرَّم الله ، والمُحَرِّمِينَ ما أحلَّ الله . فقال عبد الله ابن الكواء : « يابن أبى سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبْرُوتَكَ ، فإن كنت تُطْلِقُ السُّنْتَنا ذَبَبْنَا عن أهل العراق ، بالسنة حِداد ، لا يأخذها في الله لومة لائم وإلا فإننا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطْلَقُ لك لسان » .

ثم تكلم صمصمة فقال : « تكلمت يابن أبى سفيان فَأَبْلَغْتَ ، ولم تُقَصِّرْ عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أئى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك في يوم بدر مَضْرَب ولا مَرَمَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قَالَ القائل : « لَاحِلِّي وَلَا سِيرِي » ، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ^(٣) ممن أَجْلَبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أنت طليق ابن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أى مالك ضرب ولا رى . (٣) العير : الإبل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عبر قريش التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشام - فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يبعث إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل متصرفين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابنى زهرة لا فى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبى وأغفره الله بهم ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه . (٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ حِلْمًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرْبٌ مِنَ الْكَرَمِ
لَقَتَلْتَكُمْ» (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له :

« يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبجبالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والجل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة ^(١) العرب ، وَمُنْتَهَى الشرف والسُّودَد ، وم أهل الْخِطَط ^(٢) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سَرَوَات ^(٣) العرب كَدَوْرَانِ الرَّحَى على قُطْبِهَا » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبَّةُ الْإِسْلَام ، وَذِرْوَةُ الْكَلَام ، وَمَصَانُ ذَوِي الْأَعْلَام - إلا أن بها أَجْلَافًا ^(٤) تَمْنَعُ ذَوِي الْأَمْرِ الطَّاعَةَ ، وتخرجهم عن الجماعة - وتلك أخلاق ذَوِي الْهَيْئَةِ والقِنَاعَةِ » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أَسْرَعُ النَّاسِ إلى فِتْنَةٍ ، وَأَضْمَفُهُمْ غِنَاءً ، وَأَقْلَهُهُمْ غِنَاءً ^(٥) فيها ، غير أن لهم ثَبَاتًا في الدين ، وَتَمَسُّكًا بِعُرْوَةِ الْيَقِينِ ، يتبعون الْأَيْمَةَ الْأَبْرَارَ ، وَيَخْلَعُونَ الْفَسَقَةَ الْفُجَّارَ » فقال معاوية : مَنْ الْبَرَّةُ وَالْفَسَقَةُ ؟ فقال : « يا بن أبي سُفْيَانَ ، تَرَكَ الْخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ، عَلَى وَأَحْبَابِهِ مِنَ الْأَيْمَةِ الْأَبْرَارِ ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ أَوْلَئِكَ » ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن الْقُبَّةِ الْحُمْرَاءِ فِي دِيَارِ مُضَرَ ^(٦) ، قال :

(١) هو على التشبيه بواسطة العقد : وهي الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه . (٢) الخطط جمع خطة

بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن ينزلها فازل قبل ذلك ، ومنه خطاط الكوفة والبصرة . وقد خطها لنفسه واختطها : وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها . (٣) السرو بالفتح : المروءة

في شرف ، سرو فهو سري وجمعه أسرياء وسرواء كفضلاء والمرأة بالفتح اسم جمع وجمعه سروات .

(٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجاني . (٥) غناء : كفاية . (٦) ذكروا أن نزار

ابن معد لما حضرته الوفاة جمع بنيته : مضر وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء =

« أُسَدُ مُضَرٍ بُسْلَاءَ بَيْنَ غِيلَيْنِ »^(١) ، إِذَا أُرْسِلْتَهَا أَفْتَرَسَتْ ، وَإِذَا تَرَكْتَهَا احْتَرَسَتْ .
 فقال معاوية : « هنالك يابن صوحان ، العز الراسى ، فهل فى قومك مثله هذا ؟ » قال :
 هذا لأهله دونك يابن أبى سفيان ، ومن أحب قومًا حُشِرَ معهم » قال : فأخبرنى عن ديار ربيعة ،
 وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الْجَهْلُ ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك^(٢) ، قال : « والله ما أنا عنهم براص ،
 ولكنى أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب فى الدين والميل ، لن تُغَلَّبَ
 رايتهما إِذَا رُشِّحَتْ ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فَلَجْجَ^(٣) ، ومن خذلوه
 زَلَجْجَ^(٤) » . قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : « كِنَانَةُ^(٥) العرب ، ومَعْدِنُ العز والحسب ،
 يقذف البحر بها آذِيَةً^(٦) ، والبرز رَدِيَّةٌ » ثم أمسك معاوية ، فقال له صمصمة : سَلْ
 يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل
 الشام » قال : « فأخبرنى عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعصاهم لخالق ، عُصَاةُ
 الجِبَّارِ ، وخِلْفَةُ^(٧) الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

= - وكانت من آدم - لمضر - وهذا الفرس الأدهم والحياه الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شمطاء
 - لإياد ، وهذه البدره (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس
 لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأفعى الجرهمى ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا
 فى ميراثه ، فاختصموا إلى الأفعى الجرهمى ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى
 به أبوه فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء
 لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والحياه الأسود ، فله كل شئ أسود ، فصارت لربيعة الخيل
 الدهم ، فقبل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم للشمطاء فهو لإياد ، فصار له الماشية للبلق من الحبلق والنقد
 (الحبلق : بفتح الحاء والباء وتشديد اللام : غنم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودماهما ، والنقد كسبب :
 جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل
 فصعدوا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠٠ . (١) بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع
 والغيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة . (٢) وكان صمصمة من بنى عبد القيس
 ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن زرار . (٣) فلج على خصمه : ظفر وفاز . (٤) زلق وزل .
 (٥) الكنانة فى الأصل : جعبة السهام . (٦) الآذى : الموج . (٧) الخلفة فى الأصل :
 ماعلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مديتك منذ أزمان (١) « إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك .
فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ — صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هبيرة الشيباني قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن
عباس : ما السؤدد^(٢) فيكم ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النوال ،
وكف المرء نفسه عن السؤال ، والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك
شراً^(٣) . قال : فما المروءة ؟ قال : « أخوان اجتمعا ، فإن لقياً قهراً ، (وإن كان)^(٤)
حارسهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان^(٥) إلى صيانة ، مع نزاهة وديانة » . قال : فهل
تحفظ فى ذلك شراً ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مروة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :
إن السيادة والمروءة علماً حيث السماء من السماك الأعزل^(٦)
وإذا تقابل مجربان لغاية عثر المحجين وأسلمته الأرجل^(٧)
ويجي الصريح مع العتاق معوداً قرب الجياد فلم يحمه الأفكل^(٨)

(١) كناية عن مجاهرته بالعداوة . (٢) السؤدد بفتح الدال غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال

مهموزا والسيادة والسؤدد . (٣) شراً بسكون الراء وفتحها أى سواء . (٤) أى أنهما قوتان

عظيمنتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أى وإن كان مالقيهما عظيماً ،

ولعله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . (٥) فى الأصل « لحاجان » وهو تحريف .

(٦) السما كان الأعزل والرامح : نجمان نيران ، وسى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من السكواكب

كالأعزل الذى لاسلاح معه كما كان مع الرامح . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً كريماً ، وأسلمته : خذلته .

(٨) لم يحمه الأفكل : أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيباً من عيوب القافية وهو الإقواء ،

لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان

ابن ثابت ، وبشر بن أبى خازم . . . » .

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباط^(١) إبله ، مُنَرِّقًا وَمُغَرِّبًا لَفَائِدَةُ هذه الأبيات ما عَنَّفَتْهُ ، إنا منك يا ابن صُوحان لَنَلَى عِلْمٌ وَحِلْمٌ واستنباط ما قد عَفَا^(٢) من أخبار العرب ، فن الحليم فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبُهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُئِيَ إِلَيْهِ بِحَقِّ أَوْ بَاطِلٍ فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بَنَ عَبَّاسِ » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلاً ، وإنما وصفت لك أقواماً لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لِلَّهِ مَرِيدِينَ ، يُنِيلُونَ وَلَا يَنَالُونَ ، فَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ سَبَقَ جَهْلُهُمْ حِلْمَهُمْ ، وَلَا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا ظَفَرَ بِبُغْيَتِهِ) حِينَ الْحَفِيزَةِ^(٣) مَنْ كَانَ ، بَعْدَ أَنْ يُدْرِكَ زَعْمَهُ ، وَيَقْضَى بُغْيَتُهُ ، وَلَوْ وَتَرَهُ أَبَوْهُ لَقَتَلَ أَبَاهُ ، أَوْ أَخُوهُ لَقَتَلَ أَخَاهُ ، أَمَا سَمِعْتَ إِلَى قَوْلِ رَيَّانَ بْنِ عَمْرِ بْنِ رَيَّانَ ، وَذَلِكَ أَنَّ عَمْرًا أَبَاهُ قَتَلَهُ مَالِكُ بْنُ كُومَةَ ، فَأَقَامَ رَيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِسَا ، فَأَتَاهُ فِي مَائَتِي فَارِسٍ صَبَاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ، فَخَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، — وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ — وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوَرَمَ ، فَخِيلَ لِرَيَّانَ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتَ صَاحِبَنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمِّي ثَقِفْتُ بِمَيْتٍ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَاقٌ صَبِيبٌ^(٤)
 وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةٌ أُخْتُ عَمْرٍو بِهِذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبٌ
 شَهَرْتُ السَّيْفَ فِي الْأَذْنَيْنِ مَيِّى وَلَمْ تَعْطِفِ أَوْاصِرَنَا قُلُوبٌ^(٥)

فقال ابن عباس : فن الفارس فيكم ؟ حَدَّثَ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا يَا بَنَ صُوحَانَ ، قَالَ : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَغَمَ^(٦) عَلَى أَمَلِهِ بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ^(٧) الْحُرُوبُ ،

(١) آباط جمع إبط كحمل وإبل : باطن المنكب . (٢) درس واحي . (٣) الحمية والغضب .

(٤) ثقفه كسمعه : صادفه ، والعلق : الدم ، أو الشديد الحمرة ، وصبيب : أى مصبوب .

(٥) أواصر جمع آصرة : وهى القرابة ، وحبل صغير يشد به أسفل الجباء . (٦) ضغمه كنع : عضه .

(٧) وقدت النار (كوهد) توقدت .

واشدت بالأفـسـ الكروب ، وتداءعوا للنزال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج^(١) ،
واقـتـحموا بالسيف اللـجـج ، قال : أحسنت والله يابن صوحان ، إنك أسـلـيلُ أقوامـ
كرام ، خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلاله^(٢) ، زدني ، قال : « نعم ، الفارس
كثير الحذر ، مـدـير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خـرـزاتـ صـلـبه^(٣) » . قال : أحسنت
والله يابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، زهير بن
جناب الكلابي^(٤) يرى ابنه عمراً حيث يقول :

فارسٌ تُـكـلِّـلُ الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِحُـسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الحَرِيقِ^(٥)
لَا تَرَاهُ لَدَى الوَغَى فِي مَجَالٍ يُغْفِلُ الصَّرْبَ لَا ، وَلَا فِي مَضِيقٍ
مَنْ يَرَاهُ يَحْنَلُهُ فِي الحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضْلُ الطَّرِيقِ^(٦)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يابن صوحان ؟ صفهم لأعرف
وزنهم ، قال : أما زيد فكما قال أخو غني^(٧) :

(١) المهج جمع مهجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوها اختلاصها واستلابها .

(٢) تقول العرب : لم يرته كلاله أى لم يرثه من عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثم قناة الملك غير كلاله عن ابني مناف صبد شمس وهاشم

والكلاله : ما لم يكن من النسب لحاً ، وبنو العم الأبعد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالى كثير ويرثه
كلاله متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد للبيت ولا ولد له فهو كلاله موروثه . (٣) أى فقرات
ظهره . (٤) شاعر جاهلي ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلاله : حفظه وحرصه .

(٦) الآخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأفياء تنسى »
ومثل : « كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا » . . . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن إثبات حرف العلة مع
الجزاء لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصل محذوف للجزاء . وعندى أنه ربما
كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد الغنوي
(شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرقى بها أخاه أبا المغوار وأولها :

نقول سليمانى ما لجسمك شاحبا كأنك يحملك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩) .

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بُوْجِهَهُ (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبُ^(١)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب^(٢)
 حَلِيفُ النَّدَى ، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ^(٣)
 يَبْدِي النَّدَى (يَا أُمَّ غَمْرٍو) ضَجِيْعَهُ إِذَا لم يكن في المنقِيَاتِ حَلُوبُ^(٤)
 كَانَ بِيُوتَ الْحَيِّ (مالم يكن بها) بَسَائِسُ مَا يُلْفَى بِهِنَ غَرِيبُ^(٥)
 في أبيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة^(٦) ، شريف الأخوة ، جليل
 الخطر ، بعيد الأثر ، كَمِيش^(٧) العروءة ، أليف الندوة^(٨) ، ساهم جوانح الصدر ، قليل
 وسواس الدهر ، ذا كِرَا لله طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا^(٩) مِنَ اللَّيْلِ ، الجوعُ وَالشَّبَعُ عنده
 سَيَّانٍ ، لَا يَنَافِسُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَقْلَ أَصْحَابِهِ مَنْ يَنَافِسُ فِيهَا ، يُطِيلُ السَّكُوتَ ، وَيَحْفَظُ السَّكْلَامَ ،
 وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِعَقَامٍ^(١٠) يَهْزُبُ مِنْهُ الدُّعَارُ^(١١) الْأَثَرَارَ ، وَيَأْلَفُهُ الْأَحْرَارُ الْأَخْيَارَ .
 قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيدا ، فأين كان عبد الله
 منه ؟ » ، قال : كان عبد الله سيداً شجاعاً ، يُؤَلَّفًا^(١٢) مُطَاعًا ، خَيْرُهُ وَسَاعُ^(١٣) ، وشره

-
- (١) خلّات جمع خلة بالفتح : وهي الخصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعنى شعوبا: تغير من هزال أو جوع أو سفر . (٢) العوراء : الكلمة القبيحة . (٣) الندى : الجود .
 (٤) المنقبات : ذوات النقي (بالكسر) وهو الشحم ، ناقة منقبة أى سمينة .
 (٥) بسائس جمع بسيس كجعفر : وهو اللقفر الخالي (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف) .
 (٦) مسهل عن المروءة . (٧) يقال رجل كيش الإزار : أى مشمر جاد ، ورجل كيش : عزوم ماض سريع في أموره . (٨) الندوة والنادى والمتندى والندى : مجلس القوم ومتحدثهم ، وفي الأصل البدوة » وأراه مصحفاً ، أو هو فملة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظاهر حسن يؤلف ولا يبعج .
 (٩) جمع زلفة بالضم : وهي الطائفة من الليل . (١٠) داء عقام : لا يبرأ ، أى نطق بقوارص من السكلم جارحة مؤلمة لادواء لها . (١١) جمع دامر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما : وهي الخبث والفسق . (١٢) ألفته وآلفته : أنست به فهو مألوف ومؤلف . (١٣) على التشبيه بالفرس الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ، والأشياء العظيم يدفع به مثله « وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه » .

حُفَّاعٌ ، قَلْبِي النَّحِيزَةُ ^(١) ، أَحْوَذِي ^(٢) الغريزة ، لَا يَنْهَنِي ^(٣) مُنْهَنِي عَمَّا أَرَادَهُ ،
وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا عَتَادَهُ ^(٤) ، سِمَامُ عِدَا ^(٥) ، وَبَاذِلُ قِرَى ^(٦) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ،
جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٧) ، أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبَرْجُجِيُّ عَامِرُ بْنُ سَفْنَانَ :
سِمَامُ عِدَا ، بِالنَّبِيلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرُّمَحِ الرَّدْيِيَّ يَشْعَبُ ^(٨)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مُعَوَّدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَلِلْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ
فِي أَبِيَات ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ ^(٩) عِلْمُ الْعَرَبِ .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ — صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ

وَوَقَفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ عَلَى صَعْصَعَةٍ ، فَأَسَمَهُ ، كَلَامًا (مِنْهُ) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَتَهَيَّبُوكَ ، أَمَا لَيْتُنِ شِئْتُ لَا كَوْنَنَّ لَكَ
إِصَاقًا ^(١٠) ، فَلَا تَنْطِقُ إِلَّا جَدَدْتُ ^(١١) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(١٢) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ، بَعْضُ قَوِيٍّ ،
وَلِسَانٌ عَلِيٌّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ صَعْصَعَةُ : « لَوْ أَجِدَ

-
- (١) القلب : محض كل شيء ، والنحيزة : الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صافيا . (٢) الأحوذى :
الخفيف الحاذق ، والمشمز للأشياء القاهر لها لا يشذ عليه شيء . (٣) نهني : كفه وزجره .
(٤) العتاد : العدة . (٥) سمام جمع سم مثلث السنين ، والعدا بالكسر والضم اسم جمع عدو أى
هولاء أعداء سم قاتل . (٦) قرى الضيف (كرى) قرى : أضافه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .
(٧) رفده (كضر به) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من
أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا العطية . (٨) الردينى نسبة إلى ردينة امرأة سمير ،
وكانا يقومان الراح بخط هجر ، ويشعب : أى يمزق ويصدع . (٩) أصل البقر : أنفتح والشق
والتوسعة ، وكان يقال لمحمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر ؛ لأنه بقى العلم وعرف
أصله واستنبط فرعه . (١٠) الإصاق : ما يلصق به . والمعنى لا يكون لك ملاصقا ملازما .
(١١) جد الشيء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحد ، من ذرب كفرج صار حديدا ماضيا ،
والظبة : حد السيف .

غَرَضًا^(١) منك لرميت ، بل أرى شَبَعًا ، ولا إخال مِثَالًا إِلَّا كَسْرَابٍ^(٢) بَقِيعَةٍ ،
يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أَمَا لَوْ كُنْتَ كَفْنًا لَرَمَيْتُ
حَصَاثَكَ^(٣) بأذرب من ذَلِقِ^(٤) السنانِ ، ولرَشَقْتُكَ بنبالٍ ، تردُّعُكَ عن النَّضَالِ ،
وَلَخَطَمْتُكَ بِخِطَامٍ^(٥) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّيْمِ^(٦) . فأتصل الكلام بابن عباس ،
فاستضحك^(٧) من الفزاري ، وقال : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ أَخُو فَرَّازَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ
جَبَلِ شَمَامٍ^(٨) إِلَى الْمَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ
أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ وَقُوَاهُ الْمَرِيرَةُ^(٩) ! ثُمَّ تَمَثَّلُ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمِّهِ . إِنْ الشَّقَاءُ عَلَى الْأَشْقِيَيْنِ مَصْبُوبٌ^(١٠)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يحجبه^(١١) عبد الملك بن مروان

وهو يخطب

وخطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغِلَظَةَ^(١٢) ، قام إليه رجل من آل صُوحان ،
فقال : « مهلا مهلا يا بني مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعطون

(١) الغرض : الهدف . (٢) المراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع قاع : وهو أرض
سهلة مطمئة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع .

(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا والامم الحصيلة ، قال لبيد :
وكل امرئ يومًا سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : لرميت ما حصلته من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كفرج : ذرب فهو ذلق
وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقْتَادَ

به ، وخطمه بالخطام جعله على أنفه ، أو جرَّ أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه حتى لا ينبس .
(٦) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمام : ما يزِم به . (٧) استضحك

الرجل وتضحك بمعنى . (٨) جبل بالعالية . (٩) أى القوية ، يقال رجل مرير أى قوى
ذو مرة « والمرة بالكسر القوة » . (١٠) الأُم : القرب . (١١) جبهه كقطعه : لقيه بما يكره .

(١٢) وربما كان صوابها « العظة » أى مقام العظة والنصح بدليل قوله « وتعطون ولا تتعطون » .

ولا تمنعظون . أفنتدبى بسيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا ، فأتى وكيف ؟ وما الحجة ؟ وما المصير من الله ؟ أفنتدبى بسيرة الظلمة الفسقة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا^(١) ، وعبيده خولا^(٢) ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقلوا العظة ممن سمعتموها . فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمنا كم فى دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالعظات ؟ فتخلوا عنها^(٣) ، وأطلقوا عقلمها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرردتموهم فى البلاد ، ومزقتهم فى كل واد ، بل تثبت فى أيديكم لانهضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ، إن لكل قائم قدرا لا يمدوه ، ويوما لا يخطوه ، وكتابا بعده يتلوه : (لا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ثم التمس الرجل فلم يوجد (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ — وصف عقيل بن أبى طالب

لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبى طالب : « مَيِّزْ لى أصحاب علىّ وأبدأ بأكل صوحان ، فإنهم يخاريقُ الكلام^(٥) » . قال :

(١) جمع دولة بالضم : أى جعلوه متداولاً بينهم . (٢) الخول : ما أعطاك الله تعالى من النعم (بحركة) والمبيد والإماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال للواحد خائل . (٣) أى من الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) مخاريق جمع مخراق بالكسر : وهو السيف ، والسيد والمتصرف فى الأمور الذى لا يقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقاً لأن الكلاب تطلبه فيفلت منها ، وفلان مخراق حرب أى صاحب حروب يخف فيها) .

« أَمَّا مَصْمَعَةُ فَعَظِيمُ الشَّانِ ، عَضْبُ اللِّسَانِ ^(١) ، قَائِدُ فُرْسَانٍ ، قَاتِلُ أَقْرَانٍ ،
يَرْتُقِي ^(٢) مَا فَتَقَ ، وَيَفْتَقُ مَا رَتَقَ ، قَلِيلُ النَّظِيرِ . وَأَمَّا زَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فَإِنَّهُمَا نَهْرَانِ جَارِيَانِ
يَصُبُّ فِيهِمَا الْخُلُجَانُ ^(٣) ، وَيُعَاثُ بِهِمَا الْبُلْدَانُ ، رَجُلًا جِدًّا لَأَمِيبَ مَعَهُ ، وَأَمَّا بَنُو صُوحَانَ
فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا نَزَلَ الْعَسَدُ فَإِنْ عِنْدِي أُسُودًا تَخْلِسُ الْأَسَدَ الْنَفُوسَا ^(٤)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ — وصية محمد الباقر ^(٥) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ، على
عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقال : يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَوْصِنِي ، قَالَ :
« أَوْصِيكَ أَنْ تَتَّخِذَ صَغِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَدًا ، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا ، وَكَبِيرَهُمْ أَبًا ، فَارْحَمَ
وَلَدَكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبَّهُ ^(٦) » .

(الأمالي ٢ : ٣١٢)

(١) العَضْبُ : القاطع . (٢) للَرْتَقُ : ضد الفتق . (٣) الخُلُجِجُ : نهر فشق من النهر الأعظم .

(٤) خَلَسَ الشَّيْءُ كَضَرَبَ خَلَسًا : اسْتَلْبَهُ . (٥) تَوَفَّى سَنَةَ ١١٣ هـ . (٦) أَيْ أَدَمَهُ ، يُقَالُ

رَبَّ بِالْمَسْكَانِ وَأَرْبَ : أَقَامَ بِهِ وَدَامَ .

خطب الزبير بين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوما على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان وعند معاوية جماعة من قریش ، فيهم ابن الزبير ، فرحب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه ليذكره الحسد لبني عبد مناف^(٢) فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فعلت ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

(١) تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٦٥ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ - ٦٦ - ٨٣ . (٢) عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير ، فن بن أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلود بن أسد بن عبد العزى ابن قصي .

١٣٧ - مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاي ما يمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجنان ، فإن نطقَ نطق بعلم ، وإن صمتَ صمت بحلم ، غير أنه كفَّ الكلام ، وسبق إلى السَّنام ، فأقرت بفضلِهِ الكرام ، وأنا الذي أقول :

فيمَ الكلامَ لِسَاقِي في غايَةٍ والناسَ بينَ مُقَصِّرٍ ومُبَلِّدٍ^(١)

إن الذي يَجْرِي لِيُذْرِكَ شَأُوهُ يُنَمِّي لِغَيْرِ مُسَوِّدٍ وَمُسَدِّدٍ^(٢)

هل كيف يُذْرِكُ نورَ بَذْرِ ساطِعٍ خَيْرِ الأَنامِ وَفَرَعِ آلِ مُحَمَّدٍ

فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله في موالى الكرام مثلك ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله^(٣) سكت وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجبناه ، أو لكفَّفنا عن جوابه إجلالاً له . ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأء ، وأحسن فعلاً . قال ابن الزبير : إني است أجيِب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يابن الزبير ! ما أَعْيَاكَ^(٤) وأبغاك ! أَتَفَخَّرُ بينَ يَدَيِ أمير المؤمنين

وأبى عبد الله ! إنك أنت المتعدي لطورك ، الذي لاتعرف قدرك ، فقس شِئْرَكَ بِفَتْرِكَ^(٥)

(١) بلد تبليدا : لم يتجه شيء ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة لم تمطر .

(٢) الشَّو : الغاية ، وينمى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ما أعجزك .

(٥) الفتر : ما بين الإبهام وطرف العصابة .

ثم تَعَرَّفَ كيف تقع بين عَرَانِينَ^(١) بنى عبد مناف ، أما والله ائن دَقَعَتْ فى بحور
بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَتَقَطَعَنَّكَ بأمواجها ، ثم لَتَوْهَيْنَ^(٢) بك فى أَجَاجِهَا ، فابقاؤك
فى البحور إذا غَمَرَتْكَ ، وفى الأمواج إذا بَهَرَتْكَ^(٣) ؟ هَذَاكَ تَعَرَّفَ نفسك ، وتقدم على
ما كان من جُرْأَتِكَ ، وَتُمَسَّى^(٤) ما أَصْبَحْتَ إاليه من أمان ، وقد حِيلَ بين العَيْرِ
وَالزَّوَانِ^(٥) . فَأُطْرُق ابن الزبير مَلِيًّا ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ — مقال ابن الزبير

« أَسْأَلُكُمْ بالله : أتعلمون أن أبى حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه
أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ،

(١) جمع عرنين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفى الأصل : الأنف أو ماصلب من عظمه) .
(٢) أوهاء : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .
(٤) مساء تمسية : قال له كيف أمسيت أو مساءك الله بخير ، والمراد : وتودع ماكنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بحذف إحدى التاءين أى وتتمنى ، أو الأصل « ويتمنى » من
تمنى : إذا تقطع أى يمحى ويندثر ما كنت فيه من أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ،
وَالزَّوَانِ : الوثوب . وهو مثل يضرب للقوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء ،
وذلك أنه غزا بنى أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاءهم الصريخ فركبوا ، فالتقوا ، فطعن أبو ثور الأسدى صخرًا
طعنة فى جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك ؟
فقالت : لاحتى فيرجو ، ولا ميت فينبى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفى رواية أخرى : فرض زمانا حتى ملته
امرأته ، وكان يكرمها فر بها رجل وهى قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع السكندل ؟ فقالت : نعم عما
قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله ائن قدرت لأقدمتك قبلى ، ثم قال لها : ناولينى السيف
أنظر إليه ، هل تقله يدى ؟ فتناولته ، فإذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادى	وملت سليمى مضجعى ومكافى
فأى امرئ ساوى بأمر حليمة	فلا عاش إلا فى شقا وهوان
أهم بأمر الخزم لو أستطيعه	وقد حيل بين العير والزوان

فلما طال به البلاء ، وقد تنأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة ، قيل له لو قطعها لرجونا أن تبرا ، فقال
شأنكم ، وأشفق عليه قوم فنهوه فأبى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فات .

وأمة هند آكلة الأكباد؟ وجدّي الصديق، وجده المشدوخ^(١) بيدر، ورأس الكفر وعمتي خديجة ذات الخطر^(٢) والحسب، وعمته أم جميل حمالة الخطب؟ وجدّتي صفية^(٣) وجدته حمّامة^(٤)؟ وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، سيصلي نارا ذات لهب؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته أشقى الأشقيين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية.

- (١) هو جد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتل على يوم بدر، والمشدوخ: المسكور: أي المقتول.
(٢) القدر، أو المنزلة وهي السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمة أبيه، وزوج الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٣) هي صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعمّة الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٤) روى ابن أبي الحديد (م ١: ص ١٥٧) قال:

« لما ارتحل عقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله، فقال: يا أبا يزيد: أخبرني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردت عليهما، قال: «أخبرك: مررت والله بعسكر أخى، فإذا ليل قليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، مارأيت إلامصليا، ولا سمعت إلا قارئا، ومررت بعسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين من نفر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة» ثم قال: من هذا عن يمينك يامعاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص، قال: هذا الذي اختصم فيه ستة نفر، فغلب عليه جزار قريش، فن الآخر؟ قال الضمّالك بن قيس الفهري: قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعصب التيوس «وكان يبيع عصب الفحول في الجاهلية، والمصب كعذب: الكراء الذي يؤخذ على ضرب الفحل، أو ضرابه، أو ماؤه، وعصب الرجل كضرب: أعطاه الكراء على الضراب، وفي الحديث: «هبي النبي صلى الله عليه وسلم عن عصب الفحل فإن إعارة الفحل مندوب إليها» فن هذا الآخر؟ قال أبو موسى الأشعري، قال: هذا ابن السراقة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءا، فأحب أن يسأله ليقول فيه مايلمه من سوء، فيذهب بذلك غضب جلسائه، قال: يا أبا يزيد فما تقول في؟ قال: دعني من هذا، قال لتقولن، قال أتعرف حمّامة؟ قال: ومن حمّامة يا أبا يزيد؟ قال: قد أخبرتك، ثم قام فضى، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه، فقال: من حمّامة؟ قال: ولى الأمان؟ قال نعم، قال حمّامة جدتك أم أبي سفيان كانت بغيا في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد ساويتكم وزدت عليكم. فلا تغضبوا.»

١٤٠ — مقال معاوية

فقال له معاوية :

« وَيُنْحِكُ يَابْنَ الزَّبِيرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لَذَلِكَ إِنْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْخُضُورُ كَيْفَ لَمْ يَكُونُوا أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفَجَارِ^(١) عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ تَحْتَ رَايَتِهِ ، رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ ، غَيْرُ مُنْكَرِينَ لِفَضْلِهِ ، وَلَا طَامِعِينَ فِي عِزِّهِ ، إِنْ أَمَرَ أَطَاعُوا ، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا فَأَنْزَلَ فِينَا الْقِيَادَةَ ، وَعَزَّ الْوَلَايَةَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسببها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق مككاظ في كل عام لطيمة (واللطيمة كصحيفة : العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويشترى له بثمن ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم للبراض بن قيس — وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد — وعروة الرحال بن عتبة — وهو من بني هوازن والرحال كشداد أيضا — فقال ، من يحبرها ؟ قال البراض : أنا أحبرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يحبرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أحبرها لك على أهل الشيع والقيصوم من أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بني كنانة تحبرها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وترى به وقته ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والد أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد ووالد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرتنا إذ قاتلنا فيها أي فسقتنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أنجرة أخرى — انظر للسيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٢٦٠ .

فانتخبه من خير خلقه ، من أُمِرْتَنِي لَا أُمِرْتُكَ ، وبنى أبى لا بنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشاً وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفتنان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فمَهْدِيكُمْ تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذنان ، حتى خلاص الله أبا سفيان بن حرب بفضلِهِ من عظيم شره ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيماً شأنه ، وفي الإسلام معروفاً مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح مالم يُعْطَ أحد من آبائك ، وإن مُنَادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لا دارك ولا دار أيبك ؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخير ، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُمِّيَ صديقاً ، لا بتصديق عبد العزى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ بيدى ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو بَكَرَتْ إليه أنت وأبوك ما بارزوك ، ولا رَأَوْكُمْ لهم أكفاء ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفأهم من بنى أيبهم ، ففضى الله منايهم بأيديهم ، فنحن قُتِلْنَا ، ونحن قَتَلْنَا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شَرُفَتْ ، وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهي أَدْنَتْكَ من الظلِّ ، ولولا هي لَكُنْتَ ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أيبك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وغرهم وإرهم لى دونك ، ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم .

(١) ضحا كسعى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة

للعوام لبني هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . (٢) ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن

ابن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أينما أجود في الإِزَم^(١) ، وأحزم في القدم ، وأمنع لِلْحُرَم ، لا والله ما أراك منهيًا حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك ، فقد طألمهم الذُّحُول^(٢) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدمهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السُّجُوف^(٣) ، وأبرزتم زوجته للحتُوف ، ومُقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربًا ، فلم يُنْجِه ذلك أن طحنه أبو الحسين بِكَلْكَلِهِ طحن الحَصِيد^(٤) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن خَشَيْتَ^(٥) بَرَائِيْنَهُ ، ونالتك مغاليبه ، وإيم الله ليقوم منك بنو عبد مناف بِثِقَافِهَا^(٦) أو لتصبحن منها صباح أيبك بوادي السُّباع^(٧) ، وما كان أبوك المذْهَنَ حَدَّهُ^(٨) ، ولكنه كما قال الشاعر :

تَنَادَل سِرْحَانٌ فَرِيَسَةً ضَيِّفَمٍ ففَضَّقْضَهُ بِالْكَفِّ مِنْهُ وَحَطَمَا^(٩)

(المقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضًا

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لَا تَدْعَنَّ مَرْوَانَ يرمى جَاهِرَ قُرَيْشٍ بِمَشَاقِصِهِ^(١٠) ، ويضرب حَصَاتِيَهُمْ بِمِقْوَلِهِ ، أما والله لولا مكانك ، لكان أخف على رقابنا من فَرَّاشَةٍ ، وأقلّ

(١) الأزيمة (بالفتح ويحرك) للشدة ، وجمعها إزم (كشمس وعنب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو الثأر ، والعداوة ، والحقد : أى كاشفهم بذلك . (٣) جمع سجع (بالفتح ويكسر) الستر . (٤) الحصيد : الزرع المحصود . (٥) خشه : خدشه . (٦) الثفاف : ماتسوى به الرماح . (٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : بأسه ، والمدهن : المغشوش ، من أدهن أى غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب بسالته شائبة خور ولكنه . . . الخ « وفى الأصل » المدهن خده « بالخاء وأراء مصحفا » . (٩) السرحان : الذئب ، والضيغم : الأسد ، وقضقضه فتضققض : كسره ودقه ، والنضيقضة : صوت كسر للعظام . وفى الأصل ففضفضه بالفاء ، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص : جمع مشقص كنبر ، وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرى به الوحش .

في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(١) ، وإني لله لئن مَلَكَ أَعِنَّةٌ خيل تنقاد له ، لَتَرَكِبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا^(٢) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طَمِعَ فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهَيْنَ حتى يبعث الله عليكم من لا يعطِفُ عليكم بقرابة ، ولا يَذْكُرُكم عند مُلِحَّةٍ ، يَسُومُكم خَسْفًا^(٣) ، ويسوقكم عَسْفًا^(٤) » . فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطَلِّقُ عِقَالُ الحرب بكتائبَ تَمُورٍ^(٥) كَرَجُلِ الجراد ، حَافَأُهَا الْأَسْلُ ، لها دوى كدوى الريح ، تتبع غَطْرِيفًا^(٦) من قریش ، لم تكن أمه رَاعِيَةٌ ثَلَّةً^(٧) » . فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عِقَالُ الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَةَ السَّنام ، وَثَرِبْتُ عُنْفُوانَ الْمَكْرَعِ^(٨) ، وليس للآكل بعدى إِلَّا الْفِلَذَةُ^(٩) ، ولا للشارب إِلَّا الرَنْقُ^(١٠) » . فسكت ابن الزبير .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣ ، والمعقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٤)

١٤٢ — عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خَبِيبٍ^(١١) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فيهم ، وتحفظ وصية نبي الله فيهم ، تقبل

(١) الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخاء ، وهي حشرات الأرض والعصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

(٣) أي يوليكم ذلاً . (٤) العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الفطريف : السيد الشريف . (٧) الثلة : جماعة الغنم

أو الكثرة منها . (٨) عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمسكرع : المورد ، مفعول من كرع في الماء أو في الإناء . (٩) الفلذة : اللقطة من اللحم . (١٠) ماء رنق كمدل وكثف وجبل : كدره

(١١) هي كنية ابن الزبير كنى بابه خبيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضاً أبا بكر .

من مُحْسِنِهِمْ ، وتجاوز عن مُسِيئَتِهِمْ « فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن
النعمةُ الذئبَ وقد أكل أليتها (١) » . فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة
لَتَدِرُ (٢) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصارن ولده الذي خرج من
صُلْبِهِ ، وما تدور الرِّحاء إلا يَقْطُبُهَا (٣) ، ولا تَصْلُحُ القوسُ إلا بِمَجْبِهَا (٤) » فقال : « يا أبا
خُبَيْبٍ ، لقد أَجْرَزْتَ الطَّرُوقَةَ قبل هِبابِ الفحل (٥) ، هيهات ! وهى لا تَصْطَلُكَ لحياها
اصطلاكك القُرومِ السَّوامى (٦) » . فقال ابن الزبير : « العَطَنُ بعد العَلِّ ، والعلُّ بعد
النَّهْلِ (٧) ولا بد للرِّحاء من الثَّفال (٨) ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العِشاء أخذت قریش
بجالسها ، وخرج معاوية على بنى أمية ، فوجد عمرو بن العاص فيهم ، فقال : ويحكم
يا بنى أمية ! أفیکم من يَكْفِيْنِي ابن الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أ كفيک يا أمير المؤمنين قال :
ما أظنك تفعل ، قال : « بلى ، والله لا زَبِدَنَ (٩) وجهه ، ولا خَرِسَنَ لسانه ، ولا رُدَّتُهُ
ألین من خِميلة (١٠) » . فقال : دونك فاعْرِضْ له إذا دخل ، فدخل ابن الزبير - وكان قد
بلغه كلام معاوية وعمرو - فجلس نُصَبَ عَيْنِي عمرو ، فتحدثوا ساعة ، ثم قال عمرو :
وإني لنارٌ ما يُطَاقُ اضْطِلَاوُهَا لَدَيَّ كَلَامٌ مُعْضِلٌ مُتَّفَقِمٌ (١١)
فأطرق ابن الزبير ساعة ينفكت في الأرض ، ثم رفع رأسه وقال :

(١) الآية : ماركب العجز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من بابي ضرب وقتل ، ودرت
الناقة بلبنها أدركته . (٣) قطب الرِّحاء : ما تدور عليه ، والرِّحاء عودود الرِّحاء . (٤) العجب : مؤخر
كل شيء . (٥) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ، وأجره رسنه : جعله يجره ، وهب
الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهيبيا : أراد السقاد . (٦) تصطلك : تضطرب . والقروم : جمع قرم
بالتفتح وهو الفحل ، والسَّوامى جمع سام : وصف من سما الفحل سماوة : تطاول على شوله « والشول كركع
جمع شائل وهى الناقة تشول بذنبها للقاح » . (٧) العطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والعل والعلال :
الشرب الثاني ، والنهْل : الشرب الأول . (٨) الثفال : جلد أو نحوه ييسط تحت الرحي ليقع عليه الطحين .
(٩) أى لأصيرنه أريد ، من الربدة بالضم : وهى لون إلى الغبرة . (١٠) الخيملة : القטיפه ،
وفى الأصل : « ولأوردته » وهو تحريف . (١١) تفاقم الأمر : عظم .

وإني لبحرٌ ما يُسَامَى عِبَابُهُ متى يَلْقَى بحرى حرّ نارك تحمّد

فقال عمرو : والله يا بن الزبير إنك ما علمتُ لَمُجَلِّبِ جَلَايِبَ الفتنَةِ ، مُتَأَزَّرٌ بَوَصَائِلِ ^(١)

الْتِيهِ ، تتعاطى الذَّرَى الشاهقة ، والمعالى الباسقة ، وما أنت من قريش في لباب جَوهرها ولا مؤنق ^(٢) حَسَبها . فقال ابن الزبير : « أما ما ذكرت من تعاطى الذرى . فإنه طال

بى إليها وسما مالا يطول بك مثله ، أنف حَيٍّ ، وقلب ذكّى ، وصارم مَشْرِفٍ ، فى تَلِيدِ فارع ^(٣) ، وطريف مانع ، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرِك ^(٤) ، وَوَجِيب ^(٥) قلبك ، وأما

ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جَوهرها ، ومؤنق حَسَبها ، فقد حضرتنى وإياك الأكَفَاء ، العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك . فقال القوم : قد أنصفك

يا عمرو . قال : قد فعلت . فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكننى الله منك فَلَارِ بَدَنٍّ وجهك . ولا خَرَسَنَ لسانك ، ولترجعن فى هذه الليلة ، وكأن الذى بين منك وبينك مشدود إلى

عروق أخذ عيك ^(٦) ، ثم قال : أقسمتُ عليكم يا معاشر قريش ، أنا أفضلُ فى دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبى أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حَوَارِئُ رسول الله

صلى الله عليه وآله وابن عمته ، قال : فأبى أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وذات النطّاقين ، قال : فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سلمى بنته العوّام

صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : فخالتى أفضل أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : فخدتى أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك صفية

بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فخدتى أفضل أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَصَّتِ الغَطَارِفُ من قريش بيننا فاصبر لفضل خِصَامها وقَضَاها

(١) الوصائل : جمع وصيلة ، وهى ثوب مخطط يمان . (٢) آتقنى الشيء إيتاقا : أعجبنى ، فهو

مؤنق وأتق : أى حسن معجب . (٣) فارع عال . (٤) السحر ويحرك ويضم : الرثة ، وانتفخ سحره :

عدا طوره وجاوز قدره . (٥) خفقان واضطراب . (٦) الأخدعان : عرقان فى موضع الحجامة .

وَإِذَا جَرَيْتَ فَلَا تُجَارِ مُبَرِّزًا بَذَّ الْجِيَادَ عَلَى احْتِفَالِ جِرَائِهَا^(١)
أما والله يابن العاص . لو أن الذي أمرك بهذا وأجهنى بمنله لَقَصَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ سَابِغِي
بصره ، ولتركته يتلجج لسانه ، وتضطرم النار في جوفه ، ولقد استعان منك بغير وافي ،
ولجأ إلى غير كافٍ ، ثم قام فخرج .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ — خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَظَّمَ مَقْبَلَهُ ،
وَعَابَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ خَاصَّةً ، وَلَامَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى
عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنِ أَهْلَ الْعِرَاقِ غُدُرٌ فُجِّرَ إِلَّا قَلِيلًا ، وَإِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ شِرَارٌ أَهْلَ الْعِرَاقِ ،
وَلَهُمْ دَعَاؤُا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤَلُّوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا لَهُ : إِمَّا
أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْعَتْ بِكَ إِلَى ابْنِ زِيَادِ بْنِ مُسَيَّةٍ سَلَمًا ، فَيُمَضِّيَ فِيكَ حُكْمُهُ ،
وَلِمَّا أَنْ تَحَارِبَ ، فَرَأَى وَاللَّهُ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ - وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ
يُطْلِعْ عَلَى الْغَيْبِ أَحَدًا - أَنَّهُ مُقْتُولٌ ، وَكَفَهُ اخْتِارُ الْمَيْتَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى الْحَيَاةِ الذَّمِيمَةِ ،
فَرَحِمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَخْزَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ . لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ
مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَاعِظْ وَنَاوِ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ مَا حَمَّ^(٢) نَازِلٌ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا
لَنْ يُدْفَعَ .

أُفْبَعِدَ الْحُسَيْنَ نَظْمُنْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَنَصَدَّقْ قَوْلَهُمْ ، وَنَقْبَلْ لَهُمْ عَهْدًا ؟
لَا ، وَلَا نَرَاهُمْ لِذَلِكَ أَهْلًا ، أَمَّا وَاللَّهُ لَقَدْ قَتَلُوهُ ، طَوِيلًا بِاللَّيْلِ قِيَامُهُ ، كَثِيرًا فِي النَّهَارِ

(١) برز تبريزا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجراء والمجاراة :

(٢) ما قدر .

مصدر جاری .

صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الفناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحذاء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالجلوس في حلق الذكر الركض في تطلّاب الصيد (يعرض يزيد) فسوف يتقوّن غيّاً^(١) .

فتار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازحك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٤ — مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين تار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم ابن عقبة المرّبي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسراً بمقدّمهم ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم آتوا بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ، ينادى بالثارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر

(١) أى شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف

أى جزاء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أى يلقى جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم) .

وعمر، وبرى من عثمان وعلى، وكفر أباه وطلحة بايعناه، وإن تكن الأخرى،
ظهر لنا ما عنده، فتشاغلنا بما يجدي علينا.

فدخلوا على ابن الزبير وهو مُبْتَذِل^(١)، وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا: إنا جئناك
لتخبرنا رأيك، فإن كنت على الصواب بايعناك، وإن كنت على غيره دعوناك إلى
الحق، ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً. قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحى^(٢) الحى،
وآوى الطريد^(٣)، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبي معيط^(٤)
رقاب الناس، وآثرهم بنى المسلمين، وفي الذي بعده، الذي حَكَمَ في دين الله الرجال،
وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم، وفي أبيك وصاحبه، وقد بايعا علينا وهو إمام عادل
مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نسكتنا بعرض من أعراض الدنيا، وأخرجنا عائشة تقاتل،
وقد أسرها الله وصواحبها أن يقرن^(٥) في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة
فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلنى^(٦) عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق
وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه، والتحقيق بعثمان والتوكل
في السنين الست التي أحلت دمه، ونقضت أحكامه، وأفسدت إمامته، خذلك الله

(١) المبتذل: لابس البذلة (بالسكر) أو المبتذلة: وهى الثوب الخلق ومالا يصاب من الثياب.

(٢) أحى المكان: جملة حى لا يقرب، وكان من المطاعن التى وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه حى
الحى عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء فى الماء والكأ، ولما سئل فى ذلك قال
إنما فعلت ذلك لإبيل الصدقة، وقد أطلقته الآن، وأنا أستغفر الله. وروى الواقدى أن عثمان كان يحى
الربة والشرف والبقيع. فكان لا يدخل الحى بعير له ولا فرس ولا لبنى أمية حتى كان آخر الزمان، فكان
يحى الشرف لإبله وكانت ألف بعير وإبيل الحى بن أبى العاص، ويحى الربة لإبيل الصدقة. ويحى البقيع
لحبل المسلمين وخيله وخيل بنى أمية. شرح ابن أبى الحديد م ١: ص ٢٣٥

(٣) هو الحى بن أبى العاص - انظر ص ١٠٤. (٤) من ولاهم عثمان الوليد بن عقبة بن أبى معيط
ولاه الكوفة، وهو أخو عثمان لأمه. (٥) من قر بالمكان يقر (بالسكر والفتح) قرارا أى استقر.
أصله يقرن حذف الأول من الراعين ونقلت حركتها إلى القاف. (٦) الزافة والزلى: القرية والمنزلة.

وانتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة والقدرة) في مخاطبة
أَكفر الكافرين ، وأهق الثمأة ، بأراف من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه صلى الله
عليهما : « أذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر
أو يخشى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » .
فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ،
والمقيم على الشرك ، والجاد في الحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل
الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول
الذى سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ « فإن كانا منهم دخلا
في غمار (١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُخفِظوني (٢) بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون
أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبيه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وقال جل ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا »
وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصریح (٣) ،
ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجب ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل
صاحبه من عدوه ، فروحوا (٤) إلى من عشيتكم هذه ، أكشف لكم ما أنا عليه
إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشي راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نبذة (٥)
قال : هذا خروج منايد (٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،
وصلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل
من خلافته ، ثم وصلهم بالسنين التى أنكروا سيرته فيها ، فجعلها كالماضية ، وخبر أنه

(١) بالضم ويفتح جماعتهم . (٢) تفضبون . (٣) تبين الأمر .

(٤) الرواح : العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم وراحا . (٥) هو نبذة بن عامر الحنفى من

كبار زعمائهم . (٦) نابذه : كاشفه بالعداوة .

أرى الحكم بن أبي العاص يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحِجَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعقبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مُصِيباً ، ثم أعتبهم بعد ذلك محسنًا ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه ، بعد أن ضمن لهم العُتْبَى ^(١) ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفنوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه ^(٢) ، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين ، لو حلف عليها لحلف قلى حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا وليُّ وليه ، وعدوُّ عدوه ، وأبى وصاحبه صاحب رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ يوم أُحُد ، لما قُطعت إصْبَع طَلْحَة : « سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ » ، وقال : « أَوْجَبَ طَلْحَة ^(٣) » ، وكان الصديق إذا ذكر يومَ أُحُد قال : « ذاك يومٌ كله أو جُلُّه لطلحة » . والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصَفْوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، فقال جلَّ وعزَّ : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعدُ أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقًا ، فأهل ذلك مُهم ، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأنكم بأمكم عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى آب

(١) العتبى : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اختار عثمان ابن عفان رسولاً من قبله إلى قريش ، يعلمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة معتمراً ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حيناً سمع بذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بصلد شجرة الرضوان . (٣) الموجبة من الحسنات التي توجب الجنة . وأوجب : أتى بها .

أن تكون له أما نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق :
« النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ،
ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هُدَيْلٍ ،
وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهوَاهُ في بني أمية ، فنعمه عطاءه ، فقال : عَلَامَ
تَمْنَعُنِي حَقَالِي ؟ وأنا امرؤٌ مُسْلِمٌ ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً .
قال : عليك بني أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءَكَ . قال :

« إِنْ أَجَدَمَ سِبَاطًا ^(١) أَكْفَهُمْ ، سَمَحَةً أَنْفُسَهُمْ ، بُذْلَاءَ لَأُمُوَاهُمْ ، وَهَابِينَ
لِمُجْتَدِيهِمْ ^(٢) كَرِيمَةً أَعْرَاقَهُمْ ، شَرِيفَةً أَصُولَهُمْ ، زَاكِيَةً فُرُوعَهُمْ ، قَرِيبًا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبُهُمْ وَسَبَبُهُمْ ، لَيْسُوا إِذَا نُسِبُوا بِأَذْنَابٍ وَلَا وَشَائِظٍ ^(٣)
وَلَا أَتْبَاعٍ ، وَلَا مِمْ فِي قَرِيشٍ كَفَقَعَةِ الْقَاعِ ^(٤) ، لَمْ السُّودَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاللَّكُّ فِي الْإِسْلَامِ
لَا كُنْ لَا يُعَدُّ فِي عِيرِهَا وَلَا نَفِيرِهَا ^(٥) ، وَلَا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي نَفِيرِهَا وَلَا قَطْمِيرِهَا ^(٦) لَيْسَ

(١) رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) . (٢) المجتدي : طالب الجدوى ، وهي العطية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة في قومهم أى حشو فيهم ، وفي الأصل : « وسائط »
وهو تصحيف . (٤) الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكأمة وجمعه فقعة كعنبية ، والقراع :
أرض سهلة مطمئنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالفقع في الذل ، لأنه لا يمتنع على
من اجتناؤه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في النفير » وأول من

قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب الرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) النفير : النكتة في ظهر النواة ، والقطير : القشرة الرقيقة بين النواة والتمر .

من أحلافها (١) المطيعين ، ولا من سادتها المطيعين ، ولا من جودائها (٢) الوهابين ، ولا من هاشمها المنتخبين ، ولا عبد شمسها المسوذين ، وكيف نقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النصل من الجفن (٣) والسنان من الزجج (٤) ، والدُّنَابِي (٥) من القُدَامَى (٦) وكيف يُفَضَّلُ الشحيح على الجواد ، والشوكة على الملك ؛ والجامع بخلا على المطعم فضلا ؟ » .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه (٧) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرنه إلى قدمه ، وامتنع لونه ، ثم قال له : يا بن البوالة على عقيها ، ويا جلف (٨) ، يا جاهل . أما والله لولا الحُرُمات الثلاث : حرمة الإسلام ، وحرمة الحرم ، وحرمة الشهر الحرام . لأخذت الذى فيه عيناك ، ثم أسر به إلى سجن « عارم » فحبس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خثولة فى هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما ولي عبد الملك ، أسره له بما فاته من العطاء ، ومثله صلة من ماله وكساه وحمله .
(الأغاني ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأَتَوْهُ فى المسجد الحرام فى يوم الجمعة ، فسألوه عليه . فسألهم عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

(١) الأحلاف فى قریش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجمع ، وسهم ، ومخزوم ، وعلى ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما فى أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، فقد كل قوم على أمرهم حلقا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعتها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند السكبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلقا آخر مؤكدا فسموا الأحلاف ، وقوله المطيعين : لغمس أيديهم فى الطيب . (٢) جوداء : جمع جواد ، وهو السخى ، ويجمع أيضا على أجواد وأجاود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديد فى أسفل الرمح . (٥) الذنب . (٦) أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح . (٧) جمع فريصة ، وهى اللحم بين الجنب والسكرتف . (٨) الجلف : الرجل الجافى .

وَأَقْضَاهُ بِحَقِّ ، وَأَعْدَلُهُ فِي حَكْم ، فَصَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بِالنَّاسِ الْجُمُعَةَ ، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمْدَ اللَّهِ ،
وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ :

قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي مِنْ غُلُوتَيْنِ وَمِنَ الْمِثْنِ (١)

حَتَّى إِذَا شَابُوا وَشَيَّبُونِي خَلَّوْا عَنَّا نِي ثُمَّ سَيَّبُونِي (٢)

أَيُّهَا النَّاسُ : « إِنِّي قَدْ سَأَلْتُ هَذَا الْوَفْدَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، عَنْ عَامِلِهِمْ مُصْعَبَ بْنِ
الزَّبِيرِ ، فَأَحْسَنُوا الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ، وَذَكَرُوا عَنْهُ مَا أَحَبَّ . أَلَا إِنَّ مُصْعَبًا أَطَبَّي (٣) الْقُلُوبَ ،
حَتَّى مَاتَ عَدِلَ بِهِ ، وَالْأَهْوَاءَ حَتَّى مَاتَ حَوْلَ عَنْهُ ، وَاسْتَمَالَ الْأَلْسُنَ بَثْنَانَهَا ؛ وَالْقُلُوبَ بِنُصْحِهَا .
وَالنَّفُوسَ بِمَحَبَّتِهَا . فَهُوَ الْمَحْبُوبُ فِي خَاصَّتِهِ . الْحَمُودُ فِي عَامَّتِهِ . بِمَا أَطْلَقَ اللَّهُ بِهِ لِسَانَهُ مِنْ
الْخَيْرِ . وَبَسَطَ يَدَهُ مِنَ الْبَذْلِ » . ثُمَّ نَزَلَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأمال ١ : ٢٨٦)

١٤٧ — خُطْبَتُهُ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ مُصْعَبِ

لَمَّا قَتَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مُصْعَبَ بْنَ الزَّبِيرِ (سنة ٧١ هـ) وَانْتَهَى خَبَرُ مَقْتَلِهِ
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ ، أَضْرَبَ عَنْ ذِكْرِهِ أَيَّامًا ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ إِمَامُ مَكَّةَ فِي الطَّرِيقِ ،
ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبَرَ فَجَلَسَ عَلَيْهِ مَلِيًّا لَا يَتَكَلَّمُ ، وَالْكَأَبُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَجَبِينُهُ يَرْتَشِّحُ عِرْقًا . فَقَالَ
رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِهِ : مَا لَهُ لَا يَتَكَلَّمُ ، أَتُرَاهُ يَهَابُ الْمَنْطِقَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِلْبَيْبُ
الْخَطْبَاءُ . قَالَ : لَعَلَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَذْكَرَ مَقْتَلَ مُصْعَبِ سَيِّدِ الْعَرَبِ ، فَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَغَيْرُ
مَلُومٍ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ اخْلَاقُ وَالْأَسْمَاءُ ، وَمُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ،
وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّهُ لَمْ يُعِزَّ اللَّهُ

(١) الفلوة: الغاية ، وهى رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هى قدر ثلثائة ذراع إلى أربعمائة .

(٢) تركونى . (٣) أطبى : استمال .

مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طَرًّا^(١) ، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مُفْرَدًا ضَعِيفًا ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَانَا خَبَرٌ مِنَ الْعِرَاقِ ، بِلَدِ الْقَدَرِ وَالشَّقَاقِ ، فَسَاءَ مَا وَسَّرْنَا ، أَتَانَا أَنْ مَصْعَبًا قَتَلَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ ؛ فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ لِفِرَاقِ الْجَمِيمِ لَذَعَةً وَلَوْعَةً يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ يَرْغَوِي مِنْ بَعْدُ ذَوِ الرَّأْيِ وَالْهَدِينِ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ ، وَكَرِيمِ الْعَزَاءِ . وَأَمَّا الَّذِي سَرَّنا مِنْهُ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنْ قَتَلَهُ شَهَادَةٌ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَسْلَمَهُ الطَّغَامُ^(٢) ، الصَّمَّ الْأَذَانَ ، أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِسْلَامَ النَّعَمِ الْمُخْطَمَةِ^(٣) ، وَبَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلُ قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ^(٤) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَمُوتُ حَتَّى آتَانَا^(٥) ، وَلَكِنْ قَعَصًا^(٦) بِالرَّمَاكِ ،

(١) جميعا . (٢) الأوغاد . (٣) خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام كسكتاب : ما وضع في أنف البعير ليقْتَادَ بِهِ . (٤) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجبل ، انصرف إلى وادى السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة ، ويعني بعمة عبدالرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة ٣ : ٢١٣ » .

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كما قلنا ، سار إلى مكة لغزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك — وكان أخوه المنذر من شهد الحرة . ثم لحق به — فجرد إليهم أخاء في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل للشأم دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرسا صاحبه لها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ - تاريخ الطبري ٧ : ١٤ - . (٥) الحتف : الموت ، ويقال مات حتف أنفه : أي على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . (٦) القعص : الموت الوحي (أي السريع كغنى) ومات قعصا : أصابته ضربة ، أو رمية فأتى مكانه ، وفي السكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله مانموت حبيجا » وزاد السكامل « كيتة آل أبي العاص » والحبيج محرّكة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجففر) ، وربما قتله ذلك ، يمرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالانتخمة .

وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط ؛ ألا وإنا الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد مملكته ، فإن تقبل الدنيا طي لم آخذها أخذ الأثير البطر^(١) ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق الممين^(٢) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
ثم نزل .

(الأغانى ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٨ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :
« إن مصعباً قدّم أثره ، وآخر خيرته ، وتشاغل بشكاح فلانة وفلانة^(٣) ، وترك حلبة^(٤) أهل الشام ؛ حتى غشيت في داره ، ولئن هلك مُصعب إن في آل الزبير خلفاً منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

(١) الأثير : البطر . (٢) من الخرق محرقة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فاتحاً عينيه ينظر ، والممين : الحقيق ، ويرى : « بكاء الخرف المهر » والخرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من الهر بالضم ، وقد أهر فهو مهر (يضم الميم وفتح التاء) : شاذ وقد قيل أهر بالبناء للمجهول (٣) كان تحته عقيلتا قریش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة .

« إن أبا ذبَّان^(١) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ^(٢) ، كَذَلِكَ نُؤَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .
(البیان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمَّه : خَذَلَنِي النَّاسُ حَتَّى وَلَدَنِي^(٣) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أَرَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟
فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَإِلَيْهِ تَدْعُو فَاْمُضْ لَهُ ، فَقَدْ قُتِلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُكَ ، وَلَا تَمَكِّنْ مِنْ رَقَبَتِكَ يَتَلَعَّبَ بِهَا غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا ، فَبئسَ الْعَبْدُ أَنْتَ ، أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكَتَ مِنْ قُتِلَ مَعَكَ ، وَإِنْ قُلْتَ كُنْتُ عَلَى حَقٍّ ، فَلِمَا وَهَنَ أَصْحَابِي ضَعُفْتُ ، فَهَذَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَحْرَارِ وَلَا أَهْلِ الدِّينِ ، وَكَمْ خُلُودُكَ فِي الدُّنْيَا ؟ الْقَتْلُ أَحْسَنُ ، وَاللَّهُ لَضَرْبَةُ السَّيْفِ فِي عِزٍّ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ضَرْبَةٍ بِسَوْطٍ فِي ذِلٍّ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ إِنْ قَتَلُونِي أَنْ يُمَثِّلُوا بِي ، قَالَتْ : يَا بَنِي إِنْ الشَّاةُ لَا يَضُرُّهَا سَلَخُهَا بَعْدَ ذَبْحِهَا .

فَدَنَا مِنْهَا وَقَبِلَ رَأْسَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي ، وَالَّذِي قَتَلَ بِهِ دَاعِيًا إِلَى يَوْمِي هَذَا ،

(١) الذبَّان : الذباب ، والعرب تكنو الأبحر « أبا ذباب » وبعضهم يكتنيه « أبا ذبَّان » وقد غلب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في فمه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب .

(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فمه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان » قال الوزير الكاتب ابن عبدون في مراثيه المشهورة لدولة بني الأفطس بالأندلس التي مطلعها :

« الدهر يفتح بعد العين بالآثر فإلينا على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبَّان قاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمنصهر

(٣) وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حزة وخبيب فأخذاهما منه لأنفسهما أماناً .

ما رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمَا دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَّا الْغَضَبُ اللَّهُ
 أَنْ تُسْتَحْلَ حُرْمَتُهُ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيَكَ ، فَزِدْتَنِي بِصِيرَةٍ مَعَ بَصِيرَتِي ،
 فَانْظُرِي يَا أُمِّهِ ، فَإِنِّي مُقْتُولٌ مِنْ يَوْمِي هَذَا ، فَلَا يَشْتَدُّ حَزَنُكَ ، وَسَلَّمِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنِ
 ابْنُكَ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيَانِ مُنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلًا بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَغْدِرْ فِي أَمَانٍ ،
 وَلَمْ يَتَعَمَّدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهَدٍ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظُلْمٌ عَنْ عَمَالَى فُرُضِيَّتٍ بِهِ ، بَلْ أَنْكَرْتَهُ ،
 وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ آثَرَ عِنْدِي مِنْ رِضَا رَبِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزَكِيَةً مِنِّي لِنَفْسِي
 - أَنْتَ أَعْلَمُ بِي - وَلَكِنْ أَقُولُهُ تَعْزِيَةً لَأُمِّي لَتَسَلِّوْا عَنِّي ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لِأَرْجُو مِنْ اللَّهِ
 أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيكَ حَسَنًا إِنْ تَقَدَّمَ مَتْنِي ، وَإِنْ تَقَدَّمَ مَتْنُكَ فِي نَفْسِي حَرَجٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى أَمٍّ
 بِصِيرِ أَمْرِكَ . قَالَ : يَا أُمُّهُ جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَلَا تَدَّعِي الدَّعَاءَ لِي قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَقَالَتْ :
 لَا أَدْعُهُ أَبَدًا ، فَمَنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قُتِلَ عَلَى حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ
 ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَذَلِكَ النَّجِيبِ وَالظَّمَا فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَبِرَّهَ بِأَبِيهِ
 وَيَّيْ ، اللَّهُمَّ قَدْ سَلَّمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَرَضِيْتِ بِمَا قَضَيْتِ ، فَأَثْبِتِي فِي عَبْدِ اللَّهِ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ
 الشَّاكِرِينَ » . ثُمَّ وَدَّعَهَا وَخَرَجَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٥١ - خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ تَفَشَّى كَمَا سَحَابُهُ ، وَأَحْدَقَ بِكُمْ رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد
 تفرُّق ، وارجعن بعد تمشق ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَعْدُهُ ، وهو مُفْرِغٌ عَلَيْكُمْ وَدَقَّهُ ^(٤) »

(١) الرباب : السحاب الأبيض . (٢) ارجعن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

(٣) رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت . (٤) الودق : المطر .

وقائِد إِيْلِكُمُ الْبَلَايَا ، تَتَّبِعُهَا الْمَنَايَا ، فَاجْمَعُوا السِّیُوفَ لَهَا غَرَضًا ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِالصَّبْرِ .
وَتَمَثَّلُ بِأَبْيَاتٍ ، ثُمَّ اقْتَحَمَ يِقَاتِلُ وَهُوَ يَقُولُ :

قَدْ جَدَّ أَحْسَابُكَ ضَرْبَ الْأَعْنَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ لَهَا عَلَى سَاقٍ^(١)
(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبري قال :

لَمَّا كَانَ يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ صَدِيقَةُ سَبْعِ عَشْرَةٍ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ ٧٣ هـ وَقَدْ أَخَذَ
الْحُجَّاجُ عَلَى ابْنِ الزَّيْبِرِ بِالْأَبْوَابِ ، صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الْفَجْرَ ، ثُمَّ قَامَ فَحَمْدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« يَا آلَ الزَّيْبِرِ : لَوْ طَبَّعْتُمْ لِي نَفْسًا عَنْ أَنْفُسِكُمْ ، كُنَّا أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ
اضْطُغَمْنَا^(٢) فِي اللَّهِ ، لَمْ تُصْبِنَا زَبَاءَ بَيْتَةٍ^(٣) ، أَمَا بَعْدُ يَا آلَ الزَّيْبِرِ : فَلَا يَرُغْمُكُمْ وَقَعَ
السِّیُوفُ ، فَإِنِّي لَمْ أَحْضَرُ مَوْطِنًا قَطُّ إِلَّا ارْتُنْتُ^(٤) فِيهِ مِنَ الْقَتْلِ ، وَمَا أَجِدُ مِنْ دَوَاءٍ
جِرَاحِهَا أَشَدُّ مِمَّا أَجِدُ مِنْ أَلَمِ وَقْعِهَا ، صُونُوا سِیُوفَكُمْ كَمَا تَصُونُونَ وُجُوهَكُمْ ؛ لَا أَعْلَمُ أَمْرًا
كَسَرِ سِیْفِهِ ، وَاسْتَبْقَى نَفْسَهُ ، فَإِنِ الرَّجُلُ إِذَا ذَهَبَ سِلَاحُهُ فَهُوَ كَالْمَرْأَةِ أَعْزَلُ ، غَضُّوا
أَبْصَارَكُمْ عَنِ الْبَارِقَةِ^(٥) ، وَلَيْشَغَلْ كُلُّ أَمْرٍ قِرْنَهُ ، وَلَا يُلْهِمَنَّكُمُ السُّؤَالُ عَنِّي ، وَلَا
تَقُولُنَّ : أَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، أَلَا مَنْ كَانَ سَائِلًا عَنِّي فَإِنِّي فِي الرَّعِيلِ^(٦) الْأَوَّلِ :

أَبِي لَابْنِ سَلْمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي الْمَنَايَا أُمِّيَّ صَرَفِ تَيْمَمًا

(١) هو من مشطور السريع الموقوف . (٢) أي استوصلنا . (٣) الزباء من الدواهي :
الشديدة ، ويقال لا فعله البتة ، وبتة ، السكل أمر لارجلة فيه . (٤) ارتث (مبني للمجهول) حمل
من المعركة رثيثا أي جريحاً وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرعيل : القطعة من الخيل
القليلة ، أو مقدمتها .

فلستُ بـمبتاعِ الحياةِ بسبِّةٍ ولا مُرتقٍ من خشيةِ الموتِ سلماً
احملوا على بركة الله « ثم قاتل حتى أُنحِنَ بالجراحاتِ وقتل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ — خطبة مصعب بن الزبير

بعت عبد الله بن الزبير أخاه مُصعباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسَمَ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ
نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنُمْكِّنَ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده
نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٥٦٠ هـ)

١٥٤ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قديم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإني والله ما وُلِّيتُها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جاللتكم بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضت^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، ففقرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَات^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإني خير لكم ولأية^(٣) ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر^(٤) أذني ،

(١) من راض المهر : إذا ذلّه . (٢) سنية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

(٣) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يعرج عليه .

وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحققكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أنا كم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قل أغنى ، وإيا كم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة » ثم نزل .
(المقد للفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٥ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر .
أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت تحمّدة ، فلا بد من مذمة ، فلو ما هونا إذا ذكر غفر ، وإيا كم والتي إن أخفيت أو بقت ، وإن ذكرت أوثقت » ثم نزل .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعته نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرقتي خير من الفتق ، وفي كلّ بلاغ ، ولا مقام على الرزية » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ — خطبته حين ولى المغيرة بن شعبه الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبه الكوفة فى جمادى سنة ٤٠ هـ دعاه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن لى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا ^(١) ، وسال المتلمس :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلمًا

وقد يجزى ^(٢) الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضينى ، ويُسعد سلطانى ، وتصلح به رعييتى ، ولست تاركاً إيصاءك بمصلحة : لا تتحَمَّ ^(٣) عن شتم على وذمه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له ، والعيب على أصحاب على ، والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وإبطاء شيعة عثمان رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم .

فقال المغيرة : « قد جربتُ وجربتُ ، وحميت قبلك لغيرك ، فلم يُذمَّ بى دَفْعٌ ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فستَبَلُّو ^(٤) فتحمد ، أو تَذمَّ » قال : « بل نحمد إن شاء الله .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١)

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لى الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ، وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدوانى ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ، وقيل عمرو بن حمة الدوسى ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عامر بن الظرب كان أحد حكام العرب المهورين : لا تعدل بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكما ، فلما طعن فى السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه : إنه قد كبرت سنى ، وعرض لى سهو ، فإذا رأيتونى خرجت من كلالى ، وأخذت فى غيره ، فاقرعوا لى المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريده :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا البيت .

(٢) يجزى مسهل عن يجزى أى يفنى ، يقال : أجزأت عنك مجزا فلان : أى أغثيت عنك مغناه .

(٣) احتمى وتحمى : امتنع . (٤) أى تختبر .

١٥٨ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عزَّ وجلَّ خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم (المقصد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٩ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصَد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم ومللتُموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقِي ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر مني ، كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيراً مني ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحِبِّ لِقَائِي » ثم نزل ، فاصعد المنبر حتى مات^(٢) . (الآمال ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٦٠ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدري . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذي يسوءهم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

(١) استحصَد الزرع وأحصَد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد في موضعها .

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عَنُود^(١) ، وزمن شديد^(٢) يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوءاً ، لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة^(٣) حتى نحلّ بنا ؛ فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا ينعمه من الفساد في الأرض إلا مهانةً نفسه ، وكلال حذّه ، ونضيض وفرّه^(٤) ومنهم المصّات^(٥) لسيّفه ، المُجلب بجيله ورجله ، المعلن بشرّه ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه^(٦) ، أو مقنّب^(٧) يقوده ، أو منبر يفرّعه^(٨) ، ولبئس المتجر أن تراهما لنفسك ممناً ، وعمالك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطّوه ، وشتر من نوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة للعصية ، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن أمله . فتحلى باسم القناعة . وتزين بلباس الزهاد . وليس من ذلك في مراح ولا معدى ، وبقي رجال غصّ أبصارهم ذكر كُر المرجع ، وأراق دموعهم خوفُ المحشر ، فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع^(٩) ، وساكت مكعوم^(١٠) ، وداع مخلص ، وموجع تبكّلان ، قد أحلتهم التقيّة^(١١) ، وشملتهم الذلة ، فهم بحر أجاج^(١٢) ، أفواههم ضامرة^(١٣) ، وقلوبهم قرحة ، قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذأوا ، وقتلوا

(١) جائر . من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفي نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . (٣) الداهية التي تفرع أي تصيب . (٤) أي قلة ماله . (٥) أصلت السيف : سلّه . (٦) هيأها وأعدّها (من الشرط (محركة) وهو العلامة) أي هيأها للفساد في الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس . (٧) المقنّب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثائة . (٨) يعلوه . (٩) مقهور . (١٠) من كعم البعير كنع : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، وفي البيان والتبيين مكعوم ، من عكم المتاع يمكنه : شده بثوب . (١١) التقيّة : المداراة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكتة من ضمير كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة فيه ولم يجتر .

حتى قَلَّوْا ، فلتسكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُمْلَةِ الْقَرْظِ^(١) وقرْاضَةُ الْجَلَمَيْنِ ،
واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فافرضوها ذميمةً فإنها قد رفضت
من كان أشغف بها منكم .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١ : ونهج البلاغة ١ : ٤٠ وإعجاز القرآن ٢١٣)

١٦١ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسلمَ بن عُقبةَ المرِّيَّ ،
والضَّحَّاكَ بن قيسِ النِّهْرِيَّ ، فقال : أبلغا عني يزيدَ وقولا له :
« يا بني ، إني قد كفيْتُكَ الشَّدَّ والتَّرَحُّالَ ، ووطَّأتُ لك الأمورَ ، وذَلَّلتُ لك الأعداءَ
وأخضعتُ لك رِقَابَ العربِ ، وجمعتُ لك ما لم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهلَ الحجازِ ، فإنهم
أصلُكَ وَعِزَّتُكَ^(٢) ، فمن أتاك منهم فأكرِمْهُ ، ومن قعد عنك فتمهِّدْهُ ، وانظر أهلَ العراقِ ،
فإن سألوك أن تعزلَ عنهم كلَّ يومٍ عاملاً فافعل ، فإنَّ عَزَلَ عاملٍ أهونُ عليك من سلِّ
مائة ألف سيفٍ ، ثم لاندري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهلَ الشَّامِ ، فاجعلهم
الشُّعَارَ^(٣) دون الدُّنَّارِ ، فإن رَأيتَ من عدوك رَيْبٌ ، فارمِهِمْ^(٤) بهم ، فإن

(١) القرظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب
الذي من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الأخبار عنهم ، وعما هم عليه
من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف - أشبه بكلام علي وبمعاوية ، وبجاله منه بجال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم
ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .

ونسبها الشريف الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

(٢) عترة الرجل : عشيرته الأدنون . (٣) الشعار : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدنار :

الذي يلبس فوق الشعار . (٤) ارمهم للعدو ، وهو الواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يشئ
ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا
بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَّذَهُ ^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُهُ بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفِيَكَ الله بمن قَتَلَ أباه وخذل
أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفرت به ، فاصفح عنه ،
فإن له رَحِمًا ^(٢) مأساة ، وحقًا عظيمًا ، وقراءة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما
ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له همةٌ إلا في النساء
واللهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ ^(٣) ، فإن ظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ^(٤) .
« أو قال » وأما الذي يَحْسِمُ لك جُثُوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ،
واحقن دماء قومك ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ الفخرى ص ١٠٢)

(١) وقَّذَه : صرعه وغلبه ، وتركه عليلاً كأوقَّذَه . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها
في صفحة ١٤١ . (٤) أى عضوا عضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٢ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفف ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبْلاً من حبال الله ، مدّه ما شاء أن يمدّه . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيراً ممن يَأْتِي بعده . ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يعفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فبذنبه . وقد وليت بعده الأمر . ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(١) بطلب علم ، وعلى رِسْلكم ، إذا كره الله شيئاً غيره ، وإذا أحب شيئاً يَسْرُه . »

(المقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يضلِّل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وفضله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعذاراً وإنذاراً ، لئلا يكون

(١) في المقد الفريد : ولا آمئى على طلب علم ، ولا أنى عن طلب علم .

للناس على الله حجةٌ بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصير دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأبغت بالفانى ، ونحيت بالعاجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غواية غيرة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . لن تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْخَلِيَاءِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٣) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (المعقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٤ - خطبة معاوية بن يزيد^(٤) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودى بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإننى قد نظرت فى أمركم فضعت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى

(١) أى همهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) أى عنتكم (مشقتكم) .

(٤) استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ ، ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوماً .

مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاخترأوا له من أحببتهم ، فما كنت لأنزودها
ميتاً ، وما استمتعت بها حياً » .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغييب حتى مات ^(١) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والفخرى ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على
مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيماً ولا توصه ، أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة
فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشيّة فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند
محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب ، فإنهم إن
ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستن
لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من
رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ،
ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطقيّ الجرة ، فإن أول من جعل السجن
كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ،
ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف
الله عليك » . (للعقد الفريد ١ : ٤٩)

(١) قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً :
وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨٦ هـ)

١٦٦ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١) (يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ثم نزل^(٢) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣ والبيان والتبيين ٢ : ٨٥)

١٦٧ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فإزلمت زنادون في الذنب ، وزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٣)

(١) المأفون : الضعيف الرأي والعقل . (٢) قال أبو إسحق النظام : « أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق (بفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مضى . يتلو الثريا) والله ما أخذتها بوراثه ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية » .

١٦٨ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(١)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجملوا سلفكم لمن شبر منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا^(٢) من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٣) السطوات ، وتجوس خلالكم بواذر الفقمات ، وتطأ رقابكم بشقلها العقوبة ، فتجعلكم همدارقاتا^(٤) ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا ، فيأبى من قول قائل ، ورشة جاهل ، فإنما بيني وبينكم أن أسمع النفوة^(٥) ، فأصم تصميم الحسام المطرور^(٦) ، وأصول صيال الحنيق الموتور^(٧) ، وإنما هي المصاحفة والمسكافة ، بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتأب تأب ، وهديل خائب^(٨) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ،

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز الضحاك بن قيس الفهري عن مروان ابن الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وماهو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبأيع مروان بعده لخالد بن يزيد ، وعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من يلاقى معه مالم يخف عليك ، فأجمل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غبر : بقی ، وأغفال جمع غفل كقفل . (٣) الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال . (٤) الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الخطام . (٥) النفوة والنفية : أول الخبر قبل أن تستثبت . (٦) المشحوذ ، من الطر : وهو تحديد السكین وغيرها . (٧) صاحب الوتر : وهو الثار . (٨) هدله يهداه كضربه : أرخاه ، وهذل المشفر كفرح : استرخى أى ضعف الخائب وخار ، ولعله خائب من الحوب بفتح الحاء وضدها وهو الإثم . حاب بكذا أثم جوابا أى ضعف الأثم المذنب . (١٣ - جمهرة خطب العرب - ثان)

لمن عرف رُشدَه ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم ، واستدبوا النعمة التي ابتدأتكم برغبت عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيالتين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنه ونزغهِ^(١) ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكذرة عليكم .
(صبح الأعشى ١ : ٢١٨)

١٦٩ — خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير^(٢)

لما قتل عبد الملك مُصْعَب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السِّلَمَ أَمْنٌ وَمَسْرَّةٌ ، وقد زَبَنَتْنَا الحرب وزَبَنَّاها^(٣) ففرقناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودَعُوا الأهواء المُرَدِيَّة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لثألها فليعدْ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعَةَ الأنصاري :

مِنْ يَصِلْ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تَرِيَّةٍ يَصِلْ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَارٍ^(٤)
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنْ مِجَاهَرَةٍ كَى لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنذارٍ

(١) نزغ بينهم : أفسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصيفين (صبح الأعشى ١ : ٢١٥) وعزاها القائل في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما يرجعه لما يدل عليه سياق الخطبة . (٣) أى دفعتنا ودفعناها ، والزين : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبينة أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضاً حرب زبون بفتح الزاي . (٤) الترة والوتر : النار .

فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرًا
لَتَرْجُمُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَنَةً لَهُوَ الْمُقْسِمُ وَهُوَ الْمُدْلِجُ السَّارِي^(١)
مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوَاجًا يَطْلُبُهَا عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَصْحَارِ^(٢)
أُقِيمَ عَوَاجِثُهُ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ كَمَا يَقُومُ قِدْحُ النَّبْعَةِ الْبَارِي^(٣)
وَصَاحِبُ الْوِثْرِ لَيْسَ الدَّهْرَ مَدْرَكُهُ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَدِرَّكَ بِأَوْتَارِ
(الأمالي ١ : ١٢)

١٧٠ - خطبته عام حجة

وحج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بذرة^(٤) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفيء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مَثَلْنَا وَمِثْلَكُمْ أَنْ أَخَوِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خُرْجًا مَسَافِرِينَ ، فَتَزَلَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَحْتَ صَفَاةٍ^(٥) ، فَلَمَّا دَنَا الرِّوَّاحُ خَرَجْتَ إِلَيْهِمَا مِنْ تَحْتِ الصَّفَاةِ حَيَّةٌ تَحْمِلُ دِينَارًا ، فَأَلْقَتْهُ إِلَيْهِمَا ، فَقَالَا : إِنْ هَذَا لَيْنٍ كُنْزٌ ، فَأَقَامَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، كُلُّ يَوْمٍ تَخْرُجُ إِلَيْهِمَا دِينَارًا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِلَى مَتَى نَنْتَظِرُ هَذِهِ الْحَيَّةَ ؟ أَلَا نَقْتُلُهَا وَنَحْفِرُ هَذَا الْكَنْزَ فَنَأْخُذَهُ ، فَهَاءُ أَخُوهُ ، وَقَالَ : مَا تَدْرِي لِمَ لَكَ تَعَطُّبٌ وَلَا تَدْرِكُ الْمَالُ ، فَأَبَى عَلَيْهِ

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والساري : الذي يسير بالليل .
(٢) الحوِجاء : الحاجة . وقوله بأصْحَارٍ : أى لا أستبر عنه ، ولا أمتنع في الأماكن الحصينة ، من أصْحَرِ القوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، قيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والفتح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه قذاح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر التسي والسهم .
(٤) البذرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

وأخذ فأَسأَمه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها .
فنازت الحية فقتلتها . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذا كان من الغد
خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء . فقال لها : يا هذه إني والله ما رضيت
ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضربنى
ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت :
إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً
وأنا أذكر هذه الشَّجَّة^(١) ، وأنشدهم شعر النابغة :

فَقَالَتْ أَرَى قَبْرًا تَرَاهُ مُقَابِلِي وَضَرْبَةً فَأَسَ فَوْقَ رَأْسِي فَاغْرَهُ
فِيَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَلَيْكُمُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَكَانَ فُظًّا غَلِيظًا مُضِيْعًا عَلَيْكُمْ ، فَسَمِعْتُمْ
لَهُ وَأَطَعْتُمْ ، ثُمَّ وَلَيْكُمُ عُمَانُ فَكَانَ سَهْلًا ، فَعَدَوْتُمْ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُمُوهُ ، وَبَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
« مُسْلِمًا »^(٢) يَوْمَ الْحَرَّةِ فَقَتَلْنَاكُمْ ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَنَا أَبَدًا ، وَأَنْتُمْ
تَذْكُرُونَ يَوْمَ الْحَرَّةِ ، وَنَحْنُ لَا نُحِبُّكُمْ أَبَدًا وَنَحْنُ نَذْكُرُ قَتْلَ عُمَانِ .
(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ — خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج يذبحه بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في المثل : « كيف أعادوك وهذا أثر فاسك » .
(٢) هو مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد
ابن معاوية وخلصوه وحاصروا من كان بها من بني أمية وأخافوهم ، فوجه إليهم مسلم بن عقبة فحاصرها من
جهة الحرة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد يحكم في دماهم وأموالهم
وأهلهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : قتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان
إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قَدْرى ، اللهم سلط عليهم سيوف
أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٧٢ - وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكُن كالمضارب الكيس الذى إن وجد ربحاً اتَّجر ،
وإلاّ تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك
على عدوك أشدّ حذرًا من احتيالك على عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ - وصيته للشعبي

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :
ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تافت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف
فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمة غير الشعبي ، فلما حُل إليه ونادمه ،
قال له :

« يا شعبي ، لا تساعِدنى على ما قُبِح ، ولا ترُدّ على الخطأ فى مجلسى ، ولا تسكِّفنى
جواب التشميت^(١) ، والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح
الأمير ، وكيف أمسى) . وكلنى بقدر ما أستطعمك ، واجعل بدل المدح لى صواب
الاستماع منى ، واعلم أنّ صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعنى أتحدث
فلا يفوتنك منه شىء ، وأرنى فهمك من طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك فى نظري^(٢) »

(١) التشميت : الدعاء للماتس . (٢) فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراه محرفاً ، والنظر : الانتظار .

صوابى . ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ، فإن أسوأ الناس حالا من استكد^١ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حق الحرمة . فإن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من النطق فى موضعه . وعند إصااته وفرصته .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ — وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :
« ابسُط بِشْرِكَ ، وَأَلِنْ كَفَنَكَ . وَآثِرِ الرِّفْقَ فِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ بِكَ . وَانْظُرْ حَاجِبَكَ ، فَلْيُمْكِنْ مِنْ خَيْرِ أَهْلِكَ ، فَإِنَّهُ وَجْهَكَ وَلِسَانُكَ ، وَلَا يَقْفَنَ أَحَدٌ بِيَابِكَ إِلَّا أَعْلَمَكَ مَكَانَهُ ، لَتَسْكُونِ أَنْتَ الَّذِي تَأْذَنُ لَهُ أَوْ تَرُدُّهُ ، وَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى مَجْلِسِكَ فَايْأَسِرْ بِالسَّلَامِ ، يَا نَسُوا بِكَ ، وَتَثَبَّتْ فِي قُلُوبِهِمْ مَحَبَّتُكَ ، وَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكَ مُشْكِلٌ ، فَاسْتَظْهَرِ عَلَيْهِ بِالْمُشَاوَرَةِ ، فَإِنَّهَا تَفْتَحُ مَغَالِيقَ^(١) الْأُمُورِ ، وَإِذَا سَخِطْتَ عَلَى أَحَدٍ فَأَخِّرْ عِقُوبَتَهُ ، فَإِنَّكَ عَلَى الْعُقُوبَةِ بَعْدَ التَّوْفِيقِ عَنْهُ أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى رَدِّهَا بَعْدَ إِمْضَائِهَا .

(اللفخرى : ١١٣)

١٧٥ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه ، فقال :
« يَا هَذَا أَحْنَيْنَ الْحَمَامَةَ ؟ إِذَا أَنَا مِتُّ فَشَمِّرْ وَاتَزَرَّ ، وَالْبَسْ جِلْدَ نَمْرٍ ، وَضَعْ سَيْفَكَ عَلَى عَاتِقِكَ ، فَنِ ابْدِىْ ذَاتَ نَفْسِهِ لَكَ ، فَاضْرِبْ عُنُقَهُ ، وَمَنْ سَكَتَ مَاتَ بِدَائِهِ ،

(١) جمع مغلاق بكسر الميم : وهو مايفلق به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلاكِ قصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحسن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، ويعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بحمائل الأمور . وإياكم والبغى والتحاسد ، فهما هلاك الملوك الماضون ، وذو العز المسكين يا بني : أخوكم مسئلة نابكم الذي تفرّون^(١) عنه ، ومجتنكم^(٢) الذي تستجئون به ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ أسكم هذا الأمر ، كونوا أولاداً أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام » .
(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ — خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفي سنة ٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى في الناس الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحملته عرشه من الموت موتُ وليّ هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذي كان عليه من الشدة على المريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه ، وحيّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشن الغارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزاً . ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعليكم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع القدّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

(١) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . (٢) المجن : الترس .

١٧٧ — خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غُرُور ، ومنزلُ باطل ، تُضحكُ بأكيّا ، وتُبسِكُ
ضاحكا ، وتخيفُ آمنا ، وتؤمنُ خائفا ، وتُفقرُ مثرى ، وتُثري مُقترا ^(١) مَيّالة غرّارة ،
كعّابة بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إماما ، وارترضوا به حكما ، واجعلوه لكم
قائدا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنسخه كتاب بعده . واعلموا عباد الله أن هذا
القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا
عَسَس ^(٢) » .

(العقه الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

(١) من أقتَر ، أى افتقر . (٢) تنفس الصبح : أسفر ، وعَسَس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٨ - أولى خطبه

قال العُتَيْبِيُّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصالحوا سرائركم ، تصالح لئلا ينقشكم ، وأصالحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن اسماً ليس بينه وبين آدم أب حى لمُزِقْ فى الموت » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٩ - خطبة له بالمدينة

وفى سنة ٨٧ هـ وتلى الوليد عمر بن عبد العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة
من فقهاءها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتسكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد
أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو يبالغكم
عن عامل لى ظُلامة فأخرج^(١) الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى » .
فخرجوا يحزون خيراً .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦١)

(١) التحريج . التضييق ، أى فأشدد عليه بإالله .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى المسمودي في مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة
خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟
وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل^(١) فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب المصائب ، مع
كل جرعة شَرَق^(٢) ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا يبالون نعمة إلا بفراق أخرى ،
ولا يُعَمِّرُ مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا يَهْدِمُ آخر من أجله » .
وأورد القالي في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول ، وهي :

« ما الجَزَعُ مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرَجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما
الشيء من أصله ، فقد مَضَتْ قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس
في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نَهَب المصائب ، مع كل جرعة شَرَق ،
وفي كل أكلة غَصَص ، لا يبالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمرُّ مُعَمَّرٌ يوماً من عمره
إلا يهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الختوف على أنفسكم ، فأين المهزَّب مما هو كائن ؟
وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر
خيبة الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالي ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) جمع غرض : وهو الهدف ، وانتضلت : تناضلت وتبارت في الرمي .

(٢) شَرَق بريقه : غصص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأَرْضِ رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَّاءُ كَبُ الخِلافةِ يا أمير المؤمنين ، قُرِّبَتْ إِلَيْكَ لتركبها ، فقال : مَالِي وَلَهَا ؟ نَحْوُهَا عَنِي ، قُرِّبُوا إِلَيَّ بَغْلَتِي ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الثُّرْمُطَةِ يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحَّ عَنِي ، مَالِي وَلَكَ ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ ابْتُلِيتُ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ غَيْرِ رَأْيٍ كَانَ مِنِّي فِيهِ ، وَلَا طَلِبَةَ لَهُ ، وَلَا مَشُورَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنِّي قَدْ خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَتِي ، فَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ » .

فصاح الناس صيحةً واحدةً : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فَلِأَمْرِنَا بِالْيَمْنِ وَالْبَرَكَةِ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَصْوَاتُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَرَضِيَ بِهِ النَّاسُ جَمِيعًا ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَلَفَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ عَزٌّ وَجَلٌّ خَلَفَتْ ، وَعَمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ عَمَلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرَ دُنْيَاهُ وَأَصْلَحُوا سَرَائِرَكُمْ ، يُصْلِحَ اللَّهُ الْكَرِيمَ عِلَالَئِيكُمْ ، وَأَكْثَرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَحْسِنُوا الْاسْتِعْدَادَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ، فَإِنَّهُ هَادِمُ اللَّذَاتِ ، وَإِنْ مِنْ لَا يَذْكُرُ مِنْ آبَائِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَا حَيًّا مُعْرِقٌ فِي الْمَوْتِ ، وَإِنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ لَمْ تَخْتَلَفْ فِي رَهْبِهَا عَزٌّ وَجَلٌّ ، وَلَا فِي نَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا فِي كِتَابِهَا ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُعْطَى أَحَدًا بَاطِلًا ، وَلَا أُمْنَعُ أَحَدًا حَقًّا ، إِنِّي أَسْتَ

بخازن ، ولكنى أضع حيث أُمِرْتُ . أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاية تَجْتَرُونَ^(١) مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أُمِرْتُ الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٨٢ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمسة ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير يجده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يقتاتن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه . »

فانقش عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله لى لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرّم الله كَلَى لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكنى منفذٌ لله ، ولست بمبتدع ، ولكنى متّبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حِملًا . يأيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب الحارم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلعمرى لأن كنتم صادقين لقد قصرتم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يأيها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيب أرض يأنه ، فأجبلوا فى الطلب » :

(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٨٥ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظنن ، فكم عامرٍ مؤثّقٍ عما قليلٍ يخرب ، وكم مُقيمٍ مُقتبِطٍ عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، بأحسن ما يحضركم من الثقلة : وتزوّدوا فإن خير زادٍ التقوى . إنما الدنيا كفىءٌ ظلالٌ قلّص^(١) فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا منافس ، وبها قرير عَيْن ،

(١) القيء : ما كان شمساً فينسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : انقبض .

إذ دعاه الله بِقَدْرِهِ ورماه بيوم حَتِفِهِ ، فسَلَبَهُ آثَارَهُ وديارَهُ ودنياءَهُ ، وصَيَّرَ لِقَوْمِ آخِرِينَ مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ^(١) ، إِنْ الدُّنْيَا لَا تَسْرُ بِقَدَرِ مَا تَضُرُّ ، إِنَّهَا تَسْرُ قَلِيلًا ، وَتَجْرُ حَزَنًا طَوِيلًا .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٧ وص ٢٢١)

١٨٦ — خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل
ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَعْزُّ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَعَمْرِي — وَإِنْ لِمَعْرَى مَنَى لَحَقًّا^(٢) — لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتِغَى بِسَمَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْمَعُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بَدَأْتُ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلُ بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

ثم كان آخر كلمة تسكلم بها حين نزل : « لَوْ لَا سُنَّةٌ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدْعَةٌ أَمُتُهَا ، لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا فُوقًا^(٣) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٧ — خطبة له

وخطب فقال :

« أَمَا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَا يَطُوعُ أَنْ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ ، وَلَا يَبْعُدُنَّ عَنْكُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ مِنْ زَاغَتْ^(٤) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَعْتِبُ مِنْ سَيِّئٍ ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنٍ ،

(١) المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمغنى : المنزل . (٢) العمر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح في القمم خاصة تخفيفا ، لكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كغراب ويفتح : ما بين الخلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الفرع . (٤) من زافت الحماسة : إذا نشرت جناحيها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته » .

ألا لا سلامةَ لأمري في خلاف السنة ، ولا طاعةَ لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم
تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنى
أعالج أسراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه
الأمجى ، وهاجر عليه الأعرابى ، حتى حسبوه ديناً ، لا يرون الحق غيره . ثم قال :
« إنه لحبيب إلى أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ، ولا قوة إلا بالله . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزى ص ٢٠٤)

١٨٨ - خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشد من الجهل ،
ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت . » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٠٧)

١٨٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا^(١) ، والله ما كان لهم أن
يُعْطُونَاهَا ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه
دون الله محاسب ، ألا وإنى قد ردّدتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتى » اقرأ يا مزاحم
- وكان مولاه -

وقد جىء قبل ذلك بسقط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

(١) يريد آباءه وما ورثوه إياه .

عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جِلْمٌ^(١) ، فجعل يَقْصُهُ ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودِيَ بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٩٠ — خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من أَلَمَ بذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ عز وجل وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٩١ — خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرُونَ ، فوجدت المصدّق به أحقُّ^(٢) ، والمكذّب به هالكاً » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

١٩٢ — خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لاتستصغروا الذنوب ، واتمسوا تمحيصَ ما سَلَفَ منها بالتوبة منها ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذَا كَرِهْنَ . وقال عز وجل : « وَالَّذِينَ

(٢) أى أحق بثواب الله ونعيم جنته .

(١) مقص .

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(المقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سَفَرٍ زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا
كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرَغِبُوا وَرَهَبُوا ، ولا يطولَنَّ عليكم الأمد ،
فتنقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بُسِطَ أمل من لا يدري لعله لا يصبح
بعد إمائه ، ولا يُنْسَى بعد إصابحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفَاتُ المنايا ، فكم رأينا
ورأيتم مَنْ كان بالدنيا مغترّاً ، فأصبح في حبالٍ خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تَقَرَّعِين^(١)
من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ آمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ
من كَلَمٍ إلا أصابه جراح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن آمُرَكم
بما أنهى عنه نفسه ، فَمَتَّخَسَرَ صَفْقَتِي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مَسْكَنَتِي ، في يوم يبدو
فيه الغنى والفقير ، والموازن منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عُنيتم بأمر لو عُنيَتْ به
النجوم لانكدرت ، ولو عُنيَتْ به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون
أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداها ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

(١) قرت عينه : بردت وانقطع بكائها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه .

١٩٤ — خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فأتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزَموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأجملوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعةً وُبُلغةً ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فـسْكَانٌ لم يكن وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعابتم تعجيل إخراجهِ ، وقسمة تراثهِ ، ووجهه مفعود ، وذكرة منسي ، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمُر الديار ، فأتقوا هول يوم لا يُحَقَّر فيه مثقال ذرة في الموازين . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩٥ — خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، ومن لم يعدّ كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه بما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُؤَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) وفي رواية : « فلن يغدر » ، أغدره وغادره : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم .

(وهو أيضاً السؤال والتذلل) . (٣) ساق المريض : شرع في نزاع الروح .

(٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ - خطبة له

وحدّث شبيب بن شَيْبَةَ ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكُنّا نقوم لهم ، ونبدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كَتَّان ، وِعِمَامَةٌ عَلَى قَانِسُوَّةٍ لَاطِنَةٍ^(١) ، فَشَلَّنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَهْ أَنْتُمْ جَمَاعَةٌ وَأَنَا وَاحِدٌ ، السَّلَامُ عَلَيَّ ، وَالرَّدُّ عَلَيْكُمْ ، وَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا ، وَقَرَّبْتُ لَهُ دَابَّتَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَمَشَى وَمَشِينَا ، حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

« وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَى قُرَآئِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِيَ نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونَ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثُمَّ قَالَ : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَسْكُمُ فَأَرْقُ : حَتَّى يَبْكِيَ النَّاسُ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثُمَّ قَطَعَ كَلَامَهُ وَنَزَلَ ، فَدَنَا مِنْهُ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَلِمَتِ النَّاسِ بِمَا أَرْقُ قُلُوبَهُمْ وَأَبْكَاهُمْ ، ثُمَّ قَطَعْتَهُ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا رَجَاءُ إِنِّي أَكْرَهُ الْمِبَاهَاةَ .
(المعتمد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٧ - آخر خطبة له

وخطب بَخْنَاصِرَةَ^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبِيدًا ، وَلَمْ تُنْزَرْ كَوَا سُدْدَى ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادًا يَحْكُمُ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَكُمْ ، فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بِكَثِيرٍ

(٢) خناصرة : بلد بالشَّام من عمل حلب .

(١) لاطنة : لازقة .

وفانيًا بياق ، ألا ترون أنكم في أسلاب^(١) الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعُّون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَحْبُه^(٢) وبلغ أجله ، ثم تفتيَّبونه في صدع^(٣) من الأرض ، ثم تدَّعون غير مؤسِّد ولا مُمَهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، مرتَهَنًا بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وإيمُ الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سَدَدَناها ، ولا أحد منكم إلا ودِدَت أن يده مع يدي ، ولحُتِ^(٤) الذين يَلُونَنِي ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيمُ الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غُضارة^(٥) لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لسكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فتلقي دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

١٩٨ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس . الحقُّوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجلاً ، لا أقولُ مُمَّ خِيَارُكم ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُه بِمَظْلَمَةٍ فلا إذنَ له عليّ^(٦) ، ألا وإني منعتُ نفسي وأهل بيتي هذا

(١) جمع سلب بالتحريك : وهو مايسلب . (٢) للنحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .
(٣) شق . (٤) اللحمة : القرابة . (٥) الغضارة : النعمة ، والسعة ، والخصب .
(٦) أى يدخل على بلا إذن ، لا يحول بيني وبينه حاجب .

المال ، فإن صَدَنْتَ به عليكم إني إذن لضمنين ، والله لولا أن أنْعَشَ ^(١) سُنَّة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فَوْاقًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٩٩ — كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مَسَلَمَةُ بن عبد الملك في المَرْضَةِ التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين « إنك فُطِمْتَ أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عَالَةً ^(٢) ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك ، لكفيتك مَثْوُوتهم إن شاء الله » فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :

« الحمد لله ، أيا الله تخوفني يا مَسَلَمَةُ ! أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال ، وتركتهم عَالَةً ، فإني لم أمنهم حقًا هو لهم ، ولم أعطهم حقًا هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوَصَاة إليك ، أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نَزَلَ الكتاب ، وهو يَتَوَلَّى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يُسْرًا ، وَرَزَقَهُ من حيثُ لَا يَحْتَسِب . ورجل غَيَّرَ وَفَجَّرَ ، فلا يكون عمرُ أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني ، فدعَوم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلامًا ، فجعل يصعدُ بصره فيهم ويصوبُ ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فِتْيَةٌ تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بني : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا مُعَاهَدٍ إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله ، يا بني مَيِّتْ ^(٣) رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوك النار ، فكان

(١) نمشه كنع وأنمسه : رفعه . (٢) فقراء جمع عائل من عال يعيل عيلة (بفتح العين) أى افتقر .

(٣) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بنيَّ
عَصَمَكُمُ اللهُ ورزقكم » . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(المعقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

٢٠٠ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذبُ الخارجي - واسمهُ بسطام من بني يشكر -
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك
منى فهُلُمَّ إلى أنَاظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان
في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك
رجلين يدارسانك وينظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشياً اسمه عاصم ،
ورجلاً من بني يشكر ، فقدما على عمر بخفاصة ، فأخبر بمكانهما ، فقال : فتشوها
لا يكن معهما حديد وأدخلوها ، فلما دخلا قالَا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر :
أخبراني ما الذي أخرجكم تُخْرِجَكُمُ هذا ؟ وما نقيم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقيمنا سيرتك ،
إنك ائتمرتَ بالعدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس
ومشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ،
وعهد إلى رجلٍ كان قبلي ، فقامت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون
الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فأتروني ذلك الرجل ، فإن خالفت
الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتناه
فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فليست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟
قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن
زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فآلعتهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك
أو يفرق ، فتكلم عمر ، بحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لئانا وقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاؤُهُ اهْتَدَوْا » : وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته . قال : أفتيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائمه قبل منه ، فإن أحدث حديثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورؤد أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليسا من أسلافكما ومن تقوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذراري ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمت أن عمر قام بعد أبي بكر ، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قالا : نعم ، قال : فهل برى عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبراني عن أهل التَّهْرَوَانِ أليسوا من صالحى أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمت أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قذبة ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خباب

ابن الأَرْت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا
حيّاً من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون
الصبيان في قدور الإِقِط^(١) وهي تفور ؟ قالوا : قد كان ذلك . قال : فهل يرى
أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالوا : لا . قال : فهل
تبرهون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالوا : لا . قال : أرايتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالوا
بل واحداً . قال : فهل يسمعكم فيه شيء يعجز عني ؟ قال : لا . قال : فكيف يسمعكم أن
توايتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتهم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى
بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسمعون
فيما زعمتم إلاّ لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ وَيَحْكُمُ إِنْكُمْ قَوْمُ جَهَالٍ ، أردتم أسراً
فأخطأتموه ، فأنتم ترُدُّون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن
عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من آمن عنده . قالوا : مانحن كذلك . قال عمر :
بل سوف تُقَرُّون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث إلى
الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله ، فن فعل ذلك حَقَّقَ دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حُرْمَتُهُ ، وكانت له أُسُوةٌ
للمسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : أفليستم أنتم تَلَقَّوْنَ من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فتستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من
اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ؟ فقال الإشكري : أرايت
رجلاً وَلِيَ قَوْماً وَأَمْوَالَهُمْ فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أترأى
الحق الذي يلزمه الله عزّ وجلّ ؟ أو ترأى قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفقتلتم هذا الأمر
إلى يزيد^(٢) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاه غيري ،

(١) الأقط بفتح الهمزة وكسرهما : شيء يتخذ من المخيض الغنسي .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظرَ انى^(١) ثلاثاً فخرجا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر للبشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفقات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد وخُصِمت فيه ، فاستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاء سما ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٢٠١ — تأيينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداها عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بوى ، فقد كنت براً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشدَّ سروراً بك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

٢٠٢ — خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بَطْراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما لي بإطراء نفسي ، وإني لأظلم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدِيتَ مَعَالِمُ الْهُدَى ، وأُطْفِئَ نُورُ أَهْلِ التَّقْوَى ، وظهر الجَبَّارُ العنيد^(٢) ، المستَحِلُّ لكل حُرْمَةٍ ، والرَّاءِبُ لكل بَذْعَةٍ ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابنُ عَمِّي في النسب ، وكَفِيئِي^(٣) في الحَسَبِ ، فلما رأيت ذلك استَحَرْتُ الله في أمره ، وسألته ألا يَكُنِّي إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك مَنْ أَجَانِي من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطَهَّرَ منه البلاد ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، لا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي .

أيها الناس : إن لكم على ألا أَضَعَ حجراً على حجر ، ولا لَبِنَةً على لبنة ، ولا أَكْرِئِي^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيهِ زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهمكا في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهاك حرمان الله ، فلما أفضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انغماسا في اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله ، والإساءة إليهم ، وتنفيرهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعده ، وتوفي هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ . (٢) يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فالاً في المصحف فخرج « وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فنصبه غرضاً للنشأ وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد

إذا لا قيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

(٣) كفيته وكفوّه بضم الكاف وكفاؤه بكسر ها : مثله . (٤) كرى النهر : استحدث حفرة .

بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة^(١) أهله ، فإن فَضَلَ فَضْلٌ ، نقلته إلى البلد الذى يليه ، ولا أُجْرِمُ^(٢) فى بيوئكم ، فأَمْتِنَكُمْ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ ، ولا أُغْلِقُ بَابِي دُونَكُمْ ، فَيَأْكُلَ قَوْيُكُمْ ضَعِيفُكُمْ ، ولا أَحْمِلُ عَلَى أَهْلِ جَزِيَّتِكُمْ مَا أَجْلِيهِمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ ، وَأَقْطَعُ بِهِ نَسْلَهُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى إِذْرَارِ الْعَطَاءِ فى كُلِّ سَنَةٍ ، وَالرَّزْقِ فى كُلِّ شَهْرٍ ، حتى يَسْتَوِى بِكُمْ الْحَالُ ، فَيَكُونُ أَفْضَاكُمْ كَأَدْنَاكُمْ ، فإن أَنَا وَفَيْتُ لَكُمْ ، فَعَالِيكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وَحَسَنُ الْمَوَازَرَةُ وَالْمَسْكَنَةُ^(٣) ، وَإِنْ لَمْ أَفِ لَكُمْ ، فَعَالِيكُمْ أَنْ تَخْلَعُونِى إِلَّا أَنْ تَسْتَشِيرُونِى ، فإن أَنَا تَبَتَّ قَبْلَتُكُمْ مِنِّى ، وَإِنْ عَرَقْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِى ، مِمَّنْ يُعْرَفُ بِالصَّلاحِ ، يُعْطِيَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ الَّذِى أُعْطَيْتُكُمْ ، فَأَرْدْتُمْ أَنْ تَبَايَعُوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ ، وَدَخَلَ فى طَاعَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِلْخَلْقِ فى مَعْصِيَةِ الْخَلِيقِ ، وَلَا وِفَاءَ لَهُ بِنَقْضِ عَهْدٍ ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ طَاعَةُ اللَّهِ فَأَطِيعُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَا أَطَاعَ ، فَإِذَا عَصَى اللَّهَ وَدَعَا إِلَى الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ أَهْلُ أَنْ يُعَصَى وَيُقْتَلَ ، أَقُولُ قَوْلِى هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لى وَلَكُمْ .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،

الغفرى ص ١٢٠ وتاريخ الطبرى ٩ : ٢٦)

٢٠٣ وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاء

لَمَّا وَلَّى يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ سَلَمَ بْنَ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ عَلَى خُرَاسَانَ قَالَ لَهُ :

« إِنْ أَبَاكَ كَفَى أَخَاهُ (يَعْنِى مَعَاوِيَةَ) عَظِيماً ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُكَ صَغِيرًا ، فَلَا تَقْصِرْ عَلَى عَذْرِ مَنْ لَكَ ، فَقَدْ اسْتَكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنْكَ ، وَإِيَّاكَ مِنِّى قَبْلَ أَنْ أَقُولَ إِيَّاى مَنْكَ ، فَإِنَّ الظَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ مِنْكَ أَخْلَفَ مِنِّى فَيْكَ ، وَأَنْتَ فى أَدْنَى حَظِّكَ فَاطْلُبْ أَقْصَاءَهُ ، وَقَدْ اتَّبَعْتُكَ أَبُوكَ ، فَلَا تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَكُنْ لِنَفْسِكَ تَكُنْ لَكَ ، وَإِذَا كَرِهْتَ يَوْمَكَ أَحَادِيثَ غَدِكَ تَسْعَدَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

(١) الفقر والحاجة . (٢) جمر الجيش : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفاهم . (٣) المعاونة .

خطب عتبة بن أبي سفيان^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعنمان ، أرجو أن يولياني نسكته ، إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بحطّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نجح^(٤) قول ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة الشئ ، فأطأكم الله وطاة ، لا رَمَق^(٥) معها ، حتى تُنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشفوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين^(٦) ، وما تخفي الصدور .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٨)

-
- (١) ولله أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام متبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣ » ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ « واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان » . (٢) أصله الزرع المحصود . (٣) هكذا في الأصل وقد يكون « ومنه » . (٤) من نجم الشيء : إذا ظهر وطاق . (٥) الرمق : بقية الحياة . (٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٢٠٥ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حاملي الأم أنوفٍ رُكِّبت بين أعين ، إنما قَلَّمت أظفاري عنكم ، لئيلين مَسَّى إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء ، والعقب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السَّياط على ظهوركم ، فإن حَسَمْتَ مُسْتَشْرِي^(١) دائكُم ، وإلا فالسيفُ من ورائكُم ، فكم من عظة لنا قد صَمَّت عنها آذانكُم ، وزجرَةٌ منافدٌ مَجْنُها قلوبكُم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مُؤيِّساً لكم من المراجعة إلى الحسنى ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى . » (صبح الآئى ١ : ٢١٦ ؛ والمقد للفريد ٢ : ١٥٩ ، والآمال ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يا أهل مصر : قد طالت معانبتنا إياكم بأنطراف الرماح وظُّبَات السيوف ، حتى صرنا شَجَى في كهوانكُم ، ما تُسَيِّعُنا^(٢) حلوكم ، وأقْداء في أعينكُم ، ما تُطَرِّفُ^(٣) عليها جفونكُم ، أخفين أشدَّت عُرَى الحق عليكم عَقْدًا ، واسترخَتْ عُقْدُ الباطل منكم حَلًا ، أَرْجَفْنا بالخليفة ، وأردتم توهين^(٤) السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقْدَمْتُم عهدكم به

(١) استشرى الداء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، واللهوات

جمع لهاة : وهى اللحم المشرقة على الخلق ، وأساغه : ابتلعه . (٣) جمع قذى : وهو ما يقع في العين

والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بعينه : حرك جفניה . (٤) إضعاف .

حديث ؟ فازبحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ،
والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا مآظمر ،
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أمر رتم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم
زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تمتدرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد
وليككم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن ردّدتم تراذك^(١) بيده ، وإن استصعبتم
تراذك بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمّل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع
والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئثنا بخدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها
السنتنا حتى عُقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم نأجزاً بنأجز^(٢) ،
ومن خدر كن بشر ، فنأدوه سمعاً وطاعةً ، فنأدام عدلاً عدلاً . (المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يظعنون على الولاية ويميّبون
السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على السنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

(١) يقال : تراذا البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) النأجز والنأجز : الحاضر ،

ومن أمثالهم : نأجزا بنأجز ، أى حاضرنا بحاضر ، كقولك يدا بيد ، وعأجلا بعأجل ، وقالوا أبيعكم
الساعة نأجزا بنأجز : أى معجلاً .

تأتونه ، كالجار يحمل أسفاراً ، أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإيمُ الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرّة ، ولا أبطئ عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوم سبهاً بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب

(المقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٩ - خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريبٌ عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسمى فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تَمُدُّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمنٍّ حَتَفَهُ فى أمنيته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوّا ، فإن لوّا قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلّاً على كلّ » .

فصاح به أعرابى : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن نسيئوا وقد أحسنّا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقّكم باستتمامه ، وإن كان منا فإولاكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم بالخطوة ، وقد كثر عياله^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله

(١) العيال جمع عيل كجيد : وهو من يلزم الإنفاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بفنك ، فليت إسرعنا إليك يقوم بإطاعتنا عنك » .

(الآمال ١ : ٢٤٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ - خطبته في علمته التي مات فيها

ولما اشكى شكاياه التي مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهرَب من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنيائى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقّ من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عادداً إليكم » ، فلم يعد .
(المقصد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدب ولده :

« ليكون أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسن ، والقبيح عندهم ما استقبح ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تكثرهم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رَوْهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وتهدّذهم بى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، ورؤهم سير الحكماء ، واستزدنى

بزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تفعل على عذر منى لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برى إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما وُلد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلّه على ولده ، فجمع بنيّه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يَا بَنِيّ ، قد عرفتم خيرة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذو همة وإعدة^(٣) ، يسمو جدّه ، ويبعد صيته^(٤) ، وتشهد شكيمة^(٥) ، وإني آمركم إن نزل بي من الموت مالا تحيى عنه ، أن تظاهروه وتوازرّوه وتُعزّروه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللئام ، ويلبسكم عزّا لا تُنهيجه^(٧) الأيام . »

فقالوا جميعاً : « إنك تؤثّرهُ علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ماستره

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان ابن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزل ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

(٢) شب وانتقل عن حد الصغر . (٣) من قولهم شجرة واعدة : إذا ظهر لرائتها أن قسحان إثمارها ، وأرض واعدة : إذا رجع خيرها من الثبت ، وظهر لرائتها أن قد قرب إمكان المرمى بها ، وفرس واعد : يملك جرياً بعد جرى ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، ويوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أوله .

(٤) الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكية : الأنفة ، وفي اللجام : الحديدة المعرضة في فم الفرس . وهو مثل يضرب للصرامة في الأمور والمضاء فيها .

(٦) أى يبعد ويطرده . من خسأ الكلب كنع : طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد . (٧) أى لا تبليه . لنهج الثوب ونهجه (كنعه) : أخلقه وأبلّاه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء ، وأنهج : بلى .

البنى عنكم» ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان ، وراهم^(١) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى أخيك عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلحِف^(٢) في مسألتى مالى ، فأحشُ غيلة^(٣) لصغره ، وأحسبه^(٤) بالشئ دون الشئ من مالى ، إلى أن استثبت أن أمه باغيته^(٥) على ذلك ، فزجرتها فلم تكف ، وهذا تخرجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصمصامة^(٦) ، كأن لا ولدى غيره ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أمه من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال : « يا بني ، والله ما آثرته دونكم بشئ من مالى قط ، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلاقاً تساهلت فيه ، لما أملت من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المخذع^(٧) ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

(١) راهق الغلام : قارب الحلم (بضمين) . (٢) يلح . (٣) العيل والعيلة : الافتقار والفاقة ، وأحش : أى أقطع وأحعو ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالنون أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بعطافى إياه والأول أحسن) .
(٤) حسبه (بالتشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى . (٥) بناه الشئ : أعانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باعته على ذلك ») . (٦) الصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان قد صار إلى سعيد بن العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة أمرائه ، أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو ابن معد يكرب ، فقداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بخمسين ألف درهم ، ووهبه المهدي لابنه الهادى فدعا به بعد ماولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فبذم ابن يمين البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ، وقال : دخلتم معى ، وحرمت من أجل ، وفى السيف حوض ، ثم بحث إليه الهادى ، فاشترى منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه باغزا التركى ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره . « اقرأ خبر الصمصامة فى سرح العميون ، ص ٣١٢ ، والأغاني ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ » . (٧) المخدع بضم الميم وكسرها : الخزافة - بيت صغير يحرز فيه الشئ - .

« يا بَنِيَّ : إني عليك حَدِيبٌ ^(١) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٢) إخوتك على مكانك مني ، وإني لا آمَنُ بِنَفِيقَةِ الأجل ، ولي كَنْزٌ أدخرته لك دون إخوتك ، وهأنا مُطلَعٌ عليك ، فاكتمْ أمره . »

فقال : « يا أبت ، طال مُعْزُك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهَ عنك الدِّفَاعَ ، وَيُطِيلَ بك الإِمْتَاعَ . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعْجِبُنِي أن أقطع دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا ^(٣) . »

فقال : « انصرف يا بني ، فإدراك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكني أردت أن أُبْلُوَ رأيك في إخوتك وبنِي أبيك » فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المِخْدَعِ ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَقَعَهُمْ على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأبناء ص ١٠٠) .

(١) متعطف شفيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة :

لم يره أهلا له . (٣) الغمر محرّكة والغمر بكسر الغين : الحقد والضغن .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(١)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢١٣ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد عليه وَغَمَضَ عَيْنَيْهِ وعليه جُبَّة خَزَقَرِمَز^(٢) ، وَمُطَرَف^(٣) ، خَزَقَرِمَز ، وعمامة خَزَقَرِمَز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فغفونا عنكم ، أما إنه لو أُثْبِتُمْ^(٤) بالأولى ما كانت الثانية ، أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأرنا^(٥) منا رقيقاً ، قد فني غضبه وبقي حلمه ، اغتنموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقبل البعيد الأمل ، الطويل

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداته (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (يفتحون وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أقوم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى »
وقد ولي معاوية مكة ولابنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله . (٢) القرمز : صبر أحمر . (٣) المطرف : رداء من خز مريع ذو أعلام .
(٤) الثواب : الجزاء . (٥) الثائر : الآخذ بالثار ، ووافقتم : أي وجدتم .

الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(١) ، لئن شديد ، رقيق
كثيف ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ،
واستقبله بأشربه ، فهو إن عَصَّ نَهَسَ^(٢) ، وإن سطا فَرَسَ^(٣) ، لا يُقَلِّقُ له الحمى ،
ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٤) ، ولا يمشى السَّهْمَى^(٥) « فما قى بعد ذلك إلا ثلاث سنين
وثمانية أشهر حتى قَصَمَهُ اللهُ .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٤ — خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد والياً على
مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشى ولا أموى إلا أن يكون الحارث بن نوفل ، فلما لقيه قال له :
يا حارِ ، ما الذى منع قومك أن يلقونى كما لقيتنى ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتنى
به ، والله ما كنيتنى ، ولا أتممت اسمى ، وإنما أنهارك عن التشدُّر^(٦) على أكفائك ،
فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يرضهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك
على النصيحة ، وإن الذى رأيت منى تَخَلَّقَ^(٧) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ، ولذلك
كنا إذا رفعت لنا اللاهوتة^(٨) بعد الاهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ، ثم شَرَجَ^(٩) أمر

(١) رجل حديد يكون فى السن والفهم والغضب ، وحد عليه : غضب . (٢) نهس اللحم : أخذه
بمقدم أسنانه ونشفه . (٣) فرس فريسته : دق عنقه . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن العصا
قرعت لئى الحلم » وقد سبق شرحه فى ص ١٨٤ . (٥) السهمى والسهمى : الباطل والكذب ،
يقال : ذهب فى السهمى أى فى الباطل : وجرى فلان السهمى : أى جرى إلى غير أمر يعرفه .
(٦) تشدر : توعده وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الخلق : البالى
والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) الاهوة بالضم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجزؤها .
(٩) من الشرج بالتحريك : وهو انشقاق القوس . قوس شريج : فيها شق ، والمراد حدث ونجم .

بين أسرين ، فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا ، فوالله ما نَزَعْنَا وَلَا نَزَعْنَا ، حتى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا ، وَأَكَلَ
اللَّحْمَ لَحْمًا ، وَقَرَعَ الْعَظْمَ عَظْمًا ، قَوْلِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ ،
وَإِخْتِيَارِهِ لَهُ ، ثُمَّ وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ إِسَابِقَتَهُ وَفَضْلَهُ ، ثُمَّ وَلِيَ عُمَرُ ، ثُمَّ أُجِيلَتْ قِدَاحُ نَزْعِنَ مِنْ
شِعَابٍ ^(١) جَوْلَةً سَعَةً ، فَفَازَ بِحَظِيَّتِهَا ^(٢) أَصْلُهَا وَأَعْتَقَهَا ، فَكُنَّا بَعْضُ قِدَاحِهَا ، ثُمَّ شَرَحَ
أُسْرَيْنِ أَمْرَيْنِ فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا ، فوالله ما نَزَعْنَا وَلَا نَزَعْنَا ، حتى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا ،
وَأَكَلَ اللَّحْمَ لَحْمًا ، وَقَرَعَ الْعَظْمَ عَظْمًا ، وَعَادَ الْحَرَامُ حَلَالًا ، وَأُسْكِتَ كُلُّ ذِي حِسٍّ
عَنْ ضَرْبِ مُهَيَّذٍ ، عَرَّ كَأَنَّكَ ، وَعَشَفْنَا عَيْنَنَا ، وَخَزَأَ وَهْنَنَا ، حتى طَابُوا عَنْ حَقْنَانَفْسًا ،
وَاللَّهُ مَا أَعْطَوْهُ عَنْ هَوَادَةٍ ، وَلَا رِضْوَانٍ فِيهِ بِالْقَضَاءِ ، أَصْبَحُوا يَقُولُونَ : حَقَّنَا غُلِبْنَا عَلَيْهِ ،
فَجَزَيْنَاهُ هَذَا بِهَذَا ، وَهَذَا فِي هَذَا . يَا أَهْلَ مَكَّةَ : أَنْفُسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَسُفْهَاءَكُمْ سَفْهَاءَكُمْ ،
فَإِنْ مَعِيَ سَوْطًا نَكَالًا ، وَسَيْفًا وَبَالًا ^(٣) ، وَكُلُّ مَنْصُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ ، ثُمَّ نَزَلَ .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية

تلاحى ^(١) الوليد بن عقبة ، وعمر بن سعيد بن العاص في مجلس معاوية ، فتكلم
الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذِبْتَ ^(٢) ، فقال له الوليد : اسكت يا طليق اللسان ،
منزوع الحياء ، وبأ أُمُّ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فلمعمرى لقد بلغ بك البخل الغاية الشائنة المذلة لأهلها ،
فساءت خلائقك لبخلك ، فَنَمَعْتَ الْحَقُوقَ ، وَلَزِمْتَ الْعُقُوقَ ، فَأَنْتَ غَيْرَ مَشِيدِ الْبَنِيَانِ ،
وَلَا رَفِيعِ الْمَكَانِ ، فقال له عمرو : والله إن قريشًا لتعلم أنى غير حُلُو المَذَاقَةِ ، وَلَا لَقِيْدِ

(١) الشاب جمع شعبة بالضم : وهى ما بين الفصين وطرف النصف . يشير إلى أصحاب الشورى السعة .

(٢) الخطى : ذو الخطوة أى المكانة . (٣) أى سوطًا ذا نكال . وسيفًا ذا وبال .

(٤) تنازع . (٥) كذب الرجل : أخبر بالكذب .

الْمَلَائِكَةِ^(١) ، وإني لسكالشجاء^(٢) في الخلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية
النهار ، لا أتبع الأفياء ، ولا أنتمي إلى غير أبي ، ولا يُجْهَل حسبي ، حامٍ لحقائي
الذَّمار^(٣) ، غير هَيُوب عند الوعيد ، ولا خائف رَعْدِيد^(٤) ، فلم تُعَيِّر بالبخل وقد جُبلت
عليه ، فلمعري لقد أورثتك الضرورة لؤمًا ، والبخل فُحْشًا ، ففقطعت رَحِمَكَ ، وجُرُنت
في قضيتك ، وأضعت حق من وَلِيَّتِ أمره ، فلست تُرْجِي للعظام ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا
تستعِف عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكَمْ منك التدبير ، فَأُخِمْ الْوَلِيدُ ؛ فقال معاوية :
— وساء ذلك — كُفَّا لَا أَبَا لَكَا ، لا يرتفع بكما القول إلى مالا نريد ، ثم أنشأ
عمرو يقول :

وَلِيدٌ إِذَا مَا كَفْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى بَالٍ
وَلَا يَبْدُرُنَ الدَّهْرَ مِنْ فَيْكِ مَنْطِقٌ بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالٌ^(٥)
(الأمالي ٢ : ٤٠)

٢١٦ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غاب على دِمَشْق ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : إنه لم يَقُمْ أحد من قريش قبلي على هذا المنبر ، إلّا زعم أن له الجنة
ونارا ، يُدْخِلُ الجنةَ من أطاعه ، والنارَ من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة والنار
بيد الله ؛ وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حُسنِ المؤاساة والمعطية » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

(١) اللوك : أهون المضع أو مضغ صلب . (٢) ما اعترض في الخلق من عظم ونحوه .

(٣) ماتجب حمايته . (٤) جبان . (٥) يبدر : يفرط ويسبق .

٢١٧ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هممت اليوم يا أخى أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بدس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرتني ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقة فرفع رأسه وقال :

(إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فدمرناها تدميراً) . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تسلمني ؟ والله لقد دخل أمس على فأقام لسانه لحناً ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تمعد في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غير جدى أبي سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النفير ^(١) ؟ ولكن لو قلت : غنيات وحبيبات والطائف ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١١ ، وتهذيب السكامل ١ : ٣٠٢ وجميع الأمثال ٢ : ١١٥)

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص «جد عبد الملك» إلى الطائف - انظر ص ١٠٤ - أقام بها ، فكان يرمى غنيات اتخذا يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيلة «مصغر حيلة كفرصة : وهى السكرمة» وقوله رحم الله عثمان : أى لرده إياه ، وقد أبى أبو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(١) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخات عليه الأموال التي جاءت من قبيل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا ما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِيطٍ^(٢) فاسق ، فأدّوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٣)) فأهدى إلى برذونين حطمين^(٤) ، فإن استعملتكم ضيعتكم ، وإن عزلتكم قلتم استخف بنا ، وقطع أرحامنا . »

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهل رجلان : سامع مطيع مُناصح ، وعدو مُبغض مُكاشح^(٥) ، فأما السامع المطيع المناصح فإنما جزيناه ، ليزداد ودّاً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضيفه ، وسَلَلنا حِقْدَه ، وكثّرنا لك المودة في صدور رعيتك ، وإن هذا جَبَى الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال » .

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٧)

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ وولاها أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وألطه : جعده . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فعزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم كحكتف : إذا هزل وأسن فضصف وتهدم . (٥) الكاشح : الذي يضمرك العداوة ، كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

٢١٩ — نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلاً يشتم رجلاً ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزَّ سَمْعُكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَلَا ، كَمَا نَزَّ لِسَانُكَ عَنْ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرُ إِلَى شَرٍّ مَافِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلَةُ جَاهِلٍ فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ — تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةُ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ - فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدْخَلَ فَجَلَسَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا نَمْلِكُ أُمُورَكُمْ ، نَمْلِكُ تَأْدِيبَكُمْ ، فَأَرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُهُ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كَمُ كُرْهًا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢٢١ — كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

وَمَا سَقَطَتْ ثَنِيَّتَا مَعَاوِيَةَ لَفَّ وَجْهُهُ بِعِمَامَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ :

« لَنْ أَبْتَلِيَتْ لَقَدْ ابْتُلِيَ الصَّالِحُونَ قَبْلِي ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَنْ

(١) وجد : غضب .

عُوقِبْتُ لَقَدْ عَوقِبَ الْخَاطِئُونَ قَبْلِي ، وَمَا آمَنْ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَئِنْ سَقَطَ عُضْوَانُ مِنِّي ،
لَمَّا بَقِيَ أَكْثَرُ . وَلَوْ أَتَى عَلَى نَفْسِي لَمَّا كَانَ لِي عَلَيْهِ خِيَارٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَرَحِمَ اللَّهُ
عَبْدًا دَعَا بِالْعَافِيَةِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ عَتَبَ عَلَى بَعْضِ خَاصَّتِكُمْ ، لَقَدْ كُنْتُ حَدِّبًا^(١)
عَلَى عَامَّتِكُمْ .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديدَ اليقظة ، كثيرَ التعاهد لولائته ،
فبلغه أن عاملاً من عماله قيل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أَقْبِلْتَ
هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عاصمة ، وخراجك موفور ،
ورعييتك على أفضل حال » قال : « أَجِبْ فِيمَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ ، أَقْبِلْتَ هدية منذ وليتكَ ؟
قال : نعم ، قال : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للثيم ، ولئن أنلت مَهْدِيكَ لامن
مالك ، أو استكفيته ما لم يكن يُستَكْفَاهُ ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن
تعوض المَهْدَى إليك من مالك ، وقبلت ما اتهمك به عند من استكفأك ، وبسط لسان
عائبك ، وأطع فيك أهلَ عملاك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يَحُلْ فيه من دناءة ،
أو خيانة ، أو جهل ، مُضْطَنَعٌ ، نَحْيَاهُ عَنْ عَمَلِهِ . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناسَ لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعْطى الأقارب ، ويدانى الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك ^(١) ، إن أخاك من صدّك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التقدم فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعلمت السجاعة ^(٢) عند الكبير ، في دون ما سَجَّعت به على ابن أخيك ما يكفيك » .
ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حَزَم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلىّ رشداً من نفسك سوى نفسي ، وإن يزيد أصبح غنياً في المال ، وَسَطاً في الحسب ، وإن الله سائلٌ كلَّ راجٍ عن رعيته ، فأتق الله ،

(١) ناجيته : ساررته . (٢) وفي العقد « السجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد في كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » .
(٣) هكذا ورد في العقد الفريد ، وفي مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان ستة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد في الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفي حياة الحسن بن علي رضي الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد توفي الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وانظر مَنْ تَوَلَّى أَمْرَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ « فَأَخَذَ مُعَاوِيَةَ بِرَءْضِهِ ^(١) حَتَّى تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ ^(٢) ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مُحَمَّدُ : إِنَّكَ أَمْرُهُ نَاصِحٌ ، قُلْتَ بِرَأْيِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ إِلَّا ذَاكَ . قَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنِي وَأَبْنَاؤُهُمْ ، فَأَبْنَى أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، أَخْرَجَ عَنِّي » .

ثُمَّ دَعَا الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ الْفَهْرِيَّ ، فَقَالَ لَهُ : إِذَا جَلَسْتُ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَفَرِغْتَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِي وَكَلَامِي ، فَاسْتَأْذِنِي لِلْقِيَامِ ، فَإِذَا أُذِنْتَ لَكَ فَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى . وَاذْكُرْ يَزِيدَ . وَقُلْ فِيهِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ . ثُمَّ ادْعُنِي إِلَى تَوَلِيَّتِهِ مِنْ بَعْدِي . فَأَبْنَى قَدْ رَأَيْتَ وَأُجْمَعَتْ عَلَى تَوَلِيَّتِهِ . فَاسْأَلُ اللَّهَ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ الْخَيْرَ ^(٣) وَحَسَنَ الْقَضَاءِ . ثُمَّ دَعَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَانَ التَّمَقِّيَّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودَةَ الْفَزَارِيَّ ، وَثَوْرُ بْنُ مَعْنٍ السَّلَمِيُّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِصَامٍ الْأَشْعَرِيُّ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا إِذَا فَرَغَ الضُّحَّاكُ ، وَأَنْ يَصْدُقُوا قَوْلَهُ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى يَزِيدَ .

وَجَلَسَ مُعَاوِيَةُ فِي أَصْحَابِهِ ، وَأَذِنَ لِلْوُفُودِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فحَطَبَهُمْ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِهِ ، وَهُوَ لَاءُ الْفَرِّ فِي الْمَجْلِسِ قَدْ قَعَدُوا لِلْكَلَامِ — قَامَ الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ .

٢٣٣ - خطبة الضحَّاك بن قيس الفهري

حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْتَعَ بِهِ ، إِنَّا قَدْ بَلَوْنَا ^(٤) الْجَمَاعَةَ وَالْأَلْفَةَ ، فَوَجَدْنَاهَا أَحَقَّنَ لِلدَّمَاءِ ، وَآمَنَ لِلسَّيْلِ ، وَخَيْرًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَلَا خَيْرَ لَنَا أَنْ نُتْرَكَ سُدَى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفس طويل . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ؛ خارته

على غيره خيرة بكسر الخاء مع سكون الياء وفنحها : فضله وخار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .

(٤) شبرنا .

والأيام عَوَجٌ^(١) رواجع ، وَالْأَنْفُسُ يُعَذِّى عَلَيْهَا وَيُرَاحُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندرى ما يختلف به الْعَصْرَانِ^(٢) ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، كَمَا مَاتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَخُلَفَائِهِ ؛ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِكَ الْمَتَاعَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ دَعَةِ يَزِيدَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُسْنِ مَذْهَبِهِ ، وَقَصْدِ^(٣) سِيرَتِهِ ، وَبُيْنِ نَقِيبَتِهِ^(٤) ، مَعَ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَالشَّبَّهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي عَقْلِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَشِمَّتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، مَا دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ فِي أُمُورِنَا ، وَالْقَنُوعِ بِهِ فِي الْوَلَايَةِ عَلَيْنَا ، فَلْيُؤَلِّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - عَهْدَهُ ، وَلِيَجْعَلَهُ لَنَا مَلِجًا وَمَقَرًّا بَعْدَهُ ، نَأْوِي إِلَيْهِ إِنْ كَانَ كَوْنٌ^(٥) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَا مِنْهُ ، فَاعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ ، عَزَمَ اللَّهُ لَكَ فِي رَشْدِكَ ، وَوَفَّقَكَ فِي أُمُورِنَا » .

٢٢٤ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

نَمِّ قَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ الثَّقَفِيِّ ، فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ أَهْوَاؤُهُ ، قَدْ اخْتَدَوْدَبَتْ عَلَيْنَا سِيَاسَاؤُهُ^(٦) ، وَاقْطَوْطَبَتْ^(٧) عَلَيْنَا أَدْوَاؤُهُ ، وَأَنَاخَتْ عَلَيْنَا أَنْبَاؤُهُ ، وَنَحْنُ نُشِيرُ

(١) بمعنى رواجع جمع عائجة ارم فاعل من عاج إذا رجع : أى أن الأيام تموج على الإنسان فتسلبه ما أعطى من الحياة وتمتع العيش . (٢) العصر : اليوم والليله والعشى إلى احمرار الشمس والغداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقيب : النفس ، وهى أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأى ، والطبيعة . (٥) أى إن حدث حدث . (٦) السياء : منتظم فقار الظهر ، وحمله على سياء الحق أى على حده ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لَقَدْ حَمَلْتُ قَيْسَ بْنَ عِيْلَانَ حَرْبَنَا
عَلَى يَابَسِ السَّيَاءِ مَحْدُودِ الظَّهْرِ

يقول : حملناهم على مركب صعب كسياء الحمار ، أى حملناهم على مالا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افعلول من قطب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها « اقطوطى » أى قارب فى مشيه إسرعا .

عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً ، وأثبتنا^(١) بصراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اغتباطاً^(٢) ، مع ما منحه الله من الشبه بأمير المؤمنين ، والمحبة في المسلمين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضيق به ذرعاً^(٣) ، فالله تعالى يقيم به الأود^(٤) ، ويردع به الألد^(٥) ، ويؤمن به السبل ، ويجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر . ثم جلس .

٢٢٥ — خطبة ثور بن معن السلمي

فقام ثور بن معن السلمي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان ، صاحبه مشاغِب^(٦) ، وظلّه ذاهِب^(٧) ، مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميّت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً ، وأبدأنا عرفاً^(٨) ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه . فاجمله لنا بعدك خلفاً ، فإنه أوسعنا كنفاً^(٩) ، وأقدمنا سلفاً ، وهورثك لما فُتق ، وزمام لما شعث^(١٠) ، ونكال لمن فارق ونافق ، وسلم لمن واظب . وحافظ للحق . أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد . ثم جلس .

(١) لعله « وأثبتنا » . (٢) بسط فلانا فانبسط : سره والافتباط : المرة . (٣) ضاق بالامر ذرماً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . (٤) الاعوجاج . (٥) الالد : الخصب الشحيح الذي لا يربغ إل الحق . (٦) صاحبه يعني به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم معمول من الشغب : وهو تهيج الشر . (٧) كناية عن دنو أجله . (٨) المعروف . (٩) الكنف : الظل والجانب . (١٠) شعث الأمر ، كفرج شعثاً : انتشر وتفرق .

٢٢٦ — خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ، وأهواء منجذمة ^(١) ، نخاف حَذَّهَا ، وننتظر حِدَّهَا ، شديدٍ مُنْحَدِرُهَا ، كثيرٍ وَعَرُهَا ، شائخةٍ مَرَّاقِبُهَا ^(٢) ، ثابتةٍ مراتبُها ، صعبةٍ مراكبُها ، فالموتُ يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد لا يخلدُ في الدنيا أحد ، ولا يبقى لِمَا أَمَدٌ ^(٣) ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر الجماعة ، وأعلى عيناً بحسنِ الرأي لأهل الطاعة ، وقد هُدِيت ليزيدَ في أكمل الأمور ، وأفضلها رأياً ، وأجملها رِضاً ، فاقطع بيزيدَ قَالَةً ^(٤) الكلام ، ونَحْوَةً ^(٥) المُبِطَل ، وشَمَتَ المنافق ، واكْبَتَ ^(٦) به الباذخ ^(٧) المعادي ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَلَمٌ لِلشَّعَث ، وأسهلُ للوَعْثِ ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراعى بك الظنون . »

٢٢٧ — خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آتاك بخلافته ، واختصَّك بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايَةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأنعمِهِ جَدِلاً ،

(١) جذمه فانجذم : قطعه . (٢) المراقب : جمع مرقب (كجعفر) المكان المشرف ،

يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : الغاية والمنتهى . (٤) قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال

كالقول ، والقال ، والقليل . (٥) الكبير والمظلة . (٦) كبته : صرعه وأخزاه ، ورد العدو

بغيبته ، وأذله . (٧) بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : عال . (٨) وعث الطريق

من بابي تمب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (يسكون العين وكسرهما) .

وَلَمَّا حَمَلَكَ مُحْتَمِلًا ، يَكْشِفُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَ الْعَمَى ^(١) ، وَيَهْدِي بِكَ الْعِدَا ، وَيَزِيدُ
ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُ لِلنَّاسِ بِرِعَيْتِكَ رَأْفَةً ، وَأَحَقَّهُمْ بِالْخِلَافَةِ بِمَدِّكَ ، قَدْ سَاسَ الْأُمُورَ
وَأَحْكَمْتَ الدَّهْرَ ، لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْفَهْمِ ^(٢) ، وَلَا بِالْكَبِيرِ السَّفِيهِ ، قَدْ احْتَجَنَ ^(٣) الْمَكَارِمَ
وَارْتَجَى لِحْلِ الْعِظَامِ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ فِي الْعَدُوِّ نَكَايَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ صُنْعًا فِي الْوَلَايَةِ ،
وَأَنْتَ أَغْنَى بِأَمْرِكَ ، وَأَحْفَظَ لَوْصِيَّتِكَ ، وَأَحْرَزَ أَنْفُسَكَ ، أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَافِيَةَ
فِي غَيْرِ جَهْدٍ ^(٤) ، وَالنِّعْمَةُ فِي غَيْرِ تَغْيِيرٍ .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعَمْرُو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ : قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، فَقَامَ فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَنْتَنِي عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ : فَإِنْ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ أَمَلٌ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ ، طَوِيلَ الْبَاعِ ،
رَحْبُ الدَّرَاعِ ، إِنْ اسْتَضَقْتُمْ إِلَيَّ حِلْمَهُ وَسِعْكُمْ ، وَإِنْ اخْتَجْتُمْ إِلَيَّ رَأْيَهُ أَرْشَدَكُمْ ، وَإِنْ
افْتَقَرْتُمْ إِلَيَّ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ ، جَذَعٌ ^(٥) قَارِحٌ ^(٦) ، سُبُوقٌ فَسَبَقَ ، وَمُوجِدٌ فَجَجَدَ ،
وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمُهُ ، فَهُوَ خَلَفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلَفَ مِنْهُ . فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ :
اجْلِسْ أَبَا أُمِيَّةَ . فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ . »

قَالَ مُعَاوِيَةُ : « أَوْ كُلُّكُمْ قَدْ أَجْمَعَ عَلَى هَذَا رَأْيَهُ ؟ » فَقَالُوا : « كَلْنَا قَدْ أَجْمَعَ »

(١) الْعَمَى هُنَا : ذَهَابُ بَصَرِ الْقَلْبِ . (٢) الْفَهْمِ وَالْفَهْمُ : الْعَيْسَى ، فَهُوَ كَفَرَحُ فَهَاهُنَا .
(٣) احْتَجَنَ الْمَالُ : ضَمَّهُ وَاحْتَوَاهُ . (٤) الْمَشَقَّةُ . (٥) الْجَذَعُ : الشَّابُّ الْخَدَثُ .
(٦) أَيْ شَدِيدُ الْجَرْبِ ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ وَصْفٌ لِلْفَرَسِ ، قَرِحَ الْفَرَسُ قَرُوحًا : إِذَا أَلْقَى أَقْصَى أَسْنَانِهِ
() وَلَهُ أَرْبَعُ أَسْنَانٍ يَتَحَوَّلُ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، يَكُونُ جَذَعًا - ذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ -
ثُمَّ ثَنِيًا « بِفَتْحٍ فَكسرٍ مَعَ تَشْدِيدِ الْيَاءِ » - فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ - ثُمَّ رُبَاعِيًا « بِفَتْحٍ أَوَّلُهُ وَثَانِيَةٌ وَتَحْفِيفُ الْيَاءِ » - إِذَا
سَقَطَتْ رُبَاعِيَّتُهُ ، وَنَبَتَ مَكَانُهَا سَنٌ وَذَلِكَ إِذَا اسْتَمَّتْ الرَّابِعَةُ - ثُمَّ قَارِحًا - إِذَا سَقَطَتْ السَّنُ الَّتِي تَلَى رُبَاعِيَّتَهُ
وَنَبَتَ مَكَانُهَا نَابَةٌ ، وَهُوَ قَارِحُهُ الَّتِي صَارَ بِهِ قَارِحًا ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْقُرُوحِ سَقُوطُ سَنٍ ، وَلَا نَابَاتُ سَنٍ ، وَذَلِكَ
إِذَا اسْتَمَّتْ الْخَامِسَةُ وَدَخَلَ فِي السَّادَةِ .

رأيه على ما ذكرنا . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٩ - خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنْكَرٍ زمانٍ قد سَكَفَ ،
ومعروفٍ زمانٍ مُؤْتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ اِخْلَافٍ ، فإن تَوَلَّاهُ عهدك ،
فعن غير كِبَرٍ مُقْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضْنٍ ، وقد حَكَبَتِ الدهور ^(٢) ، وجَرَبَتِ الأمور ،
فَاعْرِفْ من تَسْنِدُ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، واعصِ رَأْيَ من يأمرُك ،
ولا يَقْدِرْكَ ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظَرُ للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ،
مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان
الحسن ^(٣) حيا » .

٢٣٠ - خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفاق من أهل العراق ، مُرُوءَتُهُمْ في أنفسهم
الشقاقُ ، وَأُلْفَتُهُمْ في دينهم الفِرَاقُ ، يَرَوْنَ الحق على أهوائِهِمْ ^(٤) ، كما نَما ينظرون

(١) مستأنف . (٢) هكذا في مروج الذهب . وفي الإمامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر اشطره »

وأصله من حلب شطرى الناقة (يفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشطركل
خلفين من أخلائها ، والخلف (بكسر الخاء) لها كالفرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، واشطره يدل
من الدهر منصوب . (٣) هذا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت

في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . (٤) أى على أغراضهم وميولهم .

بِأَقْفَانِهِمْ . اخْتَالُوا جَهْلًا وَبَطَرًا . لَا يَرْقُبُونَ مِنْ اللَّهِ رَاقِبَةً ، وَلَا يَخَافُونَ وَبَالَ عَاقِبَةٍ ،
اتَّخَذُوا لِإِبْلِيسَ لَهُمْ رَبًّا ، وَاتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسَ حِزْبًا . فَمَنْ يُقَارِبُوهُ لَا يَسْرِوْهُ ، وَمَنْ يَفَارِقُوهُ
لَا يَضُرُّوهُ . فَادْفَعْ رَأْيَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَحْوَرِهِمْ ، وَكَلَامِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ ، مَا لِلْحَسَنِ
وَذَوِي الْحَسَنِ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي اسْتَخْلَفَ بِهِ مَعَاوِيَةَ فِي أَرْضِهِ ؟ هِيَئَاتِ لَا تُورِثُ
الْخِلَافَةَ عَنْ كِلَالَةٍ . وَلَا يَحْجُبُ غَيْرُ الدَّكْرِ الْمَصْبِيَّةَ . فَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ
عَلَى الْمُنَاصَحَةِ لِإِمَامِكُمْ . وَكَاتِبِ نَبِيِّكُمْ ^(١) وَصَهْرِهِ ^(٢) ، يَسْلَمُ لَكُمْ الْعَاجِلُ ، وَتَرْجُو
مِنْ الْآجِلِ .

٢٣١ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا ^(٣) عَنْكَ قَرِيبًا ، فوجدناك أَكْرَمَهَا زَنْدًا ،
وَأَشَدَّهَا عَقْدًا ، وَأَوْفَاها عَهْدًا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَفْتَحِ الْعِرَاقَ غَنَوَةً ^(٤) ، وَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهَا
قَمْعًا ^(٥) ، وَلَكِنَّكَ أَعْطَيْتَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، لِيَكُونَ لَهُ الْأَمْرُ
مِنْ بَعْدِكَ ، فَإِنْ تَفَّ فَإِنَّتِ أَهْلُ الْوَفَاءِ ، وَإِنْ تَغْدِرَ ^(٦) تَعْلَمْ وَاللَّهِ أَنْ وِراءَ الْحَسَنِ خِيُولًا
جِيَادًا ، وَأَذْرَعًا شِدَادًا ، وَسِيُوفًا حَدَادًا ، إِنْ تَدْنُ لَهُ شِبْرًا مِنْ غَدَرٍ ، تَجِدُ وِراءَهُ بَاعًا
مِنْ نَصْرِ ، وَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَحْبَبُوكَ مِنْذُ أَبْغَضُوكَ ، وَلَا أَبْغَضُوا عَلِيًّا وَحَسَنًا
مِنْذُ أَحْبَبُوهُمَا ، وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ السُّيُوفَ الَّتِي شَهَرُوهَا عَلَيْكَ
مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ صَفِّينَ لَعَلَّى عَوَاتِقِهِمْ ، وَالْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضُوكَ بِهَا ، لَتَبَيَّنَ جَوَانِحِهِمْ ، وَإِيمَ اللَّهِ
إِنَّ الْحَسَنَ لِأَحَبُّ إِلَيَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ مِنْ عَلِيٍّ . »

(١) وكان معاوية من كتاب الوحي . (٢) وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج
النبي عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .
(٤) فتح البلد غنوة : أي قهرا . (٥) مات قمعا : أصابته ضربة أو رمية فأت مكانه .
(٦) غدره وغدر به كنصر وضرب وسم .

٢٣٢ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ،
 لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون
 لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاها لحمل الرعية ،
 فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حِلماً وعلماً ، وأوسعنا
 كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمت التجارب ، وقصّدت به سُبُل المذاهب ، فلا يصرفنك
 عن بيعته صارف ، ولا يَقِفَنَّ بك دونها واقف ، ممن هو شاسِعٌ ^(١) عاصِرٌ ، يَنُوصُ ^(٢)
 للفتنة كل مناصٍ ، لسانه ملتوٍ ، وفي صدره دالّ دوى ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن
 سكت فدادٍ غائبٌ ^(٣) ، قد عرفنا مَنْ هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبية للتوفيق ،
 والتكليف للتفريق ، فاجلُ بيعته عنا النعمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تَحِدْ عنه
 إذ هُدِيتَ له ، ولا تَنْبُشْ عنه إذ وُقِّتَ له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحقُّ علينا
 وعليك . أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنّة . »

٢٣٣ — خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

« أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخُلَائناً ، بهم يَسْتَعِدُّ ، وإياهم يستعين
 وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جَفَوا ^(٤) وإن استغنى عنهم أَرْجَفُوا ^(٥) ،

(١) من شمع المنزل كنع : بعد . (٢) ناص مناصاً : تحرك . (٣) من غاله : أى أهلكه .

(٤) أسرعوا ، وجف البعير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أمديته ، قال تعالى :

« فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ » أى ما أعلمكم .

(٥) أَرْجَفَ القوم : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى : « وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(١) الْفِتْنِ بِالْفُجُورِ ، وَيَشْتَقُونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عَيَّابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوَّا عُرْوَةَ أَمْرِ حَنَفِيًّا ، وَإِنْ دَعَوْا إِلَى غَيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَثُكَ بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا مَتَّعَيْنَ ، حَتَّى تَصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٢) خَزْيٍ وَبَيْلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٣) أَمْرِ جَلِيلٍ ، نَجْعَتْ^(٤) أَصُولُهُمْ كَاجْتِنَاثِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوَّلَى لِأَوَّلِكَ ثُمَّ أَوَّلَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا وَانْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النُّذْرُ^(٥) .

٢٣٤ - خطبة يزيد بن المنقع

ثم قام يزيد بن المنقع ، فقال :

« أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ - ، فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ - ، فَمَنْ أَبَى فَهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ - ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : اجْلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخُطَبَاءِ .

٢٣٥ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنْتَ أَعْلَمُنَا بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسَرَّهُ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَدْخَلِهِ وَخُرْجِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ اللَّهُ رِضًا وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلَا تَشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ

(١) فِي الْأَصْلِ « يُلْحِقُونَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَصَوَابُهُ : « يُلْقِحُونَ » مِنْ أَلْقَحَ النَّاقَةَ وَالنَّخْلَةَ .

(٢) جَمْعُ صَاعِقَةٍ : وَهِيَ الْمَوْتُ وَكُلُّ عَذَابٍ مَهْلِكٍ . وَأَرْضٌ وَبَيْلَةٌ : وَخِيْمَةُ الْمَرْتَعِ .

(٣) جَمْعُ قَارِعَةٍ ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ الْفَاجِئَةُ . قَالَ تَعَالَى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » .

(٤) تَقْتُلُ ، وَالتَّقَعُّعُ بِالْفَتْحِ وَيَكْسَرُ : الْبَيْضَاءُ الرَّخْوَةُ مِنَ السَّكَاةِ .

(٥) النَّذْرُ : الْإِنْذَارُ . قَالَ تَعَالَى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أَيْ إِنْذَارِي . وَفِي الْإِمَامَةِ

وَالسِّيَاسَةِ عَقِبَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ : وَفَدَا مُعَاوِيَةَ لِفَضْلِكَ فَوَلَّاهُ السَّكُوفَةَ ، وَفَدَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَوَلَّاهُ الْجَزِيرَةَ .

منه غير ذلك ، فلا تزودّه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدّمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم مَنْ هُما ، وإلى ما هُما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البيعة « اللهم إني أعوذ بك من شرّ معاوية » فقال له معاوية : « تعوذ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايع » فقال : « إني أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « فَمَسَىٰ أَنْ تَكْفُرُوا شَيْئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرّ في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٦ - خطبة معاوية

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني قد كبير سنّي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وأوشكتُ أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لسكر رِضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حَسَنًا وحُسَيْنًا إلا أنهم أولاد أبيهما ، على حُسْنِ رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيراً ، يرحمكم الله » .

٢٣٧ - خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذى ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد : فإنك قد تكلمت فأنصتنا . وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنيبها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه ، وهو العالم الخبير ، وأستغفر الله لى ولكم . »

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهاه ، نحمده على إلهامنا حده ، ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صَمداً^(١) ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن هذه أئِخلافة إن أخذ فيها بالقرآن : فدأ أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، فأئى الناس أفضل وأكل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وإيم الله لو ولوه بعد نبىهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه وصدق ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيته ، فإنك مسئول عنها غداً ،

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه فى الحوائج : أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تُحْضِرَهما ، فوالله ما أصبتَ الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معَدِنِ العلم والكرم ، فقلْ أودعْ ، واستغفر الله لي ولكم .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمدَه على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بما أثرها السَّنيَّة ، وأفعالها المَرْضِيَّة ، مع شرف الآباء ، وكرَم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصِف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذِي الجَنَاحَيْنِ ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خَلْف حَسَنًا وحُسَيْنًا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك . »

٢٤٠ - خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرَّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بِهَرَقَلِيَّة ، ولا قَيْصَرِيَّة ، ولا كِسْرَوِيَّة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصة ، لِمَن كَانَ لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، مَن كَانَ أتقى وأَرْضَى ، فإن كنت تريد الْفِتْيَان من قريش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أَنَّهُ لا يُغْنِي عنك من الله شيئاً .

٢٤١ - خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إلَيَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قارلتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كَانَ هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلى الناسُ أبا بكر وعمر ، من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمرَ منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله » ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئا من صلاتهم وأعطياتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (سنة ٥١) إلا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب ببيعته إلى الآفاق ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه بذلك ، وأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبي من ذلك وأبته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد تلى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مغاضبا في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

(١) قاول : فاعل من القول ، كحادث وخاطب وكالم . (٢) أعطيات : جمع عطية ، وهو جمع عطاء .

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ حَظْرُهُ ، لا يَقْدِرُ ^(١) قَادِرٌ قَدْرُهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم لدعائهم دينه أوتاداً . هم رُقَبَاؤُهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخَلَفَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أَسْفَرَ ^(٢) بِهِم الظُّلَمَ ، وَأَلْفَ بِهِم الدِّينَ ، وَشَدَّدَ بِهِم الْيَقِينَ ، وَمَنَحَ بِهِم الظُّفَرَ ، وَوَضَعَ بِهِم مِنْ اسْتَكْبَرِ ، فَسَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خَلَفَائِنَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكُنَّا نَسْكُونُ لَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، يُشَدُّ بِنَا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ فِي الْقَضِيَةِ ، وَنُسْتَأْمَرُ ^(٣) فِي أَمْرِ الرِّعْيَةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ^(٤) ، ذَاتَ وَجْوهٍ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَرْمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُخْلِسُ ^(٥) بِأَسْوَى الرَّحَالِ ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا ^(٦) ، وَتَمْتَقُ أَحْلَابُهَا ^(٧) ، فَالْنَا لَانِسْتَأْمَرَ فِي رَضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْنُمُ اللَّهُ لَوْلَا مَهْدُومُوكَدَّةٍ ، وَمَوَاتِيقُ مُعَقَّدَةٍ ^(٨) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيِّهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا ابْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدِلْ عَنْ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظَرَآءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَآءَ .
فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ بيد مروان ،
ثم قال :

- (١) قدره من باني نصر وضرب وقدره تقديراً : عظمه ، قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »
أي ما عظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر : أضاء وأشرق ، أو هو متعد من سمرت الحرب
أي ولت ، وسمرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالمعنى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئثار : المشاورة .
(٤) في الأصل « مستخيرة » أي مستخير صاحبها ، من استخار الله في أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ،
وأرى أنها « مستحيرة » بالخاء : أي مستحير صاحبها أي مستحير ، من استحار : إذا نظر إلى الشيء ، ففتش عليه
ولم يمتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أي مستعلقة مهمة ليست مستقيمة .
(٥) جلس البعير كضربه : فشاه بجلس (بكسر الخاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة « وفي
الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال « بجمين وهو تصحيف » . (٦) الجزور : البعير ، أو خاص بالناقة
المجزورة . (٧) امتق الفصيل مافي الضرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتح الحاء) وهو اللبن المحلوب .
(٨) اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد : إذا شده .

٢٤٣ - خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعلك في الكرم مني تخيداً ^(١) ، والعزيم مني والدأ ، اخترت من قُرُوم ^(٢) قادة ، ثم استُئِلت سيّد سادة ، فأنت ابن يبايع الكرم ، فمرّ حباً بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نعمت ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلوله ^(٣) صمويتها ، وسفور ظلماتها ، حتى يتطأطأ ^(٤) جسيمها ، ويركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة وعضده ، والثاني بعد ولي عهده ، فقد وليتك قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ، ومحسن ريفك ^(٥) ، وعلى أمير المؤمنين غداك ، والنزول عند رضاك ^(٦) . »

٢٤٤ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال : « إن أمير المؤمنين قد كبر سِنه ، ودقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى ، فيدع الناس كالغنم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُعلم علماً ، ويقم إماماً » ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب إليه أن سمَّ يزيد ،

(١) المختد: الأصل . (٢) جمع قرم بالفتح : وهو السيد . (٣) هكذا في الأصل ، وفي

كتب اللغة : « الذل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصموية ، ذل فهو ذلول ، يكون في الإنسان والذابة . »

(٤) طأطأ رأسه : خفضه نطأطأ . (٥) الرfid : العطاء والصلة . (٦) قال المسعودي :

« وجعله ولي عهد يزيد : ورده إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمران بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة . »

فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فخصمهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عدي رضى دينه وأمانته ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تتحدثوا علينا سنة الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل ، فقال مروان : « أيها الناس : إن هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٍّ لِّكُمَا اتَّعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

(١) أخرج : أبعت ، قال صاحب الأمالي : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : الابن الصديق يقول هذا ؟ استرونى فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسبه » ، وقال المفسرون في هذه الآية : « والمراد (بالذى قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : نعت عبد سوء : عاق أوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأنف بهما ، وقال : ابعثوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذى قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس لبزود ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يأبى الناس هو الذى قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ . . . الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اهـ . (وقولها فضض كجبل ويروى كمنق و غراب أى قطعة منها) .

وجاء في السيرة الحلبية (١ : ٢ . ٣) : « من الواقدي ، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرف صوته ، فقال : « ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمنين منهم - وقليل ما هم - ذوو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا ، وما لهم في الآخرة من خلاق » ، وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى إليه بمروان لما ولد ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون » وعن جبير بن مطعم : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الحكم بن أبي العاص ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتي بما في صلب هذا » .

« يابن الزرقاء^(١) ، أفينا تناول القرآن ؟ » وتسكلم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك . قال ابن قتيبة : فقدم معاوية المدينة حاجاً ، ثم أرسل إلى الحسين بن علي وعبد الله بن عباس فحضرا ، وابتدأ معاوية فقال :

٢٤٥ - خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله وليّ النعم ، ومُنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، المتعالي عما يقول الملحّدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافةً ، لينذّرهم بقرآن : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، فأدّى عن الله ، وصدّع^(٢) بأمره ، وصبر على الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ، وأغزّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سُخّر له ، زهادة واختياراً لله ، وأنفةً واقتداراً على الصبر ، وبعيقاً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلّفه رجالان محفوظان ، وثالث مشكوك ، وبين ذلك خووض طالما عاجناه ، مشاهدة

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، في هجائه لعبد الرحمن ابن الحكم ، فقال :

إِنَّ اللَّعِينَ أَبُوكَ فَارَمَ عِظَاهُ إِنْ تَرَمَ تَرَمَ مَخْلُجًا مَجْنُونًا

وقد روى في لعنه وفيه أحاديث كثيرة لاجابة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع حلمه وإغضائه على ما يكره ، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ « ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص ، ولعنة من في صلبه ، وضمهها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أراد ذم مروان وعييه يقول له يابن الزرقاء » قالوا : وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فلذلك كانوا يذمون بها .

(٢) قوله تعالى : « فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ » أى شق جماعاتهم ، بالتوحيد أو اجهز بالقرآن ، أو أظهر أو احكم بالحق وافصل بالأمر ، أو اقصد بما تؤمر ، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمَكَافَئَةً، وَمَعَايِنَةً وَسَمَاعًا، وَمَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَعْلَمَانِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ مَا سَبَقْتُمْ
إِلَيْهِ وَإِلَى تَجْوِيزِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا أُحَاوَلُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الرِّعْيَةِ، مِنْ سَدِّ الْخَلَلِ، وَلَمْ يَصْدَعْ
بَوْلَايَةَ يَزِيدَ، بِمَا أَيْقَظَ الْعَيْنَ، وَأَتَّخَذَ الْفِعْلَ، هَذَا مَعْنَايَ فِي يَزِيدَ، وَفِيكَمَا فَضْلُ الْقَرَابَةِ،
وَحِظْوَةُ الْعِلْمِ، وَكُلُّ الرُّوَّةِ، وَقَدْ أَصَبْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ عَلَى الْمُنَظَرَةِ وَالْمَقَابِلَةِ،
مَا أَعْيَانِي مِثْلُهُ عِنْدَكَ، وَعِنْدَ غَيْرِكَ، مَعَ عِلْمِهِ بِالسُّنَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالْحِلْمِ الَّذِي يَرْجَحُ
بِالصُّمِّ^(١) الصَّلَابَ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الرُّسُولَ الْحَفُوظَ بِعِصْمَةِ الرِّسَالَةِ، قَدَّمَ عَلَى الصَّدِّيقِ
وَالْفَارُوقِ، وَمَنْ دُونَهُمَا مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ، وَأَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ، يَوْمَ غَزْوَةِ ذَاتِ
السَّلَاسِلِ^(٢)، مَنْ لَمْ يَقَارِبِ الْقَوْمَ، وَلَمْ يَمَانِدْهُمْ^(٣)، بِرَتْبَةٍ فِي قَرَابَةِ مَوْصُولَةٍ، وَلَا سُنَّةِ
مَذْكُورَةٍ، فَقَادَهُمُ الرَّجُلُ بِأَمْرِهِ، وَجَمَعَ بِهِمْ صَلَاتَهُمْ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فَيْئَهُمْ، وَقَالَ وَلَمْ
يُقَلِّمْ مَعَهُ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَلَا بَنَى عَبْدُ الْمَطْلَبِ، فَإِنَّا
وَأَنْتُمْ شَعْبًا نَفْعٌ وَجِدٌّ، وَمَا زِلْتُ أَرْجُو الْإِنْصَافَ فِي اجْتِمَاعِكُمَا، فَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ إِلَّا
بِفَضْلِ قَوْلِكُمَا، فَرُدَّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ، مَا يَحْمَدُ بِهِ الْبَصِيرَةَ فِي عِنَابِكُمَا، وَأَسْتَغْفِرُ
اللَّهَ لِي وَلِسَكُمَا .

فَتَيْسَّرُ ابْنُ عَبَّاسٍ لِلْكَلَامِ، وَنَصَبَ يَدَهُ لِلْمُخَاطَبَةِ، فَأَشَارَ إِلَى الْحُسَيْنِ وَقَالَ : عَلَى
رِسْلِكَ، فَأَنَا الْمُرَادُ، وَنَصِيْبِي فِي الشَّهْمَةِ أَوْفَرُ، فَأَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَامَ الْحُسَيْنُ :

(١) الصم جمع أصم : وهو الحجر الصلب المصمت . (٢) غزوة ذات السلاسل ، وهي وراء وادي
القرى من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل - وبذلك سميت تلك الغزوة
غزوة ذات السلاسل - خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة
ابن الجراح في المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تتخلفا ، فخرج
أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مددا لي ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكني على ما أنا
عليه ، وأنت على ما أنت عليه - وكان أبو عبيدة رجلا ليئا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا - فقال له عمرو : بل
أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تتخلفا ، وإنك إن
عصيتني أطمعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوئك . فصلي عمرو بالناس .
(٣) المعاندة : المفاارقة ، أي ولم يمتاز عليهم برتبة .

٢٤٦ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدَّى القائلُ - وإن أظنَّ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءا ، قد فهمتُ ما ألبستُ ^(١) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجاز الصفة ، والتكسُّب عن استبلاغ البَيِّنة ، وهيها هيهات يا معاوية ! فضح الصبحُ فحمة الدُّحى ، وَهَرَّتْ ^(٢) الشمسُ أنوارَ الشُّرُج ، ولقد فضلتَ حتى أفرطت ، واستأثرتَ حتى أجحفتَ ، ومنعتَ حتى بخلت ، وجرتَ حتى جاوزت ، ما بذلتَ لذي حقٍّ مِنْ أتمِّ حقِّه بنصيبٍ ، حتى أخذ الشيطانُ حظَّه الأوفر ، ونصيبه الأكل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ في يزيد ، كأنك تصِفُ محجوباً ، أو تنعَتُ غائباً ، أو تُخبر عما كان مما احتويتهُ بعلم خاصٍّ ، وقد دلَّ يزيدُ من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيدَ فيما أَخَذَ به من استقرائهِ ^(٣) الكلابَ للمهارشة ^(٤) عند التجارش ، والحمامَ الشُّبْقَ لأثرأيهنَّ ، والقيَمَنَاتِ ^(٥) ذواتِ المعازِفِ ، وضروبِ المِلاهى ، تجذَّه ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناكَ أن تلقَى الله بِوزرِ هذا الخلقِ بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحتَ تقدِّمُ باطلاً في جورٍ ، وَحَقّاً في ظلمٍ ، حتى ملأتَ الأسقيّةَ ، وما بينك وبين الموتِ إلا عَصَـةٌ ، فتقدِّمُ على عملٍ محفوظٍ . في يومٍ مشهودٍ ، ولاتِ حينٍ مناصٍ ، ورأيُكَ عَرَضَتْ بنا بعد هذا الأمرِ ، وَمَنَعَتْنَا عن آبائنا تُرَائِكَا ، ولقد - لعمرُ الله - أوردنا الرسولَ عليه الصلاة والسلام

(١) ألبسه : غطاء . (٢) يقال بهر القمر كنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرّج جمع

سراج : وهو المصباح . (٣) استقرأه الأشياء : تتبّع أفرادها . (٤) للمهارشة : تحريش

بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهى الجارية المغنية أو أعم ، والمعازف : الآلات التى يضرب بها

كالعود ، جمع معزف كمنزف .

ولادة ، وجئت لنا بما حَجَجْتُمْ به القَائِمَ عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأذعن
 للحجة بذلك ، وردّه الإيمان إلى النصف ، فركبتم الأعاليلَ ، وفعلتم الأفاعيلَ ، وقتم كَان
 ويكون ، حتى أتاكَ الأمرُ يا معاويةُ ، من طريقٍ كَانَ قَصْدُهَا لغيرك ، فهناك^(١) ، فاعتبروا
 يا أولى الأبصار ، وذكّرتَ قِيَادَةَ الرجلِ القَوْمَ بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 وتأميره له ، وقد كَانَ ذلك ، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلةٌ ، بِصُحْبَةِ الرسول وبيعته له
 وما صار لعمرو يومئذ حتى أَنِفَ القومُ بِإمرته ، وكرهوا تقديمه وَعَدُّوا عليه أفعاله ، فقال صلى الله
 عليه وسلم : « لا جَرَمَ^(٢) معشر المهاجرين ، لَا يَعْمَلُ عليكم بعد اليوم غيري » . فكيف
 يُحْتَجَّجُ بالنسخ من فعل الرسول ، في أَوْكَد الأحوال ، وأولاهها بِالْجَمْعِ عليه من
 الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعاً ، وحوالكَ مَنْ لَا يُؤْمَنُ في صحبته ، وَلَا يُعْتَمَدُ
 في دينه وقرباته ، وتتخطاهم إلى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ ؟ تريد أن تُلبسَ الناسَ شُبُهَةً ، يَسْعَدُ
 بها الباقي في دنياه ، وَتَشْقَى بها في آخرتك ، إن هذا هو الخُسرانُ المبين ، وَأَسْتَغْفِرُ
 الله لى وَلَكُمْ .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ، وَلِمَا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرٌ !
 فقال ابن عباس : لعمرو الله ، إنها لَذُرِّيَّةُ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأحدُ أصحابِ
 الْكِسَاءِ^(٣) ، ومن البيتِ الطَّهَرِ ، قاله عمّا تريد ، فَإِنَّ لَكَ في الناسِ مَفْنَعًا ، حتى يحكم الله
 بأمره ، وهو خير الحاكمين ، فقال معاوية : أَعُوذُ^(٤) الْحِلْمِ التَّحَلُّمِ ، وخيرُهُ التَّحَلُّمُ عَنْ
 الأهل . انصرفا في حفظ الله .

ثم أُرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله
 ابن الزبير ، فجلسوا .

(١) مهسل عن هنا ، يقال هناء الطعام : إذا ساغ ولذ ، أى فهنيئاً لك ما نلت من الخلافة .

(٢) لا جرم : قال للفراء « هى كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت
 حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقاً ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم
 يقولون : « لا جرم لأتيناك » . (٣) انظر ص ٣٢ . (٤) أعوذ : أنفع ، والعائدة : المنفعة .

٢٤٧ - خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعةٍ ، وأنَّ لك الدنيا وما فيها . وإنّی أحذرك أن تشقَّ عَصَا المسلمين ، وتسعى في تفریق مِلَّتِهِمْ ^(١) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وَكَّدَ الناسُ بيعتهم في أعناقهم . وأعطوا طي ذلك عهودهم موافقتهم » . ثم سكت .

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك ، فلم يُحَابُوا في هذا الأمر أحدًا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيثُ علِمَوا ، وأنت تحدّثني أن أشقَّ عصا المسلمين ، وأفرّق مِلَّتَهُمْ ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناسُ ، فسأدخلُ في صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن ابن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو ددنا أن نكلّك إلى الله فيما جسّرت عليه من أمر يزيد ، والذي نفسى بيده لتجعلنّها شورى ، أو لأعيدنّها جدعةً ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف رداءه ، ثم قال : طي رسلك

(١) الملائكة : الجماعة .

اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليكم منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت ثعلب رَوَّاع ، كلما خرجت من جُحر انجَحَرْتَ^(١) في آخر ، أنت أَلَبْتَ^(٢) هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير : أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن باعناه أبكما نطيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ، إن كنت ملأت الخلافة فاخرج منها ، وباع ليزيد ، ففحن نبايعه ، فكثر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، ولَكأنني بك قد تحبَّطت في الحباله . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادي في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال : « يا أهل المدينة ، لقد هممتُ ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مدَّرة^(٣) إلا بعثتُ إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلَّوا ، وأخَّرتُ المدينة بيعته ، وقلتُ : بِيَضَّتُهُ^(٤) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يعَّله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لباعيت له » .

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركتُ مَنْ هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً ! فقال معاوية « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله » ! فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرٌ منه أما ، فلعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لسكان نساء قريش أفضلهن . فكيف وهي ابنة رسول الله صلى

(١) أي دخلت ، جحر الضب كنع : دخل الجحر ، وجحر فلان الضب : أدخله فيه ، فانجحر .

(٢) التأليب : التحريض والإفساد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعته وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه^(١) . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، ففضى لأبيه على أبيك » . فقال الحسين : « حَسْبُكَ جَهْلُكَ . آثَرَتَ العَاجِلَ عَلَى الآجِلِ » . فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر . ومشتريُ اللهو خيرٌ مني ! » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذُكرت عنده بسوء لم يَشْتُمَكَ » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :

« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكأنت بيعته بيعةً هُدًى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعملُ عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف . ونظراً لهم بعين الإنصاف » .

* * *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بَدَنَةٌ^(٢) يترقرق دَمُها والله مُهَرِّقُهُ » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضَبٌّ ثَلَعَةٍ^(٣) ، مُدْخِلُ رَأْسِهِ تَحْتَ ذَنَبِهِ » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال :

(١) وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية . (٢) البدينة : من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى . (٣) الثلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهدط منها .

« إني لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، ولما هو شر منها » فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحباً بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قربوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أطفافه^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحْسِنُ إِذْنَهُمْ وَشَفَاعَتَهُمْ وَحَلَمَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ ، وخرج حتى أتى مكة ، فقصى حججه ، ولما أراد الشخوص أمر بأنقاله فُقدِّمت ، وأمر بالمنبر فُقرَّب من السكبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا ، وقال بعضهم لبعض : من يكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات ، فأنت صاحبنا . قال : على أن تعطوني عهد الله أن لا أقول شيئاً إلا تابعتُموني عليه . قالوا : لك ذلك ، فأخذ عهودهم رجلاً رجلاً ، فدخلوا عليه ، فرحبَ بهم ، وقال : قد علمتم نظري لكم ، وتعطفني عليكم ، وصَلَّيْ أَرْحَامَكُمْ ، وَيَزِيدُ أَخُوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتسكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيئوني ، فسكتوا ، فقال : أجيئوني ، فسكتوا ، فقال : لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم قال :

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فَهِيَ لَكَ رَغْبَةٌ ، وَفِيهَا خِيَارٌ ؛ إِنْ شِئْتَ فَاصْتِمْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ أَحَدًا ، فَرَأَى

(١) الأطفاف : جمع لطفة بالتحريك ، وهي الهدية .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رَهْطه الأذنين من كان لها أهلاً ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقاتلٌ مقالةً ، فأياكم أن تعترضوا عليّ حتى أتمها ، فإن صدقت فعليّ صدقي ، وإن كذبت فعليّ كذبي ، وأقسم بالله لنن ردّ عليّ رجل منكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسييفيهما ، فإن تسكلم بكلمة يردّ بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٥١ - خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبرِمُ أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانيةً ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ،

(١) العوار : مثقلة : العيب .

وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا
ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نبايع ، فلما
دُعيتهم وأرضيتهم بايعتهم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟
قالوا : خِفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ،

والأمالي ٢ : ٧٣ ، وذيّل الأمالي ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥

والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ - ١٦٤) . *

تهنئة وتعزية

٢٥٢ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، آجَرَكَ اللهُ على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئتَ عظيماً ، وأُعطيتَ جسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيتَ ، واضربْ له على ما رُزيتَ فقد فقدتَ خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقتَ جليلاً ، ووُهِبتَ جزيلاً ، إذ قَضَى معاوية نَحْبَهُ ، فغفر الله ذنبه ، ووُلِّيتَ الرياسة ، فأعطيتَ السياسة ، فأورَدَكَ اللهُ موارد السرور ، ورفقك إصلاح الأمور ، وأشد :

فاصبر يزيدُ فقد فارقتَ ذائِقَةً واشكر حِباء الذى بالملك أصفاً^(١)
لا رُزءَ أصبح فى الأقوام نعلمه كما رُزئتَ ، ولا عُقْبَى كعقبى كعباً
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فانت ترعاهمُ والله يرعانا
وفى معاوية الباقي لفا خلفُ إذا نُعِيتَ ، ولا نسمع بمنعاً^(٢)
« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية ، فوجَّه الناس ، كما روى من غير وجه » .

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والعقد الفريد

٢ : ١٤١ - ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٦) .

(١) أصفاه : آثره . (٢) هو أبو ايلي معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى المسعودي أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صَيْفِي ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأُعطيَت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نحبهُ ، فغفر الله له ذنبهُ ، وأُعطيَت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب^(١) عند الله أعظم الرزية ، واتخذهُ كَلِي أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،

وصبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وُسُميت خير الأسماء ، ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قر يش مفجوعة يُعَد ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، والعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد المُلْحِدون عَوْقها
عنك فيأبى الله إلا سَوْقها إليك ، حتى قَدَدوك طَوْقها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

(١) احتسب به أجرا عند الله : اعتمدته ينوئ به وجه الله (واحتسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات صغيرا قيل افتطرطه) .

٢٥٥ - خطبة غيلان بن مسلمة الشقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفى عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الشقفي ، فسلم عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، وأعطيت أفضل الأشياء ، فمظم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل^(١) الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك^(٢) بحجر القضية ، وأنزله بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) النافلة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أى قضى على عبد الملك بإسقاط الجار .

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٦ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زيادًا فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضبطًا صالحًا ، وجبّ خراجها وحمّاها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من عمالاته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده^(١) ، فغضب زياد غضبًا شديدًا ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آ كِلَّةِ الأ كباد^(٢) ، وقائلةُ أسدِ الله ، ومُظهرِ الخلاف ، ومُسرِّ النفاق ، ورئيسِ الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرُعد ويرق^(٣) »

(١) وما ورد في كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية ، وإذا لك كتابي هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأمرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سبي ، وأقسم قنبا مبرورا أن لا أوق بك إلا في زمارة ، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حق أقيمك في السرق ، وأبيحك عبدا ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه . » (٢) هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتل وحشي مولى جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بمعنى طعيمة فأنت حر . (٣) رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

عن سحابة جَبَلٍ^(١) لا ماء فيها ، وَعَمَّا قَلِيلَ تَصِيرُهَا الرِّيحُ قَرَعًا^(٢) ، والذي يدلُّنى عَلَى
ضعفه تَهْدُّهُ قَبْلَ الْقُدْرَةِ ، أَفَنَ إِشْفَاقٍ عَلَى تَنْذِيرٍ وَتُعْذِرُ؟ كَلَّا ، وَلَكِنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ
مَذْهَبٍ ، وَقَعَمَقَ^(٣) لِمَنْ رَوَى بَيْنَ صَوَاعِقِ تِهَامَةٍ^(٤) ، كَيْفَ أَرْهَبُهُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ ابْنُ
بَنَتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبْنُ أَبِي عَمْرِو بْنِ مَائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟
وَاللَّهُ لَوْ أَدْنَى لِي فِيهِ أَوْ نَذَبْنِي إِلَيْهِ ، لَا رَيْبَ لَهُ الْكَوَاكِبِ نَهَارًا ، وَلَا سَعِطَنَهُ^(٥) مَاءُ الْخُرْدَلِ
دُونَهُ ، السَّكَّالَمُ الْيَوْمَ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٧ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللّجة^(١) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ،
وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

- (١) الجفل : السحاب هراق مائه ومضى . (٢) القرع : قطع من السحاب رقيقة .
(٣) القمقمة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت « ومنه « مايقمع له بالشانان »
وسياق تفسيره في خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (روى)
وذكروا أنه لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت
الصواعق ، ففرح الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا
فإني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربي ، فلو ركبنا عظيمًا لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة
لم تزل الصواعق تنزل بها » . (٥) سعطه الدواء كمنه ونصره وأسعطه إياه : أدخله في أنفه .
(٦) ونص كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك كالغريق
يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا في الحياة ، إنما يكفر القنم ويستدعي النقم
من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا . فأما سبك لي فلولا حلم يهاني عنك ، وخوف أن أدعى سفها
لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء . وأما تعييرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة . وأما زعمك أنك
تختطفني بأضعف ريش وتتناولني بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يفزره صنير القنابر؟ أم هل سمعت بذئب أكله
خروف؟ فامض الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجهد إلا فيما يسوءك ،
وستعلم أينما الخاضع لصاحبه ، الظالع إليه والسلام » .

أبي سفيان^(١) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله بحبله ، ولا يقطع رَحِمَه ، فترث زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفَعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغَبُوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكَّرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصِفِّين ما يُذِف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكَل الأمر ، والتَّبَس على القوم ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئٍ بسلامة دينه ، وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أئحَدَ العاقبتين العافية ، وسأعلُ في أموركم ما تَحْمَدون عاقبته ومَغَبَّته ، فقد حِدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه^(٢) ، فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٦٩)

(١) وكانت دياجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وفيه يقول : « وحملك سوء ظنك بي ، وبفضك لي على أن عقت قرايقي ، وقطعت رحمي ، وبنت نسبي وحرمتي ، كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحبيت جانبي ووثقت بي ، فأمره بإمرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لاعلى ولا لى والسلام » .

(٢) وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستزع في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأني مافيه العطب ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدره ، فتركت من حضر ، لأهل ورد ، ولا صدر ، كالمتهجرين بهمهم ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

٢٥٨ — خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زياداً معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقَاة^(١) التي تحت مرقاته ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عَرَفْتُ نَسَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَاد ، فَن كَانَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ بِهَا » ، فقام ناس ، فَشَهِدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ^(٢) ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مُعَاوِيَةَ وَمُنَاشَدَتُهُ ، قَامَ زِيَادُ وَأَنْصَتِ النَّاسُ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) المِرْقَاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة . (٢) فقام أبو مريم السلولى — وكان خازناً فى الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أباً سفيان : قدم علينا بالطائف ، فأتانى ، فاشتريت له لحماً ونخراً وطعاماً ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ، أصيب بـ بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أباً سفيان من قد عرفت شرفه وجوده وقد أمرنى أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يحى . الآن عبيد بغنمه — وكان راعياً — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيت ، فرجعت إلى أبى سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحرث بن كلفة سمية ، فقال : اثنتى بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلاً يا أبا مريم ، إنما بهتت شاهداً ، ولم تبعث شاهداً ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلى ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألث أن خرج على مسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم لولا استرخاء من ثديها ، وذفر فى إبطها — والذفر بالتحريك ويسكن : الثقل ، والذفر بالتحريك : كل ريش ذكية من طيب أو نتن أو يخلص براحة الإبط الملتنة — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو السكندى للحارث بن كلفة — وكان طبيباً يعالجه — فولدت له على فراشه نافعاً ، ثم ولدت أباً بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيداً وكان عبداً لابنته ، فولدت على فراشه زياداً .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زياداً فى إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثلها ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام أو كان قرشياً لساق العرب بهصاء ، فقال أبو سفيان : أما والله —

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمٌ لى بآخِرِه ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع مِنّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنّا ما ضيّعوا ، فأما عبيدٌ فإنما هو والد مبرور ، أو ربيبٌ ^(١) مشكور » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ،
ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل ١٨٩ ص)

٢٥٩ — خطبته حين ولى البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » واليا لمعاوية بن أبى سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والنسق بالبصرة كثير فاش ظاهر ، فخطب خطبة بتراء لمحمد الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعمًا فألهمنا شكرًا » أما بعدُ : فإن الجهالة الجهلاء ^(٢) ، والضلالة العمياء ، والنمى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سهاؤكم ، ويشتمل عليه حلمًا وكم ^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبئت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرّوا كتاب الله ، ولم تسمعوا

= إنه لقرشى ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت فى رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قال : أخاف هذا المير الجالس أن يخرق على إهابى .

ومن كتاب لعل عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه : « وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر بن الخطاب قلقة من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الكعبة ، ولم تنزل فى نفسه حتى ادعاء معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزيايد بن أبيه ، وزيايد بن سمية ، وزيايد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبى سفيان ، قال الطبرى : « وفى سنة ٤٤ هـ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل » . (١) الربيب هنا : زوج الأم . (٢) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد واد ، وهيج هامج ، وليلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) . (٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن
السَّرمَدِيَّ^(١) الذي لا يزول ، أنكونون كمن طَرَفَتْ^(٢) عينيه الدنيا ، وسَدَّتْ مسامعَه
الشهوات ، واختارَ الفانية على الباقية ، ولاتذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي
لم تُسبقوا إليه ، مِن تَرَكْكم الضعيفَ يُقهر ويؤخذ ماله ، هذه المواخير^(٣) المنصوبة ،
والضعيفة المسلوكة في النهار المبصر ، والعددُ غير قليل ، ألم يكن منكم نهاةٌ ، تمنع الفؤاة^(٤)
عن دَلَج^(٥) الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّبتهم القرابة ، وباعدتم الدين ! تعذرون بغير العذر ،
وتغضون على الخفليس ، كلُّ امرئٍ منكم يَذْبُ^(٦) عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف
عاقبةً ولا يرجو معاداً ، ما أنتم بالحلَماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تروْنَ
من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرَمَ^(٧) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كنُوساً
في مكائسِ الرِّيبِ^(٨) ، حرامٌ على الطعام والشراب ، حتى أسويهاً بالأرض هذماً وإحراقاً .
إني رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف ،

-
- (١) الدائم . (٢) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه
على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٣) جمع ماخور : وهو بيت الريبة مغرب
أو عربي من مخرت السفينة لتردد الناس إليه . (٤) جمع ناه ، وغواة جمع غاو .
(٥) السير من أول الليل ، وقد أدجوا ، فإن ساروا من آخره فادجوا بالتشديد .
(٦) يدفع . (٧) جمع حرمة ، وهي مالا يحل انتهاكه . روى الشعبي قال : « لما خطب زياد
خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد
مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتیان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك
أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » . (٨) كنوس جمع كانس : أى مستقر كقعود وجلوس جمع قاعد
وجالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كذاسه (ككتاب) وهو مستتره من للشجر ، وجمع
كانس أيضاً على كنس (كركم) ومنه الجوارى الكنس (وهى الخفس) وهى الكواكب السيارة ، أو النجوم
الخمس : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها تكنس في المغيب كالظباء في الكنس
(ككتب) ، أو هى كل النجوم لأنها تبدو ليلاً وتختفي نهاراً (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر
الله عز وجل) ومكائس الريب : مكائنها المستترة جمع مكنس كجلس .

وشدة في غير عُنْف ، وإني أُنْسِمُ بالله لَأَخْذَنَّ الْوَلِيَّ^(١) بِالْمَوْتَى ، وَالْمُقِيمَ بِالظَّاعِنِ ، وَالْمُقْبِلَ بِالْمُذْبِرِ ، وَالْمُطِيعَ بِالْعَاصِي ، وَالصَّحِيحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَبْلُغَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فَيَقُولُ : « أُنْجِ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ^(٢) » أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَتَانُكُمْ^(٣) ، إِنْ كَذَبَ الْمُنْبِرُ بِلِقَائِهِ^(٤) مشهورة ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَى بَكْذَبَةِ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَمِصَّتِي^(٥) ، فَإِذَا سَمِعْتُمُوهَا مِنْ فَاغْتَمِزِوهَا^(٦) فِي ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا ، مَنْ نَقَبَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ^(٧) فَيَأْتِي وَدَلَجَ اللَّيْلَ ، فَإِنِّي لَا أُوتِي بِمَنْدُجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ مَا يَأْتِي الْخَبِيرُ الْكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ^(٨) ، وَإِلَايَ وَدَعَوَى الْجَاهِلِيَّةِ^(٩) ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ ، وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ أَحْدَانًا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةً ، فَمَنْ غَرَّقَ قَوْمًا غَرَّقْنَاهُ ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَاهُ ، وَمَنْ نَقَبَ

(١) الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٢) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدهما سعد فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟ . (٣) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : بياض في قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتميزها عما سواها ببلقها . (٤) في الطبري « قال الشعبي : فوالله ماتعلقنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه » . (٥) عدوها من عبوي ، واغتمزه : طعن عليه . (٦) في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وسام الناس سياسة لم ير مثلهما ، وهابيه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاع جبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » . (٧) في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأهمل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وهاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر المشاء حتى يكون آخر من يصل ، ثم يصل ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الخريبة (كجنينة موضع بالبصرة يسمى البصرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أعرابيا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيتني الليل فاضطررتها إلى موضع ، فأنت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في ذلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : يالفلان ، والفرس مناصرة العصبية .

يَتَقَبَّلُنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنْكَم ،
أَكْفَفْ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي ، وَلَا تَظْهَرْ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةٌ بِخِلَافِ^(١) مَا عَلَيْهِ عَامَّتْكُمْ
إِلَّا ضَرَبْتُ عُقْبَهُ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ^(٢) ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرًا أَذْنِي^(٣)
وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ
عَنْ إِسَاءَتِهِ ، إِنْ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السِّلَّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ
أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ^(٤) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ،
وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبُّ مُبْتَلِئٍ سَيُفْتِنُكُمْ ، وَمَسْرُورٍ يَقْدُومُنَا سَيَبْتَلِسُ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةً ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي
أَعْطَانَا ، وَنَدُّودُ عَنْكُمْ بَنِيَّ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا^(٥) ، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ،
وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا
قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصُرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنَّنِي طَارِقًا
بَلِيلٌ ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءٍ وَلَا رَزَقًا عَنْ إِبَائِنِهِ^(٦) ، وَلَا مُجَمَّرًا^(٧) لَكُمْ بَعْمًا ، فَادْعُوا اللَّهَ
بِالصَّلَاحِ لِأَعْمَتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمْ الْمُؤَدَّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفَكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى
يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِفَضْهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ غِيْظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ
حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُذْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا
لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمِينَ كُلًّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى

(١) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٢) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة .

(٣) أى خلف أذن ، وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك . (٤) أى يجاهرني بالعداوة .

(٥) ملكنا . والقي : ما كان شمساً فينسخه الظل ، والخراج ، أى ندفع عنكم بظل الله ونعمته التي

وهيئنا ، أو ندفع عنكم بما صار في أيدينا من أموال الخراج . (٦) وقته وموعده . (٧) جمر الجند :

حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم .

أَذْلَاهُ^(١) ، وإيَّمُ الله إن لي فيكم لَصَرْقَى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صَرْعَايَ .

فقام إليه عبد الله بن الأهم قال : « أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَقَدْ أُوتِيَتْ الْحِكْمَةُ وَفَضِّلَ الْخُطَابُ » ، فقال له : « كَذَبْتَ ذَاكَ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ » فقام الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، فقال : « إِنَّمَا الثَّنَاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ ، وَالْحَمْدُ بَعْدَ الْعَطَاءِ ، وَإِنَّا لَنُثْنِي حَتَّى نَنْبَتِلِي » فقال له زِيَادٌ : صَدَقْتَ ، فقام أَبُو بِلَالٍ مِرْدَاسُ^(٢) ابْنُ أَدِيَّةٍ وَهُوَ يَهْمِسُ وَيَقُولُ : أَنَبَأَنَا اللَّهُ بِغَيْرِ مَا قُلْتَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وَأَنْتَ تِزْعِمُ أَنَّكَ تَأْخُذُ الْبِرَّ بِالسَّقِيمِ ، وَالْمُطِيعَ بِالْعَاصِي وَالْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، فَسَمِعَهَا زِيَادٌ ، فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَبْلُغُ مَا نُرِيدُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ حَتَّى نَخْوُضَ إِلَيْكُمْ الْبَاطِلَ خَوْضًا » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصحيح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمالي ١٨٨)

٢٦٠ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات الْمُشَيْرَةُ بْنُ شُعْبَةَ أَمِيرَ الْكُوفَةِ سَنَةَ ٥٠ هـ ، ضَمَّ مَعَاوِيَةُ الْكُوفَةَ إِلَى زِيَادٍ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جُمِعَ لَهُ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ^(٣) ، فَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْبَصْرَةِ ، وَشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ فَأَتَاهَا ، فَصَعِدَ الْمَقْبَرِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَتَانِي وَأَنَا بِالْبَصْرَةِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشَخَّصَ إِلَيْكُمْ فِي الْفَيْنِ مِنْ مُشْرَطَةٍ

(١) أي وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أي مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرتُ أنكم أهل حق ، وأن حقَّكم طالما دَفَعَ الباطل ، فأتيتكم في أهل بيتي ، فالحمد لله الذي رَفَعَ مني ما وضع الناس ، وحَفِظَ مني ما ضيعوا ، حتى فرغ من الخطبة ^(١) .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٣١)

٢٦١ — خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَجُمِعَتِ الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُرُّبنا وجرَّ بنا ، وسُسُنَا وساسَنَا السَّائِسُونَ ، فوجدنا هذا الأمر لا يَصْلُحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللبَّيَّة المشبَّه مِرُّها بَعْلَانينها ، وغَيْبُ أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بالسنتهم ، ووجدنا الناس لا يَصْلِحُهم إلا لِينٌ في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أَذْلَالِهِ ، وليس من كِذْبَةٍ الشاهدُ عليها من الله والناس أكبرُ من كذبة إمامٍ على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قَتْلَتَهُ ولعنهم » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ — خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرِيث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عَدِيٍّ يجتمع إليه شِيعَةٌ قَلِيَّةٌ ، ويُظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم

(١) قال الطبري : فحصب على المنبر ، (أى رى بالحصباء وهى الحصى) فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقوان لا أدرى من جليسي ، ثم أمر بكرسى فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يخلفون بالله مامنا من حصبك ، فن حلف بخلاه ، ومن لم يخلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان » .

حَصَبُوا عمرو بن الحريث ، فَشَخَّصَ إِلَى الكوفة ، حَتَّى دَخَلَهَا ، فَأَتَى القصر ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَعِدَ المنبر ، وَعَلَيْهِ قَبَاءُ سُفْدُسٍ ، وَمُطَرَفٌ خَزْرَاءُ أَخْضَرٌ ، قَدْ فَرَّقَ شَعْرَهُ ، وَحَجَرٌ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ أَكْثَرُ مَا كَانُوا ، فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : فَإِنْ غِيبَ الْبَنِي وَالنَّحْيَ وَخَيْمٌ ، إِنَّ هَؤُلَاءَ جَعُوا^(١) فَأَثِرُوا ، وَأَمِنُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وَابْتِغَاءُ اللَّهِ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِيْنِكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ : مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ أَمْنَعُ بَاحَةَ^(٢) الكوفة مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدْعُهُ نِكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَيَلُ أَمْلَكَ يَا حَجَرٌ ، سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ^(٣) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٦٣ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« اسْتَوْصُوا بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ خَيْرًا : الشَّرِيفَ وَالْعَالِمَ وَالشَّيْخَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِينِي شَيْخٌ بِشَابٍّ قَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا أَوْجَمْتُهُ ، وَلَا يَأْتِينِي عَالِمٌ بِجَاهِلٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا نَكَلْتُ بِهِ ، وَلَا يَأْتِينِي شَرِيفٌ بِوَضِيعٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا انْتَقَمْتُ لَهُ مِنْهُ . »

(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا يَمْنَعُكُمْ سِوَهُ مَا تَعْمَلُونَ مِنْ أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنْهُ ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

(١) مِنْ جَمِ المَاءِ جُمُومًا : كَثُرَ وَاجْتَمَعَ . (٢) الْبَاحَةُ : السَّاحَةُ . (٣) هُوَ مِثْلُ : وَأَصْلُهُ أَنْ رَجُلًا خَرَجَ يَلْتَمِسُ الْعِشَاءَ ، فَوَقَعَ عَلَى ذَنْبٍ فَأَكَلَهُ . يَضْرِبُ فِي طَلَبِ الْحَاجَةِ يُوْدِي بِصَاحِبِهَا إِلَى التَّلَفِّ .

اعمل بقولى وإن قصرتُ فى عملى ينفعك قولى ولا يضرُك تقصيرى

٢٦٥ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها وهى :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا ، عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين مُحسن بنعمة الله عليه ، ومُسيء بخذلان الله إياه ، والله النعمة على المحسن ، والحجة على المسيء ، فما أولى مَنْ نَمَت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ، ولا يتكثر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدرون على توبة ، وليس لكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم . »

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزياد أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٦ - ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا ولى رجلا عملا قال له :

« خذ عهدك ، وسِرْ إلى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سَنَتِكَ ، وأنتك تصير إلى أربع خلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتكَ من معرتنا أمانتكَ ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك

وَقَتَّلْنَا غُرْمَكَ ، وَإِنْ جَمَعْتَ عَلَيْنَا الْجُرْمَيْنِ ، جَمَعْنَا عَلَيْكَ الْمَضْرَبَتَيْنِ ، وَإِنْ وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قَوِيًّا ، زِدْنَا فِي عَمَلِكَ ، وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ ، وَكَثَّرْنَا مَالَكَ ، وَأَوْطَأْنَا عَقِيكَ » .

(الأمال : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ — خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحاك بن قيس الفهري على منبر الكوفة - وقد كان بلغه أن قوما من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجلا منكم ضلّالاً يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له نذ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعن فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السّورة^(٢) ، ولا كليل الشّفرة^(٣) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم^(٤) : فكنت أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثعلبية

(١) ولاء معاوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بإيمه أهل دمشق على أن يصل بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويمتعه من إظهار ذلك أن بنى أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحسك في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل منتصف ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .
(٢) سورة السلطان : سطوته واعتدائه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : غير قاطع .
(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها ، فسرعه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأغار على مسالح على وأخذ أمتهم ، ومضى حتى انتهى إلى الققطانة ، فأق عمرو ابن عيسى بن مسعود - وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود - وكان في خيل لى ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناسا من أصحابه ، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدى الكندى في أربعة آلاف ، فلم يزل مغذا في أثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، وقتل من أصحاب حجر رجلان ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٧٨ - .

ومن شاطئ الفُرات ، أعاقب من شئتُ ، وأعفو نعمن شئتُ ، لقد ذعرتُ المُخَدَّرَاتِ
في خُدُورهن ، وإنْ كانت المرأةُ ليَبْكِي ابنها فلا تُرهبُه ولا تُسكِتُه إلا بذكر اسمي ،
فاتقوا الله يا أهلَ العراق ، أنا الضحَّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو
ابن عُمَيْس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عُبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرفنا
والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بِغربي تَدْمُرُ فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(١) ! »
ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أوّل ما قَدِم ؟ وإيمُ الله لأذكرُنه أبغضَ
مواطنه إليه ، فسكت الضحَّاك قليلاً ، وكأنه خَزِي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان
ذلك اليومَ بآخرَةٍ ^(٢) - بكلام ثَقِيل - ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحَّاك بن قيس الفهري - وكان صاحبَ
شُرْطته - حتى صعد المنبر ، وأكفانُ معاوية على يديه تلُوح ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمودَ العرب ، وحَدَّ العرب ، قطع الله عزَّ وجلَّ به الفتنة ،
وملَّكه على العباد ، وفتحَ به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفانُه ، فنحن
مُذْرِجوه فيها ومُدْخِلوه قبره ، ومُحَلُّون بينه وبين عمله ، ثم هوفي البرزخ ^(٣) إلى
يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضرْ عند الأولى ^(٤) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

(١) هذا المقول تهكم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أخرة وبأخرة بالتحريك : أى آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي العقد « فن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ — خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

« يا أهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضَّيْعَ والثَّعْلَبَ ، أتينا الضَّيْبَ في جُحْرِهِ ، فقالوا : أبا الحِسلِ^(٢) . قال : أجبتكما . قالوا : جئناك نخضع . قال : في بيته يؤتَى الحُكْمَ . قالت الضَّيْعُ : فتحت عيني . قال : ففعل النساءُ فعلت . قالت : فلقطتُ تمرَةً . قال : حلوا اجتنبت . قالت : فاخطفها ثُمالة^(٣) . قال : لنفسه بَغَى الخَيْرَ . قالت : فلطمته لَطْمَةً . قال : حقاً قضيت . قالت : فلطمني أخرى . قال : كان حراً فانتصر . قالت : فاقض الآن بيننا . قال : حَدَّثَ حديثين امرأةً ، فإن لم تفهم فأربعة^(٤) . » (العقد الفريد ١ : ٢٦٩ — ٢ : ١٥٨ ، ومجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣)

(١) ولي الكوفة وحصص لمعاوية ويزيد ، وكان هواه مهمهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلىبيعة عبد الله بن الزبير بالشام ، وكان أول من خالف من أمراء الأجناد — وكان والياً على حصص — وانضم إلى الضحَّاك بن قيس الفهري ، أمده بجيش من أهل حصص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونشبت الحرب بين الضحَّاك وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحَّاك وقتل كما قدمنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج عن حصص هارباً ليلاً ومعه امرأته وولده وثقله ، فسار ليلته جماء متحيراً لا يدرى أين يأخذ ، فأنبأه خالد بن عدي الكلاعي فيمن خف معه من أهل حصص ، فلحقه وقتله ويعث برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ . (٢) أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأمثال أن المتخاصمين : الأرنب والثعلب . (٣) ثعالة : اسم الثعلب الذكر والأنثى . (٤) وقد ذهبت أقوال الضب كلها أمثالا . قال الميداني في شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زد » وأراد بالحديثين حديثاً واحداً تكرر مرتين ، فكأنك حدثتها بحديثين . والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبو سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالمربعة (والمربعة ككنسة : الصفا) وروى ، فاربعة « أمر من ربع كنعج » أي كف ، تضرب في سوء السمع والإجابة .

٢٧٠ — خطبة عميد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عُبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدى منه بخلوة ،
ليُسَبِّر من رأيه ما كره أن يُشْرِكَ في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطَّلَب ، واشتغال
الخاصَّة ، وافتراق العامَّة ، وهو يوم معاوية الذي كان يَخْلُو فيه بنفسه ، ففطن معاوية
لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن
ابن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذن له ، فسلم ووقف واجماً يتصفح
وجوه القوم . ثم قال :

« صَرِيحُ الْمُعَقَّقِ مُكَاتَمَةُ الْأَذْنَيْنِ ، لَا خَيْرَ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَفَّرَ ، أَحَدُهُ اللَّهُ
إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى الْآلَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ هَمِّي مُجْهِدٌ ، وَأَسْتَعِينُهُ
عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُنْقِذُ بِالْأَمِينِ الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفٍ
هَارٍ ^(٤) ، وَمَنْ بَدَّ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ
الْهَدَى ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَا ظَنٌّ قَرَعَ ^(٦) ، وَقَذَعُ ^(٧) صَدْعٌ ، حَتَّى
طَمَسَ السَّحِيقَ ^(٨) ، وَبَيَّسَ الرِّفِيقَ ، وَدَبَّ الْوُشَاةُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلِمُهُمْ مُسْتَحْقِرٌ ^(٩)

(١) النعم . (٢) الشدة . (٣) أرصدت له : أعددت .

(٤) الشفا : حرف كل شيء ، والجرف كعقن وقفل : ماتجرفته السيول وأكلته من الأرض ، وهار
الجرف : انصدع ولم يسقط فهو هار كقناص ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

(٥) اليد : التعب ، والغاري : الملازم الشامل ، من غرا السمن قلبه لئق به وغطاه .

(٦) فرع بين القوم وفرق بمعنى واحد : أى أن هذا الظن فرق بيننا وبينك فجافيتنا .

(٧) هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن قذع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون)

رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه ، والقذع محرقة عن قذع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون)
به الوشاة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك . (٨) البعيد . (٩) فى الأصل هكذا بمعنى محتقر ،

أى محتقر لنا لمعاداته إيانا ، وأنه لا يبالى بمعادتنا لما نابنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « محتقرا للمداوة »
أى متوثب مستوفز أو « مسحقرا للمداوة » من اسحققر : إذا مضى معرعا .

للعداوة ، وقد قاص الآزره^(١) ، وشمّر عن عطفه^(٢) ليقول : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتَلْحِقَ
به ، وَدَلَّ عَلَى الْإِنَاءِ^(٣) مِنْ مُسْتَلْحِقِهِ ، فَلَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعَتِهِ^(٤) ، وَأَسْلَمَ^(٥)
زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ، فَكَانَ تَرْبَ^(٦) عَامَّتِهِ ، وَاحِدَ رَعِيَّتِهِ ، فَلَا تَشْخَصُ^(٧) إِلَيْهِ عَيْنُ نَظَرٍ ،
وَلَا لِصَبْعٍ مُشِيرٍ ، وَلَا تَنْدَاقِ^(٨) عَلَيْهِ السُّنُّ كَلِمَتَهُ حَيًّا ، وَنَبَشَتَهُ مَيِّتًا ؛ فَإِنْ تَسْكُنُ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَابِيَتَ زِيَادًا بِأَوَّلِ رُفَاتٍ ، وَدَرَعَوِ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَاكَ زِيَادٌ بِجِدِّ هَاصُورٍ ،
وَعَزَمَ جَسُورٍ ، حَتَّى لَانَتْ شَكَاؤُ الشَّرِيسِ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشُّوسِ^(٩) ، وَبَدَّلَ لَكَ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمَيْمِعُ ، وَتَهْمُرُ بِهِمَا الْبَدِيعُ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهُ
يَغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِدَالَةِ
الرَّحِمِ ، وَقَرَابَةِ الْحَلِيمِ ، فَمَا لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَمَشِي الضَّرَاءَ^(١٠) ، وَنُسْتَفُّ النَّصَارَ^(١١) ؟
وَلَاكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْمَلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا^(١٢) أَنْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمُ ، وَمَا سَاءَ لِي قُرْبَهُمْ
لِيُقَرَّوْا حَقًّا ، وَبَرُدُّوا بَاطِلًا ، فَإِنْ لِلْحَقِّ مَنَارًا وَاضِحًا . وَسَبِيلًا قَصْدًا^(١٣) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ

-
- (١) الآزره والأزر بضمين : جمع إزار ، وهو الملعقة . (٢) العطف : الرداء ، وجمعه عطف
بضمين ، وأعطفه ، وكذا المعطف بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .
(٣) فِي الْأَصْلِ « الْإِنَاءُ » وَأَرَاهُ مَعْرُفًا عَنْ « الْإِنَاءِ » وَهِيَ الْحُمُ . (٤) الدعة : الخفض .
(٥) أسلمه : خذله ، أَيْ فَلَيْتَهُ تَرَكَ زِيَادًا ضَائِعَ النَّسَبِ مَغْوَرًا وَلَمْ يَسْتَلْحِقْهُ .
(٦) الترب : مَنْ وَلَدَ مَلِكٌ : أَيْ فَكَانَ تَرْبًا لِأَحَدٍ عَامَّةِ النَّاسِ ، وَلَمْ يَكُنْ تَرْبًا لَكَ فَلَا يَقْدِرُ لَهُ قَدْرٌ .
(٧) أَيْ فَلَا تَرْتَمِعْ . (٨) انْدَلَقَ السَّيْلُ : انْدَفَعَ ، وَالسَّيْفُ انْسَلَّ بِلَا سَلٍّ ، أَوْ شَقَّ جَفْنَهُ فَخَرَجَ مِنْهُ ،
وَكَلِمَتُهُ : جَرَحَتْهُ وَأَذَتْهُ . (٩) وَصَفَ مِنَ الشُّوسِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ النَّظَرُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ تَكْبِيرًا ، أَوْ تَغِيظًا .
(١٠) الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يُقَالُ تَوَارَى الصَّيْدُ مِنْهُ فِي ضَرَاءٍ ، وَفُلَانٌ يَمْشِي الضَّرَاءَ : إِذَا
مَشَى مُسْتَخْفِيًا فِيمَا يُوَارَى مِنَ الشَّجَرِ . (١١) اشْتَفَى مَا فِي الْإِنَاءِ : شَرِبَهُ كُلَّهُ ، وَالنَّصَارُ : الذَّهَبُ
أَوْ الْفِضَّةُ ، وَالْمَرَادُ : نَمْنَعُ مِنْهُ ، وَلَا نَمْكُنُ مِنْ أَخْذِهِ ، أَيْ يَحَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْوِلَايَةِ .
(١٢) الْحُوبُ بِضَمِّ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا : الْإِنْمُ ، أَيْ وَعَلَيْكَ مِنْ آثَامِنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا فِي سَبِيلِ تَأْيِيدِ
سُلْطَانِكَ أَنْقَلْنَاهَا . وَفِي بَعْضِ النُّسخِ : « مِنْ جَوَابِنَا » أَيْ مِنْ جَوَابِنَا حِينَ يَسْأَلُنَا الْمَوْلَى عَمَّا أَتَيْنَا مِنْ أَخْذِ النَّاسِ
بِالْعُسْفِ وَالْإِرْهَاقِ لِمَكِينِ مَلِكِكَ (١٣) الْقَصْدُ : اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ .

المؤمنين بأى أمر يك شئت ، فما نازر^(١) إلى غير جُحرنا ، ولا نستكثر بغير حقنا ،
وأستغفر الله لى ولكم .

٢٧١ — رد معاوية على ابن زياد

فنفظر معاوية فى وجوه القوم كالمتعجب ، فتصنفهم بِلَحْظِهِ رجلا رجلا وهو مبتسم ،
ثم اتجه تِلْقَاءَهُ ، وعقد حُبُوتَهُ^(٢) ، وحَسَرَ عن يده ، وجعل يُوحى بها ، ثم قال معاوية :
« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكل خير منه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل
شئ خاضع له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، دل على نفسه بما بان عن عجز الخلق أن
يأتوا بمثله ؛ فهو خاتم النبیین ، ومُصَدِّقُ الرسلین ، وحجة رب العالمین ، صلوات الله
عليه وبركاته ؛ أما بعد : فرب خير مستور ، وشر مذکور ، وما هو إلا السهم الأخبى
لمن طار به ، والحظُّ للرغب لمن فاز به ، فيهما التفاضل وفيهما التغاين ، وقد صَفَقَتْ^(٣)
يداي فى أيبك صَفَقَةً ذى الخلة من روضح الفضلان ، عامَلِ اصطناعى^(٤) له بالكفر
لما أوليته ، فارميت به إلا انتصل^(٥) ، ولا انتضيت^(٦) إلا غلقت جفنه ، ولزت^(٧)
لسعته ، ولا قلت إلا عاند ، ولا قت إلا قعد ، حتى اخترمه^(٨) الموت ، وقد أوقع
مختره^(٩) ، ودل على حقه ، وقد كنت رأيت فى أيبك رأيا حصره الخطل ، والتبس
به الزلل ، فأخذ منى بحظ الفعلة ، وما أبرئى نَفْسِي ، إن النفس لأمارَةٌ بالسوء ،

-
- (١) من أرزت الحية : أى لاذت بحجرها ورجعت إليه . (٢) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع
بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحسر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ،
وصفق يده ، وعلى يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع فصيل :
وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والخلة : الحاجة . (٤) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه إياه .
(٥) انتصل السهم : سقط نصله . (٦) انتضى السيف : استله ، والجفن : غمد السيف .
(٧) لزه : طمنه . (٨) أهلكه . (٩) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وأوقع به : أهلكه .

فما بَرِحَتْ هَمَاتُ^(١) أَيْبِكَ تَحْطَبُ فِي حَبْلِ الْقَطِيعَةِ ، حَتَّى انْتَكَشَ^(٢) الْمُبْرَمَ ، وَانْحَلَّ عَقْدُ الْوَدَادِ ، فَيَا لَهَا تَوْبَةٌ تَوْتَنَفُ^(٣) مِنْ حَوْبَةٍ أَوْرَثَتْ نَدَمًا ، أَسْمَعَ بِهَا الْمَاهِثُ ، وَشَاعَتْ لِلشَّامِتِ ، فَلْيَهْنَأْ^(٤) الْوَائِشُ مَا بِهِ احْتَقَرَ ، وَأَرَاكَ تَحْمَدُ مِنْ أَيْبِكَ جِدًّا وَجُسُورًا^(٥) هُمًّا وَفِيًّا بِهِ عَلَى شَرَفِ الْيَفْعَحْمِ^(٦) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَدَعْنِي مَا أَذْكَرْتُنَا مِنْهُ مَا زَهَدْنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِهِمَا مَشَيْتَ الضَّرَاءَ ، وَاسْتَفْتَفْتَ النِّضَارَ ، فَادْهَبْ ، إِلَيْكَ ، فَأَنْتَ نَجْلُ الدَّغَلِ^(٧) ، وَنَثَرُ النَّغْلِ^(٨) ، وَالْأَجْرُ شَرٌّ .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ لِلشَّاهِدِ غَيْرَ حُكْمِ الْغَائِبِ ، وَقَدْ حَضَرَكَ زِيَادٌ ، وَلَهُ مَوَاطِنٌ مَعْدُودَةٌ بِخَيْرٍ ، لَا يُفْسِدُهَا التَّظَنُّيُّ^(٩) ، وَلَا تَغْيِيرُهَا التَّهْمُ ، وَأَهْلُوهُ أَهْلُوكَ التَّحْقُوقَ بِكَ ، وَتَوَسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتُ بِهِ الرُّكْبَانُ ، وَسَمِعْتُ بِهِ أَهْلَ الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَّ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَتَحَجَّرْ^(١٠) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدْ اتَّسَعَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هَذَا وَقَدْ^(١١) نَفْسُهُ بِيَبِيعَتِهِ ، وَطَعْنُ فِي أَمْرَتِهِ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَعْلَمَهُ ، يَا لَرُّجَالٍ مِنْ آلِ أَبِي سَفْيَانَ ! لَقَدْ حَكَمُوا وَبَدَّ^(١٢) يَزِيدُ وَحْدَهُ ،

(١) أعماله وسيئاته جمع هنة . (٢) انحل وانتقض . (٣) توتنف : تستأنف ، والحوبة : الإثم والذنب . (٤) من هناء الطعام : أى ساغ ولذ ، والوائش فاعل من الوشم ، وشم يده : إذا غرزاها بإبرة ثم ذر عليها النيلج ، والمراد به هنا المعادى - والوشيمة : العداوة - أى فهنينا لأعدائه الذين حقروه ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل « ولا تندلق عليه السن كلمته حيا ، ونبشته ميتا » . (٥) الجسور : الجسارة . (٦) تقحمت به دابته : نذت به وربما طوحت به فى وهدة أو وقصت به ، والقحمة كفرقة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرض للهلاك . (٧) الدخل والفساد . (٨) نغل الأديم نفلا : فسد فى الدباغ ، والجرح فسد . (٩) التظني : أعمال الظن ، وأصله التظن . (١٠) أى فلا تضيق . تحجر عليه : ضيق ، وتحجر ماوسعه الله : حرمة وضيقه ، وفى الحديث : « اتقوا تحجرت واسما » أى ضيق ماوسعه الله ، وفى الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . (١١) فى الأصل « وفد » ولعله وفد ، يقال وفده : أى غلبه وسكنه . (١٢) فاقهم .

ثم نظر إلى عبيد الله ، فقال : يا بن أخى ، إني لأعرفُ بك من أبيك ، وكأننى بك فى غُرة لا يخطوها^(١) السامح ، فالزم ابن عمك ، فإن لما قال حقاً ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيد يَرِدُ مجلسه ، ويَطَأُ عَقْبَهُ أياماً ، حتى رَمَى به معاوية إلى البصرة والياً عليها^(٢) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته^(٣)

روى الطَّبَرِيُّ قال :

لما كان المَهْلَبُ بن أبى صُفْرَةَ بَزَاغُولَ من رَوِ الرُّوذِ (من خُرَاسان) أصابته الشَّوْصَةُ^(٤) (وقوم يقولون الشَّوْكَةُ^(٥)) فعدا حَبِيْباً ومن حضره من ولده ، ودعا بِسِهَامٍ فَحَزِمَتْ ، وقال : أَتَرَوْنِكُمْ كاسِرِيهَا مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أَتَرَوْنِكُمْ كاسِرِيهَا متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وِصْلَةِ الرَّحِمِ ، فإن صلة الرحم تُنْسِي^(٦) فى الأجل ، وَتُثْرِي المال ، وَتُكْثِرُ العدد ، وأنها كم عن القطيعة ، فإن القطيعة تُعْقِبُ النار ، وَتُورِثُ الذَّلَّةَ وَالْقِلَّةَ ، تَبَادَّلُوا وَتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، وَتَبَارَّثُوا تجتمع أموركم ، إن بَنِي الأم يختلفون ، فكيف بِنِي الْعَلَاتِ^(٧) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فِعالكم أفضل من قوالكم ، فإنى أحب الرجل أن يكون لَعْمَلِهِ فضلٌ على لسانه ، وَانْقَوِ الجواب ، وَزَلَّةُ اللسان ، فإن الرجل تَزَلُّ قدمه فينتمش من زَلَّتْهُ ، ويزل لسانه فيمْلِكُ ، اغْرِفُوا لمن يَغْشَاكم حَقَّهُ ، فسكنى بِغُدُوٍّ

(١) فى الأصل « لا يخطوها » وأراه « لا يخطوها » . (٢) قال الطبرى : « ولى معاوية عبيدالله

ابن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » . (٣) سترد خطبه إن شاء الله فى باب « خطب الخوارج وما يتصل بها »

وذكر الطبرى أنه توفى سنة ٨٢ هـ ، وابن خلدكان أنه توفى سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراغه من

حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل واليا عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

(٤) الشوصة بالفتح وقد تضم النشين : وجع فى البطن . (٥) الشوكة : حمرة تملو الجسد .

(٦) تؤخر وتطيل . (٧) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

الرجل ورَاحِه إليكم تذكِرةً له ، وآثَرُوا الجودَ على البخل ، وأَحِبُّوا العرب ، واصطنعوا العرب ، فإنَّ الرجل من العرب تَعِدُّهُ العِدَّةَ فيموتُ دونك ، فكيف الصنيعة عنده ؟ وعليكم في الحرب بالأناةِ والمَكيدة ، فإنَّها أنفعُ في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإنَّ أخذَ رجل بالحزم فظَهَرَ على عدوه ، قيل : أتَى الأمر من وجهه ، ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرطَ ولا ضيَّع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعاليم السنن وأدب الصالحين . وإياكم والخِفةَ وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيد ، وجعلتُ حبيباً على الجند ، حتى يَقدِّم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد » فقال له المفضل : لو لم تُقدِّمه لقدَّمناه .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعقلِ الحاجب ، واستنظِرِ الكاتب ، فإنَّ حاجِبَ الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بُنَيَّ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم » . ومن كلماته الماثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أُعطيتُ ما لم يُعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يقال في غداً إذا ميتٌ » ، وقوله : « عجبتُ لمن يشتري العبيد بماله ولا يشتري الأحرار بإفضاله » .

(وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٤ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قَتَلَ الحجاجُ عبد الله بن الزبير ، ارتجَّت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال :
« أَلَا إِنَّ ابْنَ الزَّيْبِرِ كَانَ مِنْ أَحْبَارِ^(١) هَذِهِ الْأُمَّةِ ، حَتَّى رَغِبَ فِي الْخِلَافَةِ وَنَازَعَ فِيهَا ، وَخَلَعَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَاسْتَكَنَّ بِحَرَمِ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مَانِعًا لِلْعُصَاةِ ، لَمَنَعَ آدَمَ حُرْمَةَ الْجَنَّةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَبَاحَهُ جَنَّتَهُ ، فَلَمَّا عَصَاهُ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِخَطِيئَتِهِ ، وَآدَمُ عَلَى اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ ابْنِ الزَّيْبِرِ ، وَالْجَنَّةُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ السَّكْبَةِ » .
(سرح العيون ص ١٢٢ وتاريخ ابن صاكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثماً ، فخطب الأُتَمَّ عنه ثم قال :
« مَوْجُ لَيْلٍ التَّطَمُّ ، وَانْجَلَى بِضَوْءِ صُبْحِهِ ، يَا هَلْ الْحِجَازُ ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟ أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلْمَةَ الْجَوَازِ ، وَطَخَيْتُ^(٢) الْبَاطِلَ بِنُورِ الْحَقِّ ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَاجَ وَطَاةَ مُشْفِقٍ ، وَعَظْفَةَ رَحِمٍ ، وَوَصَلَ قَرَابَةَ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَزَلُّوا عَنْ سَبَنِ أَقْنَاكُمْ عَلَيْهِ ،

(١) جمع حبر: يفتح الحاء وكرمها ، وهو العالم أو الصالح . (٢) الطخية : الظلمة ، ويثلاث .

فأقطع عنكم ما وصلته لكم ، بالصارم البتار ، وأقيم من أودكم ما يقيم المنقف من أود^(١) القنّاء بالنار » ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عصّت به الحربُ عضّها وإن شمرت عن ساقها الحربُ شمرّا
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ — خطبته حين ولي العراق^(٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدث عبد الملك بن عمير اللبثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَالِيه ، إذ أتى آت ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِمَ أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعَمَّاً بِعِمَامَةٍ قد غطّى بها أكثر وجهه متقلداً سيفاً ، متفكّياً^(٣) قوساً ، يؤم المذبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المذبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبَّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عُمَيْرُ بْنُ ضَايِ بْنِ الْبُرْجُمِيِّ : أَلَا أَحْضِيهِ لَكُمْ ؟ فقالوا : أُنْهَلْ حَتَّى نَنْظُرَ^(٤) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللثام عن فيه ، ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَا عُ الثَّنَايَا متى أضع العِمَامَةَ تعرفوني^(٥) »

(٢) مقوم الرماح ، والأود : الاعوجاج .

(٢) ويرى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكباً على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجاء حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المذبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأحجابه خوارج فهموا به . (٣) تنكب قوسه : ألقاهاعلى منكبه . (٤) قال ابن نباتة « فلما سمعوا هذه الخطبة — وكان بعضهم قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حزناً ورعباً » . (٥) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي ، قاله الحجاج متمثلاً ، وقوله « أنا ابن جلا » أى الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أى أنا الظاهر الذى لا يخفى وكل أحد يعرفنى ، ولم ينون جلا لأنه أراد الفعل ، فحكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللّٰهُ مَا زِدَ بِنَامَ صَاحِبُهُ وَلَا مُحَاطِ اللَّيَّانِ جَانِبُهُ

وتقديره أنا ابن الذى يقال له جلا الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلا — وابن أجل — رجل =

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله إنى لأحمل الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإنى لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً قد أينعت وحن قطافها، وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تتفرق، ثم قال:

هذا أوان الشَّدِّ فاشتدَّى زَيْمٌ قد لفها الليلُ يسوق حُطَمَ
ليس براعى لبِلٍ ولا غَنَمٍ ولا يجزار على ظَهَرٍ وَضَمٍ^(١)
ثم قال: قد لفها الليلُ بمصليَّ أزوعَ خراجٍ من الدَّوى
مهاجرٍ ليس بأغرايٍ^(٢)

ثم قال: قد شمرت عن ساقها فشذوا وجذت الحربُ بكم فخذوا
والقوسُ فيها وترٌ عرُذٌ مثل ذراعِ البكرِ أو أشدَّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدٌّ^(٣)

= بعينه، قال في اللسان: «وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها» والثنايا جمع ثنية: وهى الطريق في الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصعوبتها، والعمامة: المغفر والبيضة قال ثعلب: العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم. (١) الشعر لرويشد بن رميض العنبرى والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطمة: الراعى الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض، فلا يبقى من السير شيئا، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحق قتيلا: «أحق من راعى ضأن ثمانين» قال الجاحظ في البيان والتبيين ١: ١٣٩ «فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا؟ وقد رعى الغنم عدة من جملة الأنبياء عليهم السلام» والوضم: كل ما قطع عليه اللحم. (٢) المصلي: الشديد القوى، والأروع: الذكى، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والدواية ويخفف: الفلاة المتسعة التى تسمع لها دويا بالليل «ولأما ذلك الدوى من أخفاف الإبل، تنفسح أصواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيز الجن» أى خراج من كل غنم شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأغراي بطبيعته غر ساذج ليس في تجربته كأهل المدن.

وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبى بكر بن عبد الله بالمدينة:

«إنى لست أتأويا أعلم، ولا بدويا أفهم».

(٣) جد به الأمر: اشتد، وعرد: أى شديد، والبكر: الفقى من الإبل، ولا بد من كذا: أى لا يحيد عنه.

إني والله بأهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، مَا يُقَفِّعُ
 لِي بِالشَّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُعَمِّرُ جَانِبِي كَتَفَمَازِ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ فُرِرْتُ ^(٢) عَنْ ذِكَاةٍ ، وَقَفَّشْتُ
 عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقَضْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - نَثَرَ
 كِفَانَتَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجَّم ^(٤) عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرًا عُودًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسِرًا ^(٥)
 فَمَا كَمْ بِي ، لَأَنْكَمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ
 سُنَنَ الْغَيِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لَا لُحُوءَ نَكْمٍ ^(٧) أَحْوَرَ الْعَصَا ، وَلَا أَقْرَعَكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ ^(٨) ،
 وَلَا غَصِبَنَكُمْ عَصَبَ السَّلَمَةِ ^(٩) ، وَلَا أَضْرِبُكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لِكَأَهْلِ
 قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ
 بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ
 لَا أَعِدُّ إِلَّا وَقَيْتَ ، وَلَا أُمْمَ إِلَّا أَمْضَيْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا قَرَيْتُ ^(١١) ، فَإِيَايَ وَهَذِهِ
 الشُّفَعَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ ^(١٢) وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَا وَقِيلَا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟

(١) القمقمة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفرع فتسرع : مثل يضرب لمن لا يرومه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله . (٢) فر الدابة : نتج حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكنانة : جمعة السهام . وفي رواية : « كب كنانته » أي قلبها . (٤) عجم العود : عضة ايمرف صلابته من خوره . (٥) وفي رواية « وأصلها عموذا » . (٦) أوضع أيضا : أمرع في سيره كوضع . (٧) لحا العصا : قشر ، وفي رواية : « لحو العود » . (٨) المرو : حجارة بيض براقه تورى النار .

(٩) السلة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في البيان والتبيين « لأن الأشجار تعصب أقصانها » ثم تحيط بالعصى اسقوط الورق وحشيم العيدان » (٣ : ٢١) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهي تضرب عند الحرب ، وعند الخلط ، وعند الحوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صخر :
 بضرب يزيل الهام عن سككاته كما زيد عن ماء الحياض الغرائب

(١١) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت . (١٢) الشفعاء جمع شفع ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيشفعون في أصحاب الجرائم ، فنهاهم عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاى وضماها : الجماعة من الناس . (١٣) القول في الخير ، والقال ، والقليل ، والقالة في الشر .

أما والله لَتَسْتَفِيمُنَّ على طريق الحق ، أو لأَدَعَنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أُعْطِيَا تِكُمْ^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سَفَكْتُ دمه ، وأُهِبْتُ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل للمبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار ٢ م : ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد النصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وسرح العيون ١١٦ ، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ - خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فَسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فَرَأَاهُ ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« يَـأْهُلَ العِراقَ ، يَـأْهُلَ الشَّقَاقِ والنِّفاقِ ، ومساوئِ الأخلاقِ ، وَبَنِي اللَّسِيمَةِ^(٤) ، وَعَبِيدَ القَصَا ، وأولادَ الإماء ، والْفَقْعَ بالقرقر^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يراد الله به ، وإنما يراد به الشيطان^(٦) ، ألا إنها عَجَاجَةٌ تحتها قَصْفٌ^(٧) ، وإنما مَثَلِي ومثلكم ما قال عمرو بن بَرِّاق الهَمْدَانِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَايَا لِهَمْدَانَ ظَالِمٌ !

(١) أعطيات جمع عطية ، وهي جمع عطاء . (٢) قائد الجيوش الذي حارب الخوارج الأزارقة ، وغل شوكتهم ، وسيأتي . (٣) جعلته نهياً يغار عليه .

(٤) اللثيمة . (٥) القرقر : أرض مطمئة ليثة ، والفقع ويكمر : البيضاء الرخوة من الكهانة ، ويقال للذليل : هو أذل من فقح بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناؤه ؛ أو لأنه يوطأ بالأرجل .

(٦) وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في الترغيب ، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب » . (٧) المعجاج : الغبار ، والقصف : شدة الريح .

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميّاً تجتنبك المظالم
أما والله لا تفرّع عصاً عصاً إلا جعلتها كأُمس الدّابر^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والمقدّم الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

٢٧٨ — خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داوؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلى أن أعجله ،
ومن ثقل عليه رأسه ، وضعتُ عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره . قصّرتُ عليه باقيه ،
إن للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فن سقيمتُ سريره ، صحت عقوبته ، ومن وضعه
ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضيقُ عنه الهلكة ، ومن سبقت به إدرة فمه ،
سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذركُ ثم لا أنظر^(٢) ، وأحذرُ ثم لا أعذر ، وأنوعد
ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق^(٣) ، ولأنكم ، ومن استرخى لبيبه^(٤) ، ساء أدبه ، إن
الحزم والعزم سلباني سوطي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فقامه في يدي ، ونجاده^(٦) في عنقي ،
وذبابه^(٧) قِلادة لمن عصاني ، والله لا آمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ وشرح العيون ١٢٢)

- (١) وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يربع رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر
موضع قدمه ، فأقيم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبأها ، وأدبا لما بعدها » —
يربع (كيمنح) يقف وينتظر ، والطلع (كشمس) : الغمز في المشي ، ويقال : اربع على ظلمك ، أى إنك
ضعيف ، فانت عما لاتطيقه . (٢) أنظره : أمهله . (٣) الترنيق : الضعف في الأمر (وفي البدن والبصر أيضاً) .
(٤) اللب : ما يشد في صدر الدابة يمنع استتخار الرجل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية .
(٥) هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكنا في وسطى » والأول أصح ، أى أنه رأى من
الحزم والعزم : المبالغة في استعمال الشدة والقوة في التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد
منه وهو السيف . (٦) التجاد : علاقة السيف . (٧) ذباب السيف : حده .

٢٧٩ — خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والمقصب ،
والمسامع والأطراف ، والأعضاء^(٢) والشغاف^(٣) ، ثم أفضى إلى المخاخ^(٤) والأصماغ ،
ثم ارتفع فمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه
دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، وموأمراً^(٥) تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ،
أو تمظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز^(٦) ؟

(١) وقعة دير الجماجم : هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث . وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا وتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصيبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى وتبيل بن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربتة ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، فينتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصف رأيه ويأمره بالوغل في أرضهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة الأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجثا الحجاج على ركبتيه وانتفض نحو شهر من سيفه ، واستعد لقاء الموت كريمة فقويت بذلك قلوب جنده واستبسلوا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؟ فسمع وتبيل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى وتبيل يأمره أن يبعث إليه بآبن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، فأراد وتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر ، فأت فاحتر وتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) في العقد الفريد (والأعضاء) . (٣) الشغاف : غلاف القلب أو حبته . (٤) رواية نهاية الأرب « المخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ؛ فتروها (المخاخ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصماغ » بهذا للنص ، والذي في كتب اللغة : « الصماغ من الأذن : الخرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمعه أصمخة وصماخ ، ومثل الصماغ الأصموخ كمصفور ، وجمعه أصامبخ ، فصواب الكلمة « الصماخ » أو « الأصامبخ » . (٥) أمره في كذا مؤامرة : شاوره . (٦) يشير إلى وقعة « تستر »

حيث رُفِّعَ المكر، وسعيتُم بالفدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يَحْدُلُ دينه
وَحِلَافته، وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تَتَسَلَّلُونَ لِوَأْدٍ^(١)، وتنهزمون سِرَاعاً؟ ثم يوم
الزَّأْوِيَةِ، وما يوم الزَّأْوِيَةِ! بها كان فَشْلُكُمْ وتنازُعُكُمْ وتخاذلكم، وَبَرَاءَةُ الله منكم،
وَنُكُوصُ وَلِيِّكُمْ عنكم، إذ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها، النوازع إلى
أعطانها^(٢)، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يُلَوِّى^(٣) الشيخ على بنيهِ، حتى عَضَّكُمْ^(٤)
السلاح، وَقَصَمَتْكُمْ الرماح، ثم يوم دَيْرِ الجاجم، وما يوم دير الجاجم! بها كانت
المعارك والملاحم^(٥)، بضربِ يُزِيلُ الهام^(٦)، عن مَقِيلِهِ^(٧)، وَيُذْهِلُ الخليل عن خليله،
يأهل العراق، وَالْكَفَرَاتِ بعد الفَجَرَاتِ، وَالْفَدَرَاتِ بعد الْخَلَرَاتِ^(٨)، وَالزَّوَاتِ^(٩)
بعد النزوات، إِنْ بَعَثْتُمْكُمْ إِلَى ثُغُورِكُمْ غَلَّاتِمٌ^(١٠) وَخُنُتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ
خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ، لا تذكرون حَسَنَةً، ولا تشكرون نِعْمَةً، هل استخفَّكم ناكث،
أو استغفواكم غار، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم^(١١) خالِع، إلتبِعْتُمُوهُ وَأَوَيْتُمُوهُ،
ونصرتُمُوهُ وزكَّيْتُمُوهُ؟ يأهل العراق، هل شَغِبَ شاغِب، أو نَعَبَ ناعب، أو زفر
زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق: أَلَمْ تَنْهَكُمُ المَواَظِظَ، أَلَمْ تَزْجُرْكُمْ
الوقائع؟» .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: «يأهل الشام، إنما أنا لكم
كالظلم^(١٢) الرامح عن فراخه، يَنْفِي عنها المَدَرُ^(١٣)، ويباعد عنها الحجر، وَيُكَيِّسُهَا

- (١) أى يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لواءذا وملاوذة . (٢) أعطان جمع عطن كسبب : مبرك الإبل
حول الحوض كالعطن ، ونوازع : أى مشتاقة . (٣) لايلوى على أحد ؛ أى لايقف ولا ينتظر .
(٤) فى نهاية الأرب « عظمكم » بالظاء : عظته الحرب كعضته بالصاد .
(٥) جمع ملحمة وهى الوقعة العظيمة القتل . (٦) جمع هامة ، وهى الرأس .
(٧) موضعه ، أى الأعناق ، قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رموس قوم أزلنا هامهن عن المقييل

- (٨) جمع خثرة ، والخثرة كشمس : الفدر والحديمة أو أقبح الفدر . (٩) جمع نزوة، من نزا
نزوانا : أى وثب . (١٠) غل كنصر غلولا : خان . (١١) استعضده : سأله أن يعضده .
(١٢) ذكر النعام ، والرامح : أى المدافع، من رمحه : أى طعنه بالرمح . (١٣) قطع الطين اليابس .

من المطر، ويحميها من الضباب^(١)، ويحرُسها من الذئب، يأهل الشام؛ أنتم الجنة والرِّداء، وأنتم العدة والحذاء.

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥ - وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٥٥).

٢٨٠ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلَقَّح بالنجوى^(٢) ، وتُنتَج بالشكوى ، وتُحصَد بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتموني لاتضروني ، وإن أحببتموني لاتنفعونني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ، زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفلحت ، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجُكُمْ أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْك ، وَلَأَبْنَاؤُكُمْ أَرْحَمُ مِنَ الْوَلَد ، وما أنتم إلا كما قال أخو بني دُبَيَّان :

إذا حاولتَ في أسد فجورا فإني لستُ منك ولستَ مني

مُهمُ دِرْعَى التي استَلَأْتُ فيها إلى يوم النِّسَارِ وهمُ مَجْنَى^(٣)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

الرَّسُلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُتَنصُرُونَ ، وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

٢٨١ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ^(٤) ، وقال :

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرياء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) استلأ : لبس

للأمة ، وهى الدرع ، النسار : ماء لبنى عامر له يوم ، والمجن : الترس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ؛ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(١) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا .

« عذيري ^(٢) من أهل هذه الحُمَيْراء ، يرى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٣) » ، والله لأجعلهم كالرَّسَمِ ^(٤) الدَّائِرِ ، وكالأمس الغابر ، عذيري من عبد هُذَيْلٍ يقرأ القرآن كأنه رَجَزُ الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٥) - ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله - فيما علمت - عبداً حَسُوداً بخيلاً .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والعقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَثُونَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكُم لا يتعلمون ، وشِراركم لا يتوبون ؟ مالى أراكم تحرصون على ما كُفِيتُم ، وتضيعون ما به أُمِرْتُم ؟ إن العلم يوشك أن يُرْفَعَ ، وَرَفَعَهُ ذهابُ العلماء ؛ ألا وإني أعلم بشراركم من البَيْطَارِ بالفرس ، الذين لا يقرءون القرآن إلا هَجْرًا ^(٦) ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ^(٧) ؛ ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر ، يحكم فيها ملك قادر

(١) وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والشعب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ؛ والطريق في الجبل . (٢) العذير : العاذر والتصير ؛ والحال التي تحاوها تعذر عليها . (٣) وفي مروج الذهب : يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله . (٤) الرَّم : الأثر ، أو بقيته . والدائر : الدارس المحو . (٥) هو من بني هذيل . (٦) أى هجرا له وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . (٧) الدبر من كل شيء : عقبه ومؤخره ، أى ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .

أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنْ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقَوْهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنْ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِحَذَائِفِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنْ الشَّرُّ كُلُّهُ بِحَذَائِفِهِ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَفْعَلُ مِنْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَاسْتَغْفِرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ^(١) .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٣ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنْ لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لِدَانِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبِعُوثِ ، لَوْلَا طِيبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الثَّقَلِ ^(٢) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَأَيْكُمْ إِلَّا كَارِهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا وَاللَّهُ لَرُؤُوسُكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيزِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ نَفْسِي مَقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ حَسَنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلِّغْنِي أَنْتُمْ تَرَوْنَ عَنْ نَبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِئَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤْبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَابْتَغِ اللَّهُ لِي لِأَحَبِّ إِلَيَّ أَنْ أُخْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُخْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » .

(المقد الفريد ٣ : ١٧)

(١) وذكر صاحب المقد أيضا هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إِلَى آخِرِهِ

وهذا إلى شداد بن أوس الطائي . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ . (٢) الرجوع .

٢٨٥ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نَعَى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال :
 « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
 الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقِلْتُمْ إِلَىٰ أَغْصَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان
 الشهيد المظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل^(١) الذي جربته الأمور ،
 وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، والوَطْءُ
 لأهل الزيف ، فكان رابعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختر الله له ماعنده ، وألحقه
 بهم ، وعهد إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته ،
 فاسموا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزيف ، فإن الزيف لا يحقيق إلا بأهله ، ورأيتم سيرتي فيكم ،
 وعرفت خلافكم وطبييتكم ، على معرفتي بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم مني ،
 أو أعرف بكم ما وليتكم ؛ فإياي وإياكم ، من تسلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمّاً »
 ثم نزل .
 (العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :
 « يأهل العراق ، يأهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم
 ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله

(١) الرجل الكامل في تجربته .

صلى الله عليه وسلم في الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبل من مُحْسِنِهِمْ، وأن يُجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ، وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم؛ ألا وإنكم ستقولون بعدى مَقَالَةً ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإني مُعَجِّلُ لكم الإجابة : لا أحسن الله الخلافة عليكم » ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٧ — خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشى أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه ، وفرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض^(١) جناحه ، فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معى في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله ليؤشركن الباقي منى ومنكم أن يفنى ، والجديد أن يبلى ، والحق منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدَال^(٢) الأرض منّا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دماننا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ »^(٣) ثم تمثل بهذين البيتين :

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) أداله الله منه : نصره عليه .

(٣) الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموق بانبعث الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم : التمر قبل إرطابه) أى نفخ في صور الموق الأرواح . وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع جدث كسبب وهو القبر ، ونسل كضرب ونصر : أسرع .

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سَرُورَ النَّفْسِ فِيهَا هَفَالِكٍ
(المقد الفريد ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٨ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إِنْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالْفَقَاقِ ، نَزَغَ ^(١) الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا :
مَاتَ الْحَجَّاجُ ، وَمَاتَ الْحَجَّاجُ فَهَ؟ وَهَلْ يَرْجُو الْحَجَّاجُ الْخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ؟ وَاللَّهِ مَا يُسِّرُنِي
أَلَّا أَمُوتَ ، وَأَنْ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَمَا رَأَيْتُ اللَّهَ رَضِيَ بِالْخُلَيْدِ إِلَّا لِأَهْوَنِ خَلَقِهِ عَلَيْهِ
إِبْلِيسَ ، قَالَ : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قَالَ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، وَلَقَدْ دَعَا اللَّهَ
الْعَبْدُ الصَّالِحُ ، فَقَالَ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي »
فَأَعْطَاهُ ذَلِكَ إِلَّا الْبَقَاءَ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ أَيُّهَا الرَّجُلُ؟ وَكُلُّكُمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، كَأَنِّي
وَاللَّهِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ مَيِّتًا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابِسًا ، وَنُقُلَ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانُهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَذْرَعٍ
طَوْلًا ، فِي ذِرَاعٍ عَرْضًا ، وَأَكَلَتِ الْأَرْضُ لَحْمَهُ ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانصرفت الحبيب
من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إِنْ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ يَعْلَمُونَ مَا أَقُولُ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢)

ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

- ٢٨٩ -

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ مَنْقُوصٍ ، وعملٍ محفوظٍ ، رَبُّ دَائِبٍ مُضِيْعٍ ، وساعٍ لغيرِهِ ، والموتُ في أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لِمَا بين أيديكم ، فَكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأنَّ الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فإنه ذاهب ، هذه شمسٌ عادٍ وثمود وقرونٌ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التَّبَاطِيعِ والأَكاسِيرِ ، وخزائنهم السَّائِرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيَّدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصَّراطُ منصوب ، وجهم تَزْفِرُ ^(١) وتتوقد ، وأهل الجنة يَنْعَمُونَ ، في رَوْضَةٍ يُخْبِرُونَ ^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » .

فكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يَرَقِي عَتَبَاتِ المَذْبَرِ ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . (٢) أحبره : سره . والجبور : السرور .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمَذْبَحِ ، فَصَعِدَ الْحُجَّاجُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أُمِرُوا حَسَبَ نَفْسِهِ ، أُمِرُوا رَاقِبَ رَبِّهِ ، أُمِرُوا زَوَّارًا ^(١) عَمَلُهُ ، أُمِرُوا فَسْكَرَ فِيمَا يَقْرَؤُهُ غَدَاً فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أُمِرُوا كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ أَمِيرًا ، وَعِنْدَ هَوَاهُ زَاجِرًا ، أُمِرُوا أَخَذَ بَعِثَانَ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جَلْهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى حَقِّ تَبِعَةٍ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَعَهُ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

أيها الناس ، أَقْدَعُوا ^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ ^(٣) شَيْءَ إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَعْصَى ^(٤) شَيْءَ إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَسْرَأَ جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا فَقَادَهَا بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَظَمَ قَبْضَ بَزْمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ تَحَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(٥) .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٥٠ ، وشرح العميون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) زوره : حسنه . (٢) قدمه كتمه وأقده : كفه وكبحه . (٣) وفي عيون الأخبار : « أيها الناس ، احفظوا فروجكم ، وخذوا الأنفس بضميرها ، فإنها أسوك شيء وأسوك : أضعف ، من سلك الرجل سواك : سار سيرا ضعيفا . (٤) وفي رواية « وأعطى شيء » وهو تحريف . (٥) قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن علي عليه السلام » .

وخطب فقال :

« اللهم أرني الفَيَّ غِيًّا فَأَجْتَنِبَهُ ، وأرني الهدى هُدًى فَأَتَّبِعَهُ ، ولا تَكِلْنِي إلى نفسي ، فأُضِلَّ ضَلالًا بعيداً ، والله ما أَحِبُّ أن ماضى من الدنيا لي بِعِمَامَتِي هذه ، وَلَمَّا بَقِيَ منها أشبهُ بِما مضى من الماء بالماء . »

(العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

١ م : ص ١٥٠ ، وشرح العمون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إِنَّ امْرَأًا أَتَتْ عَلَيْهِ سَاعَةٌ مِنْ عَمْرِهِ ، لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ ، وَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَفْكُرَ فِي مَعَادِهِ ، لَجْدِيثٌ أَنْ يَطُولَ حَزْنُهُ ، وَيَقْضَاعُفُ أَسْفُهُ ، إِنْ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ ، فَلَا بَقَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ ، وَلَا فَنَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءَ ، فَلَا يَغْفُرْ نَعْمَ شَاهِدٌ^(١) الدُّنْيَا ، عَنْ غَائِبِ الْآخِرَةِ ، وَاقْهَرُوا طَوْلَ الْأَمَلِ ، بِقِصَرِ الْأَجَلِ^(٢) . »

(شرح ابن الحديد ١ م : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين :

٢ : ٩٩ ، شرح العمون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) أى حاضرهما . (٢) قال الشعبي: سمعت الحجاج يقول بكلام ماسبقه إليه أحد ؛ سمعته يقول : « إِنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفى عن عمه قال سمعت الحسن البصرى يقول : لقد وقفتى كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقظك؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعراد يقول : « إِنْ امْرَأًا ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنْ عَمْرِهِ فِي غَيْرِ مَا خَلَقَ لَهُ لِحْرَى أَنْ تَطُولَ عَلَيْهِ حَسْرَتُهُ . »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٨٩٦ هـ)

٢٩٤ - خطبته بحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طُخَارُسْتَان »

قدم قَتَيْبَةُ بن مُسْلِم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج^(١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تهيأ لغزو أخرون وشومان - وها من بلاد طُخَارُسْتَان^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال :

« إِنَّ اللَّهَ أَحَلَّكَ هَذَا الْمَحَلَّ لِيُعَزَّ دِينُهُ ، وَيَذُبَّ بِكُمْ عَنِ الْخُرْمَاتِ ، وَيَزِيدَ بِكُمْ الْمَالَ اسْتِفَاضَةً ، وَالْعَدُوَّ وَقْأً^(٣) » ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق ، فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده ، فقال : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَنْفَقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوق ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ . (٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلصكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء . (٣) وقه : قهره وأذله . (٤) جماعة .

قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (فَتَجَزَّوْا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ ، وَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَقْصَىٰ آثَرٍ ، وَأَمْضَىٰ أَلَمٍ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُؤَيَّنَّى .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٥ - خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وصار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب

الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه تمكن ، وهذه السغد شاعرة^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : (قَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) ، فسيروا على بركة الله ، فإنى أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير^(٣) وقريظة^(٤) ، وقال الله تعالى : (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

(١) وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهى بين نهري سيحون وجيحون ، وكانت قصبها سمرقند ، وهى بالسین ، وربما قيلت بالصاد » وأتاه طرخون ملك السغد ، وسأله الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب وصالحه ، ثم نقضوا عهودهم . (٢) شجر الكلب كنع : رفع إحدى رجليه ليبول . (٣) بنو النضير : حى من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهود يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها حسدا منهم وبغيا ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديارهم ، إذا انتزع جماعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاد ، لما تقدم منهم من الغدر ، فتهيئوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظنوا أنها مانعهم من الله ؛ فحاصروهم ست ليال ؛ ثم أمر بقطع نخيلهم كي يسلموا ، فحذف الله في قلوبهم الرعب ؛ فسألوه أن يجعلهم ويكف عن دماهم ؛ وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ففعل ؛ وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ؛ لئلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بنى قريظة يسكنون المسلمين في المدينة ؛ فانتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصدد جموع الأحزاب - في غزوة الخندق - ونقضوا عهودهم معهم ؛ وذلك أن حبي بن أخطب سيد بنى النضير الذين =

٢٩٦ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأنى قتيبة السغد فصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة^(١) « إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعف وأذلّ ، فهما كان عندكم من قوة فابذلوا ، فجمعوا جموعهم ، وولّوا عليهم ابناً لخاقان^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيتوا عسكر قتيبة ، ونمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوكم قد رأوا بلاء^(٣) الله عندكم ، وتأيسده إياكم في مُزاحفتكم ومُكاثرتكم^(٤) ، كل ذلك يُفاجئكم^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غررتكم وبَيَّاتكم ، واختاروا دهاقينهم^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد

= أجلوا من ديارهم ؛ توجه إلى كعب بن أسد القرظي ؛ فحسن له نقض العهد ؛ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؛ فاشتد وجل المسلمين ؛ وزلوا زلزالاً شديداً ؛ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فاجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ؛ وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ؛ وحاصرهم المسلمون نحسباً وعشرين ليلة ؛ فلما ضاقوا بالحصار ذرعا ؛ طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ؛ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمه ففعلوا ؛ فتوالت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؛ وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ؛ وكانوا حلفاء الخزرج ؛ فنزلوا على حكمه ؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوجههم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحا من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ؛ فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ؛ وتقسم الأموال ؛ وتسبى النساء والذراى ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ؛ ثم أمر بتنفيذ الحكم ؛ فنفذ فيهم . (١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين .

(٢) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ؛ وقد خقنوه على أنفسهم : أى رأسوه (بالتشديد) .

(٣) أى نعمته . (٤) كاثروهم فكثروهم : غالبوهم فغلبوهم . (٥) أى ينصرم عليهم ؛ ويظفرم بهم . (٦) جمع دهاقن بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى للعبم ، ورئيس الإقليم . مغرب .

فَضَّلَكُمْ اللهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلَوْا^(١) لِلَّهِ بِلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ عَنْ أَحْسَابِكُمْ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٣٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم فقال للناس :
« إني قد جمعتكم من عين التَّمَرِّ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَمْتُ الْأَخَ إِلَى أَخِيهِ ،
وَالْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أُعْطِيَاتِكُمْ غَيْرَ مُكْدَّرَةٍ
وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَيْتُمْ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كَمَا أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ :
إِنَّ خَرَجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦) فَدَوَّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ
سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ؛ لَمْ يَجِبْ قَيْثًا ، وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) عِدْوًا ،
ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ فُحْلٌ تَبَارَى إِلَيْهِ النَّسَاءُ ، وَإِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ
هَبْنَقَةُ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَفُضِبَ ، فَقَالَ :

(١) الْإِبْلَاءُ : الْإِنْعَامُ وَالْإِحْسَانُ ، يُقَالُ : أَبْلَيْتَ عِنْدَهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَاهُ اللهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبَايْتَهُ
مَعْرُوفًا . وَالْمَعْنَى : فَاصْدُقُوا الْقِتَالَ ، وَقَدِمُوا مَعْرُوفًا تَبْقُونَ بِهِ ثَوَابَ اللهِ . (٢) وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ
ابْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ابْنَهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَلِيَّ عَهْدِهِ ، وَدَسَّ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَادِ وَالشُّعْرَاءِ ، فَبَايَعَهُ عَلَى خُلْعِ
سُلَيْمَانَ الْحِجَاجِ وَقَتِييَةَ ، ثُمَّ مَاتَ الْوَلِيدُ وَقَامَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَخَافَهُ قَتِييَةُ وَخَشِيَ أَنْ يُوَلِّيَ سُلَيْمَانَ يَزِيدَ
ابْنَ الْمُهَلَّبِ خِرَاسَانَ . (٣) بَلَدٌ عَلَى الْفُرَاتِ قَرِبَ الْكُوفَةِ . (٤) هُوَ أُمِّيَّةٌ بَنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَالِدٍ
ابْنَ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِّيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَكَانَ عَامِلًا عَلَيْهَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ حَتَّى كَانَتْ سَنَةُ ٧٨
فَعَزَلَهُ وَجَمَعَ سُلْطَانُهُ لِلْحِجَاجِ فَبِعَثَ الْمُهَلَّبَ إِلَيْهَا . (٥) فِي الْأَصْلِ « لَا يَقِيمُ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ أَوْ « لَا يَقِيمُ
مَطْبَخِي » . (٦) أَبُو سَعِيدٍ : كَتَبَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ . (٧) مِنْ دَوَمَتِ الْكِلَابِ : أَيِ امْتَنَعَتْ
فِي الْمَسِيرِ : وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « فِدُوخٌ بِكُمْ الْبِلَادِ » وَسَتَأْتِي . (٨) نَكَأَ الْعَدُوَّ وَنَكَاهُ نَكَايَةً : قَتَلَ وَجَرَحَ .
(٩) هُوَ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ هَبْنَقَةُ ذُو الْوَدْعَاتِ ، وَيَكْنَى أَبَا نَافِعٍ أَحَدُ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ . يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ
فِي الْحَقِّ فَيُقَالُ : « أَحَقُّ مِنْ هَبْنَقَةٍ » وَلَهُ نَوَادِرُ فِي الْحَقِّ . مِنْهَا أَنَّهُ جَمَلَ فِي عَهْدِهِ قَلَادَةً مِنْ دَوَعٍ وَعِظَامٍ وَخَرْفٍ
وَهُذُو حِلْيَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَسُتِلَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لَا عَرَفَ بِهَا نَفْسِي ، وَلَثَلَا أَضْلُ ، فَبَاتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَأَخَذَ أَخُوهُ =

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى عَنَزٍ مَا كَسَرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَا هَـلَ السَّافِلَةَ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أَوْبَاشُ ^(١) الصَّدَقَةُ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تَجْمَعُ إِبِلَ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أُوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، يَا هَـلَ النَّفْخِ ^(٣) وَالْكَذْبِ وَالْبَخْلِ ، يَا أَيُّ يَوْمَتَيْكُمْ تَفْخَرُونَ : يَوْمَ حَرَبِكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلَمِكُمْ ؟ فَوَاللهِ لَا نَأْأَعِزُّ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْحَبَابِ مُسَيِّلَةً . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ نَمِيمٍ . يَا هَـلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْقَدَرِ ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْقَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ ^(٦) » يَا أَهْلَ سَجَاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَّلْتُمْ بِأَبْرِ الْفَخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَّلْتُمْ بِقُلُوسِ ^(٩) السَّفَنِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحَصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ . وَالْأَعْرَابُ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُنَاسَةَ الْمَصْرِينَ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ،

= قَلَادَتُهُ فَتَقْلَدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، وَرَأَى الْقَلَادَةَ فِي عُنُقِ أَخِيهِ ، قَالَ يَا أَخِي : أَنْتَ أَتَا فَنَ أَنَا ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ ضَلَّ لَهُ بَعِيرٌ ، فَجَمَلَ يَنَادِي : مَنْ وَجَدَ بَعِيرِي فَهُوَ لَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فَلَمْ تَنْشُدْهُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ حَلَاوَةُ الْوَجْدَانِ ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ اخْتَصَمَتِ الطَّفَاوَةُ وَيَتَوَّ رَاسِبٍ فِي رَجُلٍ ادَّعَاهُ هَؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ ، ثُمَّ قَالُوا : رَضِينَا بِأَوَّلِهِ مِنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ هَبْنَقَةٌ ، فَقَصَّصُوا عَلَيْهِ قَصَّتَهُمْ ، فَقَالَ : الْحَكْمُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَى نَهْرٍ لِلْبَصْرَةِ ، فَيُلْقَى فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ رَاسِبِيَا رَسِبَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ طَفَاوِيَا طَفَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَحَدٍ هَذَيْنِ الْخَبِيرِينَ .

وَقَوْلُ قَتِيْبَةٍ : « إِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ هَبْنَقَةٌ » ذَلِكَ لِأَنَّ هَبْنَقَةً كَانَتْ يَحْمِلُنَ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ إِبِلِهِ ، فَيَرْعِيهَا فِي الْعُشْبِ وَيَنْحِي الْمَهَازِيلَ ، فَقِيلَ لَهُ : وَيَحْكُ ! مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ ، وَأَهْنِ مَا أَهَانَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ سَلِيمَانُ يَعْطَى الْأَغْنِيَاءَ ، وَلَا يَعْطَى الْفُقَرَاءَ وَيَقُولُ : « أَصْلَحُ مَا أَصْلَحَ اللَّهُ ، وَأَفْسَدُ مَا أَفْسَدَ اللَّهُ » - انْظُرْ يَجْمَعُ الْأَمْثَالَ ١ : ١٤٦ ، وَالْبَيَانَ وَالتَّبْيِينَ ١ : ١٢٦ - . (١) الْأَوْبَاشُ : السَّفَلَةُ ، جَمْعُ وَبَشٍ كَسَبَبَ . (٢) الطَّرِيقُ وَالْجَهَّةُ . (٣) الْفَخْرُ وَالْكِبَرُ . (٤) الضَّمْفُ . (٥) الْهَوُ .

(٦) كَيْسَانُ : عَلَمٌ لِلْقَدَرِ . (٧) هِيَ سَجَاحُ بِنْتُ الْحَارِثِ ادَّعَتْ النَّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَزِيرَةِ فِي بَنِي تَغْلِبَ . (٨) أَبْرُ النَّخْلِ أَبْرًا : أَصْلَحَهُ . (٩) الْقُلُوسُ جَمْعُ قُلْسٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ حَبْلٌ ضَمْنُهُ مِنْ لَيْفٍ أَوْ خَوْصٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ قُلُوسِ سَفَنِ الْبَحْرِ . (١٠) جَمْعُ حَصَانٍ .

ومنايات القليل^(١) ، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان^(٢) ، حتى إذا جمعتكم كما يجتمع قزح الخريف^(٣) قلتم : كيت وكيت ، أما والله إني لأبني أبيه^(٤) وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنكم عصب السلة ، إن حول الصليان الزمزمة^(٥) ، يأهل خراسان ، هل تدرون من وليكم ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كأني بأمر مزجاء^(٦) ، وحكمهم قد جاءكم ، فغلبكم على فيثكم وأطلالكم ، إن هاهنا ناراً ، ارموها أرم معكم ، ارموا غرضكم الأفصى ، قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام أب مكفور ، حتى متى ينبطح أهل الشام بأفنييتكم وظلال دياركم ؟ يأهل خراسان انسبوني تجدونى عراق الأم ، عراق الأب ، عراق المولد ، عراقى الهوى والرأى والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبيلكم ، فالظعينة^(٧) تخرج من مرو إلى بلخ بغير جوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسلوه الشكر والمزيد . ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطاب هذا نصها :

- (١) ثبت له حب أسود حسن الشم . (٢) هى جزيرة في الخليج الفارسى بين عمان والبحرين .
- (٣) القزح : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزح) وخرفت الثمار أخرفها كنصر : اجتنبتها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا على رضى الله عنه « كما يجتمع قزح الخريف » .
- (٤) أى ابن أبى . (٥) الصليان : نبت من أفضل المرعى يختل (يجز) للخليل التى لاتفارق الحى ، والزمزمة : صوت خفى لا يكاد يفهم ، يعنى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت المجوس عند أكلهم - يتراطنون على الأكل ، وهم صموت لا يستعملون لساناً ، ولا شفة ، لكنهم صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض - وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه . والمعنى في المثل : أن ماتسمع من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويتمتع به . قال الميداني : وروى « حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء للمطى أى كثير الإزجاء لها ، زجاءها وأزجاءها : ساقها ودفعها : والمراد أنه قاس ظلوم . (٧) الظعينة : المرأة مادامت في الهودج .

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أتدرون من تبايعون ؟ إنما تبايعون يزيد بن ثروان - يعنى هَبْنَقَةَ القيسى -
كأنى بأمير مزجاء ، وحكم قد أتاكم ، يحكم فى أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم^(١)
ثم قال : الأعراب وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، جمعتم كما يجمع قزح الخريف^(٢)
من منابت الشَّيْح والقيصوم ، ومنابت القنقل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ،
وتأكلون الهبيد^(٣) ، غملتكم على الخليل ، وألبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ،
وأفاء بكم النِّىء » قالوا : مرنا بأمرك . قال : غرؤوا غيرى .

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل العراق ، ألسنتُ أعلم الناس بكم ؟ أما هذا الحى من أهل العالية ، فنعم
الصدقة ، وأما هذا الحى من بكر بن وائل فعليجة^(٤) بظراءه ، لا تجمع رجلها ، وأما هذا
الحى عبد القيس فما ضرب العير بذنبه ، وأما هذا الحى من الأزد ، فملوج^(٥) خلق الله
وأنباطه^(٦) ، وإني لله لو ملكْتُ أمر الناس لَنَقَشْتُ أيديهم ، وأما هذا الحى من تميم ،
فإنهم كانوا يسمون العذر فى الجاهلية كَيْسَان . »

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) أشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . (٢) فى المقدم الفريد : « كما يجمع
مرخ الخريق » وفى البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) الحنظل .
(٤) مؤنث الطلج : وهو حمار الوحش السمين القوى . وأمه بظراء : طويلة البظر كشمس ، وهو ما بين
شفرى للرحم . (٥) جمع طلع (بالكسر) وهو الرجل من كفار المجمع . (٦) حيل من الناس
كانوا ينزلون سواد العراق ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم .

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يَا أَهْلَ خِرَاسَانَ ، قَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِيَّةٌ ، فَسَكَانَ كَاسِمِهِ أُمِيَّةَ الرَّأْيِ ، وَأُمِيَّةَ الدِّينِ ، فَكُتِبَ إِلَى خَلِيفَتِهِ : إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسِجِسْتَانَ ، لَوْ كَانَ فِي مَطْبَخِهِ لَمْ يَكْفِهِ ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَعْدَهُ أَبُو سَعِيدٍ ، فَدَوَّخَ بِكُمْ الْبِلَادَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ اللَّهِ أَنْتُمْ أُمٌّ فِي مَعْصِيَتِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْجِبْ فَيَمْنًا ، وَلَمْ يَنْكُأْ عَدُوًّا ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، مِثْلَ أَطْبَاءٍ ^(١) السَّكَلِيَّةِ ، مِنْهُمْ ابْنُ الرَّحْمَةِ ^(٢) ، حِصَّانٌ يَضْرِبُ فِي عَانَتِهِ ^(٣) ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُوهُ يَخَافُهُ عَلَى أُمَّهَاتِ أَوْلَادِهِ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُمْ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْبِلَادَ ، وَأَمَّنَ لَكُمْ السُّبُلَ ، حَتَّى إِنْ الظَّعِينَةَ لَتَخْرُجَ مِنْ مَرَوْ إِلَى سَمَرْقَنْدَ فِي غَيْرِ جَوَارٍ . »

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبي كقفل . والطبي : لذات الخلف والظلف كاللدى للمرأة . (٢) يريد به يزيه

ابن المهلب . (٣) العانة : الأتان ، والقطع من حر الوخس ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجْتَ خَارِجَةً بِخَرَّاسَانَ ، فَقِيلَ لِقَتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ السَّكْبَرِ ، فِي أَنْفِهِ خُنْزُرَانَةٌ^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَعْرَةٌ^(٣) - وَإِنَّمَا أَنْفُهُ فِي أَسْلُوبٍ^(٤) ، وَمَنْ عَظُمَ كِبَرُهُ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أَعْجَبَ بَرَأْيُهُ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيَّةً ، وَلَمْ يُؤَامِرْ^(٥) نَصِيحًا . وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّجَ^(٦) بِالْأَنْفَرَادِ ، وَفَخَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ بَعِيدًا ، وَمَنِ الْخِلْدَانُ قُرَيْبًا ، وَالْخَطَاةُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الْفُرْقَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ لَا تَخْطِئُ ، وَالْفُرْقَةُ لَا تُصِيبُ ، وَمَنْ تَسَكَّبَ عَلَى عَدُوِّهِ حَقَرَهُ ، وَإِذَا حَقَرَهُ تَهَاوَنَ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِخَصْمِهِ ، وَوَثِقَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ ، وَمَنْ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ كَثُرَ عِثَارُهُ ، وَمَا رَأَيْتَ عَظِيمَ السَّكْبَرِ صَاحِبَ حَرْبٍ ، إِلَّا كَانَ مَنْكُوبًا ، فَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ عَدُوُّهُ عِنْدَهُ ، وَخَصْمُهُ فِيمَا تَغْلِبُ

(١) هو وكيع بن أبي سود التميمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى ، وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

(٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : السكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

(٣) النعرة : الخيلة والسكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لفي

أسلوب إذا كان متكبرا ، قاله الراجز :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاه في الجيوب

(وهو في معنى المثل المشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجيوب كصبور : الأرض ، والأستاه

جمع ستة كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بشينة :

وما أنس مألأ شيا لآنس قولها (وقد قربت نصوى) أمصرتيدا؟

أى من الأشياء ، وقول قطري بن الفجاءة :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخليل نحو تميم

أى على الماء . (٥) الكنى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . (٦) تبجح به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عقق^(١) ،
وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من الفهد ، وأحقّد من جمل ، وأروغ من ثعلب ،
وأغدر من ذئب ، وأسخر من لافظة^(٢) ، وأشعّ من صبي ، وأجمع من ذرة^(٣) ،
وأحرس من كلب ، وأصبر من صَبّ . فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ،
وتتحمّض على قدر الخوف ، وتطلبُ على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قدّم خراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم^(٤) فَلْيَتَذَبَّدْهُ ، وإن كان في فيه
فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كان في صدره فَلْيَتَفَقَّهْ » فَتَجِبَ الناس من حسن ما فصّل وقسم .
(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

(١) العقق : نوع من الغربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب ، يشبه صوته العين
والقاف - ولذا سمى عققاً - وقيل لأنه يبق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع الغربان يفعل ذلك - وقد
ضربوا به المثل في الحذر ، فقالوا : « أحذر من عقق » - انظر جمهرة الأمثال - كما قالوا : « أحذر من
غراب » وقالوا أيضاً : « ألص من عقق » لأن في طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلى - وقالوا : « أحق
من عقق » لأنه كالنعامة التي تضيع بيضها وأفراخها ، وتشتغل ببيض غيرها ، وإياها عنى هدية بقوله :
كثارت كسة بيضها بالدرء وملبسة ببيض أخرى جناحا

انظر حياة الحيوان الكبرى للمصيرى ٢ : ٢٠٩ ، وجميع الأمثال .

(٢) رواه الميداني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هي المنز التي تشل
الحلب - أشلى دابته : أراها المخلاة لتأنيته ، وأشلاها : دعاها للحلب - فتجسّ لافظة بجرحها فرحاً بالحلب .
وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ماني بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمخارقه
فلا يأكلها ، ولكن يلقها إلى الدجاجة ، والهاء فيها المبالغة هائناً ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلفظ
ما تطحنه أى تقلّف ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالدرة ، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفكف أسمع من لافظة

(٣) الذر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لم (أى لأهل العراق)

كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعا كما تجمع في قريتها الذر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمعاوية

فأخرجوهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ - خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك - طمّح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاهُ طارق بن زياد على جيش جُلّه من البربر سنة ٩٢ هـ فعبّر بهم البحر ، وَتَمَيَّ خَبْرَهُ إلى لُذْرِيْقِ مَلِكِ الْقُوطِ ، فأقبل لمحاربتَه بِجَيْشٍ جَرَّارٍ ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لقلّتهم ، فأحرق السفن التي أفلّتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أبن المرق؟ المحرّ من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق^(١) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب^(٢) اللّثم ، وقد استقبلكم عدوكم بحبسه ، وأسلحته وأقواته مَوْفُورَةٌ ، وأنتم لَا وَزَرَ^(٣) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن أمتدّت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا السكّ أمراً ، ذهبت رِيحُكُمْ ، وتعوّضتِ القلوبُ من رُغْبِهَا مِنْكُمْ الجُرْأَةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خِذْلَانِ هذه العاقبة من أمركم ، بِمُتَاجَزَةٍ^(٤) هذا الطَّاغِيَةِ ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحَصِيصَةُ ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لَمْ تُسْكِنَ ، إن سمّحتُم لأنفسكم بالموت ، وإنّي لم أحذّرُكم أمراً أنا عنه بِنَجْوَةٍ^(٥) ،

= عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعوهُ إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يعطيه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بغير بن ورقاء الصريمي بأبر شهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بمعهده على خراسان ، ووعدّه ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجابهُ أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بغيراً وأقبل إلى مرو ، فاتبعه بغير فلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ . (١) أي الصدق في القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدقه القتال . (٢) جمع مأدبة بالفتح والضم : وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . (٣) لاملجاً . (٤) أي مبارزته . (٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

ولا حَمَلْتِكُمْ عَلَى خُطَاةٍ أَرْخَصُ مُتَاعٍ فِيهَا النُّفُوسُ ، أَرْبَابًا^(١) فِيهَا بِنَفْسِي ، وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا ، اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْفَةِ الْأَلَدِّ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي ، فِيمَا حَفَظْتُكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ مِنْ حَظِّي .

وَقَدْ بَاغَكُمْ مَا أَنْشَأْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مِنَ الْخُورِ^(٢) الْحَسَّانِ ، مِنْ بَنَاتِ الْيُونَانِ ، الرَّافِلَاتِ^(٣) فِي الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ ، وَالْحَمْلُ الْمَسْجُوعَةِ بِالْعَقِيَانِ^(٤) ، الْمَقْصُورَاتِ^(٥) فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ ، وَقَدْ انْتَجَبْتُمْ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ عَزَبَانَا^(٦) ، وَرَضِيَكُمْ لِلْمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ أَضْهَارًا^(٧) وَأَخْتَانًا^(٨) ، ثِقَةً مِنْهُ بَارْتِيَا حَكَمَ لِلطَّمَانِ ، وَإِسْمَا حَكَمَ^(٩) بِمَجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ وَالْفَرَسَانِ ، لِيَكُونَ حَفْظُهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَلِيَكُونَ مَغْنَمُهَا خَالِصًا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ، وَمِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ إِنجَادِكُمْ عَلَى مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارِينَ .

وَاعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مَجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتَكُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعَيْنِ ، حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاغِيَةِ الْقَوْمِ لِدَرْبِي ، فَقَاتِلْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَاحْمِلُوا مَعِيَ ، فَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ ، فَقَدْ كَفَيْتُمْ أَمْرَهُ ، وَإِنْ يُعْوِزْكُمْ بَطَلٌ عَاقِلٌ تُسْنِدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ وَصُولِي إِلَيْهِ ، فَاخْلُقُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ ، وَاحْمِلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، وَاصْبِرُوا الْمُهْمِّمَ مِنْ فَتْحِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِقَتْلِهِ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخَذَّلُونَ .

(نفح الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

(١) رَبًّا بِنَفْسِهِ : عَلَا بِهَا وَارْتَفَعَ ، أَيْ أَتَمَنَّى عَنْ مِشَارِكَتِكُمْ . (٢) جَمْعُ حُورَاءَ ، مِنَ الْخُورِ بِالتَّحْرِيكِ : وَهُوَ شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ وَبَيَاضُهَا . (٣) رَفَلَتْ : جَرَتْ ذَيْلُهَا وَتَبَخَّرَتْ ، أَوْ خَطَرَتْ بِيَدِهَا . (٤) الذَّهَبُ . (٥) الْمَخْدَرَاتُ : الْمَخْبُوءَاتُ (٦) جَمْعُ عَزِيبَ . وَالْعَزِيبُ وَالْعَزْبُ وَالْأَعَزْبُ : مِنَ الْإِزْجَةِ لَهُ . (٧) جَمْعُ صَهْرٍ : كَحَمَلٍ ، وَهُوَ زَوْجُ بِنْتِ الرَّجُلِ وَزَوْجُ أُخْتِهِ . (٨) جَمْعُ نَحْتِنٍ كَسَبَبٍ ، وَهُوَ الصَّهْرُ ، أَوْ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْمَرْأَةِ كَالْأَبِ وَالْإِخ . (٩) سَمِحَ وَاسْمَحَ : جَادَ وَكَرَمَ .

٣٠٣ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قتيبة هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
 لما بلغ طارقاً دُنُوَّ لَدْرِيقٍ ، قام في أصحابه ، حمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ،
 وَرَغَبَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي آمَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :
 « أَيُّهَا النَّاسُ : أَيْنَ الْمَقَرُّ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَاللَّهِ
 إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ ، فَإِنَّهُمَا لَا يُغْلِبَانِ ، وَهُمَا جَنْدَانِ مَنْصُورَانِ ، وَلَا تَفْزُرُ مَعَهُمَا قِلَّةٌ ،
 وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخَوَرِ وَالْكَسَلِ وَالْفَشَلِ وَالْإِخْتِلَافِ وَالْعُجْبِ كَثْرَةُ ، أَيُّهَا النَّاسُ :
 مَا فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فَأَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، إِنْ حَلَمْتُ فَأَحِلُّوا ، وَإِنْ وَقَفْتُ فَقِفُّوا ، ثُمَّ كُونُوا كَهَيْئَةِ
 رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي الْقِتَالِ ، أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى طَائِفَتِهِمْ ، بِحَيْثُ لَا أَنْهِيهِ حَتَّى أَخَالِطَهُ ،
 وَأُقْتَلَ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَهِنُوا ^(١) وَلَا تَحْزَنُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
 رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الدُّبُرَ أَعْدَاكُمْ ، فَيَبِيدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ . وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا
 بِاللَّذْنَةِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِيمَا يُجَلُّ لَكُمْ مِنَ السَّكْرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمِهْنَةِ
 وَالذَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنْكُمْ إِنْ تُفَلُّوا ^(٢) (وَاللَّهِ مَعَكُمْ وَمُعِيزُكُمْ)
 تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءِ الْحَدِيثِ غَدَاً بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَآنَذَا حَامِلٌ
 حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَأَحِلُّوا بِحِمْلَتِي . »
 (الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ - خطبة عثمان بن حيان المري بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب
 على المنبر ، فقال بعد حمد الله :
 « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غَشٍّ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ،

(١) فلا تضعفوا . (٢) إن تغلبوا وتهزموا .

وقد ضوى^(١) إليكم مَنْ يَزِيدُكُمْ خَبَالًا : أهلُ العراق ، هم أهل الشقاق والنفاق ، هم والله هُشُّ النفاق ، وَبَيَضَتِهُ التي تَفَلَّتْ عنه ، والله ما جَرَّبَتْ عِرَاقِيًّا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ ، الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بِشِيعَةٍ ، ولهم لَأَعْدَاءٌ لهم ولغيرهم ، واسكنَ لِمَا يريد الله من سَفَكِ دِمَائِهِمْ ، فَإِنِّي والله لَا أُوتِي بِأَحَدٍ آوَى أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْرَاهَ مَنَزِلًا ، أَوْ أَنْزِلَهُ ، إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، وَأَنْزَلْتُ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ^(٢) .

ثم إنَّ الْبُلْدَانَ لَمَّا مَصَّرَهَا عمر بن الخطاب ، وهو مجتهد على ما يصلح رعيته ، جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيرهُ : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْعِرَاقُ ؟ فيقول : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيَّ .

إِنِّي رَأَيْتُ الْعِرَاقَ ذَاءً عُضَالًا ، وَبِهَا فَرَّخَ الشَّيْطَانُ ، والله لَقَدْ أَعْضَلُوا بِي^(٣) ، وَإِنِّي لَأَرَانِي سَافِرًا فِي الْبُلْدَانِ ، ثُمَّ أَقُولُ : لَوْ فَرَّقْتَهُمْ لَأَفْسَدُوا مِنْ دَخَلُوا عَلَيْهِ بِجَدَلٍ وَحِجَاجٍ ، وَكَيْفَ ؟ وَلَمْ ؟ وَسِرْعَةٍ وَجِيفٍ^(٤) فِي الْفِتْنَةِ ، فَإِذَا خَبِرُوا عِنْدَ السُّيُوفِ ، لَمْ يُخْبِرْ مِنْهُمْ طَائِلٌ^(٥) ، لَمْ يَصْلُحُوا عَلَى عَمَانٍ ، فَلَتِي مِنْهُمْ الْأَمْرَيْنِ^(٦) ، وَكَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ فَتَقَ هَذَا الْفَتَقَ الْعَظِيمَ ، وَنَقَضُوا عُرَا الْإِسْلَامِ عُرُوءَ عُرُوءَةٍ ، وَأَنْفَلُوا^(٧) الْبُلْدَانَ ، وَاللهُ إِنِّي لَأَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا أَفْعَلُ بِهِمْ لَمَّا أَعْرِفُ مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، ثُمَّ وَلِيَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ معاوية ، فَدَاجَمَهُمْ^(٨) فَلَمْ يَصْلَحُوا عَلَيْهِ ، وَوَلِيَهُمْ رَجُلُ النَّاسِ^(٩) جَلْدًا ،

(١) ضوى كرمى : انضم ولجأ ، والخبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالمدينة أحدًا من أهل العراق ، تاجرًا ولا غير تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وعاقبهم ، ثم بحث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف . (٣) عضل به الأمر وأفضل : اشتد ، وأفضله أيضًا . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل . (٥) الطائل والطائلة والطول : الفضل والقدرة . (٦) الأمران : الفقر والحرم ، وهو كناية عن اشتداد الأمر . (٧) أفسدوا ، من نفل الأديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأنفله : أفسده . (٨) الداجمة مثل المداجاة وداجمه عليه : وافقه . (٩) يريد الحجاج بن يوسف .

فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَغَامُوا لَهُ ، أَحْبُّوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَّرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أيها الناس : إنا والله ما رأينا شِعَاراً قَطُّ مِثْلَ الْأَمْنِ ، وَلَا رَأْيَا حِلْساً^(١) قَطُّ شَرًّا مِنْ الْخَوْفِ ، فَالْزَمُوا الطَّاعَةَ ، فَإِنْ عِنْدِي يَأْهَلُ الْمَدِينَةِ خَبْرَةٌ مِنْ الْخِلَافِ ، وَاللَّهُ مَا أَنْتُمْ بِأَصْحَابِ قِتَالٍ ، فَكُونُوا مِنْ أَحْلَاسِ بِيوتِكُمْ ، وَعَصُوا عَلَى النَّوَاجِذِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ كَلَامٍ غَيْرُهُ الزَّمُّ لَكُمْ ، فَدَعَا عَمِيبَ الْوَلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئًا شَيْئًا حَتَّى تَكُونَ الْفِتْنَةُ ، وَإِنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْفِتْنُ تَذْهَبُ بِالْدِّينِ وَبِالْمَالِ وَالْوَلَدِ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٥ — وصية يزيد بن المهلب لابنه محمد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

وَلَمَّا وَلِيَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ خُرَاسَانَ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَتَحَ جُرْجَانَ^(٢) وَطَبْرِسْتَانَ^(٣) (سنة ٩٨) ، وَقَدْ أَوْصَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى جُرْجَانَ ، فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَاَنْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْبَيْنِ ، فَكُنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ .

فَرِشْ وَأَصْطَنِعْ عِنْدَ الدِّينِ بِهِمْ تَرْجِي^(٤)

وَاَنْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رِبِيعَةٍ ، فَإِنَّهُمْ شِيعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوْقَهُمْ ، وَاَنْظُرْ هَذَا

(١) الحِلْسُ : بَسَاطَةُ الْبَيْتِ ، وَكَسَاءُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ تَحْتَ رِجْلِهِ ، وَالْمُرَادُ : مَا رَأَيْنَا مُرَكَّبًا شَرًّا مِنْ الْخَوْفِ ، وَفَلَانٌ حَلَسَ مِنْ أَحْلَاسِ الْبَيْتِ : الَّذِي لَا يَبْرَحُ الْبَيْتَ . (٢) فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ بَحْرِ قَزْوِينَ . (٣) جَنُوبِي بَحْرِ قَزْوِينَ . (٤) رَاشَ السَّهْمِ يَرِيشُهُ : أَلْزَقَ عَلَيْهِ الرِّيشَ ، وَرَاشَ الصَّدِيقُ : أَطْعَمَهُ رِسْقًا وَكَسَاءً وَأَصْلَحَ حَالَهُ وَنَفَعَهُ ، وَأَصْطَنَعَ عِنْدَهُ صَنِيعَةً : اتَّخَذَهَا ، وَالْبَيْتَ لِأَبِي ذُوَادٍ الْإِيَادِي .

الحَيَّ من تميم ، فامطرهم^(١) ، ولا تَزِدْهُم^(٢) لهم ، ولا تُذْنِبْهُمْ فَيَطْمَعُوا ، ولا تُقْصِرْهُمْ
فَيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحَيَّ من قيس ، فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ، وَمُنَاصِفُوم
المنابر في الإسلام ، ورضام منك البِشْرُ .

يا بني : إن لأبيك صنائعَ فلا تُفْسِدْهَا ، فإنه كفى بالمرءَ نقصاً أن يَهْدِمَ ما بَنَى
أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بَقِيَّةَ معها ، وإياك وشمّ الأعراض ، فإن الحرَّ لا يُرْضِيهِ
عن عِرْضِهِ عَوْضٌ ، وإياك وضربَ الأَبْشَارِ ، فإنه عارٌ باقٍ ، وَوَثْرٌ مطلوبٌ ، واستعمل
على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزِلْ إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يَمْنَعُكَ من
اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ،
وليكن صَنِيعُكَ عند من يكافئك عنه ، احلِ الناس على أحسن أدبك يَكْفُوكَ أنفسهم ،
وإذا كتبتَ كتاباً فأكثرِ النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يَفْقَهُ عني
وعنك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سِرِّه ، وأستودعك الله ، فلا
بدَّ للودَّع أن يسكت ، وللمشيّع أن يرجع ، وما عَفَّ من المنطق ، وقلَّ من الخطيئة
أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سَلَكَ هذا المَسَلَكُ المحمود .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

(١) مطرئهم السماء : أصابهم بالمطر ، ومطرهم بخير : أصابهم وما مطر منه خيراً — وبخير .. :

أي ما أصابه منه خير .

(٢) الزهو : السكر والتيه ، زهى كفه ، وكدهما قليلة .

٣٠٦ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيهِ

وقال عمر بن هُبَيْرَة ^(١) يُوَدِّبُ بعض بنيهِ :

« لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ ، وَإِيَّاكَ وَالْهَوَى وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ ^(٢) ، وَتَجَنَّبْ ارْتِمَالَ
الْكَلَامِ ، وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبَدٍّ ، وَلَا عَلَى وَغْدٍ ، وَلَا عَلَى مَتَلَوْنٍ ، وَلَا عَلَى لَجُوجٍ ،
وَخَفِ اللَّهَ فِي مُوَافَقَةِ هَوَى الْمُسْتَشِيرِ ، فَإِنَّ التَّمَّاسَ مُوَافَقَتَهُ لُؤْمٌ ، وَسُوءُ الْإِسْتِمَاعِ
مِنْهُ خِيَانَةٌ » .

وقال : « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ » .

(البَيَانُ وَالتَّيْسِيُن ٢ : ٩٨)

(١) هو عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان عاملا على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولي العراق
(وأضيفت إليه خراسان) يزيد بن عبد الملك . (٢) كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير —
والعجين الفطير : ضد الحمير : أي الذي لم يختمر — « وكان عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج يقول :
نموذ بالله من الرأي الدبري — والدبري بالتحريك وتسكن الباء : الذي يعرض من بعد وقوع الشيء — ولا تقل
دبري بضمين فإنه من لحن المحدثين » .

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٧ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ أَنْ يَضَعَ فِيهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حُجَّتَهُ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوْتِيَ بِأَحَدٍ يَطْعُنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتُهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنْ اللَّهُ جَعَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلِّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِمْضَاؤُهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَقْدَمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيَقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِنْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، فَانْظُرُوا مَنْ تُنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ » .

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ

(١) وُلِدَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَكَّةَ سَنَةَ ٨٩ هـ ، وَوَلِيَ الْعِرَاقَ فِي عَهْدِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ غُصْرَانِيَّةً ، قَالُوا وَكَانَ يَتِيمٌ فِي دِينِهِ ، وَهُوَ مِنْ خُطْبَاءِ الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ بِالْمَشْهُورِينَ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ١٢٦ هـ .

لم نُقِرْ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَمَ الله وأُمنه مخاف للجماعة
زار^(١) عليهم .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

٣٠٨ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلوّه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفةُ الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم
تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربّه ، فسقاه مِائِحاً أجاباً ، واستسقاه
الخليفة فسقاه عَذْباً فَرَاتاً^(٢) » يعني بئرًا حفرها الوليد بن عبد الملك بالثَنِيَّتَيْنِ : ثَنِيَّةَ
طَوًى ، وثَنِيَّةَ الْحُجُونِ^(٣) ، فكان يُنْقَلُ ماؤها ، فيوضع في حَوْضٍ من أَدَمٍ إلى جنب
زمزم ، ليعرف فضله على زمزم »

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح للعيون ص ٢٠٥ والأغاني ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ - خطبته بمكة في الحجاج

وَصَعِدَ خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج - فحمد طاعته ،
وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره
فيه بِشَمِّ الحجاج وتَنْثِيرِ عيوبه ، وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كان مَدَسَكاً من الملائكة ، وكان يُظْهِرُ من طاعة الله ما كانت
الملائكة تَرى له به فَضْلاً ، وكان الله قد عَلِمَ من غِشِّه وَخُبْنِهِ ما خَفِيَ على ملائِكَته ،

(١) زرى عليه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والفرات : الماء العذب جدا .

(٣) ذو طوى مثلث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفي شرح

العيون أنه قال : « قد جئتمكم بماء العاذية ، لاتشبه ماء أم الحنافس » يعني زمزم .

فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدَمَ ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلعنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين ، فلعنه ، فلعنوه لعنه الله » ثم نزل .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣١٠ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس ، نافسوا في المكارم ، وسارعوا إلى المقام ، واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل دما ، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسن لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملأوا النعم فتحوّلوها نقما . واعلموا أن أفضل المال ما أكتسب أجرا ، وأورث ذكرا ، ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حسنا جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتغضى عنه الأبصار .

أيها الناس ، إن أجود الناس من أعطى من لا يرّجوه ، وأعظم الناس عفوا من عفا عن قدره ، وأوصل الناس من وصل من قطعته ، ومن لم يطب حرثه ، لم يرك^(١) نبتة ، والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وإيكم . » (صبح الأمتى ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، ومرج العيون ص ٢٠٥)

٣١١ - خطبة له يوم عيد

حصب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كُنتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَظُنُّ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ ارْتَأَيْتَ أَنْ تَخْلُقَ الْخَلْقَ ، فإِذَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِكَ ؟ وَالْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، مِنْ صُنُوفِ أَفْوَاجِهِ ^(١) ، وَأَفْرَادِهِ وَأَزْوَاجِهِ ، كَيْفَ أَدَجَّجْتَ ^(٢) قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْبَعُوضَةِ ، إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، مِنَ الْأَشْبَاحِ ، الَّتِي امْتَزَجَتْ بِالْأَرْوَاحِ . »

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦)

٣١٢ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تسكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدوبة لفظه ، وبلاغة منطقته ، فبينما هو يخاطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :

« سُبْحَانَ مَنْ الْجَرَادَةُ مِنْ خَلْقِهِ ، أَدْمِجَ قَوَائِمَهَا ، وَطَوَّعَهَا جَنَاحَهَا ، وَوَوَّشَى ^(٣) جِلْدَهَا ، وَسَلَّطَهَا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا . »

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والمقد الفرید ٢ : ١٦٣)

٣١٣ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي ^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عباد الله ، فسكن من مؤمل أملأ لا يَبْلُغُهُ ، وجامع مالا لا يأكله ، ومانع عما سوف يتركه ، ولعله من باطل جمعه ، ومن حق منعه ، أصابه حراماً ، وأورثه

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الحبل : أحكم قتله في رقة .

(٣) نقش ونغم وزين . (٤) هو ابن ابن عم الحجاج ، وولاه هشام بن عبد الملك اليميني سنة ١٠٦ هـ

م ولله العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

عَدُوًّا ، فاحتمل إضره^(١) ، وباء بوزره ، وورد على ربه آسفًا لاهفًا ، قد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ - خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد المنبر فقال :

« يا أهل المدرة الخبيثة : إني والله ما تفرّن بي الصعبة ، ولا يجمع لي بالشنان ، ولا أخوف بالذئب ، هيهات ! حُبِيتُ بالساعد الأشد .

أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان ، لا أعطاء لكم عندنا ولا رزق ، ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم ، وأحرمكم أموالكم ، أما والله ما علوت منبري إلا أسمعكم ما تكرهون عليه ، فإنكم أهل بنى وخلاف ، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله إلا حَكِمَ بن شريك المحاربي ، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم .

(تاريخ الطبري ٨ : ٢٧٨)

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعِهِ ، وَوَثَبُوا على من كان بالمدينة من بنى أمية وحصروهم وأخافوهم ، وَجَّهَ إليهم يزيدُ جيشًا من أهل الشام بقيادة مُسْلِمِ بن عُقْبَةَ الرَّسْمِيِّ ، وَنَمَى إليهم خبرُ مَقْدَمِهِ عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعونني على الموت ، وَإِلَّا فلا حاجةَ في بيعتكم فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غَضَبًا لدينكم ، فَأَبِلُوا إلى الله بلاءً حسنًا ، ليُؤْجِبَ لَكُمْ به الجنةَ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَيَجِلَّ بِكُمْ رِضْوَانُهُ ، واستعدُّوا بأحسنِ عُدَّتِكُمْ ، وتأهبُّوا بأكلِ أَهْبَقِكُمْ ، فقد أُخْبِرْتُ بأن القوم نزلوا بِذِي خُشْبٍ ^(١) ومعهم مروان بن الحكم ، واللهُ إن شاء مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عند منبرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) » .

(١) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية من المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن لقوا جيش يزيد ليردوهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فقصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ،
فصدّقهم اللّقاء ، والله ما صدّق قوم قطّ إلا نصّروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
« اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألبأنا ظهورنا » ثم نزل .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة
وسراجمة الحق ، وأجلّهم ثلاثاً فلم يذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت
خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقتل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم
الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهذا القتالُ قتال قوم يريدون أن يذفعوا به عن دينهم ؟ وأن
يعزّوا به نصر إمامهم ؟ قبيح الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجعته لقلبي ، وأغيطه لنفسى !
أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا القطاء ، وأن تجمروا في أقاصى الثغور ، شدّوا مع
هذه الراية ، ترخّ^(٢) الله وجوهكم إن لم تعتّبوا^(٣) » . (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه ، وأخذ مسلم
يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترخا كفرح فرحا : حزن ،

وترحه تترجحا : أحزنه . (٣) أعتبه : أعطاه العتبي (كقربي) وهي الرضا ، أي إن لم ترضوني
بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، ولا أوسعها بلدًا ، ولم يَخْصُصْكُمْ اللهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ النِّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيَّرُوا ، فَغَيَّرَ اللهُ بِهِمْ ، فَعَمُوا^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمَ اللهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُنِيلُكُمْ مِنَ النِّصْرِ وَالْفُلُجِ^(٢) .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٨ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم ، فقال :
« يا هؤلاء : إن عدوكم قد أصابوا وَجَهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَّا لَكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْمُهْجَةِ ! وَاللّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ مِيتَةٌ هُوَ مِيتٌ بِهَا ، وَاللّهِ مَا مَنَ مِيتَةٌ بِأَفْضَلَ مِنْ مِيتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللهُ إِلَيْكُمْ ، فَاغْتَنِمُوهَا ، فَوَاللّهِ مَا كَلِمَا أُرْدَتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا » .

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقَتِلَ ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم المدينة^(٣)
وكانت وقعة الحرّة في ذى الحجة سنة ٦٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

(١) تم على الأمر وتمم عليه كضرب : أى استمر عليه . (٢) الفلج : الظفر والنصر .

(٣) انظر ص ١٩٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة ، انسيبوني ، فوالله ما مُهاجرُ أبي إلا إليكم ، وما مولدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوانُ مُقاتلتكم إلا سبعين ألف مُقاتل ، ولقد أحصى اليومَ ديوانُ مُقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوانُ عمالكم إلا تسعين ألفاً ، واقد أحصى اليومَ مائةً وأربعين ألفاً^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظنة^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سجنكم هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد توفّي وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناس عدداً ، وأعرضه فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسعهُ بلاداً ، فاخhtarوا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجاهد عدوكم ، وَيُنْصِفُ مظلومكم من ظالمكم ، وَيَكْفُ سُفْهائكم ، وَيَجِي لَكُمْ فَيْتَكُمْ ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ مَنْ رَضِيقَمُوه وتابِع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كفتُم على جدِبلتكم^(٣) »

(١) وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليكم أبي ومماقاتلكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثره جنوداً وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . (٢) الظنة : الهمة . (٣) الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

حتى تُعْطَوْا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجةً ، وما يستغنى الناس عنكم .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مقالتك أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلمْ فَلَنُبَايِعْكَ ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكتفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون : ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَا نُؤَلِّيهِ أَمْرَنَا فِي الْفُرْقَةِ ! وأقام عبيد الله أميراً غير كثير ، حتى جعل سلطانه يَضْعُفُ ، ويأمر بالأمر فلا يُقْضَى ، وَيَرَى الرَّأْيَ فَيُرَدُّ عَلَيْهِ ، ويأمر بحبس الخطيئ فيَحَال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٢٠ - خطبة أخرى له

وبلغه أن سَلَمَةَ بن ذُوَيْب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فَنُودِيَ : الصلاة جامعةً ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقُصُّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى من يرتضونه ، فيبايعه معهم ، وقال : « وإنكم أبئتم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسختم أكتفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يُنْفَذُ ، وَيُرَدُّ حَتَّى رَأَيْتُ ، وَتَحْوُلُ الْقَبَائِلُ بَيْنَ أَعْوَانِي وَطَلِبَتِي ^(١) » ، ثم هذا سَلَمَةُ بن ذُوَيْب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادة أن يُفَرِّقَ جماعتكم ، ويضرب بعضكم جبهة بعض بالسيف .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً نحن نأتيك بِسَلَمَةَ ، فأتوه فإذا جمعه قد كشف وإذا الفتى قد اتسع على الرائق ، وامتنع عليهم ، ففقدوا عن ابن زياد فلم يأتوه .

(١) طلبتك : ماطلته .

وروى أنه قال في خطبته : « يَـأْهْلُ البَصْرَةِ ، وَاللّٰهُ لَقَدْ لَبِسْنَا الْخُلُقَ وَتُيْمَنَةً ^(١) وَاللَّيْزَ مِنْ الثِّيَابِ ، حَتَّى لَقَدْ أَجَنَّا ^(٢) ذَلِكَ ، وَأَجَحَّتْهُ جُلُودُنَا ، فَمَا بَنَا إِلَى أَنْ نُعْقِرَ الْخَدِيدَ ؟ يَـأْهْلُ البَصْرَةِ ، وَاللّٰهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى ذَنْبٍ غَيْرِ لِيَكْسِرُوهُ مَا كَسَرْتُمُوهُ » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣٢١ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد - وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حُرَيْث - بعث وَاْفِدَيْنِ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى الْكُوفَةِ : عَمْرُو بْنُ مِسْمَعٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الْقُرْهَاءِ ^(٣) التَّمِيمِيُّ ، لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْكُوفَةِ مَا صَنَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، وَيَسْأَلَانِهِمُ الْبَيْعَةَ لِابْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ ، فَجَمَعَ النَّاسَ عَمْرُو بْنُ حَرِيثٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانَكُمْ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهُ بِهِ كَلَّتْكُمْ ، وَيُصْلِحَ بِهِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا بِرُشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣٢٢ - خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مِسْمَعٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتِمَاعَ رَأْيِهِمْ عَلَى تَأْمِيرِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَرَى النَّاسُ رَأْيَهُمْ ، فِيمَنْ يُولُونَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

« قَدْ جِئْنَاكُمْ لِنَجْمَعَ أَمْرَنَا وَأَمْرَكُمْ ، فَيَكُونَ أَمِيرُنَا وَأَمِيرَكُمْ وَاحِدًا ، فَإِنَّمَا الْكُوفَةُ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَالْبَصْرَةُ مِنَ الْكُوفَةِ » .

(١) التيمنة : برد يبنى . (٢) أجحه : أراحه ، وأصله من أجح الفرس : ركبته فلم يركبه ففجحه من تعبته ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرهاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

وقام ابن القرحاء ، فتكلم نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني فحَصَّصَهما أولَ الناس ، ثم حصَّصَهما الناس بعدُ ، ثم قال : أنحن نبائع لابن مَرْجَانَةَ ؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يخلعونهُ ، وأنتم تُؤَلُّونهُ وتبايعونه ؟ فَوَثَّبَ به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خِفَارَةٍ رجال من الأزدي وبكر بن وائل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣٣٣ — خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابنُ زياد مسعودَ بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجالاً ترضاهم جماعة ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرحوا ، وطردوه عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دمائنا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بيئة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بيعة ، فإننا نحلف بالله ما قَتَلْنَا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن نَدِي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فأتاهم الأحنف ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزدي : أنتم جِئْتُمُنَا في الدار ، وإِخْوَتُنَا عند القتال ، وقد أتيناكم

في رحالكم ، لإطفاء حَشِدِشَتِكُمْ^(١) ، وَسَلَّ سَخِيمَتِكُمْ^(٢) ، وَلِكُمْ الْحُكْمُ مُرْسَلًا^(٣) ،
فَقُولُوا ، عَلَى أَحْلَامِنَا وَأَمْوَالِنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُنَا^(٤) ذَهَابُ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِنَا كَانَ فِيهِ
صَلَاحٌ بَيْنُنَا » ، فَقَالُوا : أَتَدُونُ صَاحِبِنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قَالَ : هِيَ لَكُمْ ، فَانصَرَفَ النَّاسُ
وَاصْطَلَحُوا^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربّه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وها هي ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ وَرَبِيعَةَ ، أَنْتُمْ إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ
وَشُرَكَائُنَا فِي الصَّهْرِ ، وَأَشِقَاقُنَا فِي النَّسَبِ ، وَجِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَبِدُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ،
وَاللّٰهُ لَا زُدَّ الْبَصْرَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَلَا زُدَّ الْكُوفَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ
الشَّامِ ، فَإِنْ اسْتَشَرَفَ شَفَانُكُمْ^(٦) ، وَأَبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، فِي أَمْوَالِنَا ، وَسَعَةِ
أَحْلَامِنَا ، لَنَا وَلَكُمْ سَعَةٌ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقدّم الفريد ٢ : ١٥٧)

(١) أى نارككم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب
اللسان بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة السكّال) . (٢) للسخيمة : الحقد .
(٣) أى مطلقا كما تشاءون . (٤) تعاظمه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على
أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصل بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا
ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بية - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم
عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكث شهرًا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة
المعروف بالقياس ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر
ابن مسعود القرشى ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبل ابن الزبير . كما تقدم .
(٦) استشرّف : انتصب ، أى زاد واستحكم ، والشنان : البغض والكرهية .

٣٢٤ - خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة^(١)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُمَيْر - وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المرى ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرّة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت بمسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحصين بن نمير - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان بن مالك ابن بحدل الكلبي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو الأردن فوثب نائل بن قيس الجذامى على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبرى ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغاني ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشرف الشام ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز لا نرضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأثرو عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعلها ، فقال له روح بن زنباع : إن معي أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومم أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فينظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده

لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بلبل ! فبايعوا مروان بن الحكم اه. ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن قتيبة في سرح العميون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتمهذ قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس =

بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهَيَّجَهَا ، صَعِدَ رَوْحُ بْنُ زَيْنَبٍ الْجَدَائِجِي عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان في ذلك الجيش - فقال :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَا هَذَا الْإِعْيَادُ ^(٢) الَّذِي تُوْعِدُونَنَا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْبٍ » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْنِ » ^(٣) ولا إلى رجل من « أَنْخَمِ » أو « جَذَامِ » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الْحَيِّ من قريش - يعني بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإِذَا نَا تُوْعِدُون ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَا بُنَاءَ الطَّعْنِ وَالطَّاعُونَ ، وَفَضْلَاتُ الْمَوْتِ وَالْمُنُونِ ، فَاشْتَمِ ^(٤) ، ومضى القوم إلى الشام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

= فأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجب والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررَتِ قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال وزير السفاح . (١) يصيحون .

(٢) يقال : وعده خيراً وبه ، ووعده شراً وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعْدَهَا لَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أوعد ، وقالوا أوعده خيراً وشراً بالآلف أيضاً ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . (٣) أصله بنو القين كما قالوا : بلحارث في بنى الحارث ، وبلعنبر في بنى العنبر . قال المبرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يميزون معه حذف النون التي في قولك (بنو) لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجم » أى بنى الهجم كزبير . (٤) وروى الجاحظ أن روحاً خطب هذه الخطبة يدهو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتكم وأطعتم من المعونة والفائدة ماشتم » .

٣٣٥ — خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع رأى على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زِنْبَاع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَّمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَأَبْنُ الزبير : حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفته : يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحب أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كان مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجمل ، ولما نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشَبُّوا ^(٣) الصغير — يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية — . »

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن

(تاريخ الطبرى ٧ : ٣٨٠)

سعيد بن العاص من بعد خالد .

(١) يصلح . (٢) يوم تسور الثوار عليه داره وقتلوه . (٣) يقتظروه حتى يشب .

٣٣٦ - خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلِيَ الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القبعثرى الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد وَلَّى عليكم من لا يَقْبَلُ من مُحْسِنِكُمْ ، ولا يتجاوز عن مُسِيئِكُمْ ، الظَّالِمَ الْعَشُومَ ^(١) الْحَجَّاجَ ، أَلَا وَإِنْ لَكُمْ مِنْ عبد الملك منزلةٌ ، بما كان منكم من خِذْلَانِ مُصْصَبٍ ^(٢) وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يُعَدُّ مِنْكُمْ خَلْعًا ، فَإِنَّهُ مَتَى يَعْلُ عَلَى مَتْنٍ مِنْكُمْ ، وَصَدْرَ سَرِيرِكُمْ ، وَقَاعَةَ قَصْرِكُمْ ، ثُمَّ قَتَلْتُمُوهُ عُدَّ خَلْعًا ، فَأُطِيعُونِي وَتَعَدَّوْا بِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَثَّى بِكُمْ » .

فقال له أهل الكوفة : « جَبَنْتَ يَا غَضَبَانُ » ، بل ننتظر سيرته ، فَإِنْ رَأَيْنَا مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهٍ » قال : ستملحون ، فلما قَدِمَ الحجاج الكوفة بلبغته مقاتلته ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرّمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبده الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقتلته ، فاهو إلا أن التفتوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقي مصعب في شرذمة قليلة ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان - وكان مع مصعب - فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم يا أهل العراق ! فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبلده مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجداً ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من فتاك العرب - ما زدت على شيء قط فدى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيت برأس مصعب فخر ساجداً ، أن لا أكون ضربت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

٣٢٧ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مطرف بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم ، وأمرني بالحكم
بالحق ، والعدل في السيرة ، فإن عملتُ بما أمرني به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل
فنفسي أوبقتُ ، وحظ نفسي ضيقتُ ، ألا إني جالس لكم العصرين فارفعوا إليّ
حوائجكم ، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم ، فإنني لن آلوكم خيرا ما استطعت »
ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفي سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن
مروان - وكان الحجاج قد استعمله على المدائن - وجمع إليه رموس أصحابه فذكر الله
بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :

« أما بعد - فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل
علينا (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإنني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ،
فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني ، فإن له الأسوة وحسن الصعبة ،
ومن أبى فليذهب حيث شاء ، فإنني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد
أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا
كان هذا الأمر شوري بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .

٣٣٩ — خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجزل بن سعيد في طلب الخوارج الشيبية وأقبل حتى انتهى إلى النهر وان
فأدركوه فلزم عسكره وخندق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكر أهل الكوفة
أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتكم عليكم أميركم ، أنتم في طلب
هذه الأعراب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم
حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايدونها ، إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم
ونزلوا بلداً سوى بلدكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج الناس معه .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهَّز الحجاج عشرين ألفَ رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألفَ رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتْبِيل ملك التُّرك^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها وخطبَهم فقال :

٣٣٠ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني تُفَرِّكم ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم ، وأباد خيَّاركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيُحِلَّ بنفسه العُقُوبَةَ ، اخرجوا إلى مُقَسِّركم فمُسِّكروا به مع الناس » . (تاريخ الطبري ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُتْبِيل أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من الغنائم والأسلاب ، حبَسَ الناس عن الوُغُول في أرضه ، وقال : نسكتُ بما أصدناه العام من بلادهم ، حتى نَجْبيها ونعرفها ويحتريُّ المسلمون على طرقها ، ثم نقاطي في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل

(١) انظر ص ٢٩٣ .

ننتقمهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب
إلى الحجاج بذلك . فورد عليه كتاب الحجاج بضم رأيه ، ويأمره بالوغول في أرضهم ،
ويهدده بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم محب ، ولكم - في كل ما يحيط بكم
نفعه - ناظر ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي ، استشرت فيه ذوي
أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً . ورأوه لكم في العاجل
والآجل صلاحاً ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني
ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها
بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا مضيت ، وآبى إذا أبيتم . »

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٣٢ - خطبة عامر بن واثلة الكنانى

فقام عامر بن واثلة الكنانى - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً -

فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وأهله ما يرى بكم إلا مارأى القاتل الأول ، إذ قال لأخيه :

« احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك . » إن الحجاج والله ما يبالي

أن يحاطر بكم ، فيقتحمكم بلاداً كثيرة اللهب^(١) والاصوب^(٢) ، فإن ظفرت فغنمتم

(١) اللهب جمع لب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب

الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . (٢) جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير

في الجبل أصيق من الذهب وأوسع من الشعب .

أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإن ظفرِ عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ، ولا يبقى عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإنني أشهدكم أني أول خالع .

فنادى الناس من كل جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٣٣ — خطبة عبد المؤمن بن شبيب بن ربيع

وقام عبد المؤمن بن شبيب بن ربيع النميمي ثانياً ، فقال :

« عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجعركم تجمير فرعون الجنود ، فإنه بلغني أنه أول من جرّ البعوث ، ولن تعانينوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه . (تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٣٤ — خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال : « أيها الناس : إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة^(٢) تضرب به عيمقاً وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت^(٣) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

(١) موضع بالبصرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .

(٣) قال الجاحظ : فر به رجل من بني قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحراس

ويعدهم الأضاليل ، ويمتهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو المحسن دون القشيري .

٣٣٥ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجحاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
النفور والمسالح^(١) بدير الجحاجم والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج ، جتمعهم عليه بغضهم وكرهيتهم له — وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ
المطاء ، ومعهم مثلهم من مواليتهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن
سروان ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم ،
وأن يجرى عليهم أعطيتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد
من العراق شاء ، يكون عليه والياً مادام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضاً ذلك على
أهل العراق ، فقالوا : نرجع المشيئة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس
قوم ، ولا فارس إلا أناه .

فحمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتكم أسراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصة ، ولا آمن أن يكون
على ذى الرأي غداً حسرة ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية ،
فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاء أفوياء ، والقوم
لسكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لا زلت عليهم أجرئاء ، ولا زلت عندهم
أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم . »

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهللكم ، فأصبحوا في الأزل^(٢)
والضنك والحجاة والقلة والدلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة
لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥)

(١) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر . (٢) الضيق والشدة .

٣٣٦ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(١) ممن خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأشرى الجاهم ، أتى فيهم بالشعبي موثقاً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أشرى الجاهم أن يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيحلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي ! لما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم يوم شفاعة . قلت له : فما الخرج ؟ قال : بؤ^(٢) للأمر بالشرك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ أشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٣) » ، وأجذب بنا الجناب ، وأسحسنا^(٤) الخوف ، واكتحلنا السمهر . وضح المسلك ، وخبطينا فتنة لم نكن فيها بررة أتقاء ، ولا فجرة أفواياء » قال : صدقت والله ما برزتم بخروجكم علينا ولا قويم ، خلوا سبيل الشيخ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، واللعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢) .

٣٣٧ - أيوب بن القريّة والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القريّة^(٥) رسولاً إلى ابن الأشعث ، حين خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له ، اتقوا من خطيباً ، ولتخلعن عبد الملك ،

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان)

وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولا .

(٢) ارجع . (٣) نبأ منزله به : لم يوافقه . (٤) أي لم يفارقنا .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقريّة جدته ، وكان أعرابياً أمياً معدوداً من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

وَلَتَسْبِيْنُ الْحِجَابِ ، أَوْ لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ! قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَشَتَمَ الْحِجَابَ ، وَأَقَامَ هُنَالِكَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ابْنُ الْأَشْعَثِ مَهْزُومًا ، كَتَبَ الْحِجَابُ إِلَى عُمَّالِهِ بِالرَّيِّ وَأُضْبَهَانِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَأْمُرُهُمْ أَلَّا يَمْرُقَ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا بَعَثُوا بِهِ أَسِيرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقُرَيْبَةِ فِيمَنْ أَخَذَ .

فَلَمَّا أَدْخَلَ عَلَى الْحِجَابِ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّ وَبَاطِلٍ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْحِجَابِ ، قَالَ : أَسْرَعَ النَّاسَ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَعْجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ : أَطْوَعُ النَّاسَ لِحُلَفَائِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : عَبِيدٌ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِيطٌ ^(١) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُثْمَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ : أَشْجَعُ فُرْسَانَ ، وَأَقْتَلُ لِلْأَقْرَانِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَيْنِ ، قَالَ : أَهْلُ سَمْعٍ وَطَاعَةٍ ، وَلِزُومٍ لِلْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبِيَامَةِ ، قَالَ : أَهْلُ جَفَاءٍ ، وَاخْتِلَافٍ أَهْوَاءٍ ، وَأَصْبِرُ عِنْدَ الْلِقَاءِ ، قَالَ : فَأَهْلُ فَارِسَ ، قَالَ : أَهْلُ بَاسٍ شَدِيدٍ ، وَشَرٍّ عَتِيدٍ ، وَرِيفٍ ^(٢) كَبِيرٍ ، وَقَرِيٍّ يَسِيرٍ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ الْعَرَبِ ، قَالَ : سَنَانِي ، قَالَ : قَرِيْشٌ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَخْلَاقًا ، وَأَكْرَمُهَا مَقَامًا ، قَالَ : فَبَنُو عَاصِرٍ بَنِ صَعْصَعَةَ ، قَالَ : أَطْوَلُهَا رِمَاحًا ، وَأَكْرَمُهَا صَبَاحًا ، قَالَ : فَبَنُو سُلَيْمٍ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا مَجَالِسَ ، وَأَكْرَمُهَا مَحَابِسَ ^(٣) ، قَالَ : فَتَقِيفٌ ، قَالَ : أَكْرَمُهَا جُدُودًا ، وَأَكْثَرُهَا وَفُودًا ، قَالَ : فَبَنُو زُبَيْدٍ ، قَالَ : أَلْزَمُهَا لِلرَّايَاتِ ، وَأَدْرَكُهَا لِلنِّتْرِاتِ ^(٤) ، قَالَ : فَفَضَاعَةٌ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَخْطَارًا ، وَأَكْرَمُهَا نِجَارًا ^(٥) ، وَأَبْغَدُهَا آثَارًا ، قَالَ : فَلَا نِصَارَ ، قَالَ : أَثْبَتُهَا مَقَامًا ، وَأَحْسَنُهَا إِسْلَامًا ، وَأَكْرَمُهَا أَتِيَامًا ، قَالَ : فَتَمِيمٌ ، قَالَ : أَظْهَرُهَا جَلَدًا ، وَأَثْرَاهَا عَدَدًا ،

(١) النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق . (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصب .

(٣) المحابيس : جمع محبس كقعد ، وهو الشجاعة . (٤) النترات جمع نرة : وهي النار .

(٥) النجار : الأصل .

قال : قَبْكَر بن وائل ، قال : أثبتُّها صفوفا ، وأحدِّثها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال :
 أَسْبِقُهَا إِلَى الْغَايَاتِ ، وَأَصْبِرُهَا تَحْتَ الرَّايَاتِ ، قال : فَبَنُوا أَسَدَ ، قال : أَهْلَ عَدَدٍ وَجَلَدَ ،
 وَعُسْرٍ وَنَكَدَ ، قال : فَلَخَّمْ ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوكٌ^(١) ، قال : فَجُذَامَ ، قال :
 يُوقِدُونَ الْحَرْبَ وَيَسْعَرُونَهَا^(٢) ، وَيُلْقِحُونَهَا ثُمَّ يَمْرُونَهَا^(٣) ، قال : فَبَنُوا الْحَارِثَ قال :
 رُعَاةٌ لِقَدِيمٍ ، وَمُحَاةٌ عَنِ الْحَرِيمِ ، قال : فَعَلَتْ ، قال : لُيُوثٌ جَاهِدَةٌ ، فِي قُلُوبٍ فَاسِدَةٍ ،
 قال : فَتَغْلِبُ ، قال : يَصْدُقُونَ - إِذَا لَقُوا - ضَرْبًا ، وَيَسْعَرُونَ لِلْأَعْدَاءِ حَرْبًا ، قال :
 فَفَسَّانَ ، قال : أَكْرَمُ الْعَرَبِ أَحْسَابًا ، وَأَثْبَتُهَا أَنْسَابًا ، قال : فَأَيُّ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
 كَانَتْ أَمْنَعُ مِنْ أَنْ تُضَاكَمَ ؟ قال قريش ، كانوا أَهْلَ رَهْوَةٍ^(٤) لَا يُسْتَطَاعُ ارْتِقَاؤُهَا ،
 وَهَضْبَةٌ لَا يَرَامُ انْتِزَاؤُهَا^(٥) ، فِي بَلَدَةٍ حَتَّى اللَّهُ ذِمَارُهَا ، وَمَنْعٌ جَارُهَا ، قال : فَأَخْبَرَنِي عَنْ
 مَآثِرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قال : كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ : حَيْثُ أَرْبَابُ الْمَلِكِ ، وَكَفَنَدَةُ بُبَابِ
 الْمُلُوكِ ، وَمَذْحِجُ أَهْلِ الطَّعْمَانِ ، وَهَمْدَانُ أَحْلَاسٍ^(٦) الْخَلِيلِ ، وَالْأَزْدُ آسَادُ النَّاسِ ، قال :
 فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْأَرْضَيْنِ ، قال : سَلْنَى ، قال : الْهِنْدُ ، قال : بَحْرُهَا دُرٌّ ، وَجِبِلُّهَا يَاقُوتٌ ،
 وَشَجَرُهَا عُودٌ ، وَوَرَقُهَا عِطْرٌ ، وَأَهْلُهَا طَخَامٌ ، كَقَطِيعِ الْحِمَامِ^(٧) ، قال : فَخُرَّاسَانُ ، قال :
 مَاؤُهَا جَامِدٌ ، وَعَدْوُهَا جَاحِدٌ ، قال : فَعَمَّانُ ، قال : حَرَّتُهَا شَدِيدٌ ، وَصِيدُهَا عَتِيدٌ ، قال :
 فَالْبَحْرَيْنِ ، قال : كُنْكَاسَةُ بَيْنِ الْمِصْرَيْنِ ، قال : فَالْيَمَنِ ، قال : أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَأَهْلُ
 الْبُيُوتَاتِ وَالْحَسَبِ ، قال : فَسَكَّةٌ ، قال : رَجَالُهَا عِلْمَاءُ جُفَاءَةٌ ، وَنِسَاؤُهَا كِسَاءُ عُرَاةٍ ،
 قال : فَالْمَدِينَةُ ، قال : رَسَخَ الْعِلْمُ فِيهَا ، وَظَهَرَ مِنْهَا ، قال : فَالْبَصْرَةُ ، قال : شَتَاؤُهَا جَلِيدٌ ،

(١) الزنوك بالضم والفتح : الحق . (٢) سر الحرب كنعن ، وأسعرها : أوقدها .

(٣) مري الناقة كرمي : مسح ضرعها لتدر . (٤) الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض

أيضا ، ضد) . (٥) أي اعتلاؤها نزا نزوا ونزوانا : وثب ، وانتزى : افتمل من النزوء ، وفي حديث

وائيل بن حجر : « إن هذا انتزى على أرضي فأخذها » . (٦) كناية عن إدامتهم ركوبها .

(٧) الطغام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقطع بالكسر : اسم مقاطع من الشيء ، ويقال : ثوب

قطع وأقطع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع .

وحرها شديد ، وماؤها مِلْح ، وحر بها صَلْح ، قال : قال الكوفة ، قال : ارتفعت عن حَرِّ البحر ، وَسَقَلَتْ عن بَرْدِ الشَّام ، فطاب ليلها ، وكثُر خيرها ، قال : فواسط ، قال : جَنَّة ، بين حَمَاءَ وَكَنَّة ، قال : وما حَمَاتِهَا وَكَنَّتِهَا^(١) ؟ قال : البصرة والكوفة يَحْسُدَانِهَا ، وما ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةُ وَالزَّاب^(٢) يتجار يان بإفَاضَةِ الخير عليها ، قال : فالشَّام ، قال : عَرُوس ، بين نَسْوَةٍ جُلُوس ، قال : تَكَلَّمَكَ أُمُّكَ يَا بَنَ الْقَرِيَّةِ ، لولا اتِّبَاعُكَ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ ! وقد كنتَ أَنُهَاكَ عَنْهُمْ أَنْ تَتَّبِعَهُمْ ، فَتَأْخُذَ مِنْ نِفَاقِهِمْ ، ثُمَّ دَعَا بِالسَّيْفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى السَّيْفِ أَنْ أُمْسِكِ ، فَقَالَ ابْنُ الْقَرِيَّةِ : ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ كَأَنَّهُنَّ رَكْبٌ وَقُوفٌ ، يَكُنْ مَثَلًا بَعْدِي ، قَالَ : هَاتِ ، قَالَ : لِكُلِّ جَوَادٍ كِبَوَةٌ ، وَلِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَةٌ ، وَلِكُلِّ حَلِيمٍ هَفْوَةٌ ، قَالَ الْحِجَاجُ : لَيْسَ هَذَا وَقْتُ الْمَزَاحِ ، يَا غَلَامُ أَوْجِبْ جَرَحَهُ ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ .

وقيل لأنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقتِ العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجْبُ ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنِّ عِنْدَ الْبَلَاءِ^(٣) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البني ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الْفَتْرَةُ ، قال : فما آفة الذَّهْنِ ؟ قال : حديث النفس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : الْعُدْمُ ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لَا آفَةَ لِمَنْ كَرَّمَ حَسْبُهُ ، وَطَابَ نَسَبُهُ ، وَزَكَافَرَعُهُ ، قال : امْثَلَتْ شِقَاقًا ، وَأُظْهِرْتَ فِتْنًا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلاً ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

(١) السكة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران يصبان في دجلة .

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القرية ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : أخرج مما قلت ، قال : « أفعلُ ، أما الدنيا فإلّ حاضر ، يأكل منه البرّ والفاجر ، وأما الآخرة فميزانٌ عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان هلّ اعترفتُ وإن كان لى اغترفتُ ^(١) » قال : أما لى فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقننى عترتى وأسفنى ربقى ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ^(٢) ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقباذ : تَعْدُوا الْجَدَى قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَا كَمْ ؟ قال : فَأَرْخِنِي فَإِنِّي أَجِدُ حَرَهَا ، قال : قَدَّمَهُ يَا حَرَسِي فَأَضْرَبْ عَنْقَهُ ، فلما نظر إليه يتشحط ^(٣) فى دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه اثم أمر به فأخرج فرمى به ^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٣٧)

٣٣٨ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فالعاقلُ : الدّينُ شريعته والحلمُ طبيعته ، والرأى الحسنُ سجيّته ، إن سُئِلَ أجاب ، وإن نطقَ أصاب ، وإن سمع العلمَ وعى ، وإن حدثَ روى ؛ وأما الأحمق : فإن تسكلمَ عجل ، وإن حدثَ وهل ^(٥) ، وإن استنزلَ عن رأيه نزل ، فإن حُل على القبيح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدثته شأنك ، وإن وثقت به لم برّ عك ، وإن استكتمت لم يكتم ، وإن علمَ لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ، وإن فقه لم يفقه .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

(١) أى وأعطيت الناس منه . (٢) وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والمهوبة : الغيرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بنى عامر » انظر الأغاني ج ١ ص ١٦٣ . (٥) ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب^(١)

لما قرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك ، لا تُخزِرَ^(٢) ذِمّة أبي ، وأنت أحقّ من مَنعها ،

(١) وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل السكتب عالم ، فدعا به وسأله : أتعلم ما لي من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبيرية الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رى بنشابة ، فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسها شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهرّبوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ .

(٢) خفر به كضرب ، وأخفّره : نقض عهدده وغدره .

ولا تقطع منا رجاء مَنْ رَجَا السَّلامَةَ في جِوارِنا ، لِمَكانِنا مِنْكَ ، ولا تُذِلَّ
مَنْ رَجَا العِزَّ في الانقطاع إلينا لِعِزِّنا بِكَ »
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

٣٤٠ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتسكَّم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أَحْسَنُ البلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فَلَسْنا ناصِيه ،
ومن يَكْفُرُ فَلَسْنا كافِرِيه ، وقد كان من بَلَّائِنا أَهْلَ البيت في طاعتكم ، وَالطَّعْنَ
في أَعْيُنِ أعدائكم ، في المِواطِنِ العِظَامِ ، في المِشارِقِ والمِغاربِ ، ما إنَّ المِنةَ عَلينا
فيها عظيمة . »

فأمَّنه الوليد وكف عنه .
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٤١ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ،
ودخل على الخليفة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خمس ما أناء الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل
ذي حق حقه من النِّزْهِ والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال
له كاتبه المغيرة بن أبي قرة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمرك بحمله ،
وإما سخطت نفسه لك به فسوغك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأن بك قد استغرقت
ما سميت ، ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المال الذي سميت مخلدا عندهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده =

« إن الله يا أمير المؤمنين صَنَعَ لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أحمل ما عليه ، فَصَالِحُنِي عَلَى مَا إِيَاهُ نَسْأَلُ » فقال عمر : لَا ، إِلَّا أَنْ تَحْمَلَ جَمِيعَ مَا نَسْأَلُهُ إِيَاهُ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيْدَةٌ فخذ بها ، وإن لم تسكن بَيْدَةً فَصَدَّقْ مَقَالََةَ يَزِيدَ ، وإلا فاستَحْلِفْهُ ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أَخْذَهُ بِجَمِيعِ الْمَالِ .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٢٢)

= أَخْذَكَ بِهِ ، وَإِنْ وَلِيَ مِنْ يَتَحَامَلُ عَلَيْكَ لَمْ يَرْضَ مِنْكَ بِأَضْعَافِهِ ؛ فَلَا تَمْنَحْ كِتَابَكَ ، وَلَسْكَنَ اكْتَبَ بِالْفَتْحِ ، وَسَلَهُ الْقُدُومَ ، فَتَشَافَهُهُ بِمَا أَحْبَبْتَ مَشَافَهُهُ وَتَقْصُرَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَقْصُرَ عَمَّا أَحْبَبْتَ أُخْرَى مِنْ أَنْ تَكْثُرَ ، فَأَبَى يَزِيدُ وَأَمَضَى الْكِتَابَ ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ (سَنَةِ ٩٩) - وَكَانَ عُمَرُ يَبْغِضُ يَزِيدَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ ، وَيَقُولُ : هَؤُلَاءِ جَبَابِرَةٌ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِمْ - دَعَا يَزِيدَ وَسَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي كَتَبَ بِهَا إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : كُنْتُ مِنْ سُلَيْمَانَ بِالْمَكَانِ الَّذِي قَدْ رَأَيْتَ ، وَإِنَّمَا كَتَبْتُ إِلَى سُلَيْمَانَ لِأَسْمَعَ النَّاسَ بِهِ (وَالتَّسْمِيعُ : إِزَالَةُ الْخُمُولِ بِنَشْرِ الذَّكْرِ) ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمْ يَكُنْ لِيَأْخُذَنِي بِشَيْءٍ سَمِعْتُ بِهِ ، وَلَا بِأَمْرٍ أَكْرَهُهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَجِدُ فِي أَمْرِكَ إِلَّا حَبْسَكَ ، فَاتَّقِ اللَّهَ ، وَأَدِّ مَاقِبْلَكَ ، فَإِنَّهَا حَقُوقُ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَسَعُنِي تَرْكُهَا ، وَلَمْ يَزَلِ يَزِيدُ فِي مَحَبْسِهِ ، حَتَّى بَلَغَهُ مَرَضٌ عَمِرَ ، فَأَخَذَ يَعْمَلُ لِلْهَرَبِ خِيفَةً يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ عَذَّبَ أَصْحَارَهُ آلَ أَبِي عَقِيلٍ (إِذْ كَانَتْ أُمُّ الْحَجَّاجِ بِنْتُ مُحَمَّدٍ بِنْتُ يَوْسُفَ أَخَى الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، عِنْدَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَوُلِدَتْ لَهُ ابْنَتُهُ الْوَالِيدُ) وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ عَاهَدَ اللَّهَ أَنَّهُ أَمَكَّنَهُ اللَّهُ مِنْ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ ، لِيَقْطَعَ مِنْهُ طَائِفًا (بِفَتْحِ الْبَاءِ وَكَسْرِهَا أَيْ مَضَوْا) فَخَشِيَ ذَلِكَ فَهَرَبَ مِنَ السَّجْنِ سَنَةَ ١٠١ ، وَمَاتَ عُمَرُ وَأَفْضَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَحِقَ ابْنُ الْمُهَلَّبِ بِالْبَصْرَةِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهَا ، وَأَخَذَ عَامِلَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَيْهَا (وَهُوَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ الْفَزَارِيُّ) فَحَبَسَهُ وَخَلَعَ يَزِيدَ ، فَسَبَّحَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَمُسْلَمَةُ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِحَرْبِهِ فَقَتَلَ ابْنَ الْمُهَلَّبِ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ سَنَةَ ١٠٢ هـ .

٣٤٢ — خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومسألة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فحرضهم ورجبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيبتهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب بالمشرقية^(١) على هامهم ثم قل : إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء - يعني مسألة بن عبد الملك - وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد - (وكان العباس أزرق^(٣)) أحمر ، كانت أمه رؤمية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه ، حتى كلمته فيه ، فأفرّه على نسبه ، فبلغني أنه ليس ههما إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت العرصة^(٤) حتى تسكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعني^(٥)

(١) المشرقية : سيوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنومن الريف ، والهام :

جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَيَنْتَجِبُ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْطُمِ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد :

لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في الشؤم ، فيقال :

« أشأم من أحمر عاد » لأن الله أهلك بفعله ثمود ، وذلك أنهم قالوا للنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان :

يا صالح إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ،

ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) .

(والشرب : النصيب من الماء) . (٣) أي أزرق العينين . (٤) العرصة : كل بقعة بين

الدور واسعة ليس فيها بناء . (٥) عناء : اتعبه .

كما عَنَّانا عبد الرحمن بن محمد^(١) ، قال : إن عبد الرحمن فَضَّحَ الذَّمَّارَ^(٢) وَفَضَّحَ حَسْبَهُ ،
وَهَلْ كَانَ يَعْدُو أَجْلَهُ ؟ ، ثُمَّ نَزَلَ . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٤٣ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وها كها :
عن خالد بن صفوان قال : خَطَبَنَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بِوَأَسِطٍ ، حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي أَسْمَعُ قَوْلَ الرَّعَاعِ ، قَدْ جَاءَ الْعَبَّاسُ ، قَدْ جَاءَ مَسْلَمَةٌ ، قَدْ جَاءَ
أَهْلُ الشَّامِ ! وَمَا أَهْلُ الشَّامِ إِلَّا تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، مِنْهَا سَبْعَةٌ مَعِيَ ، وَاثْنَانِ عَلَىَّ ، وَمَا مَسْلَمَةٌ
إِلَّا جَرَادَةٌ صَفْرَاءُ ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَنَسْطُوسُ^(٣) بْنُ نَسْطُوسٍ ، أَنَا كُمْ فِي بَرَابَرَةٍ
وَصَقَالِبَةٍ^(٤) وَجَرَامِقَةٍ وَجَرَّاجَةٍ^(٥) ، وَأَقْبَاطٌ وَأَنْبَاطٌ^(٦) ، وَأَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ ؛ إِنَّمَا أَقْبَلُ
إِلَيْكُمْ الْفَلَاحُونَ وَالْأَوْبَاشُ كَأَشْلَاءَ^(٧) الْإِحْمِ ، وَاللَّهُ مَا أَقْوَا قَطُّ حَدًّا كَحَدِّكُمْ . وَلَا حَدِيدًا
كَحَدِيدِكُمْ ، أَعِيرُونِي سَوَاعِدَ كُمْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تَصْفِقُونَ بِهَا خِرَاطِيمَهُمْ^(٨) ، فَإِنَّمَا هِيَ خُدُودٌ
أَوْ رَوَحَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . »

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) مايلزملك حفظه وحايته .
(٣) هو في العقد ، ومروج الذهب بالباء ، وفي البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ،
وأقول : هو إمعلم رومى ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو يحرف من
« نسطورى بن نسطورى » أى نصرافى نسطورى من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس
صاحب المذهب ، وكان أسقفًا بالقسطنطينية . توفي حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جيل بالمغرب ؛
والصقالبة : جيل بلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمالى بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » أى جنوبى روسيا .
(٥) الجرّامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام ، والجرّاجمة : قوم من العجم بالجزيرة ،
أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجبل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو الغصو
وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ،
وهو الأنف .

٣٤٤ - خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل السَّبْقِ وَالسَّابِقِ ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام في أفواههم لَقَمَةٌ دَسِمْةٌ ، قد رَتَبْتُ^(١) لها الأشداقُ ، وقادوا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركِها لكم بِالْمِراءِ وَالْجِدَالِ ، فَاَلْبَسُوا لهم جُلُودَ الثَّورِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ - خطبة الحسن البصري يثبِّط الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مَرْوان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرّهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصري يُثَبِّطُ الناس عنه ، وكان يقول في تلك الأيام :

« أيها الناس : الزموا رجالكم ، وكفّوا أيديكم ، واتّقوا الله مولاكم ، ولا يَقْتُلْ بعضُكم بعضاً على دُنْيا زائلةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها ببق ، وليس الله عنهم فيما كنسبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةٌ إلّا كان أكثر أهلها اخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيْبَةِ والخِيَلَاءِ ، وليس يسلم منها إلّا الجَهِولُ الخَفِيُّ ، والمعروفُ التَّقِيُّ ، فمن كان منكم خَفِيًّا فَلْيَنْزِمِ الحَقُّ ، وليحسِ نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكما والله بمعرفة الله إياه بالخير شَرَفًا ، وكفى له به من الدنيا خَلَفًا ؛ ومن كان منكم معروفًا شَرِيفًا ، فترك ما يتنافس فيه نَظَرًاؤه من الدنيا - إرادةَ الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أَسْعَدَهُ وأَرْشَدَهُ ، وأَعْظَمَ أَجْرَهُ ، وأَهْدَى سَبِيلَهُ ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القَرِيرُ عَيْنًا ، الكَرِيمُ عند الله مَأْبَاً » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥٣)

(١) رتب: أي ثبت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . (٢) أي تنكروا لهم ، واستعدوا لمناضلتهم .

٣٤٦ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد
ثم قال لهم :

« قد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرائي - ولم يُسمَّه - يثبط الناس ، والله لو أن
جاره نَزَعَ من خُصٍّ داره قَصَبَةً ، أَظَلَّ يَرْعُفُ^(١) أَنْفَهُ ، أَيْنُكِرُ عَلَيْنَا ، وَتَلِي أَهْل
مِصْرَنَا ، أَنْ نَطْلُبَ خَيْرَنَا ، وَأَنْ نُنْكِرَ مَظْلِمَتَنَا ؟ أَمَّا وَاللَّهِ لَيَكْفُنَّ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَعَنْ
جَمْعِهِ إِلَيْنَا سُقَاطُ الْأُبُلَّةِ^(٢) ، وَعُلُوجُ فُرَاتِ الْبَصْرَةِ ، قَوْمًا لَيْسُوا مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَا مِمَّنْ
جَرَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ مِنْ أَحَدٍ مِنَّا ، أَوْ لَا نُحْيِيَنَّ عَلَيْهِ مَبْرَدًا خَشِنًا . »

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : وَاللَّهِ مَا أَكْرَهُ أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِهِوَاهِ ، فَقَالَ نَاسٌ
مِنْ أَصْحَابِهِ : لَوْ أَرَادَكَ ثُمَّ شِئْتَ لَمَنْعْنَاكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ خَالَفْتُكُمْ إِذَنْ إِلَى مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ،
أَمْرُكُمْ أَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَعَ غَيْرِي ، وَأَدْعُوْكُمْ إِلَى أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا دُونِي ؟
فَبَلَغَ ذَلِكَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ وَأَخَافَهُمْ ، وَطَلَبَهُمْ حَتَّى تَفَرَّقُوا ، وَلَمْ يَدْعُ
الْحَسَنُ كَلَامَهُ ذَلِكَ ، وَكَفَّ عَنْهُ مَرْوَانُ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

(١) رَعَفَ : خَرَجَ مِنْ أَنْفِهِ الدَّمُ . (٢) جَمَعَ سَاقِطَ : وَهُوَ الْأَثِيمُ فِي حِسْبِهِ وَنَفْسِهِ ، وَالْأُبُلَّةُ :

مَوْضِعٌ بِالْبَصْرَةِ .

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٤٧ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة صفين ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حَزَازَةٌ^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » .
فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم تَرُدُّ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا ، ولئن مددت بشير من غدر ، لنمدد باعاً من ختر^(٣) ، ولئن شئت المستصفين كدّر قلوبنا بصفو حاكمك » ، قال معاوية : فإني أفعل .
ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت :
يا أمير المؤمنين : من هذا الذي يتهدّد ويتوعد ؟ قال : هذا الذي إذا غضب ، غضب انفضبه مائة ألف من بني تميم ، لا يدرون فيم غضب .

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٣٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والمضروب به المثل في الحلم ، وهو من سادات التابعين ؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ؛ وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقى إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل - مائلها - يطاء على وحشها) . (٢) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .
(٣) الباع : قدر مد اليدين ، والحتر : أقبح الغدر .

٣٤٨ — الأحنف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وجوه الناس وفيهم الأحنف ، فدخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله عنه ، فأطرق الناس وتكلم الأحنف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القائل ما قال آناً ، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله ، ودع علياً ، فقد آتى الله ، وأُفِرِدَ في حُفَرَتِهِ ، وَخَلَا بعمله ، وكان والله — ما علمنا — المبرز بشقه^(١) ، الطاهر في خلقه ، الميمون النقيية^(٢) العظيم المصيبة » .

قال معاوية : « يا أحنف ، لقد أغضيت العين على القذى ، وقلت بغير ما ترى ، وإني لله لتصعدن المنبر فلتلعننه طائعاً أو كارهاً » فقال الأحنف : « إن تُعَفِّي فهو خير ، وإن تجبرني على ذلك ، فوالله لا تجرى به شفتاي » ، فقال معاوية : قم فاصعد . قال : « أما والله لا نصفئك في القول والفعل » ، قال معاوية : وما أنت قائل إن أنصفتني ؟ ، قال : « أضعد فأحمد الله ، وأثنى عليه وأصلى على نبيه ، ثم أقول : أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعن علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادّعى كل واحد أنه مبعي عليه وعلى فئته ، فإذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله ! ثم أقول : اللهم لعن أنت وملائكك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منها على صاحبه ، والفئة الباغية على المبعي عليها ، اللهم العنهم لعناً كبيراً ، أمّنوا ، رحمكم الله » ، يامعاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفاً ، ولو كان فيه ذهابُ نفسي . فقال معاوية : « إذن تُعَفِّيك يا أبا بحر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) الشق : الجانب ، ورواية المقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزا : فاق أصحابه فضلاً أو شجاعة .

(٢) النقيية : النفس .

٣٤٩ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال :
يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فَعَلِمَ ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ،
وتمرُّ قلوبنا ، وقرّةُ أعيننا ^(١) ، بهم نَصُولُ على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ،
فكن لهم أرضاً ذليّة ، وسماً ظليّة ، إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم ^(٢) ،
لا تمنعهم رِفْدك ^(٣) ، فيمَلُّوا قُرْبَكَ ، ويكرهوا حيّانَكَ ، ويسنبطُوا وفانَكَ » .
فقال : اللهُ دَرَكُ يا أبا بحر ! هم كما وصفت .
(الأمال ٢ : ٤٣)

٣٥٠ - شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ،
إن كانوا حُبِسُوا في باطل ، فالحَقُّ يُخْرِجهم ، وإن كانوا حُبِسُوا في حقٍّ ، فالعفو
يَسْعَهُمْ » ، فخلّاهم ^(٤) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ - نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بني تميم تحابُّوا تجتمع كلمتكم ، وتباعدوا تعتدلْ أموركم ،
وابدءوا بجهاد بطونكم وفرُّوكم ، يضلُّكم دينكم ، ولا تغلُّوا ^(٥) يَسْلُمَ لكم
جِهَادُكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

(١) تَرَت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه . (٢) استعته :
طلب إليه العتبي (أي الرضا) وأعتبه : أعطاه العتبي . (٣) الرُفْد : العطاء . (٤) وفي وثقات
الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول لشعبي كُلم به عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق .
(٥) أي لا تخونوا .

٣٥٢ - خطبته في قوم كانوا عنده

وَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ، وَعِنْدَهُ قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ فِي أَسْرِهِمْ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنَّ الْكَرَمَ يَمْنَعُ الْحُرْمَ ^(١) ، مَا أَقْرَبَ النِّقْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ، لَا خَيْرَ فِي لَذَّةِ تُعْقِبُ نَدَمًا ، لَنْ يَهْلِكَ مَنْ قَصَدَ ^(٢) ، وَلَنْ يَفْتَقِرَ مَنْ رَزَهْدَ ، رَبُّ هَزَلٍ قَدْ عَادَ جِدًّا ، مَنْ أَمِنَ الزَّيْمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ تَعَظَّمَ عَلَيْهِ أَهَانُهُ ، دَعَا الْمِزَاحَ ، فَإِنَّهُ يُورَثُ ^(٣) الضُّعْفَانِ ، وَخَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ ، احْتَمَلُوا لِمَنْ أَدَلَّ ^(٤) عَلَيْكُمْ ، وَاقْبَلُوا عَذْرَ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ . أَطِيعَ أَخَاكَ وَإِنْ عَصَاكَ ، وَصِلْهُ وَإِنْ جَفَاكَ ، أَنْصِفْ مَنْ نَفَسَكَ قَبْلَ أَنْ يُنْتَصَفَ مِنْكَ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَشَاوِرَةَ النِّسَاءِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ لَوْثٌ ، وَصُحْبَةُ الْجَاهِلِ شَوْمٌ ، وَمَنْ الْكَرَمِ الْوَفَاءُ بِالذَّمِّ ، مَا أَقْبَحَ الْقَطِيعَةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، وَالْجَفَاءُ بَعْدَ اللَّطْفِ ^(٥) ، وَالْعِدَاوَةُ بَعْدَ الْوَدِّ ! لَا تَسْكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَلَا إِلَى الْبَخْلِ أَسْرَعَ مِنْكَ إِلَى الْبَذْلِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ مَثْوَاكَ ^(٦) ، فَأَنْفَقْ فِي حَقِّ ، وَلَا تَسْكُونَنَّ خَازِنًا لَغَيْرِكَ ، وَإِذَا كَانَ الْغَدْرُ فِي النَّاسِ مُوجُودًا ، فَالْتَمِصْ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزَ ، أَعْرِفِ الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ قَطِيعَةَ الْجَاهِلِ تَمْدِيلُ صَلَاةِ الْعَاقِلِ . »

(الْأَمَالُ ٢ : ٢٢)

(١) الحرم: جمع حرمة بالضم ، وهي مالا يحل انتهاكه . (٢) القصد والاعتقاد : ضد الإفراط .

(٣) التآريث : إيقاد النار . (٤) تدلل . (٥) اللطف : اسم من اللطف بالضم .

(٦) آخرتك .

٣٥٣ - كلمات حكيمة للأخف

قال : فى ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر : ما دخلت بين اثنين قط حتى يُدْخِلَانِي بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعنى الملوك - ما لم أَدْعَ إليه ، وما حللت حَبُوتِي^(١) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « ألا أدلكم على المَحْمَدة بلا مَرْزِئة^(٢) ؟ الخلق السَّجِيح^(٣) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذوا الداء ؟ الخلق الدنى ، واللسان البَذِيّ » ، وقال : « ماخان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن » . وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لَزِمَ شيئاً عُرِفَ به » . وسمع رجلا يقول : ما أبالي أُمْدِحْتُ أم ذُمْتُ . فقال له : « لقد استرحت من حيث تُعِبُ السَّكرامُ » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ، فإنى لأُبْغِضَ الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه ، وإن المَرْوَةَ أن يترك الرجل الطعام وهو يشبهه » . وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إني لأجد ما تجدون ولكنى صبور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصر لي من الرجال » . وقال : « الكذوب لاحيلة له ، والحسود لاراحة له ، والبخیل لامرؤة له ، والمُلُول لوفاء له ، ولا يسود سَيِّئُ الأخلاق ، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل » . وقال : « أربع من كنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلَّقَ بِمَخْصَلَةٍ منهن كان من صالِحِي قومه : دينٌ يُرْشِدُهُ ، أو عقلٌ يُسَدِّدُهُ ، أو حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أو حيالٌ يَقْنَأُهُ^(٤) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يُبْغِضُهُ ، وكافر يجاهده ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والامم : الحبوة بالفتح ويضم .

(٢) رزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، والشئ نقصه : أى دون أن تفرموا فى سبيلها مالا .

(٣) اللين السهل . (٤) قى الحياء كرضى ورمى : لزمه كأقنى .

وشيطان يَفْتِنُهُ ؛ وأربع ايس أقل منهم : اليقين ، والعدل ، ودِرْهم حلال ، وأخ في الله »
 وقال : « لَأَن أَدْعَى من بعيد ، أحب إلىَّ من أن أَفْصَى من قريب » . وكان يقول :
 « إياك وصَدْرَ المجلس ، وإن صَدْرَكَ صاحبه ، فإنه مجلسُ قُلَمَةٍ ^(١) » . وقال : « من لم
 يصبر على كلمة سمع كلمات » . وقال : « رب غيظ تجرّ عته تحافة ما هو أشد منه » . وقال :
 « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن طال صمته كثرت سلامته » . وقال : « ثلاث
 لا أناةَ فيهن عندي » . قيل : « وما هن يا أبا بجر ؟ » . قال : « المبادرة بالعمل الصالح ،
 وإخراج ميتك ، وأن تنكح الكفء أَيْمَكَ ^(٢) » . وكان يقول : « لَأَفْصَى تَحَكُّكَ
 في ناحية بيتي ، أحب إلىَّ من أَيْم رددتُ عنها كُفْنًا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ١٤٨ ؛ والأمال

١ : ٢٣٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ — صفية بنت هشام المنقرية توبن الأحنف

وروى أنه لما حُلِمَتْ حِنَاةُ الأحنف ، وَدُلِّيَ في قبره ، أقبلت ابنة عمه صَفِيَّة بنت
 هشام المنقرية على نَجِيب لها مُخْتَصِرَةٌ ^(٣) ، فوفقت على قبره ، فقالت :
 « لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مُجَنٍّ فِي جَنِّ ^(٤) ، وَمُدْرَجٍ ^(٥) فِي كَفَنٍ ! إنا لله وإنا إليه راجعون !

(١) مجلس قلمة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لازوج ، لها بكر أو
 أو ثيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطاء ؛ وما بعد منعه من الأكفاء ، إلا بذلن
 للأسفل والغواء » . (٣) النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ؛ واختصر : أمسك المختصرة
 « والمختصرة : كسكنة : عصا يمسكها الخطيب يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسكه .
 وفي رواية الجاحظ : « وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة
 فقالت . . . » ؛ وفي رواية أبي علي القالي : « جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها قبول من النساء ؛
 فوفقت على قبره فقالت . . . » — والقبول بالفتح ويضم : الحسن — . (٤) من أجنه : إذا ستره ؛
 والجنن : جمع جنة كقبة ، وهي الوقاية ؛ والجنن كسبب : القبر والكفن . (٥) مطوى .

نسأل الله الذي جَعَلَنَا بِمَوْتِكَ ، وابتَلَانَا بِفَقْدِكَ ، أَنْ يُوسِّعَ لَكَ فِي قَبْرِكَ ، وَأَنْ يَغْفِرَ
لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ ، وَدَلِيلَ الرِّشَادِ دَلِيلَكَ ، ثُمَّ أَقْبَلْتَ
بُوجْهَهَا عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَتْ : « مَعْتَبَرٌ النَّاسُ ، إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، تُهَوِّدُ عَلَى عِبَادِهِ ،
وإِنَّا قَائِلُونَ حَقًّا ، وَمُتَنَبِّهُونَ صِدْقًا ، وَهُوَ أَهْلُ الْحَسَنِ الثَّنَاءِ ، وَطَيِّبُ الدَّعَاءِ ؛ أَمَّا وَالَّذِي
كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ ، وَمِنْ الْمُنْضَمَارِ ^(١) إِلَى غَايَةِ ، وَمِنْ الْحَيَاةِ إِلَى نَهَايَةِ ، الَّذِي رَفَعَ
عَمَلَكَ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ ، لَقَدْ عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا ، وَلَقَدْ مِتَّ فَقِيدًا سَعِيدًا ، وَإِنْ
كُنْتُ لَعَظِيمِ السَّلَامِ ، فَاضِلَ الْحِلْمِ ، صَحِيحِ الْأَدِيمِ ^(٢) ، مَنِيْعِ الْحَرِيمِ ، وَارِي الزَّوَادِ ،
رَفِيعِ الْعِمَادِ ، وَإِنْ كُنْتُ فِي الْحَافِلِ لَشَرِيفًا ، وَعَلَى الْأَرَامِلِ لَعَطُوفًا ، وَفِي الْعَشِيرَةِ
مُسَوِّدًا ، وَإِلَى الْخُلَفَاءِ مُؤَفِّدًا ، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ .
ثُمَّ انصرفت . (ذيل الأمال ص ٢٨ ، وبلاغات النساء ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) في الأمال : « ومن الضمان » ؛ وفي بلاغات النساء : « ومن الضمار » وأرى أن صوابه « ومن

المنضمار » لقوله بعد : « إلى غاية » . (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وإفدًا لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّة^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةٌ^(٢) صوف وشَمْلَةٌ^(٣) ، فلما مَثَلَا بين يدي معاوية اقْتَحَمَتَهُمَا^(٤) عَيْنُهُ ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العبادة لانكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأوَمَأَ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : نعم مه ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وَعَظُمَ كَسِيرٌ ، مع تقايُع من المَحُول^(٥) ، وانصال من الذُّحُول^(٦) ، فَاكْثُرَ فيها قد أطرق ، والمَقْلَ قد أملقَ ، وبلغ منه المَخْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِيرَ ، ويسهِّلَ العَسِيرَ ، ويصْفَحَ عن الذُّحُولِ ، وَيُدْأَوِيَ المَحُولِ ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، وَيُزِيلَ اللُّأْوَاءَ^(٧) ، وإن السيدَ مَنْ يَعْثَمَ ولا يُخْصَّ ، ومن يدعو الجَفَلَى^(٨) ولا يدعو النَقْرَى ، إن أحسن إليه شكر ،

(١) نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . (٢) المدرعة : ثوب ولا يسكون

إلا من صوف . (٣) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به . (٤) ازدرتهما .

(٥) جمع محل كشمس : وهو القحط والجذب . (٦) جمع ذحل كشمس أيضا : وهو الثأر .

(٧) الشدة . (٨) الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة .

وإن أُرْسِيءَ إليه غَفَرَ ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عهاداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات » ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ، ثم تلا : (وَلَقَدْ عَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١)) .
(زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قَدِم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ، فقال : إن أمير المؤمنين يَعْزِم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف :

« لولا عَزْمُ أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّةً ^(٢) دَفَّتْ ، ونازلةً نَزَلَتْ ، ونائبةً نَابَتْ ، ونائبةً نَبَّتَتْ ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال : حَسْبُكَ يا أبا بحر فقد كَفَيْتَ الغائبَ والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ، فقال زياد :

٣٥٧ — خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أَشْخَصْتُ إِلَيْكَ أَقْوَاماً الرِّغْبَةُ ، وَأَقْعَدْتُكَ آخِرِينَ الْعُذْرُ ، فقد جعل الله تعالى في سَعَةِ فضلك ما يُجَبِّرُ به المتخلف ، وَيُكَافَأُ به الشاخص » .

(١) أى في معناه وفحواه . (٢) الدافّة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بني فلان دافّة ، والدافّة أيضاً : قوم من الأهراب يريدون مصر ، والدافّة : الجيش يدفعون نحو العدو أى يدفعون .

٣٥٨ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَّحِبًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَأَنْ فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُكُمْ الرَّحِمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيُخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخْتَارَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّاكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدْنِسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنْ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحَ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ . »

٣٥٩ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعَدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمْ تَتَّبِعْ آثَارَكَ فِينَا ، فَتَسْتَمْتِعُ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمَدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ أَبَاهُ أَبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطْئِي إِلَّا وَشِيحَهُ وَتُفَرِّسُ إِلَّا فِي مَفَاتِيحِهَا النُّخْلُ ^(٢) »

(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دَغَفْلٌ ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغَفْلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رَبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُضَرٌّ بِنِ نِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال :

(١) الجزيل : العاقل الأصيل الرأي . (٢) الخطي : الرمح ، نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين

تنسب إليه الرماح لأنهم تبعوا به لا أنه متبها ، والوشيج : شجر الرماح جمع وشيجة . (٣) هو دغفل ابن حنظلة النسابة من بني شيبان .

بنو النضر بن كنانة ، كانوا أكثر العرب أمجاداً ، وأرفعهم عباداً وأعظمهم رَمَادًا .
 قال : فأىُّ بنى كنانة كان بعدهم أعزُّ ؟ قال : بنو مالك بن كنانة ، كانوا يَمْلُون من
 سَامَاهم ، ويَكْفُون من نَاوَاهم ، وَيَصْدُقُون من عَادَاهم . قال : فَنَ بعدهم ؟ قال :
 بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، كانوا أعزَّ بنيه وأمنهم ، وأجودهم وأنفعهم . قال :
 ثم من بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مناة ، كان بأسهم مرهوباً ، وعدوهم منكوباً ،
 وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كنانة ، وعن مُرَّة وعامر
 ابني عبد مناة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا نُظَرَاء . قال :
 فأخبرني عن بنى أسد ؟ قال : كانوا يُطْعِمُونَ السَّديف^(١) ، وَيُكْرِمُونَ الضيُوف ،
 ويضربون في الزُّحُوف^(٢) ، قال : فأخبرني عن هُذَيْل ، قال : كانوا قليلاً أكياس^(٣) ،
 أهل مَنعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بنى ضَبَّة ؟ قال : كانوا
 جَمَرَةً من جَمَرَات العرب الأربع^(٤) ، لَا يُصْطَلَى بنارهم ، وَلَا يُفَاتُونَ بنارهم ، قال :
 فأخبرني عن مُزَيْنَة ، قال : كانوا في الجاهلية أهل مَنعة ، وفي الإسلام أهل دَعَة . قال :
 فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزَّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنهما حَرِيماً ،
 قال : فأخبرني عن قيس ، قال : كانوا لا يفرحون إذا أُدِيلُوا^(٥) ، ولا يحزنون إذا أُبْتُلُوا ،
 ولا يَبْتَخُلُون إذا سُئِلُوا ، قال : فأخبرني عن أشرفهم في الجاهلية ، قال : غَطَفَان بن سعد
 وعامر بن صَمْعَةَ وسَلِيم بن منصور ؛ فأما غطفان فكانوا كراماً سَادَةً ، وللخَمِيس^(٦)

(١) شحم السنام . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كَيْس : وهو المِاقِل . (٤) قال صاحب العقد : « جمرات العرب ، هم

بنو نَمِر بن عامر بن صَمْعَةَ ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضَبَّة بن أد بن طابخة ، وبنو عبس
 ابن يغنيص ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمعت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير :

التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تجمروا المسلمين فتفتنوا ، وتفتنوا
 نساءهم ، يعني لا تجمعوهم في المغازي . . الخ - العقد ٥٧ : ٢ . (٥) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٦) الخميس : الجيش . سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة .

قادة ، وعن البيض ذادة^(١) ؛ وأما بنو عامر فكثير سادتهم ، مخشية سطورهم ،
ظاهرة نجاتهم ؛ وأما بنو سليم فكانوا يدركون النار ، ويمنعون الجار ، ويعظمون^(٢)
النار ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن وائل واصدقني ، قال : كانوا أهل عز قاهر ،
وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم تغلب ، قال : كانوا أسودا
ثرهبا ، وسما^(٣) لا تقرب ، وأبطالا لا تكذب ، قال : فأخبرني كم أدبوا عليكم
في قتلكم كليبيا ؟ قال : أربعين سنة ، لان نصف منهم في موطن نلقاهم فيه ، حتى كان
يوم التحالف ، يوم الحرث بن عباد بعد قتلة ابنه بجير ، وكان أرسله في الصلح بين القوم
فقتله مهلهل ، وقال : بؤ بشع^(٤) نعل كليب ، فقال الغلام : إن رضيت بهذا بنو بكر
رضيت ، فبلغ الحرث ، فقال : نعم القتل قتيلا إن أصاح الله به بين بكر وتغلب وباء
بكليب ، فقبل له : إنما قال مهلهل ما قال (الكلمة^(٥)) ، فتشمر الحرث للحرب ،
وأمرنا بحلق رؤوسنا أجمعين ، وهو يوم التحالف ، وله خبر طويل ، وقال :

قرّبا مربط النعامة منى لقيحت حرب وائل عن حبال^(٦)
لم أكن من جناتها - علم الله - وإني بجرّها اليوم صالي
قرّبا مربط النعامة منى إن بيع الكرام بالشع غالي

فأدبنا عليهم يومئذ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فن ذهب يذكر
ذلك اليوم ؟ قال : الحرث بن عباد ، أسر مهلهلا في ذلك اليوم ، وقال له : دأني على
مهلهل بن ربيعة ، قال : مالي إن دللتك عليه ؟ قال : أطملك ، قال : على الوفاء ؟ قال :
نعم ، قال له : أنا مهلهل ، قال : ويحك ! دأني على كفاء كريم ، قال : امرؤ القيس^(٧)

(١) البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مثلث السين . (٤) الشع : سير يشد به النمل .

(٥) هي قوله (بؤ بشع نعل كليب) . (٦) النعامة : اسم فرسه ، ولقيحت الناقة : قبلت اللقاح

وحالت حبالا : لم تفلح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبي .

وأشار بيده إليه عن قُرْب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كلها صَبَرَتْ وَأُبْنَتْ لِحُسْنِ بَلَاؤِهَا ، إلا ما كان من ابني لُجَيْم : حَذِيفَةُ وَعِجْلٌ ، وَيَشْكُرُ ابن بكر ، فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ بن ضُبَيْعَةَ جدَّ طَرْفَةَ بن العبد ، هجَّام في ذلك اليوم ، فقال :

إِنِّ لُجَيْمًا عَجَزْتُ كُلَّهُمَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارْتَسَا وَاحِدًا^(١)
وَيَشْكُرُ الْعَامَّ عَلَى خَتَرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا^(٢)
وقال فيهم أيضًا :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَا حُوا^(٣)
إِنَّا وَإِخْوَتُنَا غَدًا كَنُموذِ حِجْرٍ يَوْمَ طَا حُوا^(٤)
بِالْمَشْرِقِ قِيَّةٍ لَا نَفَ رَ وَلَا نُبَاحٍ وَلَنْ تَبَاحُوا^(٥)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحٍ^(٦)
فقال معاوية : أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبةً بأخبار العرب .

(ذيل الأمل ٢٦)

(١) الإرفاد : الإعانة والإعطاء . (٢) الخمر : الغدر أو أقيحه . (٣) أراهط : جمع الجمع لرهط . (٤) الحجر : واد بين المدينة والشَّام : مساكن ثمود قوم صالح . (٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية . وفي ذيل الأمل « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالثاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أى ولن تباحوا يا قوم مادمنَّا لكم حاة ، وقال مصحح الأمل : « ولن نباحوا » كذا في الأصل ، وأمل هنا تحريفًا ، ووجه الكلام « كمن يباح » . (٦) قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٦١ - دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَلٍ بعد ما كفَّ ، فسلموا عليه ، فقال :
 مَنِ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمَنِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ ،
 كِنْدَةَ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطُّوَّالُ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ، بَنُو عَبْدِ الْمَدَّانِ ؟ »
 قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّخُوفِ ، وَأَخْرُقُهَا لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ،
 رَهْطُ عُمَيْرِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قَرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا
 فَنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قالوا : لا ، قال : فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ،
 وَالْمَطْعِمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ، وَالْقَاتِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْأَنْصَارُ ؟ » قالوا : نعم .
 (الْأَمْثَالُ ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبِّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فِيهِمْ
 أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ،
 وَأَخْضَرُ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي قَرِيشَ ،
 قال : لا ، قالوا : فِي حَيْبٍ وَمُلُوكِهَا ، قال : لا ، قالوا : فِي مَضَرٍ ، قال : لا ، قال مَصْقَلَةُ
 ابْنُ رُقَيْيَةَ الْعَبْدِيُّ : فَهِيَ إِذَنْ فِي رِبِيعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قال : نعم ، قال جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ
 هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : نعم .
 أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) قَرَى الضَّيْفِ كَرَى قَرَى بِالْكَسْرِ ، وَالْقَصْرُ : وَقَرَاءٌ بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ : أَضَافُهُ .

(٢) الْهَجْلُ : الْجَدْبُ وَالشَّدَةُ .

فَقَطَّعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا فِي جَدْلِهِ ^(١) عَنْ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَنَّا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيم ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي ^(٢) هَذَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي إِيَّائِي مَعِيَ ذِرَاعِي أَجْحَى بِهَا كُرَاعِي ^(٣)

وَأَمَّا أَسْخَى النَّاسِ فَعَبَدَ اللَّهُ بَنِي سُوَارٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةُ عَلَى السُّنْدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذَا أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ بِمَعْضِ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا ^(٤) ، فَعَمِلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسُمِّيَ مُطْعِمُ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشَرَ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتِ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرِّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَى مِثْلَاهُ » فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعْمَةُ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : مَرَّحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ ، مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أَمِيرٍ يَبْرُؤُكُمْ كَبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدَ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى صَعْمَةَ فَقَامَ :

فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهي الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، والمخذة .

كالوسادة ويثلث . (٣) لا تراعى : لا تفزعى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص :

نقى الدقيق يخلط بالعمل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الحلواء كضرب ، وخبيصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قدّمنا الأرض المقدّسة ، فلعمري ، ما الأرضُ تقدّسَ
الناسَ ، ولا يقدّسُ الناسَ إلا أعمالهم ، وأما قولك : منها المُنشَرُ ، وإليها المَحْشَرُ ،
فلعمري ، ما ينفعُ قُرْبُها ، ولا يضرُّ بُعْدها مؤمنا ، وأما قولك : لو أن الناسَ كلهم ولدُ
أبي سفيان لكانوا حُلَماء عَفَاء ، فقد ولدتم خيرٌ من أبي سفيان آدمُ صلوات الله عليه ،
فمنهم الحليم والسفيه ، والجاهل والعالم . »

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيس قدّموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقاتهم
وفيهم الأشج^(١) ، ففرّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه ،
ثم قال : يا أشج أدن مني ، فدنا منه ، فقال : « إن فيك خلتين يحبهما الله : الأناة ،
والحلم » وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً ، ويقال : إن الأشج لم يَغضب قط^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٦٣ — وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُتْبَةَ بن أبي سفيان ، قال :
عَقِمَت النساء أن يَلِدْنَ مثل عُمَيٍّ ! شهدته يوماً ، وقد قدّمت عليه وفود العرب ،
فقضى حوائجهم ، وأحسن جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :
« جزاكم الله يا معشر العرب عن قريش أفضل الجزاء ، بتقدّمكم إليهم في الحرب ،
وتقديمكم لهم في السّلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثر عليكم غيركم
منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لئيم ، شجرة قامت على ساق ،
فتفرّع أعلاها ، واجتمع أصلها ، عَصَدَ اللهُ مَنْ عَصَدَهَا ، فيا لها كلمة لو اجتمعت ! وأيد
لو ائتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » .
(المقد الفريد ٢ : ٤١)

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوانه به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزل أهرُ ذوائب^(٢) الرِّحال إليك ، إذ لم أجد مَعُوْلاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأمسِم^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودنى إليك أَمَلٌ ، وتسوقنى بَلَوَى ، والمجتهد يُعَذِّر ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي^(٤) » ، فقال معاوية : أخطُطُ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أَسْتَدِلُّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألوى^(٥) بي الليل ، فَقَبَضَ البَصَرَ ، وعَفَى الأَثَرَ ، أقام بدنى ، وسافر أُملى ، والنفس تَلُوم ، والاجتهاد يَفْزِر ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي » .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائِفَةِ^(٦) ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزُرارة : أتانى اليوم نَعْيُ سيد شباب العرب ، قال زُرارة : يا أمير المؤمنين هو ابنى أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال : للموت ما تَلِدُ الوالدة .

(المقد للفرید ١ : ١١٨ ، وصحيح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمال ١ : ٢٠١)

(١) في صحيح الأعشى « عبد العزى » وفي الأمال : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

(٢) جمع ذؤابة : وهى الجلدة المعلقة على آخرة الرجل ، وفي صحيح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

(٣) وسمه بسمه : علمه بعلامه . (٤) فحسبى . (٥) المراد جن على ، وأحدقت في ظلمته ،

يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به العنقاء : طارت به ، وألوى بما فى الإناء : استأثر به .

(٦) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والتلج .

٣٦٥ - وفود زيد بن مَنِيَّة على معاوية

قدم زيد بن مَنِيَّة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يَعْلَى بن مَنِيَّة ^(١) صاحب
جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان
قد تزوج ابنة يعلى بن مَنِيَّة) ، فلما دخل على معاوية شكّا إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ
أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الخلق
بصهرك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر) فقدم عليه مصر ، فقال :
« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتآلفَ ، ألبسَ أزديةَ الليل مرةً ،
وأخوضُ في لججِ السَّراب ^(٢) أخرى ، مُوقراً ^(٣) من حُسْنِ الظن بك ، وهارباً من
دهرٍ فطَمَ ^(٤) ، ودينٍ لَزِمَ ^(٥) ، بعد غنى جدَّعنا به أنوفَ الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك
مَهْرَباً ، وعليك مَعْوِلاً » ، فقال عتبة : « سرحباً بك وأهلاً ، إن الدهر أعاركم غنى ،
وخاطبكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيقةَ ^(٦) معه ، وأنا
واضع يدي ويدك بيد الله » ، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

-
- (١) في صبح الأعشى والمقد «منبه» بالياء وهو تصحيف والصواب «مَنِيَّة» وهو اسم أمه ، واسم أبيه أمية ،
واللتصحیح من تاريخ الكامل لابن الأثير. وكان يعلى عاملاً لعثمان رضي الله عنه على اليمن ، فلما ولى على رضى الله عنه
الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة
عائشة رضى الله عنها في قتال على في وقعة الجمل . (٢) المراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .
(٣) محملاً من الوقر بالكسر : وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقاراً .
(٤) يروى بالفاء والقاف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأعشى بالقاف ، وبالطاء
المكسورة وصف من قطع كفرح : اشتهى اللحم أو غيره . (٥) وفي صبح الأعشى : « ودين أزم »
وأزم كضرب وفرح : عض بالفم كله شديداً . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ - وفود ضرار بن حمزة الصّدائى على معاوية

دخل ضرار بن حمزة الصّدائى^(١) (وكان من خواصّ علىّ كرم الله وجهه) على معاوية وافداً ، فقال له : يا ضرار ، صف لى عليّاً ، قال : أغفنى يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنّه ، قال : « أمّا إذ لا بدّ من وصفه ، فكان والله بعيد المدى^(٢) ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عزيز العبرة ، طويل الفكرة ، يُقلّب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يُحيبنا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقُربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهل الدين ، ويحبّ المساكين ؛ لا يطعم القوى فى باطله ، ولا يئس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله^(٣) ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى نحرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تملّل السليم^(٤) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرّى غبرى ، ألى تعرّضتِ ، أم إلى تشوّفتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتكِ ثلاثاً لا رجعة فيها ، فممرّك قصير ، وخطرك^(٥) حقير ، آه من قلة الزّاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! » فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبّح وأحدها فى حجرها .

(الأمالى ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن

أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

(١) صدام كغراب : حى باليمن . (٢) الغاية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والسكر ،

وهو السر . (٤) السليم : الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفازة :

تفاؤلاً بالفوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَقَدَّتْ سَوْدَةُ بِنْتُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْثَرِ الْهَمْدَانِيَّةُ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنْتْ عَلَيْهِ فَأْذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْثَرِ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفَيْنَ ؟ :

شَمَّرُ كَفَيْلِ أَبِيكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْنِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَانْصُرْ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدْ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا سِهَوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلِمَ الْهَدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدْ الْجِيُوشَ وَسِرَ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدُمًا بِأَبْيَضَ صَارِمٍ وَسِنَانٍ^(١)

قَالَتْ : إِي وَ اللَّهِ ، مَا مِثْلِي مِنْ رَغَبٍ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ اعْتَذَرٍ بِالْكَذِبِ ، قَالَ لَهَا :
فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبُّ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى
عَلَيْكَ مِنْ أَثَرٍ عَلَى شَيْئًا ، قَالَتْ : أُنْشِدُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ
مَا قَدْ نُسِيَ ، قَالَ : هِبْهَاتِ ! مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ
مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي خَفِيَ الْمَقَامَ ،
ذَلِيلَ الْمَسْكَنِ ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَتِ الْخُدَسَاءُ :

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِيَهُمُ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفي بلاغات النساء : « فقه الختوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وَبُتِرَ الذَّنْبُ ، وبالله
أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استَغَفَيْتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ،
قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأُمُورهم مُتَعَلِّداً ، والله سَأَلْتُكَ
عن أمرنا وما افترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ
سلطانك ، فيحصدُنا حِصَادَ السَّذْبُلِ ، ويدوسنا دِباسَ^(١) البقر ، وَيَسُومُنَا^(٢) الخسيسة ،
وَيَسْلُبُنَا الجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرطاة^(٣) قَدِمَ بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ
لُكُنَّا فينا عِرْثاً وَمَنْعَةً ، فإِذَا عَزَلَتْهُ عَنَّا فُشْكِرُنَاكَ ، وإِذَا لَا فَعَرَفْنَاكَ ، فقال معاوية :
إِيَّايَ تَهْدِدِينَ بقومك ؟ والله لقد هممت أن أُحِلَّكَ على قَتَبِ^(٤) أشرس فأردك إليه ،
يُنْفِذُ فيك حكمه ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ نَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك
حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيت به يوماً فى رجل ولأه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه
ما بين الغث^(٥) والسمين ، فوجدته قائماً يُصَلِّي ، فانفعلت من الصلاة ، ثم قال برأفة

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . (٢) يكلفنا . (٣) هو بسر بن أُرطاة ،
وقيل ابن أبى أُرطاة ، وكان معاوية فى أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار
إلى المدينة ، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب
عبيد الله فترها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقم ابنى عبيد الله وهما صغيران بين يدى أمهما عائشة بنت عبد المطلب ؛
فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحسن بنى الذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحسن بنى الذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم مختلف
يا من أحسن بنى الذين هما مخ المظالم ؛ ففى اليوم مزدلف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجازة
أو الأشرس : الحشن الغليظ . (٥) الغث : المهزول .

وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنّي لم أمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْنُوا ^(٢) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْفَظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ . »
فأخذته منه والله ما خزّمه بخزّام ، ولا ختمه بختم ^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : أليّ خاصّة ، أم لقوى عامّة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللّوم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلاّ يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ! لمظكم ^(٤) ابن أبي طالب الجرّاة على السلطان فبطيئا ما تفتطمون ، وغرّكم قوله :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَٰمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُمْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ ^(٥)

كَأَلِهِنْدُوَانِي لَمْ تُفَلِّلْ مَضَارِبُهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابٍ ^(٦)

اكتبوا لها ولقومها . (المقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

(١) القسط : العدل . (٢) عشا يمشو عشا : أفسد . (٣) الخزّام جمع خزيمة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزيمة النمل : سير وريق يخزم بين الشراكين . الختام : الطين يتحم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع هل الطينة) . (٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فم بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفّيته ، واسم ما بقي في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لمظ فلانا (بالتشديد) لماظة : أى شيئا يتلمظه ، ولمظه من حقه شيئا : أعطاه (والعامّة تبدل اللّاء ضادا) . (٥) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٦) سيف هندوانى بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا لدال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيبا إذا خفق .

٣٦٨ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاما من بنى ليث في جناية جناها ، فأنته جده الغلام ، وهى أم سنان بنت خَيْشَمَةَ^(١) للذَّحِجِيَّة ، فكلمته في الغلام فأغلظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرَحَبًا بك يا بنت خَيْشَمَةَ ، ما أقدمكِ أرضنا ، وقد عَهِدْتُكَ تَشْتَمِينُنَا^(٢) وَتَحْضِنُ عَلَيْنَا عَدُوَّنَا ؟ قالت : إن ابني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافية ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسهفون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ما سنَّ آبأؤهُ لَأَنْتِ ، قال : صدقتِ ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرُّقَادُ ، فَمَقَلْتِي لَا تَرُفُدُ وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهَمُومِ وَيُورِدُ^(٣)
يَا آلَ مَذْحِجٍ ، لَا مُقَامَ ، فَشَمِّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لَيْلٌ أَحَدٌ يَقْصِدُ
هَذَا حُلًى كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ السَّكَاكِبِ أَسْعَدُ^(٤)
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِكُمُ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ
قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خَلْفًا بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الحسين فلم تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيَا مَهْدِيًّا
فَاذْهَبْ ، عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ حَمَامَةٌ قُمْرِيًّا^(٥)

(١) في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : ما ذكرنا . (٢) وفي بلاغات النساء : « تشنين قربي » أى تبغضين . (٣) عزب : بعد . (٤) سعود النجوم حشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهمام كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مضر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قمارى .

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفياً
واليوم لا خلف يومئذ بعده هيهات تأمل بعده إنسياً
قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننناه ،
لحظك الأوفر ، والله ما أورتك الشنآن^(١) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض
مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يأسبحان الله ، والله ما مثلك من مدح
بباطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله
على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك قال : بمن ؟ قالت : من مروان
ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلك ،
وكريم عفوك ، قال : وإنهما يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل
ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى^(٢) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبذرك^(٣) بالمدينة تبذرك من لا يريد منها البراح ،
لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أحسن من الحجر ، وألقته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو
أولى بالعفو منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه مُعدياً^(٤) ،
قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت :
يا أمير المؤمنين ، وأني لى بالرجعة ، وقد نفذ زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها بإحالة
موطاة ، وخمسة آلاف درهم .

(المقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

(١) البغض . (٢) تريد أنهما بإعلان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٣) قبلك
به : أقام . (٤) أعداد عليه : نصره ، وأعانه ، وقواه .

٣٦٩ — وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ،
فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنّت ، وعَشِي^(١) بعصرها ، وضعفت قوتها ، ترعش
بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فردّ عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت
يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غَيْرِكَ الدهرُ ، قالت : كذلك هو
ذو غير^(٢) ، من عاش كبير ، ومن مات قَير ، قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة
يا أمير المؤمنين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ فَاحْتَفِرْ مِنْ دَارِنَا سَيْفًا حُسَامًا فِي التَّرَابِ دَفِينَا
قَدْ كُنْتُ أَذْخَرُهُ لِيَوْمِ كَرِبَةٍ فَالْيَوْمِ أَبْرَزَهُ الزَّمَانُ مَصُونَا
قال مروان : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أَتَرَى ابْنَ هَنْدٍ لِلخَلَافَةِ مَالِكًا هِيَهَاتَ ، ذَاكَ - وَإِنْ أَرَادَ - بَعِيدُ
مَنْتَنُكَ نَفْسَكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَةً أَغْرَاكَ عَمْرُو لَشَقَا وَسَعِيدُ
قال سعيد بن العاص هى والله القائلة :

قَدْ كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ أَمُوتَ وَلَا أَرَى فَوْقَ الْمَنَابِرِ مِنْ أُمِّيَّةَ خَاطِبَا
فَاللَّهُ أَخْرَ مُدَّتِي فَتَطَاوَلَتْ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلزَّمَانِ خَطِيبُهُمْ بَيْنَ الْجَمِيعِ لِّأَلِ أَحْمَدَ عَائِبَا

ثم سكّ القوم ، فقالت بكاره : نبحثى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى ،
فقصّر نحجنى^(٣) ، وكثّر عَجَبِي ، وَعَشِيَّ بَصَرِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ قَائِلَةٌ مَا قَالُوا ، لَا أَدْفَعُ ذَلِكَ
بتكذيب ، وما خَفِيَ عَلَيْكَ مِنِّي أَكْثَرُ ، فامضِ لَشَأْنِكَ ، فلا خيرَ فى العيش بعد

(١) ضعف . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبتى وتداولتى ، والمجئ : للعصا المطوقة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برِّك ، اذكرى حاجتك ،
قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدها .

(المقد الفريد ١ : ١٣٠ / ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

٣٧٠ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها
معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : « يابن أخى ،
لقد كفرت يدّ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت
غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم
بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسّ الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم
الخلدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبيّنا
صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فولّيتم علينا من بعده - وتحتجّون بقرابتكم من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنو إسرائيل
في آل فرعون ، وكان عليّ بن أبي طالب رحمه الله بعد نبيّنا صلى الله عليه وسلّم بمنزلة
هرون من موسى^(٣) ، فغايبتنا الجنة ، وغابتكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أينها العجوز الضالة ، وأقصّري من قولك ، وغضّى

(١) جمع جد : وهو الحظ . (٢) أذل ، وفي بلاغات النساء « وأصر » . (٣) ورواية

بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، وفصيباً وقدرًا ، حق قبض الله نبيه صلى
الله عليه وسلم ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم
موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبيّنا
بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَا بَنِيَّ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُونِي »

ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وعر .

من طَرَفِكَ، قالت : وَمَنْ أَنْتَ ، لَا أَمَّ لَكَ ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يابن الآخْنَاءُ ^(١) النابغة تتكلم ، وأُمُّكَ كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخَذَهُنَّ لأجرة ! اربّع على ظَنَمِكَ ، واغْنِ بِشَأْنِ نَفْسِكَ ، فوالله ما أنت من قريش في الأبواب من حَسَبِهَا ، ولا كريم مَنَصِبِهَا ، ولقد ادعاك خمسة ^(٢) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أُمَّكَ عنهم ، فقالت : كلهم أثنائي ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، ففَلَبَّ عَلَيْكَ شَبَهَ العاص ابن وائل ، فلحِقْتَ به ، ولقد رأيت أُمَّكَ أيامَ مِنِّي بمكة مع كل عَبْدٍ عاهر ^(٣) ، فَأَتَمَّ بِهِمْ فَإِنَّكَ بِهِمْ أَشْبَهُ .

فقال مروان : كَفَى أَيْتَاهَا العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، سَاخَ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سُفْيَانِ بن الحارث بن كَلْدَةَ أشبهُ منك بالحكم ، وإنك لَشَبَهُهُ فِي زُرْقَةِ عَيْنَيْكَ ، وَحُمْرَةِ شَعْرِكَ ، مع قِصَرِ قَامَتِهِ ، وظاهر دِمَامَتِهِ ^(٤) ، ولقد رأيت الحكمَ مَاذَا ^(٥) القامة ، ظاهر الإِمْتَةِ ^(٦) ، سَبَطُ ^(٧) الشعر ، وما بيدكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتَانِ الْمُقَرَّبِ ^(٨) ، فاسأل أُمَّكَ تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : وَاللَّهِ مَا جَرَأُ عَلَى هَؤُلَاءِ غَيْرُكَ ، وإن أُمَّكَ لِلْقَائِلَةِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي قَتْلِ حِمْزَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ : نَحْنُ جَزِينَا كَمْ بِيَوْمٍ بَذَرَ والحربُ بعد الحربِ ذَاتُ سَعَرٍ ^(٩) ما كان عن عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرٍ أَبِي وَعَمِّي وَأَخِي وَصِهْرِي ^(١٠)

(١) رجل الخن وأمة الخناء : لم يحننا ، وخن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يابن اللخناء » كأنهم يقولون يادنى الأصل ، أو يانيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت - انظر ص ٢٥ . (٢) وفي بلاغات النساء « ستة » . (٣) فاجر . (٤) الدمامة : القبيح . (٥) منتهدا . (٦) الإمته بالسكرويضم : الشأن والنعمة والمهيئة . (٧) طويلة . (٨) الأتان : الحمارة ، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيرا . (٩) السمر بالفتح مصدر سمر الحرب : أي أوقدها ، وبالصم : الجنون . (١٠) قتلوا أربعتهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتله علي ، وحزرة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب - وعمها شيبة بن ربيعة - قتله حمزة - وأخوها الوليد بن عتبة - قتله علي - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة .

شَفَيْتَ (وَخَشِيْتُ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي ^(١)
فَشُكْرُ وَخَشِيَّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَ أُعْطَى فِي قَبْرِي ^(٢)

فَأَجَبْتُهَا :

يَا بِنْتَ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكَفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرٍ
صَبَحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْهَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ ^(٣)
بِكُلِّ قَطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حَمَزَةً لَيْثِي ، وَعَلَى صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمره : وَيَلَسْكَ ! أَنَا مَا ضَمَّنَا لَهَا ، وَاسْمَعْنَا مَا أَكْرَهُ ،
نَمْ قَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ اقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنْكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُنِي بِأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرَّ خَارَةً ^(٤) فِي أَرْضِ خَوَّارَةٍ ^(٥) ، تَكُونُ لَوْلَدِ الْحَارِثِ بْنِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَزَوِّجُ بِهَا
فَتَيَانَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَائِهِمْ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عُشْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ
وَضَعْتُهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ ^(٦) ، نَمْ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عَلَيَّ مَا أَمَرَ لَكَ بِهَا ،
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلَيَّا أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتِ ضَمَيْتِ
أَمَانَتَكَ ، وَخُنْتَ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ
الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَبَيْنَهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ، وَدَعَانَا (أَيَّ عَلَيَّ) إِلَى أَخْذِ حَقِّهَا ، الَّذِي فَرَضَ

(١) وحشي : غلام جبیر بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) دم العظم كضرب وأرم : بل فهو رميم .

(٣) الزهر : الحسان البيض الوجوه . (٤) الخرخار : الماء الجاري ، أي عين ماء جارية .

(٥) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار الننان ، أي سهل المعطف ، كثير الجري .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعم بفتحهن ، ونعمى ونعماء ونعام ونعم ونعمة بضمهن ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أي أفضل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

الله لَنَا فَشُدَّ بِحَرْبِكَ عَنْ وَضْعِ الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّ بِهِ ،
إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّهَا ، وَلَا نَرَى أَخْذَ شَيْءٍ غَيْرَ حَقِّهَا ، أَتَذْكُرُ عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللَّهُ فَالَكَ ^(١) ،
وَأَجْهَدَ بِلَاءَكَ ، ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبُ عَلِيًّا ، فَأَمَرَهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ
لَهَا : يَا عَمَّةُ : أَنْفِقِي هَذِهِ فِيمَا تَحْبِبِينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتَ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ صَفَدَكَ ^(٢)
وَمَعُونَتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . (المقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء من ٣٢)

٣٧١ — أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة
درع ^(٣) (بُرُودٍ) تسحبها ذراعا ، قد لائت ^(٤) على رأسها كوزًا كالمنسف ،
فسلمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟ قالت : بخير
يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلَدٍ ، وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ،
قال : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ عَضَبَ الْمَهْزَةِ لَيْسَ بِالْخَوَارِ ^(٥)
أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسْمَرًا لِلْحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارٍ ^(٦)
أَجِبَ الْإِمَامَ وَذُبَّ نَحْتِ لَوَائِهِ وَالْقَى لِلْعَدُوِّ بِصَارِمٍ بِتَّارٍ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : « عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَكَفَ ،
وَمَنْ عَادَ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ مِنْهُ » قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعُدْتُ ، وإلكنه

(١) تدعو عليه : أي نثر الله أسنانه . (٢) الصدد : العطاء . (٣) درع المرأة : قيصها
(مذكر) ودرج الحديد مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث : عصب العمامة ، والكور : لوث العمامة
وإدارتها ، والمنسف : ما ينفض به الحب ، شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع . (٥) العضب :
السيف القاطع ، والحوار من خار : إذا ضعف وكل . (٦) عرد تعريدا ، وعرد كسيع : هرب .

اخْتَرِمَ^(١) مِنْكَ ، قَالَتْ : أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَعَلِي بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّي ، وَهَدَىٰ مِن أَمْرِي ، قَالَ : كَيْفَ كَانَ قَوْلُكَ حِينَ قُتِلَ ؟ قَالَتْ : أَنْسَيْتُهُ ، قَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ : هُوَ وَاللَّهِ حِينَ تَقُولُ :

يَا لَرَجَالٍ لِعَظَمِ هَوْلِ مَصِيبَةٍ فَدَحَتْ ، فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كاسفةً لِفَقْدِ إِمَامِنَا خَيْرِ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَاطِيَّ وَمَنْ مَشَىٰ فَوْقَ التُّرَابِ لِحَيْثٍ أَوْ نَاعِلٍ
حَاشَا النَّبِيَّ لَقَدْ هَدَدَتْ قُوءَانَا فَالْحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا لِلْبَاطِلِ^(٣)

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : قَاتِلْكَ اللَّهُ ! فَمَا تَرَكْتَ مَقَالًا لِقَاتِلٍ ، اذْكُرِي حَاجَتَكَ ، قَالَتْ : أُمَّا الْآنَ فَلَا ، وَقَامَتْ فَعَثَرَتْ ، فَقَالَتْ : تَمَسَّ شَانِي * عَلَى^(٤) ، فَقَالَ : زَعَمْتَ أَنْ لَا ، قَالَتْ هُوَ كَمَا عَلِمْتَ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ بَعَثَ إِلَيْهَا بِجَائِزَةٍ ، وَقَالَ : إِذَا ضَيَّعْتُ الْحِلْمَ فَمَنْ يَحْفَظُهُ ؟
(صبح الأُمَيَّة ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٧٢ - دَارِمِيَّةُ الْحَجْوَانِيَّةُ وَمَعَاوِيَةُ

وَحَجَّ مَعَاوِيَةُ سَنَةً مِّن سِنِيهِ ، فَسَأَلَ عَنْ أَسْرَاءٍ مِّن بَنِي كِفَانَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ بِالْحَجْوَانِ^(٥) ، يُقَالُ لَهَا دَارِمِيَّةُ الْحَجْوَانِيَّةُ ، وَكَانَتْ سَوْدَاءَ كَثِيرَةِ اللَّحْمِ ، فَأَخْبَرَ بِسَلَامَتِهَا ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا خُفْيَاءَ بِهَا ، فَقَالَ : مَا حَالُكَ يَا بِنْتَ حَامِرٍ ؟ فَقَالَتْ : لَسْتُ لِحَامِرٍ إِنْ عِثَّنِي ، إِنَّمَا أَنَا أَسْرَاءُ مِّن بَنِي كِفَانَةَ ، ثُمَّ مَن بَنِي أَبِيكَ ، قَالَ : مَدَقَّتْ ، أَتَدْرِينَ لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : بَعَثْتُ إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ : عَلَامَ أَحْبَبْتَ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتَنِي ، وَوَالَيْتِهِ وَعَادِيَّتِي ؟ قَالَتْ : أَوْ تُعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أُعْفِيكَ ،

(١) هَلَك . (٢) التَّحْوِيلُ : التَّغْيِيرُ . (٣) جَمَعَ الْقُوَّةَ قُوًى ، وَإِنَّمَا قَالَتْ قُوءَانًا لِلْمَدِّ لِلضَّرُورَةِ .

(٤) أَيْ مَبْغُضُهُ . (٥) الْحَجْوَانُ : جَبَلٌ بِمَعْلَاةٍ مَكَّةَ .

قالت : « أما إذ أبيت فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطُلبتك ^(١) مالميس لك بحق ؛ وواليتُ علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء ^(٢) ، وعلى حُبِّه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى »

قال : فلذلك انتفخ بطُنك ، وعظمُ ثدياك ، ورَبَّتْ عَجيزتك ، قالت : يا هذا بهند ^(٣) والله كان يُضربُ النمل في ذلك لآني ، قال معاوية : يا هذه اربعي ^(٤) ، فإنما لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدها ، وإذا عظمُ ثديها تَرَوَّى ^(٥) رضيعها وإذا عظمت عَجيزتها رَزُنَ مجاسها ، فرجعت وسكنتُ ، فقال لها : يا هذه هل رأيتُ علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيتُه ، قال : فكيف رأيتُه ؟ قالت : رأيتُه والله لم يفقنه الملكُ الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فسكان يحلو القلوب من العمى ، كما يحلو الزيتُ الطَّسْتُ من الصدا ، قال . صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال . نعم ، قالت . تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قل : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المسكرم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ما ولا كصداً ^(٦) ،

(١) الطلبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

(٣) هي أمه هند بنت عتبة . (٤) ربيع : وقف وانتظر وتحبس . (٥) ارتوى .

(٦) صدا : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة هاني بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارَةَ (من دارم) زوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنني أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتنى بي ، فرجع إلى ، وبقيصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمني ضمة ، وشمّني شمة ، فليتني مت ثمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصداً .

وَمَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(١) ، وَفَتَى وَلَا كَاللَّيْلِ^(٢) ، سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ ، فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةَ يَقُول :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مِنْكَ عَلَيْهِمْ فَنَ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤَمِّلُ لِلْحِلْمِ
خُذِيهَا هَنِيئًا ، رَاذِكْرِي فَعَلَ مَا جِدَّ جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلَامِ
نَمَّ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ عَلَى حَيًّا مَا أَعْطَاكَ مِنْهَا شَيْئًا ، قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا وَبَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

(المقد الفريد ١ : ١٣٢ وصباح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٧٣ — شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَأَمْرُ مَعَاوِيَةَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِيُّ أَنْ يَتَنَقَّصَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ فَقَالَ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَجَمَلَ رِضَاهُ عِنْدَ أَهْلِ التَّقْوَى آثَرَ مِنْ
رِضَا خَلْقِهِ ، عَلَى ذَلِكَ مَضَى أَوَّلُهُمْ ، وَعَلَيْهِ يَمُضَى آخِرُهُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ الْآخِرَةُ
وَعَدُ صَادِقٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلَكٌ قَادِرٌ ، وَإِنْ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ
وَالْفَاجِرُ ، وَإِنْ السَّامِعُ الْمَطِيعُ لِلَّهِ لَاحِظٌ عَلَيْهِ ، وَإِنْ السَّامِعُ الْعَاصِي لِلَّهِ لَاحِظٌ لَهُ .
وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاؤُهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فِقْهًاؤُهُمْ ، وَمَلَكَ
الْمَالُ سُمْحًاؤُهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفْهًاؤُهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاؤُهُمْ ،

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، وأوله
من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند
بنت عتبة بن ربيعة ؛ ففرجت عنها وهي تنشدهم مرثى في أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟
قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأشدني بعض ما قلت ؛ فأنشدها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان
ثم أنشدتها مارثت به أخاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر الكنتني
وكان مفركا (يفتح الراء تبغضه النساء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان .
(٢) قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة تصرب للشئ يفضل على أقرانه

وملك المالَ مُبْخَلَاؤُهُمْ ، وإن من صلاح الوُلاة أن يصلُح قُرَناؤُها ، وَنَصَحَ لك يا معاوية مَنْ أَسْخَطَكَ بالحق ، وَغَشَّكَ مِنْ أَرْضِكَ بالباطل .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قل : « إن كان من مالك الذى تعهدت بجمعهِ نَخَافَةَ تَبِعَتِهِ ، فَأَصْبَتَهُ حلالا ، وَأَنْفَقْتَهُ إفضالا ، فَنَعَمْ ، وإن كان مما شاركك فيه المسلمون ، فَاحْتَجَجْتَهُ ^(١) دونهم ، فَأَصْبَتَهُ افترافا ، وَأَنْفَقْتَهُ إسرافا ، فإن الله يقول فى كتابه : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضَلُ ، أم على ؟ وأيننا أحبُّ إليك ؟ » ، فقال : « على أَقْدَمُ هِجْرَةً ، وأكثرُ مع رسول الله إلى الخير سابقَةً ، وأشجعُ منك قلبا ، وأسلمُ منك نفسا ، وأما الحب ، فقد مضى تِلْكَ ، فأنت اليومَ عند الناس أَرْجَى منه » .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٧٤ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أجملَ قومك ، حين مَلَسُوا عليهم امرأة » ، فقال : « بل قومك أجمل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البيئات : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ، ألا قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ ! » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٧٥ - حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان فقال له :
 كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسي ، قال : ما تقول في مراد ؟ قال : مذكر
 الأوتار ، وحمأة الذمار ، ومحرزوا الخطار^(٢) ، قال : فما تقول في النخع ؟ قال : مانع
 السرب^(٣) ، ومُسِيرُ الحرب ، وكاشفُ الكرب ، قال : وما تقول في بني الحرث ؟
 ابن كعب ؟ قال : فَرَّاجُ اللَّسْكَاءِ ، وفُرْسَانُ الْعِرَاقِ ، وَلِزَازُ الضَّكَّاءِ ، تَرَكَ^(٤)
 تَرَكَ ، قال : فما تقول في سعد العشيرة ؟ قال : مانعُ الضَّيْمِ ، وَبَانُو الرِّئَمِ ، وشافو
 النِّمِ^(٥) ، قال : ما تقول في جُعْفَى ؟ قال : فُرْسَانُ الصَّبَاحِ^(٦) ، وَمُعْلِيُو الرِّمَاحِ ، وَمُبَارِزُو
 الرِّيَاحِ ، قال : ما تقول في بني زُبَيْدٍ قال : كَمَاةُ أَنْجَادٍ^(٧) ، سادات أنجاد ، وقُرْعُ
 الذِّيَادِ^(٨) صُبْرٌ عند الطَّارِ ، قال : ما تقول في جَنْبٍ ؟ قال : كُفَاةٌ يَمْنَعُونَ عَنِ الْحَرِيمِ ،
 وَيَفْرِجُونَ عَنِ الْكَظِيمِ^(٩) ، قال : فما تقول في صُدَاءٍ ؟ قال : سِمَامُ الْأَعْدَاءِ ،

(١) أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جمع وتر : وهو الثَّارُ ؛ والذَّمار : ما يلزمك
 حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو السبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مارى
 من المال . (٤) اللسكاء : الزحام ؛ ومثلها الضكك ؛ ولزه كرده : شدة وألصقه والمزاز
 ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز المعطائم : أى يلز بها ويقرن ليذالها ومنه قول لبيد :

إننا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جسامها

وترك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتنظيم ، أى دِمَ هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى أسمى
 مكان . (٥) الرِّيم : الدرجة والفضل والزيادة ، والنِّم : العطش . (٦) الغارة .

(٧) ضببط فى الأمل بفتح الزاى ، وهو خطأ ، زييد كزبير : بطن من مذحج ، رده عمرو بن معديكرب
 وكأثير : بلد باليمن ، وكماة جمع كى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشهم وكتف ورجل :
 الشجاع الماضى فيما يمجز غيره . (٨) وقُرْعُ جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذِّيَاد : الذود : الدفع .
 (٩) الكظيم والمكظوم : المكروب .

وَمَسَاعِيرُ الْهَيْجَاءِ^(١) ، قال : فما تقول في رَهَاء ؟ قال : يَنْهَنُوهُنَّ^(٢) عادية الفوارس ،
وَيَرِدُونَ الْمَوْتَ وَرَدَّ الْخَوَامِسِ^(٣) قال : أنت أعلم بقومك .

(الأمالي ١ : ١٦٠)

٣٧٦ - حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ،
وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لداتي^(٤)
وأوهي عمادي ، وشيَّب سَوَادِي ، وأسرع في تِلَادِي^(٥) ، ولقد عشتُ زمناً أُصْبِي
الْكُمَابَ^(٦) ، وأسُرَّ الْأَحْصَابَ ، وأُجِيدُ الضَّرَابَ^(٧) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ،
وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَمَانًا يَرْهَبُ الْقُرُنُ جَانِبِي	كَأَنِّي شَتِيمٌ بَاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ ^(٨)
يَخَافُ عَدُوِّي صَوَّلَتِي وَبِهَا بِنِي	وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ
وَتَضْبِي الْكُمَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي	كَأَنِّي غَضْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ ^(٩)
فَبَانَ شَبَابِي وَاعْتَرَنِي رَثِيَّةٌ	كَأَنِّي قَنَاءٌ أَطْرَتْهَا الْمَاطِرُ ^(١٠)
أَدْبُ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي	لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ ^(١١)
وَقَصَّرُ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتُ كَلَامَا	لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ
وَكَيْفَ يَلْدُ الْعَنْشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا	رَهِينَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

(١) الهيجاء : الحرب ، وهو مسمر حرب (كدرهم) أي موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخمس بالكسر : أن ترمي الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهي إبل خوامس .

(٤) اللدة : من ولد مملوك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كمب ثلثي الجارية : نهدي ، وهي كاعب وكعاب . (٧) ضرب الفحل ضرباً : نكح .

(٨) القرن : كفوك في الشجاعة أو هام . والشتيم : الأسد للعابس ، والخدر : أجمة الأسد . ومنه

أسد خادر . (٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (١٠) الرثية : وجع المفاصل واليدين

والرجلين . والاطر والتأطير : عطف الشيء ، وتأطر الرمح : تثني واعوج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من
الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يُصَدِّرنا عنها وهو راض .
(الأمال ٢ : ٩٤)

٣٧٧ - حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأي شيء سُدَّتْ قومك يا عرابة ؟
قال : أخبرك يا معاوية بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال : وكيف كان ؟
فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرِ العشيرةِ كلها كذِي الحِلْمِ يُرَضَى ما يقول ويُعرف
وذاك لأنِّي لأعادي مَرَّاتِهِم ولا عن أخى ضَرَّائِهِم أُنسَكُفُ^(١)
وإني لأعطي سائلي ، ولو غمًّا أكَفُّ ما لا أستطيع فأكَفُّ
وإني لَمَذْمُومٌ إذا قيل : حاتم نبا نبوةً ، إن الكريم يُعَنَّفُ
ووالله إني لأعفو عن سفيهم ، وأحلمُ عن جاهلهم ، وأسي في حوائجهم ، وأعطي
سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلي ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل مني ،
ومن قَصَّرَ عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشماخ حيث
يقول فيك :

رأيت عَرَابَةَ الأَوْسِيِّ يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا مارايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقاها عَرَابَةُ باليمن
(الأمال ١ : ٢٧٧)

(١) أي امتنع منه وآنف .

٣٧٨ - سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واضطنمك ، حتى بلّغك باصطناعه إياك المدى الذى لا يُجَارَى ، والغاية التى لا تُسَامَى ، فما جازيت أبى بالآلته ، حتى قدّمتَ هذا علىّ » ، وجعلت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر الآلائم علىّ ، وتظاهر نغمائكم لدىّ ، فقد كان ذلك ، ووجب علىّ المسكافاة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازَاتُ الصدور ، ونجّمتُ تلك الأمور ، ولستُ لنفسى باللائم في التشمير ، ولا الزّارى ^(١) عليها في التّفصير ، وذكرتُ أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرمَ كريماً وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رَجَماً ، وذكرتُ أن أمّك خير من أمه ، فلعمرى إن امرأة من قريش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرتُ أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن ألقوطة ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مَهْ يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدّالة عليك ، واستعقبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأنجلَ له في ردّك ، وأنجلَ على نفسك وواه خُرَاسان بشفاعتى ، وأعفه بما لا يُظْهر به مؤزوثه » ، فولّاه معاوية خُرَاسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٩ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تمائل^(١) ، وهم في إرجافهم ، فحل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرأفاً من مرأق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أتقَى الحوادثُ من خليلك مثلَ جندلةِ الرَّاجِمِ^(٢)
صُلْباً إذا خار الرجا لُ أبلٍ ممّنعِ الشكايمِ^(٣)
قد رامني الأعداءُ قبلك فامتنعتُ من المظالمِ

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقي الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وحلماً راجحاً ، وكلاً ومزعجاً لأوليائك ، وسماً نافعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقيل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمت أنه كبير وضئف ، والله لقد غمزني غمزة كاد يحطمني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .
(زهر الآداب ١ : ٥٧ والأمل ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ - روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَّى معاوية رَوْحَ بنِ زَنْبَاعٍ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ في جُنَايَةٍ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ بِالْقُدُومِ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَمْرَ بِضَرْبِهِ بِالسَّيَاطِ ، فَلَمَّا أَقْبَمَ لِيُضْرَبَ قَالَ : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، أَوْ أَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيصَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا أَوْ تُشْمِتَ بِي عَدَاؤُ أَنْتَ

(١) تمائل الليل : قارب البرء . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكايم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة قفم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لاينقاد .

وَقْتَهُ ^(١) ، وَأَسَأْتُ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَى حُلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ إِفْسَادِ صِنَائِكَ » ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :
« إِذَا اللَّهُ سَتَى عَقْدَ أَمْرٍ تَيْسَّرَا » خَلُّوا سَبِيلَهُ .

(الأملال ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٨١ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ بَدِيِّ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ

جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعَاءَهُ ، وَحِجْرِي فِتْنَاءَهُ ، وَتَذَنِّي سِقَاءَهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَيْ فِصَالُهُ ^(٤) ، وَكَمَلَتْ خِصَالُهُ ، وَاسْتَوَكَمَتْ ^(٥) أَوْصَالُهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرَهَا ^(٦) ، فَبَادَنِي ^(٧) أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) » .

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عَلِيَّ ، وَأَلْهِمُهُ حِلْيَ ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكَمَ فَتْلُهُ » .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفَاءً ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتُهُ شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرَهَا » .

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْدُدْ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ سَجْمِكَ أَوْ قَالَ : « إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، فَادْفَعْ ابْنَهَا إِلَيْهَا ، فَأَخْلِقْ أَنْ تُحَسِّنَ أَدَبَهُ » .
(الأملال ٢ : ١٤ ، وأمال السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

(١) وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كَيْتَهُ » . (٢) السقاء : جلد السمكة يكون للماء واللبن . (٣) أرماءه . (٤) فطامه . (٥) اشتدت ومتنت . (٦) الإياء والمشقة بالفتح والضم ، أو بالفتح : ما أكرهك غيرك عليه ، وبالفهم ما أكرهت نفسك عليه . (٧) آداه على قلان : آداه وأعانه . (٨) الإكراه . (٩) الخف : الخفيف .

٣٨٢— صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :

قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقربهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قریش وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقياً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطر ، وَيُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويردع بك الجانف^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير^(٢) . قد ألجأتني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق عليّ فيه المنهج ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عاره^(٣) ، كمّا خشيت إظهاره ، فليتصنيئني أمير المؤمنين من الخضم ، فإني أعوذ بمقوته^(٤) من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتدّ على الحرائر ، ذوات البعول الأجائر^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بعلك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشهر^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه المرأة ؟ فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضاً ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقصاً ، أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق ، وأنا مخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقها عن ربيبة

(١) المائل : الجائر . (٢) أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعليلاً : إذا قصر ولم يجتهد

(أو من غير تشويه ، من عذر الشيء : لطمه بالمذرة كفرحة) . (٣) تسكنى بذلك من طلاقها .

(٤) المقوة : ماحول الدار . (٥) البعول والبعواة : جمع بعل وهو الزوج ، والأجائر : جمع

أجور ، أفعل تفضيل من جار . (٦) شهره كمنه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شنة .

ظهرت ، ولا لأى هفوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ غنى حبايلها ، فقال معاوية : وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيجها على بجواب عتيد^(١) ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لا بُدَّ لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصَّخَب ، دائمة الذَّرَب^(٢) ، مُهَيِّفَةٌ لِلأَهِلِّ ، مُؤَذِيَةٌ لِلْبَعْلِ ، مُسَيِّئَةٌ إِلَى الْجَارِ ، مُظْهِرَةٌ لِلْعَارِ ، إِنْ رَأَتْ خَيْرًا كَتَمَتْهُ ، وَإِنْ رَأَتْ شَرًّا أَذَاعَتْهُ » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حَضَرَه من المسلمين ، لَرَدَدْتُ عَلَيْكَ بَوَادِرَ كَلَامِكَ ، بِنِوَافِذٍ أَقْرَعُ بِهَا كُلَّ سِيَهَامِكَ^(٣) » ، وَإِنْ كَانَ لَا يَحْمِلُ بِالْمَرْأَةِ الْحَرَّةِ أَنْ تَشْتِمَ بَعْلًا ، وَلَأَنْ تُظْهِرَ لِأَحَدٍ جَهْلًا » ، فقال معاوية : عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَمَّا أَجَبْتَهُ ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، مَا عَلِمْتُهُ إِلَّا سَتُولًا جَهُولًا ، مُلِحًّا بِخَيْلٍ^(٤) » ، إِنْ قَالَ فَشَرُّ قَائِلٍ ، وَإِنْ سَكَتَ فَذُو دَغَائِلٍ^(٥) ، لَيْتَ حِينَ يَأْمَنُ ، وَثَعْلَبَ حِينَ يَخَافُ ، شَحِيمٌ حِينَ يُضَافُ^(٦) ، إِنْ ذَكَرَ الْجُودَ انْقَمَعَ^(٧) ، لَمَّا يَعْرِفُ مِنْ قِصَرِ رِشَائِهِ^(٨) ، وَلَوْ لَمْ آبِائِهِ ، ضَيْفُهُ جَائِعٌ ، وَجَارُهُ ضَائِعٌ ، لَا يَحْفَظُ جَارًا وَلَا يَحْمِي ذِمَارًا ، وَلَا يُدْرِكُ نَارًا ، أَكْرَمَ النَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ أَهَانِهِ ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَكْرَمِهِ » ، فقال معاوية : سَبَّحَانَ اللَّهِ لَمَّا تَأَنَّى بِهِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنَ السَّجَمِ ! فقال

(١) حاضر مهياً . (٢) الصخب : شدة الصوت ، والذرب : حدة اللسان وبذاءته .

(٣) البوادر : جمع بادرة ، وهى ما يبدو من حدثك فى الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بحجج نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفًا بالبخل . ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك ما فيه ؟ » وسلم عليه أعرابي يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : وراك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أطعمنى ، قال : عيالى أحق منك ، قال : ما رأيت ألام منك ! قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » .

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفينة . والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد .

(٦) ضافه بضيفه : زل عليه ضيفاً . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفياً .

(٨) الرشاء فى الأصل : الخبل .

أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَاحاً^(١) فتعالى أفصل بينك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت معها ابنتها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعْجِل المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دعها تفل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حملته خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعت كرهاً ، إن بطني لو عاؤه ، وإن ثديي أسقاؤه ، وإن حجري أفناؤه ، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتين به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فتكلفت لها أبياتاً لملك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مَرْحَبًا بِالتِّي تَجُورُ عَلَيْنَا نَمَّ مَهْنَلًا بِالْحَامِلِ الْمُحْمُولِ
أَغْلَقْتُ بِأَبْهَى عَلَى وَإِنْ خَيْرَ النِّسَاءِ ذَاتُ الْبُحُولِ
شَقَلَتْ نَفْسَهَا عَلَى فَرَاغًا هَلْ سَمِعْتُمْ بِالْفَارِغِ الْمَشْفُولِ ؟

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصَّواب وبالْحَقِّ كَمَنْ جَارَ عَنْ مَنَارِ السَّبِيلِ
كَانَ ثَدْيِي سِقَاءَهُ حِينَ يُضْحِي نَمَّ حِجْرِي فَنَأَوُهُ بِالْأَصِيلِ
لَسْتُ أَبْغِي بِوَاحِدٍ يَأْتِي حَرْبٍ بَدَلًا مَاعِلِيَّتِهِ وَالْخَلِيلِ^(٢)

فأجابها معاوية :

ليس مَنْ غَدَاهُ حِينًا صَغِيرًا وَسِقَاءَهُ مِنْ ثَدْيِي بِمُخْذُولِ

(١) أى إذا كان الوقت رواحاً ، والرواح : العشى . (٢) أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم .

هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَبِيهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ^(١)
أُمُّهُ مَا حَفَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحِمْلِ هَذَا الضَّئِيلِ^(٢)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٨٣ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لَمَّا قَدِمَ الْأَحْنَفُ فِي وَجْهِهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، تَكَلَّمَ أَبُو حَاضِرِ
الْأَسَدِيِّ - وَكَانَ خُطِيبًا جَمِيلًا - فَقَالَ لَهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : اسْكُتْ فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنْ
لِيَ بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ الدِّينَارَ بِالْدِّرْهَمِ ، قَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَدَا وَلَكَ مَثَلًا ، أَفْتَأَذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلُنَا
وَمَثَلُكَ وَمِثْلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الْأَعَشَى حَيْثُ يَقُولُ :

عَلَّقَتْهَا عَرَضًا وَعَلَّقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٣)

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحَبُّنَا أَهْلُ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ

ابْنُ مَرْوَانَ . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ — كلام خطيب الأزدي عبد الملك بن مروان

بَعَثَ الْحِجَابُ خُطْبَاءَ مِنَ الْأَحْمَاسِ^(٤) إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَتَكَلَّمُوا ، فَلَمَّا

انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى خُطْبِيبِ الْأَزْدِ ، قَامَ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّا حَيٌّ فِيمَا لَ ، وَلَسْنَا بِحَيٍّ مَقَالٍ ، وَأَنَا نَجْزِي بِفِعْلِنَا عِنْدَ أَحْسَنِ

(١) الرحم: الرحمة والرفقة والتطف . (٢) في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ،

إذ يخل وزن البيت . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول مشددا) : أحبها . (٤) الحمس كقفل : الأمكنة الصلبة جمع أحس ، ولقب به قريش ، وكنانة ، وجذيلة ، ومن تابعهم في الجاهلية انحسروا في دينهم ، أو لانحسارهم بالحمساء وهي الكمية ، وأحساس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أكَفْنَا ، وإن الموت لَيْسَتْ مَعَذِبُ أرواحنا ، وقد علمتُ الحربُ الزُّبُون ، أَنَا نَقْرَعُ جِجَاحَهَا ، وَنَحْلِبُ صَرَاهَا^(١) » ثم جلس^(٢) .

(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ — سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل الحَجَّاجُ^(٣) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاجُ : بلغني أنك لا تقدر على الهِجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَّرَ على تشييد الأبنية ، أمكنه إخراج الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عِزًّا يمنعنا من أن نُظَلَمَ ، وإن لنا حِلْمًا يمنعنا من أن نُظَلَمَ ، فَعَلَّامُ الهِجاء ؟ فقال : لَكَلَّمَكَ أشعرُ من شعرك ! فَأَتَى لك عِزٌّ يمنعك من أن تُظَلَمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحِلْمُ الذي يمنعك من أن تُظَلَمَ ؟ قال : الأدب المُسْتَطَرَف ، والطبع التَّالِد ، قال : يا عجاج لقد أصبحتَ حكيماً . قال : وما يمنعني وأنا نجى^(٤) أمير المؤمنين ؟ » .

(الأمال ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ — وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما وَلِيَ الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْنِ بعد قتله ابنُ الزبير ، استخَصَّ إبراهيم بن محمد ابن طَلْحَةَ ، فقرَّبَه وعظم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يقصِّر له في برِّ وإعظام ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

(١) الصري : بقية اللبن . (٢) وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء زارند معاوية ، فذهبت في الخطب

كل مذهب ، قام صبرة بن شيان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حي فعال ، ولستنا حي مقال ، ونحن نبليغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروي المبرد في الكامل هذا القول من صبرة

أيضا - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيان من الأزدي - انظر الجزء

الأول ص ٤٣٦ . (٣) هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور ، مات سنة ٩٠ هـ . (٤) مسار .

دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ
 الْحِجَازِ ، لَمْ أَدْعُ لَهُ بِهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ
 الرَّحِمِ ، وَوُجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ
 الْمُوَازَرَةِ . وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَبْكَ ، لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ إِذْنُكَ ،
 وَتَعْرِفَ لَهُ مَا عَرَفْتُكَ » . فَقَالَ : أَذْكَرْتَنَا رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غَلَامُ : أَتَذُنُ
 لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَدْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى فَرَاشِهِ ،
 ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، إِنْ أَبَا مُحَمَّدٍ (الْحِجَاجِ) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَعْرِفْكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ
 وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوُجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ
 الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَاهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ ، فَلَا تَدْعُنَّ حَاجَةً فِي خَاصَّةِ
 نَفْسِكَ وَعَامَّتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَوَّلَ الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقُّ مَا قُدِّمَ
 بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آدَاءُ ، وَلَكَ فِيهِ
 وَجْهَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيحَةٌ ، وَعِنْدِي نَصِيحَةٌ لَا أَجِدُ بُدًّا مِنْ ذِكْرِهَا ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ
 إِلَّا وَأَنَا خَالٍ ، فَأَخْلَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرِدَ عَلَيْكَ نَصِيحَتِي ، قَالَ : أَدُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ :
 نَعَمْ ، دُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لِلْحِجَاجِ قَم- ، فَلَمَّا خَطَرُفَ ^(١) السَّيْرَ أَقْبَلَ عَلَى
 إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ قُلْ نَصِيحَتُكَ ، قَالَ : بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَاهَدْتُ إِلَى
 الْحِجَاجِ فِي تَقَطُّرُسِهِ وَتَعَجُّرُفِهِ ، وَبُعْدِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَوَائِيهِ الْحَرَمِينَ ،
 وَهَامَا مَاهِمَا وَبِهِمَا مَنْ بِيَهُمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْمَوَالِي الْأَخْيَارِ ، يَسُومُهُمُ الْخُسْفُ ^(٢)
 وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ سَفَكِ دِمَائِهِمْ ، وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ حُرْمَتِهِمْ ،
 وَيَطْوُمُ بِطَغَامِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَرَعَاعِ لَأَرْوِيَهُ لَهُمْ فِي إِقَامَةِ حَقِّ ، وَلَا فِي إِزَاحَةِ بَاطِلِ ،
 ثُمَّ تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَنْجِيكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بِكَ إِذَا جَانَاكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 خَدًّا لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَنْجُو هُنَاكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لَكَ

(١) المراد أُرْغِي ، من خَطَرَفَ جِلْدَ الْمَرْأَةِ : إِذَا اسْتَرْغَى . (٢) يُولِيهِمُ الذِّلَّ .

النجاة ، فارتفع على نفسك أو دَع ، وكان عبد الملك مُتَكَبِّراً ، فاستوى جالساً ، وقال : كذبتَ ومِنتَ ^(١) فيما جئت به ! واقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجده فيك ، وقد يُظَنُّ الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المائن الحاسد ! قال : فقامت والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطر الستر لحقني لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل فلبث ملياً ، ولا أشكُ أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتقني ، وقبّل ما بين عينيّ ، وقال : أما إذا جرى الله المتواخين خيراً بفضل توأصليهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنَّ ناظرَيك ، ولأغلينَّ كعبك ، ولأتبعنَّ الرجال غبارَ قدميّك ، قال : فقلت في نفسي إنه ليسخر لى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد في نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يداً عندى من الحجاج ، ولو كنت محايياً أحداً بدبنى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما ، ووليته المراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدَحِضُها إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليوذى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج وأكرمنى أضاف إكرامه .

(العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح العيون ص ١١٩)

(١) مان مينا : كلب .

٣٨٧ - قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجمام ، وقَدِم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المِصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ تذاكروا البلدان ؛ فقال محمد بن ابن عُمَيْر بن عَطَّارِد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وغمَّقها ^(١) ، وسَفَّت عن الشام وَوَبَّأَتْها ، وجاورها الفُرَاتُ ، فَعَذَّب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صَفْوَان الأهمشي : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم في السَّرِيَّة ^(٢) ، وأكثرُ منهم قَنَدًا ^(٣) ، وعاجًا ، وساجًا ^(٤) ، وناسًا ^(٥) ، ماؤنا صَفْو ، وخيرُنا عَفْو ، لا يخرج من عندنا إلا قَائِدٌ وسائقٌ وناعقٌ ^(٦) » ، فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خبير ، وقد وَطِّئتهما جميعاً » ، فقال له : قل فأنت عندنا مُصَدِّقٌ ، فقال : « أمَّا البصرة فمَجُوزٌ شَبَطَاءٌ ، دَفْرَاءٌ ، بَحْرَاءٌ ، أُوتِيَتْ من كل حَلْيٍ وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابة حسناء جميلة ، لاحتلَّى لها ولازينة » . فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان ^(٧) - وَسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : « نحن مَنَابِتُنَا قَصَبٌ ، وأنهارنا عَجَبٌ ، وسماؤنا رُطَبٌ ^(٨) ، وأرضنا ذهب » .

(١) الغمق : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وثقل ، أو قرية من المياه ، وفي الأصل : « وغمقها » وهو تصحيف (٢) السرية : من خمسة أنفص إلى ثلثائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال . (٣) القند : غسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض تلبيه ، وهو يشبه الآبنوس . (٥) في الأصل : « وبأسا » بالباء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعم : الخطيب . (٧) أى يصف البصرة ، وكذا ما بعده . (٨) السماء : كل ماعلاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كسحاب : قرية قريبة منها » ، وأن القمر لكثرتة ووفرتة يظللهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سرية ، وأعظم منكم تجرية ^(١) ، وأكثر منكم ذرية ، وأغذى منكم برية » .

وقال أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وعاجاً ، وديباجاً ، وخراجاً ، ونهراً عجاجاً ^(٢) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٨٨ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسير ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلِّك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : فكيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدَّةٍ فنقطع فيهم ، وياقوننا بجِدَّةٍ فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد ؟ قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا ببعض ما كيدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُمَاة السَّرح ^(٣) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرَف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَأُوت ^(٤) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

(١) تجر كنصر تجرا وتجارة : التجر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم رأطول باءاً من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة ثغر على الخليج للفارسي ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) المعجاج : الصياح من كل ذي صوت . (٣) السرح في الأصل : المال السهم . (٤) رَوَى في الأمر : نظر فيه وتمعبه ، ولم يجعل بجواب .

٣٨٩ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه مئة من تليد الأزدى - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وقتل أميرهم عبد ربّه الصغير، فلما دخلا عليه بدر كعب فأنشده قصيدته التى مطلعها :

يَا حَفْصُ: إِنِّي عَدَايَ عَنْكُمْ السَّفَرُ . وَقَدْ سَرِزْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب ؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له: أخبرنى عن بنى المهلب، قال: « الْمَغِيرَةُ فَارِسُهُمْ وَسَيْدُهُمْ، نَارُ ذَا كِيَّة^(١)، وَصَعْدَةُ^(٢) عَالِيَّةٌ، وَكَفَى بِيَزِيدَ فَارِسًا شَجَاعًا، لَيْثُ غَابٍ، وَبَحْرُ جَمِّ عُبَابٍ، وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ، لَيْثُ الْمُقَارِ^(٣)، وَحَامِي الدَّمَارِ، وَلَا يَسْتَحْيِي الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُذْرِكٍ، فَكَيْفَ لَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْحَاضِرِ، وَالْأَسَدِ الْخَادِرِ؟ وَعَبْدُ الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ، وَسَيْفٌ قَاطِعٌ، وَحَبِيبُ الْمَوْتِ الزُّعَاقُ، إِنَّمَا هُوَ طَوْدٌ شَامِخٌ، وَفَخْرٌ بَاذِخٌ^(٤)، وَأَبُو عُيَيْنَةَ الْبَطْلُ الْهَمَامُ، وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ، وَكَفَاكُ بِالْمَفْضَلِ نَجْدَةٌ، لَيْثُ هَذَارٍ، وَبَحْرُ مَوَّارٍ^(٥)، وَمُحَمَّدُ لَيْثُ غَابٍ، وَحُسَامُ ضِرَابٍ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانُوا فِيكُمْ؟ قَالَ: كَانُوا حُمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا، فَإِذَا أَلْيَلُوا^(٦) فَقَرَّ سَانَ الْبَيَاتِ، قَالَ: فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ؟ قَالَ: كَانُوا كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَغَةِ: لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفُهَا، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ لَكُمْ الْمَهْلَبُ وَكُنْتُمْ لَهُ؟ قَالَ: كَانَ لَنَا مِنْهُ شَفَقَةُ الْوَالِدِ، وَلَهُ مَنَآ بَرُّ الْوَلَدِ، قَالَ: فَكَيْفَ جَمَاعَةُ النَّاسِ؟ قَالَ: حَلَى أَحْسَنَ حَالٍ، أَدْرَكُوا مَا رَجَوْا، وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا، وَأَرْضَاهُمُ الْعَدْلُ، وَأَغْنَاهُمُ النَّفْلُ^(٧)، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعِدْوُكُمْ؟ قَالَ: كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذَا أَحَدُوا يَتَسَنَّا مِنْهُمْ،

(١) ذكت النار: اشتد لهاها. (٢) الصعدة: القناة المستوية تنبت كذلك. (٣) أغار على

للمدو لغارة ومغارا. (٤) الطود: الجبل، وباذخ: عال. (٥) مار: ماج واضطرب.

(٦) أليوا وألألوا: دخلوا فى الليل. (٧) الغنيمة والهبة.

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحدة عندنا آثر من القل^(١) ، قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل المبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغاني ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٥ ، وزهر

الآداب ٣ : ٩٣)

٣٩٠ - سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْك بن سُلْكَة^(٢) ، فقال :
« أصلح الله الأمير ! أعزني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ؛
فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصي عاصي من عرض
العشيرة ، فحلت على اسمي ، وهدمت داري ، وحزمت عطائي ، قال : هيات ، أما سمعت
قول الشاعر :

جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبِّمَا تُعَذِّبُ الصَّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ^(٣)
وَلَرُبَّ مَاخُوذٍ بِذَنْبِ عَشِيرِهِ وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

(١) القوم المنهزمون . (٢) هو غير سليك بن سلكة الذي ضرب به المثل في العذر ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سليك بن عمرو التميمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتابط شرا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : عنزة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد دلى في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العيون « وهو جاهلي قديم » - انظر ترجمته في سرح العيون ص ٨٠ والأغاني ١٨ : ١٣٣ - . (٣) في الأصل « جانئك من يجني عليك وقد » على أن المروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكن رأيت المروض في البيت الذي يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشكلة بين المروضين .

قال أصلح الله الأمير، سمعتُ الله قال غير هذا، قال : وما ذاك ؟ قال : قال :
« يَا أَيُّهَا الْقَزِيْبُ : إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »
قال : معاذ الله أن نأخذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا أَطْعَمُونَا .

قال الحجاج : عليّ بيزيد بن أبي مُسلم^(١) ، فَأَتَيْتَ بِهِ قَمَثِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فقال :
فَكَتَّ لِهَذَا عَنْ اسْمِهِ ، وَاصْطَلَّكَ^(٢) لَهُ بَعْطَانُهُ ، وَابْنُ لَهُ مَنْزِلُهُ ، وَصِرَ مُنَادِيَا يَنَادِي
فِي النَّاسِ ، صَدَقَ اللَّهُ ، وَكَذَّبَ الشَّاعِرُ .
(المقد الفريد ٣ : ٦)

٣٩١ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق . وتنفّم مذهبهم ، وتسخط طريقتهم ، فقال له
جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسنّاً - : « أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك ،
على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لِدَاتِ نَفْسِكَ ، فدع ما يبعدهم منك ،
إلى ما يقرّبهم إليك ، والنّمس العافية ممن دونك ، تُعْطَاهَا مِنْ فَوْقِكَ ، وليمكن إبقائك
بعد وعيدك ، ووَعِيدُكَ بعد وعدك . قال الحجاج : « إِنِّي وَاللّهِ مَا أَرَى أَنْ أَرُدَّ
بَنِي اللَّكِيعةِ إِلَى طَاعَتِي إِلَّا بِالسَّيْفِ » ، فقال « أَيُّهَا الأمير ، إن السيف إذا لاقى السيف
ذهب الخيَارُ » ، فقال الحجاج : « الْخِيَارُ يَوْمُئِذٍ اللَّهُ » ، قال : « أَجَلٌ ، وَلَكِنْ
لَا تَدْرِي لِمَنْ يَجْعَلُهُ اللَّهُ » ، فغضب الحجاج وقال : « يَا هَنَاءُ^(٣) إِنَّكَ مِنْ مُحَارِبٍ » ،
فقال جامع :

وَالْحَرْبُ سُمِّيَتْ ، وَكَانَ مُحَارِبًا إِذَا مَا الْقَتْلُ أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَحْمَرًا

(١) كاتب الحجاج . (٢) صك له كقتل : كتب له صكاً ، وهو الكتاب الذي يكتب في المعاملات : (الشيك) .

(٣) هن : كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح باسمه قلت : ياهن أقبل ،

وفد تزد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة ، فيقال ياهناه أقبل ، أي يافلان ، وهذه أهاء تصير تاء

في الوصل ، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتسكّر لاجتماع الساكنين .

فقال الحجاج: « والله لَهَمَمْتُ أَنْ أَخْلَعُ لِسَانَكَ ، فَأُضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فقال جامع : « إِنْ صَدَّقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ ، فَفَضَّبُ الْأَمِيرُ أَهْوَنَ عَلَيْنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ » قَالَ : أَجَلٌ ، وَسَكَنَ ، وَشَغِلَ الْحَجَّاجُ بِيَهْضِ الْأَمْرِ ، فَاَنْسَلَ جَامِعٌ ، فَمَرَّ بَيْنَ صَفُوفِ خَيْلِ الشَّامِ ، حَتَّى جَاوَزَ إِلَى خَيْلِ أَهْلِ الْعِرَاقِ - وَكَانَ الْحَجَّاجُ لَا يَخْلُطُهُمْ فَأَبْصَرَ كَبْكَبَةً^(١) فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ بَكْرِ الْعِرَاقِ ، وَتَمِيمِ الْعِرَاقِ ، وَأَزْدِ الْعِرَاقِ ، وَقَيْسِ الْعِرَاقِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَثَرُوا بِأَوَّاهِهِ ، وَبَلَّغَهُمْ خُرُوجَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ دَافِعِ اللَّهَ لَنَا عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : وَيَنْجِيكُمْ أَعْمُوهُ بِالْخَلْعِ كَمَا يَفْعَلُكُمْ بِالْعِدَاوَةِ ، وَدَعُّوا التَّمَادِي مَا عَادَاكُمْ ، فَإِذَا ظَفِرْتُمْ بِهِ تَرَاجَعْتُمْ وَتَعَايَيْتُمْ ، أَيُّهَا التَّمِيمِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ الْأَزْدِيِّ ، وَأَيُّهَا الْقَيْسِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ التَّغْلَبِيِّ ، وَهَلْ ظَفِرَ بَيْنَ نَاوَاهِ مِنْكُمْ إِلَّا بَيْنَ بَقِيٍّ مَعَهُ مِنْكُمْ ؟ » وَهَرَبَ جَامِعٌ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَجَارَ بَزْرُقَةَ بْنِ الْحَارِثِ .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢)

وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ - ليلي الأخيلية والحجاج

بَنَ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ :

كُنْتُ أَدْخُلُ مَعَ عَنبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي إِذَا دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ، فَدَخَلَ يَوْمًا ، فَدَخَلْتُ إِلَيْهِمَا ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْحَجَّاجِ أَحَدٌ إِلَّا عَنبَسَةُ ، فَأَقْعَدَنِي ، فَخَيَّرَ الْحَجَّاجُ بِطَبَقٍ فِيهِ رُطْبٌ ، فَأَخَذَ الْخَادِمُ مِنْهُ شَيْئًا فَجَاءَنِي بِهِ ، ثُمَّ جِيءَ بِطَبَقٍ آخَرَ ، حَتَّى كَثُرَتْ الْأَطْبَاقُ ، وَجَعَلَ لَا يَأْتُونُ بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَنِي مِنْهُ بِشَيْءٍ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ مَا بَيْنَ يَدَيَّ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَهُمَا ، ثُمَّ جَاءَ الْحَاجِبُ فَقَالَ : امْرَأَةٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : ادْخُلِيهَا . فَدَخَلْتُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْحَجَّاجُ طَاطَأَ رَأْسَهُ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ ذَقْنَهُ قَدْ أَصَابَ الْأَرْضَ ، فَجَاءَتْ حَتَّى قَعَدَتْ

(١) الكيكبة : الجماعة .

بين يديه ، فنظرت فإذا امرأة قد أسدت ، حسنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي
 كئيلي الأخيالية ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا بلي ، ما أتى بك ؟
 فقالت : « إخلاف النجوم ^(١) ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ^(٢) ، وشدة الجهد ،
 وكنت لنا بعد الله الرقد ^(٣) » فقال لها : صفي لنا الفجاج ^(٤) ، فقالت : « الفججاج مُعْبَرَةٌ
 والأرض مُقْشَعَرَةٌ ، والميزك ^(٥) مُعْتَلٌّ ، وذو العيال مُخْتَلٌّ ^(٦) ، والمالك للقل ^(٧) ،
 والناس مُسْتِنْتُونَ ^(٨) ، رحمة الله يزجون ، أصابتنا سنون مجحفة مُبْلِطَةٌ ^(٩) ، لم تدع لنا
 هبما ولا ربما ^(١٠) ، ولا عافطة ولا نافطة ^(١١) ، أذهبت الأموال ، ومزقت الرجال ،
 وأهلكت العيال » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولا ، قال : هاتي ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُقَالُ سِلَاحُكَ ، إِنَّمَا السَّمَايَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا ^(١٢)
 أَحْجَاجٌ لَا تُعْطَى الْعَصَا مُنَافُومٌ وَلَا اللَّهُ يُعْطَى الْعَصَا مُنَافَا
 إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
 شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
 سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشَرْبِ سِجَالِهِ دَمَاءُ رَجَالٍ حَيْثُ مَالُ حَسَاهَا ^(١٣)

(١) أى أخلفت النجوم التى يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السعار (بالضم) الذى يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرقد (بالفتح) : المعونة ، مصدر
 رفعه كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والصلة . (٤) الفججاج جمع فجج : بالفتح ، وهو
 الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباركة فيه . (٦) مختل : محتاج من الخلعة
 بالفتح وهى الحاجة . (٧) للقل : أى هالك من أجل القلة . (٨) أى مقحطون ، والسنة : القحط .
 (٩) مجحفة : قاشرة ، ومبطل : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المساء ، والحجارة التى تفرش
 فى الدار ، وأبطل الرجل فهو مبطل : إذا لزق بالأرض . (١٠) الهيج : الفصل ينتج فى الصيف
 (فى آخر النتائج) والريع : الفصل ينتج فى الربيع (وهو أول النتائج) . (١١) العافطة : الضائقة
 (النجدة) ، من العطف ، وهو الضرر ، عطف كضرب : ضررت ، فهى عافطة ، والعطف أيضا : نثير
 للضأن ، نثير بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة العنز ، من النفط ، نفطت العنز كضرب نثرت بأنفها ،
 أو عطست ، فهى نافطة ، أو لأنها تنفط ببولها أى تدفعه دفعا ، أو النافطة إتباع للعافطة ، أو العافطة الأمة
 للرعاية ، والنافطة الشاة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما فى هذا البيت . (١٣) السجال : جمع
 سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَّاجُ رِزًّا كَتِيبَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا^(١)
 أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلِبُونَ صَرَاهَا^(٢)
 فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعَوْنُ مِثْلَهُ يَبْخَرُ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ نَرَاهَا^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قَاتَلَهَا اللَّهُ ! والله ما أصاب صِفَتِي شاعر
 مُذْ دَخَلْتُ الْعِرَاقَ غَيْرَهَا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى عَنبَسَةَ بْنِ سَعِيدٍ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأَعِدُّ لِلْأَمْرِ
 عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَبَدًا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ : حَبِّبُكَ ! قَالَتْ : إِنِّي قَدْ قُلْتُ أَكْثَرَ
 مِنْ هَذَا . قَالَ : حَسْبُكَ وَيَحْكُ ! حَسْبُكَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا غُلَامِ اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَقُلْ لَهُ :
 اقْطَعْ لِسَانَهَا ، فَذْهَبَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ : يَقُولُ لَكَ الْأَمِيرُ : اقْطَعْ لِسَانَهَا ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ
 الْحِجَّامِ ، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : تَسْكِلُكَ أَمْكُ ! أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالَ ؟ إِنَّمَا أَمْرُكَ أَنْ تَقْطَعَ
 لِسَانِي بِالضَّلَّةِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَتْنِيَّتِهِ ، فَاسْتَشَاطَ الْحِجَّاجُ غَضَبًا ، وَهَمَّ بِقَطْعِ لِسَانِهِ ، وَقَالَ :
 ارْزُدْهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ، قَالَتْ : كَادَ وَأَمَانَةُ اللَّهِ يَقْطَعُ مَقُولِي ! ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ :

حِجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ^(٤)

حِجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتَ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُورٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ^(٥)

ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أَنْتَدِرُونَ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : لَا وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ،
 إِلَّا أَنَّا لَمْ نَرَ قَطُّ أَفْصَحَ لِسَانًا ، وَلَا أَحْسَنَ مُحَاوَرَةً ، وَلَا أَمْلَحَ وَجْهًا ، وَلَا أَرْصَنَ شَعْرًا
 مِنْهَا ، فَقَالَ : هَذِهِ لِبَلَى الْأَخِيلِيَّةِ ، الَّتِي مَاتَ تَوْبَةُ الْخَفَّاجِيِّ مِنْ حُبِّهَا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهَا
 فَقَالَ : أَتَشِدُّنَا يَا لِبَلَى بَعْضَ مَا قَالَ فِيكَ تَوْبَةُ ، قَالَتْ : نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَهَلْ تَبْكِينَ لِبَلَى إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا وَقَامَ عَلَى قَبْرِ النِّسَاءِ النَّوْاحُ ؟

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) الصرى : بقية اللبن . (٣) العون جمع عوان .

كسحاب ، وهي التي كان لها زوج . (٤) الصمد : الذي يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج .

(٥) لقمحت : أصله من لقمحت الناقة أي قبلت اللقاح ، والشهاب : شملة من نار ساطعة ، ويقند يتوقد .

كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها وجاد لها دمع من العين سافح^(١)
وأغبط من ليلي بما لا أناله بلي ، كل ماقرت به العين طامح
ولو أن ليلي الأخيلية سلمت علي ، ودوني جندل وصفاح^(٢)
لسلئت تسليم البشاشة أو زقا إليها صددي من جانب القبر صائح^(٣)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حمامة بطن الواديين ترنمي سفاك من الغر الغواذي مطيرها^(٤)
أبيني لنا ، لا زال ريشك ناعما ولا زلت في خضراء غص نصيرها
وكنفت إذا ما زرت ليلي تبرفت فقد رآني منها الفداة سفورها
وقد رآني منها صدود رأيت وإعراضها عن حاجتي وبسورها^(٥)
وأشرف بالقور اليفاع لعلني أرى نار ليلي أو يراني بصيرها^(٦)
يقول رجال : لا يصيرك نأيا بلي ، كل ماشف النفوس بصيرها
بلي ، قد يصير العين أن تكثر البكا ويمنع منها نوها وسورها
وقد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها ، أو عليها فجورها

فقال الحجاج : يا ليلي ، ما الذي رآه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان
يُلم بي كثيراً ، فأرسل إلى يوماً : إني آتيك ، وفطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتاني
سقرت عن وجهي ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك !

(١) سافح : منصب . (٢) الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراض .

(٣) زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الأعراب أن
روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فتصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثار به ، وهذا
مثل يراد به تحريض ولي القتيل على طلب دمه ، فجعله جهلة الأعراب حقيقة . (٤) الغواذي : جمع غادية ،
وهي السحابة تنشأ غدوة . (٥) بسر كدخل : عبس وكلع . (٦) القور : جمع قارة ، وهي الجبيل

النصير ، المنقطع عن الجبال ، واليفاع : التل .

فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذى أسأله أن يصلحك ، إنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأت أقول :

وذى حاجة قلنا له لا تبخ بها فليس إليها ما حبيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب خليل
فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، مارأيت منه شيئاً ، حتى فرق الموت بينى وبينه ،
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج فى غزاة له ، فأوصى ابن عم له ، إذا أتيت
الحاضر من بنى عبادة فناد بأعلى صوتك :
عفا الله عنها ، هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها ؟
وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله فعزت علينا حاجة لا ينالها
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مرائك فيه ، فأنشدت :

لتبك العذارى من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر^(١)
قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

كان فتى الفتيان توبة لم يفتح قلائص يفحصن الحصى بالكرأكر^(٢)
فلما فرغت من القصيدة ، قال مخضن الفقمسى : — وكان من جلساء الحجاج —

(١) الشئون : جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين . وكتب مصحح الأمالى قال : « قوله المتحدر كذا فى النسخ ، وكتب بهامش بعضها لعله المتحادر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفى هامش بعض النسخ بعد البيت الآتى :

فتى لا تخطاه الرفاق ولا يرى لقدر عيالادون جار مجاور » اهـ

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور ، وهى الناقة الشابة ، أو الباقية على السير ، يفحصن : يقلبن ، من فحص المطر التراب ثلثه ، وفحص القطا التراب : اتخذ فيه أفحوصاً وهو مجثمه ، والكرأكر : جمع كركرة بالسكسر ، وهى زور البعير .

مَنْ الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إني لأظنها كاذبة ، فنظرت إليه ، ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لسرَّه أن لا تكون في داره عَذْرَاءُ إلهى حَامِلٌ منه ، فقال الحجاج : هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عنه غيبًا ، ثم قال لها : سَلِّي يا إيلي تُعْطَى ، قالت : أعطِ ، ففعلك أعطى فأحسن ، قال : لك عشرون ، قالت : زدْ ففعلك زاد فأجمل ، قال : لك أربعمون ، قالت : زد ، ففعلك زاد فأكمل ، قال : لك ثمانون ، قالت : زد ، ففعلك زاد فتمم ، قال : لك مائة ، واعلمى أنها غَمٌ ، قالت : معاذَ الله أيها الأمير ، أنت أجودُ جوداً ، وأتجدُ مجدداً ، وأوزرى زندياً ، من أن تجعلها غمًا ، قال : فما هي ؟ وَيَحْكُ يا إيلي ؟ قالت : مائة من الإبل برُعَاتِها ، فأمر لها بها ، ثم قال : أَلَاكِ حاجةٌ بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النافذة الجملدى ، قال : قد فعلتُ ، وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النافذة ذلك ، فخرج هارِبًا عَائِداً بعبد الملك ، فاتبعته إلى الشام ، فهرب إلى قُتَيْبَةَ بن مسلم بخراسان ، فاتبعته على البريد بكتّاب الحجاج إلى قتيبة ، فمات بقومس^(١) ، ويقال بمُحْلَوَان .

(الأمال ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٩٣ الغضبان بن القبعثرى والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية ، عشرين من النجائب ، وعشرين من قَعَدِ النكاح ، وعشرين من ذواتِ الأحلام ، فلما نظر إلى الكتاب لم يدر ما وصفه من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا مَنْ كان في أوليّته بدويًا ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب ، فله بداهة أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل للغضبان الشيباني ، فأحضر

(١) قومس : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

فلما مَثَلَ بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتعدّون بي قبل أن أتعشّى بهم^(١) ؟
 قال : أصلح الله الأمير : ما نَفَعْتُ مَنْ قَالَهَا ، ولا ضُرْتُ مَنْ قِيلَتْ فِيهِ ، قال : إن
 أمير المؤمنين كتب إليّ كتاباً لم أذِرْ ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقْرَأُ عَلَى ،
 فقرأ عليه ، فقال : هذا بَيِّن ، قال : وما هو ؟ قال : « أَمَّا النَّجِيبَةُ مِنَ النِّسَاءِ : فَالَّتِي
 عَظُمَتْ هَامَتُهَا ، وَطَالَ عُنُقُهَا ، وَبَعُدَ مَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهَا وَتَدْبِيهَا ، وَاتَّسَعَتْ رَاحَتُهَا ،
 وَتَخَنَّتْ رُكْبَتُهَا ، فَهَذِهِ إِذَا جَاءَتْ بِالْوَلَدِ جَاءَتْ بِهِ كَاللَّيْثِ ؛ وَأَمَّا قَعْدُ النِّسَاجِ ، فَهِيَ
 ذَوَاتُ الْأَعْجَازِ ، مُنْكَسِرَاتُ النَّدَى ، كَثِيرَاتُ اللَّحْمِ يَقْرُبُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَأُولَئِكَ بَشَرُ الْقَرَمِ^(٢) وَبُرُوزُ الظَّمَانِ ؛ وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَحْلَامِ ، فَبِنَاتُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ
 إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة
 النَّقْبَةُ^(٤) ، الْحَدِيدَةُ الرُّكْبَةُ ، السَّرْبَةُ الْوُثْبَةُ ، الْوَاسِطَةُ^(٥) فِي نِسَاءِ الْحَيِّ ، الَّتِي إِذَا
 غَضِبَتْ غَضِبَ لَهَا مَائَةٌ ، وَإِذَا سَمِعَتْ كَلِمَةً قَالَتْ لَا وَاللَّهِ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى أَقْرِهَا قَرَارَهَا ،
 الَّتِي فِي بَطْنِهَا جَارِيَةٌ ، وَيَتْبَعُهَا جَارِيَةٌ ، وَفِي حَجَرِهَا جَارِيَةٌ ، قَالَ الْحَجَّاجُ : عَلَى هَذِهِ
 لَعْنَةُ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَيَحْكُ ، فَأَخْبَرَنِي بِخَيْرِ النِّسَاءِ ، قَالَ : خَيْرُهُنَّ الْقَرِيبَةُ الْقَامَةُ مِنَ السَّمَاءِ
 الْكَثِيرَةُ الْأَخْذِ مِنَ الْأَرْضِ ، الْوَدُودُ الْوَلُودُ ، الَّتِي فِي بَطْنِهَا غَلَامٌ ، وَفِي حَجَرِهَا غَلَامٌ ،
 وَيَتْبَعُهَا غَلَامٌ ، قَالَ : وَيَحْكُ فَأَخْبَرَنِي بِشَرِّ الرِّجَالِ ، قَالَ : شَرُّهُمُ السَّنُوطُ الرُّبُوطُ^(٦) ،
 الْحُمُودُ فِي حَرَمِ الْحَيِّ ، الَّذِي إِذَا سَقَطَ لِأَحَدَاهُنَّ دَلْوٌ فِي بُئْرٍ انْحَطَّ عَلَيْهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ ،

(١) انظر خطبته في ص ٣٣٧ . (٢) القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق

إلى الحبيب . (٣) هنا سطر أسقطناه ؛ فليُنظره في الأصل من شاء . (٤) الوجه .

(٥) وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم . (٦) السنوط : الذي لا شعر في وجهه

ألبته « الكوسج » كجمفر ، وفي الأصل « السبوط » بالباء ، ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها من
 هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد عن السعي ،
 والرّبوط ، يريد به الملازم لبيته الذي لا يخرج منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه .

فهنَ زَيْنَةُ الْخَيْرِ ، وَيَقْلُنَ عَاقَى اللَّهِ فَلَانًا ، قَالَ : عَلَى هَذَا لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَخْبَرَنِي بِخَيْرِ الرِّجَالِ ؟
قَالَ : خَيْرُهُمُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّمَاخُ الْغُلْبَانِي :

فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَذْنَى مَعِيشَةٍ وَلَا فِي بِيْسُوتِ الْحَيِّ بِالْمَقُولِجِ^(١)
فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمُدَجِّجِ^(٢)
فَقَالَ لَهُ : حَسْبُكَ ، كَمْ حَبَسْنَا عَطَاكَ ؟ قَالَ : ثَلَاثَ سَنِينَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِهَا
وَحُلِّيَ سَبِيلَهُ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القريّة يعدد مساوي المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القريّة : مَا زَالَتْ الْحِكْمَاءُ تَكْرَهُ الْمِزَاحَ وَتَنْهَى عَنْهُ ،
فَقَالَ : « الْمِزَاحُ مِنْ أَدْنَى مَنْزِلَتِهِ إِلَى أَقْصَاهَا عَشْرَةُ أَبْوَابَ : الْمِزَاحُ أَدْلُهُ فَرَحٌ وَآخِرُهُ
تَرَحُّ ، الْمِزَاحُ نَقَائِضُ السَّفَهَاءِ كَالشَّعْرِ نَقَائِضُ الشَّعْرَاءِ ، وَالْمِزَاحُ يُغْرِ صَدْرَ الصَّدِيقِ ،
وَيَنْفِرُ الرِّفِيقَ ، وَالْمِزَاحُ يُبْدِي السَّرَائِرَ ، لِأَنَّهُ يُظْهِرُ الْمَعَايِرَ ، وَالْمِزَاحُ يُسْقِطُ الْمُرُوءَةَ ، وَيُبْدِي
الْخَفَاءَ ، لَمْ يَجِرَّ الْمِزَاحُ خَيْرًا وَكَثِيرًا مَا جَرَّ شَرًّا ، الْغَالِبُ بِالْمِزَاحِ وَاتَرَّ ، وَالْمَغْلُوبُ بِهِ نَاطَرٌ ،
وَالْمِزَاحُ يَجْلِبُ الشَّيْءَ صَغِيرُهُ ، وَالْحَرْبُ كَبِيرُهُ ، وَلاَ يَسُودُ بَعْدَ الْحَرْبِ إِلَّا عَفْوٌ بَعْدَ قُدْرَةٍ » ،
فَقَالَ الْحَجَّاجُ : « حَسْبُكَ ، الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ عَفْوٍ مَعَهُ قُدْرَةٌ » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

(١) الداخل .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكتنى عن كرمه ، والمدجج : الشاك في السلاح .

٣٩٥ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، أَتَى يَزِيدَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ : مَوْلَى الْحِجَابِ ، فِي جَامِعَةِ ^(١) ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا تَفْتَحِيهِ ^(٢) الْعَيْنُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ سُلَيْمَانُ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ امْرَأًا أَجْرَكَ رَسَنَكَ ^(٣) ، وَوَلَّى مِثْلَكَ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِّي مُدْبِرٌ ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَى مُقْبِلٍ ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَصَفَرْتَ ، وَلَا اسْتَجَلَلْتَ مَا اسْتَحْقَرْتَ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : « أَيْنَ تَرَى الْحِجَابَ ، أَتَهْوِي فِي النَّارِ ، أَمْ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي قَعْرِهَا ؟ » ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَا تَقُلْ هَذَا ، إِنَّ الْحِجَابَ قَمَعَ لَكُمْ الْأَعْدَاءَ ، وَوَطَأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ ، وَزَرَعَ لَكُمْ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ أَبِيكَ ، وَشِمَالِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ ، فَضَعَهُ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شِئْتَ » ، فَصَاحَ سُلَيْمَانُ : أَخْرِجْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى جُلَسَائِهِ ، فَقَالَ : قَبِّحْهُ اللَّهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبِهِ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَسْكَافَاةَ ، أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، وللعقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

(١) الجامعة : القيد . (٢) تزدرية . (٣) الرسن : الجبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ما شاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديداً للهجة ، وفيه يقول « وأيم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجملنك شريداً في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : فرويلك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتملق بها « فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمري إنك لتصبى حديث السن تعذر بقله عقلك ، وحدائة سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أمورا دلائك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

٣٩٦ — وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقد تمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبداً زبّاباً ^(١) ، قنور بن قنور ^(٢) ، لا نسب له في العرب » قال سليمان : أئى شتم هذا ! إن عدو الله

(١) بائع ذبيح ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف — ويسمى كليبا — وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الحزال وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأهر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه يختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبدة إباد
زمان هو العبد المقر بذله يروح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباغاً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطه ويضعفه ويعجزه في تأخير مناجزتهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكنتني الفرصة انهرتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأ فعلى ، فابعث من رأيك مكانى » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوك خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من ليته ، وكتب إليه يستوجه منه ، فقدم كعب على عبد الملك واستنشدته ؛ فأعجبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ غنيمة ! » فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض مشاهدته في تلك الحروب وأزمانها ، وما يوردناه المهلب من خطرهما ، أن أنجو منها ، وأكون حجاجاً ، أو حائكاً ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قدم أمير المؤمنين لما نفعتك ما سمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء : — انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح العيون ص ١١٢ ، والمقد الفريد ٣ : ٦ . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شيء ، وكسنور : العبد .

الحجاج كتب إلى : « إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كفت لك كما كفت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت تحوتك ، وإن شئت أئبكتك » فالتعنوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي بَرْدَة بن أبي موسى الأشعري فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله يعلم » قال : هات ، قال : « كان عدو الله يتزين تزِينُ المومِسة ^(١) ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة ، وأكذب في حديثه من الدجال » ، فقال سليمان لرجاء بن حيوة : « هذا وأبيك الشتم ، لا ما تأتى به السفلة ^(٢) » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ - كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قديم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأفرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حِلِّها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلده ، قال : عظمى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصبر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق ، فما نفق ^(٣) عندك حبل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت . قال : مالاك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإنيمانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتنيتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور « من المومس كوهده : وهو احتكاك الشيء بالشيء

حتى يتجرد » وأومست : أمكنت من المومس » . (٢) سفلة الناس كنقمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قِيلْتُ ، وما منعني منها رُضِيتُ .

(المعقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧٢)

٣٩٨ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمّرتُم دُنْياكم ، وأخرتُم آخِرَتكم ، فأنتم تَكْرَهُونَ الثَّقَلَةَ مِنَ الْعُمَرَانِ إِلَى الْخُرَابِ ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما الْمُحْسِنُ فَكَالْعَائِبِ يَأْتِي أَهْلَهُ مَسْرُوراً ؟ وأما الْمُسِيءُ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ^(١) يَأْتِي مَوْلَاهُ مُحْزُوناً ، قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة حق عند من تخافُ وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، قال : يا أمير المؤمنين ، نَزَّهُ رَبُّكَ ، وعَظَّمَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ، أَوْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جاسائِهِ : أَسْرَفْتَ وَيْحَكَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فقال له أبو حازم : أَسَكَتَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَ الْيَمِثَاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ لِيُبَيِّنَنَّاهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ بَعَثَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بِمَالٍ ، فَردَّه وَقَالَ لِلرَّسُولِ : قُلْ لَهُ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَرْضَاهُ لَكَ ، فَكَيْفَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ؟

(مزوج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٧)

٣٩٩ — وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدّم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجداه الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان فى هذه الأمة من هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد النّهضة لا وفد المَرزئة^(١) ، قدّمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنّا قد أمّنا فى أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عِظْنا يا غلام وأوجِز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّهم حلمُ الله عنهم ، وطولُ أمليهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يعرفونك حلمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فنزلَ قدّمك ، فنظر عمر فى سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا التفت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) رزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئا ، ورزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، أى لستنا وافدين للمطام.

(٢) وفى زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الغلام فقبل عشر سنين ».

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :
« الحمد لله الذى مَنَّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة ، وخلافتكم
عِصمة ، ومصائبكم أَسْوَءَ ، وجعلكم قدوة »
(زمر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأَهم

دخل عبد الله بن الأَهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - مع العامة ، فلم
يفجأ عمر إلا وهو مائلٌ بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله خَلَقَ الخلق ، غنيًّا عن طاعتهم ، آمِنًا من معصيتهم ، والناسُ
يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعربُ بِشَرِّ تلك المنازل ، أهلُ الوَرِّ وأهلُ المَدَرِّ ،
تَحْتَازُ دونهم طيباتُ الدنيا وَرَفَاغَةٌ ^(١) عِشْتَهَا ، مَيِّتُهُمْ فى النار ، وَحُبُّهُمْ أَعْمَى ، مع
مَالٍ لَا يُخْصَى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أَنْ يَنْشُرَ فِيهِمْ رَحْمَتَهُ ، بعث
إليهم رسولاً منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ،
فلم يمنعه ذلك أَنْ جَرَّ حَوْه فى جسمه ، وَلَقَبُوهُ فى اسمه ^(٢) ، ومعه كتاب من الله لَا يَرَحُلُ
إِلَّا بِأَمْرِهِ وَلَا يَنْزِلُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أَمَرَ بالعزيمة أَسْفَرَ لِأَمْرِ اللَّهِ
لَوْنُهُ ، فَأَقْلَجَ ^(٣) الله حُجَّتَهُ ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نَقِيًّا نَقِيًّا ،
صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ سَبِيلَهُ ،
وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إِلَّا الذى كَانَ قابلاً منهم ،

(١) الرفافة والرفاغية : سعة للعيش والخصب . (٢) فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ،

وكاهن ، وشامر . (٣) نصر .

فانقضى السيوف من أعمادها ، وأوقد النيران من شعلها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يَبْرَحْ يفصل أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم في الذي خرجوا منه ، وقرَّهم بالذي نفرُّوا منه ، وقد كان أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحَبَشية تُرَضِّع ولداً له ، فرأى ذلك غُصَّة عند موته في حلقه ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرَى إليهم منه ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه . ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فقصّر الأمصار ، وخاَط الشدة باللين ، فحسّر عن ذراعيه ، وشمرَّ عن ساقيه ، وأعدَّ للأمور أقرانها^(٢) ، وللحرب آتيا ، فلما أصابه قِن^(٣) المغيرة بن شعبه ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثبِتون قاتله ؟ فلما قيل له قِن المغيرة ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفء ، فيستحلّ دمه بما استحلّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعمًا وثمانين ألفًا ، فكسرها رباعه^(٥) ، وكره بها كفالة أهله وولده ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلَم^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وألقتك ثديها ، فلما وليتها أقيمتها حيث أبقاها الله ، فالحمد لله الذى جلا بك حوبنها^(٧) ، وكشف بك كربتها ، امض ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحق شيء ، ولا يعزُّ على الباطل شيء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولسم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلَم » سكت الناس كلهم إلا هشامًا فإنه قال : « كذبت » .

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

(١) الفتى من الإبل . (٢) أسبابها التى تقاد بها ، جمع قرن كسبب : وهو الحبل يجمع به البعيران .

(٣) القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك (٤) صاح .

(٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو الدار . (٦) جمع ظالع : وهو المتهم والمائل ، وأصله من ظلع

البعير كمنع : غمز فى مشيه . (٧) الحوية : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ، وكُم من قوم قد غرَّهم مثلُ الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبَهُمْ ، فخرجوا من الدنيا مُرْمِلِينَ^(١) ، لم يأخذوا ما أُحِبُّوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لما كَرِهوا جُنَّةً ، واقتسم ما جمعوا من لم يَحْمَدِمْ ، وصاروا إلى من لا يَعْذِرُهُمْ ، فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فَقَدِّمْهُ بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فابتغِ به البَدَلَ ، حيث يجوز البدل ، ولا تذهبن إلى سِلْعَةٍ قد بَارَتْ على غيرك ، ترجو جَوَازَها عنك . يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهِّل الحِجَاب ، وانصر المظلوم ، وَرُدِّ الظالم » .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قریش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد ابن أبي الجهم^(٢) بن حذيفة العدوي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سِنًا ، وأفضلهم رأياً وحِلْماً ، فقام متوكِّئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قریش قد قالت فيك فأطنبت ، وأثنت عليك فأحسننت ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُشِيدِهِمْ فضلك ، أفَتَأْذُنُ لي في الكلام؟ قال : تكلم ، قال : أفأؤجز أم أطنب؟ قال : بل أؤجز ، قال : « تولاك الله أمير المؤمنين

(١) أرمل : نقد زاده وافتقر . (٢) في الأمل « إسميل بن أبي الجهم » .

بِالْحَسَنَى ، وَزَيْنَتِكَ بِالتَّقْوَى ، وَجَمْعُ لَكَ خَيْرَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنْ لِيَ حَوَائِجُ أَفَإِذَا كَرِهَ؟
 قَالَ : هَاتَهَا ، قَالَ : كَبُرَتْ سَيِّئِي ، وَضَعُفَتْ قَوَايَ ، وَاسْتَدْتِ حَاجَتِي ، فَإِنْ رَأَى
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُجِيرُ كَسْرِي ، وَيَنْفِي فَقَرِيَّ ، قَالَ : يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، وَمَا الَّذِي يُجِيرُ
 كَسْرَكَ ، وَيَنْفِي فَقْرَكَ؟ قَالَ : أَلْفُ دِينَارٍ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ ، فَأَطْرَقَ هَشَامٌ
 طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : هِيَاتِ يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، بَيْتُ الْمَالِ لَا يَحْتَمِلُ مَا سَأَلْتُ ! فَقَالَ : أَمَّا
 إِنْ الْأَمْرَ لَوْ أَحَدٌ ، وَلَسَكُنَ اللَّهُ آتَرَكَ لِمَجْلَسِكَ ، فَإِنْ تَعَطَّنَا لِحَقْنًا أَدْبَتَ ، وَإِنْ تَمْنَعُنَا نَسْأَلُ
 الَّذِي بِيَدِهِ مَا حَوَيْتَ ، إِنْ اللَّهُ جَمَلَ الْعَطَاءِ مُحِبَّةً ، وَالْمَنْعِ مَبْغِضَةً ، وَلَآنَ أُحِبُّكَ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَبْغِضَكَ ، قَالَ : فَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا؟ قَالَ : أَقْضِي بِهَا دَيْنًا قَدْ حُمِّ^(١) قَضَاؤُهُ ،
 وَفَدَحْنِي^(٢) سَخْلَهُ ، وَأَرْهَقْنِي^(٣) أَهْلَهُ ، قَالَ : نِعَمَ الْمَسْلُوكِ أَسْلَسَكُنْهَا ، دَيْنًا قَضَيْتَ ، وَأَمَانَةً
 أَدْبَتَ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا؟ قَالَ : أَزْوَجُ بِهَا مَنْ أَدْرَكَ مِنْ وَلَدِي ، فَأَشَدَّ بِهِمْ عَضْدِي
 وَيَكْثُرُ بِهِمْ مَدَدِي قَالَ : وَلَا بَأْسَ أَغْضَضْتَ طَرْفًا ، وَحَصَصْتَ فَرْجًا ، وَأَمَرْتَ^(٤)
 نِسْلًا ، وَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا؟ قَالَ : أَشْتَرِي بِهَا أَرْضًا يَعِيشُ بِهَا وَلَدِي ، وَأُسْتَعِينُ بِفَضْلِهَا
 عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِي ، وَتَسْكُونُ ذَخْرًا لِمَنْ بَعْدِي ، قَالَ : وَلَا بَأْسَ ، أُرَدْتَ ذَخْرًا ،
 وَرَجَوْتَ أَجْرًا ، وَوَصَلْتَ رَحِمًا ، قَدْ أَمَرْنَاكَ بِمَا سَأَلْتَ ، قَالَ : فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ ،
 وَجَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّحِمَ خَيْرًا ، وَخَرَجَ ، فَقَالَ هَشَامٌ : تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
 أَلْطَفَ فِي سَوْأَلٍ ، وَلَا أَرْفَقَ فِي مَقَالٍ مِنْ هَذَا ، هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْقُرْشِيُّ ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ
 الْحَقَّ إِذَا نَزَلَ ، وَنَسْكِرُهُ الْإِسْرَافَ وَالْبَخْلَ ، وَمَا نُعْطِي تَبْذِيرًا ، وَلَا نَمْنَعُ تَقْتِيرًا ،
 وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَزَانُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، فَإِنْ أُذِنَ أَعْطَيْنَا ، وَإِذَا مَنَعَ أَبَيْدْنَا ؛
 وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَائِلٍ يَصْدُقُ ، وَكُلُّ سَائِلٍ يَسْتَحِقُّ ، مَا جَبَهْنَا^(٥) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ،
 فَسَأَلَ الَّذِي بِيَدِهِ مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجِيرِيَهُ عَلَى أَيْدِينَا ، فَإِنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

(١) حم الأمر : قضى وقدر . (٢) أثقلني . (٣) الإرهاق : أن تحمل الإنسان على

ملايطيقه . (٤) كثرت . (٥) جبهه كمنه : اقبله بما يكره .

وَيَقْدِرُ^(١) ، إِنَّهُ كَانَ بَعِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تسكمت فأبلغت ، وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال : إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمقتدى .

(صحيح الأعمش ١ : ٢٦٤ ، والأمال ١ : ١٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٤٠٤ — مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الدهن ، وذلك في عام باكرٍ وَنَمِيهِ ، وتتابع وليه^(٢) ، وأخذت الأرض زُخْرُفَهَا ، فهي كالزَّرابي^(٣) المَبْثُونة ، والقباطي^(٤) المنشورة ، وَثَرَاها كالـكافور ، لو وُضِعَتْ به بَضْعَةٌ^(٥) لم تُتَرَب^(٦) ، وقد ضُرِبَتْ له سُرَادِقَاتُ حَبَرٍ^(٧) ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلألاً كالعقيان^(٨) ، فأرسل إليّ ، فدخلت عليه ، ولم أنزل واقفاً ، ثم نظر إليّ كالمستنطق لي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتمَّ الله عليك نِعَمَهُ ، ودفع عنك نِقَمَهُ ، وجعل ما قلّدتك من هذا الأمر رُشْداً ، وعاقبة ما يثول إليه حُخْداً ، وأخلصه لك بالتقى ، وكثره لك بالئمة ، ولا كدّر عليك منه ما صفّا ، ولا خالط سُروَرَه بالردى ، فلقد أصبحت للمؤمنين نِقةً ومُسْتَرَاهاً ، إليك يقصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقامُ رَبِّنَ الله به ذِكْرِي ، وأطاب به تَشْرِي^(٩) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبئه أمير المؤمنين لأفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ،

(١) يقبض ويقبض . (٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض ، والولى :

المطر بعد الوسمى . (٣) جمع زربي بالسكسر ويضم : الفارق والبسط ، أو كل ما يسط واتكى عليه

(والنارق : الوسائد الصغيرة) . (٤) قباطى بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطى بفتح الأول

مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالضم على غير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل في مصر .

(٥) البضعة وقد تكسر : القطعة من اللحم . (٦) أتربه وتربه : جعل عليه التراب .

(٧) حبر جمع حبرة كعنبه : ضرب من برود اليمن . (٨) العقيان : الذهب .

(٩) النشر : الرائحة الطيبة .

ولا شيء، أحضر من حديث سلف الملك من ملوك العجم، إن أذن لي فيه حدثته به، قال: هات، قلت: «كأن رجل من ملوك الأعاجم جمع له فتاه^(١) السن، وصحة الطباع، وسعة الملك، وكثرة المال، وذلك بالخوزنقي، فأشرف يوماً، فنظر ما حوله، فقال لمن حضره: هل علمتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة: إن أذنت لي تسكمت. فقال: قل، فقال: أرايت ما يجمع لك، شيء هو لك، لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه، وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ قال: لا. بل شيء كان لمن قبلي، فزال عنه، وصار إليّ، وكذلك يزول عنى، قال: فسررت بشيء تذهب لذته، وتبقى تبعته، تكون فيه قليلاً، وتترهن به طويلاً؟ فسكى وقال: أين المهرب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تُلقى عليك أمساخاً^(٢)، ثم تلحق بجبل، تعبد فيه ربك. حتى يأتي عليك أجلك، قال: فإلى إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لاتوت، وشباب لا يهرم، وصحة لا تسقم، وملك جديد لا يبلى، قال: فإذا كان السحر فافزع على بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا يعصى، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد، كنت رقيقاً لا يخالف، ففرع عليه عند السحر بابه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهياً للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما»، وأنشده قول عدي بن زيد:

وتفكرت ربّ الخوزنقي إذا أصبح يوماً وللهدى تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(٣)
فارعوى قلبه، فقال: وما غبطة حتى إلى الممات يصير؟^(٤)

فبكي هشام وقام ودخل، فقال لي حاجبه: لقد كسبت نفسك شراً، دعاك أمير المؤمنين.

(١) الفتاه كماء: الشباب. (٢) الأمساح جمع مسح كحمل: وهو الكساء من شعر كثوب الرهبان.

(٣) معرضاً: من معرض الشيء إذا ظهر وبرز. (٤) الغبطة: المسرة.

لتحدثه وتلميته ، وقد عرفت علته ، فازدت على أن نعتت إليه نفسه ، فأقت أيا ما أتوقع الشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ، وأذن لك في الانصراف .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ؛ الأغاني ٢ : ٢٣)

٤٠٥ — خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لِشَيْبَةَ بنِ عِقَال — وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير — ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائرم ، في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال شيبه : « أما جرير فيغترف من بحر ، وأما الفرزدق فينبج من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً نحصله ، فقال : ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا بن الأهم ، فقال :

« أما أعظمهم فخراً ، وأبدم ذكرأ ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلام عِللاً ، الطامح إذا زخر ، والحامى إذا زار^(١) ، والسامى إذا خطر ، الذى إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتسكهم لعدوه سترأ ، الأغرأ الأبلق ، الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يُلاحق ، فجير ، وكلهم ذكى الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد » .

فقال له مسعدة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد فى الأولين ، ولا رأينا فى الآخرين ، واشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعلا » .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمه ، وأجزل لديكم قيسمه ، وآنس بكم الغربة ،

(١) وفي رواية زهر الآداب : « إذا ذعر » .

وفُرجَ بكم السَّكْرَبَةُ ، وَأَنْتَ وَاللَّهُ مَا عَلِمْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ كَرِيمُ الْفِرَاسِ ، عَالِمُ الْبَنَاسِ ، جَوَادُ
فِي الْمَجْلِ (١) ، بَسَامُ فِي الْبَذْلِ ، حَالِمٌ عِنْدَ الطَّيْشِ ، فِي ذِرْوَةِ قَرِيشَ ، وَلُبَّابُ عَبْدِ شَمْسٍ ،
وَيَوْمُكَ خَيْرٌ مِنْ أَمْسٍ .

فَضَحَكَ هِشَامُ وَقَالَ : « مَا رَأَيْتُ كِتَافَكَ يَا بَنَ صَفْوَانَ فِي مَدْحِ هَؤُلَاءِ
وَوَصْفِهِمْ ، حَتَّى أَرْضَيْتَهُمْ جَمِيعًا ، وَسَلِمْتَ مِنْهُمْ » .

(الْأَغَانِي ٧ : ٦٩ ، وَزَهْرُ الْأَدَابِ ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ — خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ وَبِلَالُ بْنُ أَبِي بَرْدَةَ

قَالَ أَبُو الْمُنْذِرِ هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّائِبُ الْكَلْبِيُّ : كَانَ بِلَالُ بْنُ أَبِي بَرْدَةَ (٢) جَلْدًا
حِينَ أَبْتُلِيَ ، أَحْضَرَهُ يَوْسُفُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قِيُودِهِ ، لِبَعْضِ الْأَمْرِ ، وَهُوَ بِالْحِجْرَةِ ، فَقَامَ
خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ ، فَقَالَ لِيَوْسُفَ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنْ عَدُوًّا لِلَّهِ بِلَالًا ضَرَبَنِي وَحَبَسَنِي ،
وَلَمْ أَفَارِقْ جَمَاعَةً ، وَلَا خَلَعْتُ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ » ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى بِلَالٍ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَزَالَ سُلْطَانَكَ ، وَهَدَّ أَرْكَانَكَ ، وَأَزَالَ جَمَالَكَ ، وَغَيَّرَ حَالَكَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتَ
شَدِيدَ الْحِجَابِ ، مُسْتَخْفًا بِالشَّرِيفِ ، مُظْهِرًا لِلْمَصْدِيقَةِ (٣) » .

فَقَالَ بِلَالُ : « يَا خَالِدُ ، إِنَّمَا اسْتَطَلَّتْ عَلَيَّ بَثْلَاثُ ، هُنَّ مَعَكَ عَلَيَّ ، الْأَمِيرُ
مُقْبِلٌ عَلَيْكَ ، وَهُوَ عَنِّي مُعْرِضٌ ؛ وَأَنْتَ مُطْلَقٌ ، وَأَنَا مَأْسُورٌ ؛ وَأَنْتَ فِي طِينَتِكَ وَأَنَا
غَرِيبٌ » ، فَأَخَذَهُ .

وَكَانَ سَبَبُ ضَرْبِ بِلَالٍ خَالِدًا فِي وِلَايَتِهِ ، أَنَّ بِلَالًا مَرَّ بِخَالِدٍ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ ،
فَقَالَ خَالِدُ : سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ (٤) ، فَسَمِعَهُ بِلَالُ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا تَقَشَّعُ
أَوْ يَصِيبُكَ مِنْهَا شَوْبُوبٌ (٥) بَرْدٍ ، وَأَمْرٌ بِضَرْبِهِ وَحَبْسِهِ .

(زَهْرُ الْأَدَابِ ٣ : ١٩٠)

(١) الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ . (٢) هُوَ بِلَالُ بْنُ أَبِي بَرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْمُرِيِّ .

(٣) وَكَانَ أَصْلُهُ مِنَ الْعَرَبِ الْبَيَانِينَ . (٤) تَنْكَشِفُ وَتَتَفَرَّقُ . (٥) الشَّوْبُوبُ : الدَّفْعَةُ مِنَ الْمَطَرِ .

٤٠٧ - خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب المقد قال :

كَانَ الْكَمَيْثُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ يَمْدَحُ بَنِي هَاشِمٍ وَيَعْرِضُ بَيْنِي أُمِيَّةَ ، فَطَلَبَهُ هِشَامُ ، فَهَرَبَ مِنْهُ عَشْرِينَ سَنَةً ^(١) ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْقَرَارُ ، مِنْ خَوْفِ هِشَامَ ، وَكَانَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَهُ عَلَى هِشَامَ حَاجَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْضِيهَا لَهُ ، وَلَا يَرُدُّهُ فِيهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ مَسْلَمَةُ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ صُيُودِهِ ، أَتَى النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ ، وَأَتَاهُ الْكَمَيْثُ بْنُ زَيْدٍ فَيَمْنُ أَتَى ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَمَا بَعْدُ :

قِفْ بِالْأُيُودِ وَقُوفَ زَائِرٍ وَتَأَنَّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاحِرٍ ^(٢)

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مَسْلَمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ لِمَ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٍ ^(٣)
عَلِمْتَ حِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ ذِمَّةَ الْجَارِ الْجَارِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةَ ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَائِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِهِ الْمَصِيبَ كَمُهْتَدٍ ، بِالْأُمْسِ حَاضِرٍ

فَقَالَ مَسْلَمَةُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَنْ هَذَا الْهِنْدِكِيُّ ^(٤) الْجَانْحَابُ ^(٥) ، الَّذِي أَقْبَلَ مِنْ أَخْرِيَاتِ النَّاسِ ، فَبَدَأَ بِالسَّلَامِ ، ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ ، ثُمَّ الشَّعْرُ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا الْكَمَيْثُ بْنُ زَيْدٍ ، فَأَعْجَبَ بِهِ لِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ ، فَسَأَلَهُ مَسْلَمَةُ عَنْ خَبْرِهِ ، وَمَا كَانَ فِيهِ طَوْلُ غَيْبَتِهِ ، فَذَكَرَ لَهُ سَخَطَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ، فَضَمِنَ لَهُ مَسْلَمَةُ أَمَانَهُ ، وَتَوَجَّهَ بِهِ حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى هِشَامَ - وَهَشَامٌ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ الْكَمَيْثُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ،

(١) يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠ - إلى سنة ١٢٥ هـ . (٢) صاغر: ذليل .

(٣) نشره وأنشره : أحياء . (٤) رجل هندي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التشبيه) .

(٥) الجلاحب : الشيخ الكبير ، والفسخم الأجلح ، (والأجلح : الذي انحمر الشعر من جانبي رأسه) .

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكهيت : مبيدئ الحمد ومبتدعه ،
الذى خصّ بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، جملة فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ،
وكلام أهل جنّته ، أحمدَه حمدَ من عِلْمَ يقينًا ، وأبصر مُستبِينًا ، وأشهد له بما شهد به
لنفسه « قَائِمًا بِالنَّفْسِطِ ^(١) » وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده العربي ،
ورسوله الأنبي ، أرسله والناس في هفوات حيرة ، ومُدْهِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عند استمرار أهبته ^(٢)
الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصّح لأمته ، وجاهد في سبيله ، وعبدَ ربه ، حتى
أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إني يا أمير المؤمنين ، نهتُ في حيرة ، وحِرتُ في سكرة ، اذْلَامَ ^(٣) بي خطرُها ،
وأهاب ^(٤) بي داعيها ، وأجابني غاويها ، فاقطوطيتُ ^(٥) إلى الضلالة ، وتسكمتُ ^(٦)
في الظلمة والجهالة ، جائرًا عن الحق ، قائلًا بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذِ ^(٧) ، ومنطقُ
التائب ، ومُبْصِرِ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أفدتم عثرته ،
ومجترم ^(٨) عفوتم عن جرّمه .

فقال له هشام - وأيقن أنه السكيت - وَيَحْك ! مَنْ سَنَّا لَكَ الْغَوَايَةَ ، وأهاب بك
في العماية ^(٩) ؟ قال : الذى أخرج أبى آدم من الجنة : فَلَمْسِي وَلَمْ يَحْذِلْهُ عَزْمًا ،
وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارت سحابًا متفرقًا ، فَلَفَقَتْ ^(١٠) بعضه إلى بعض ، حتى التعم
فاستحكم هذر ^(١١) رَعْدِهِ ، وتلاؤوا برقه ، فنزل الأرضَ فَرَوِيَتْ ، واخضلت ^(١٢)

(١) العدل . (٢) الأبهة : العظمة والبهجة والكبر . (٣) اذْلَامَ الليل : ادغم أى اسود
وأظلم ، وفى الأصل « اذْلَامَ » وهو تصحيف . (٤) أى دعانى ؛ وفى الأصل « وأهب » وهو تحريف ،
(ويقال أيضًا هببت به أى دعوته لينزوا) . (٥) اقطوطى : قارب فى مشيه إسرارًا .
(٦) تسكمت : مشى مشيًا متعسفًا لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجئ : المستجير .
(٨) جرم فلان وأجرم واجترم : أذنب . (٩) العماية : الغواية . (١٠) (من لفق الثوب
كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخطاهما . (١١) من هذر البعير كضرب هذرًا وهديرًا : صوت ؛ وفى
الأصل « هدار » وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرَّت ، وأسقيت ، فرَوَى ظمآنُها ، وامتلأ عطشانُها ، فكذلك نَعُدُّكَ أنت يا أمير المؤمنين ، أضياء الله بك الظلمة الدَّاجِيَّةُ ^(١) بعد العُموس ^(٢) فيها ، وحقن بك دماء قوم أشعرَ خوفُك قلوبَهم ^(٣) ، فهم يبكون لما يعلمون من حَزْمِكَ وبصيرتك ، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرتِ الحَذَقُ ، وعَضَّتِ المَغَاوِيرُ ^(٤) بالهَامِ ، عزَّ بأسُك ، واستربط جَأَشُك ^(٥) ، مِسْعَارُ هَتَّانٍ ، وكَافٌ ^(٦) بصير بالأعداء ، مَغْرِي الخيل بالنَّكْرَاءِ ^(٧) ، مستغنٍ براهيه عن رأى ذرى الألباب ، برأى أريب ، وحِمْ مصيب فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، ونمَّ عليه النعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام وأمر له بجائزته .

وروى صاحب الأغاني خطبة السكيت ^(٨) فقال :

(١) المظلمة . (٢) في الأصل : « الغموس » بالغين ؛ وهو تحريف ، والصواب « العموس » من عمس كسكرم وفرح عماسة وعموسا : اشتد واسود وأظلم . (٣) أشعر الخوف والهَم قلبى : لزق به ، وكل ما ألزقته بشئ : أشعرته به . (٤) المغفر كثر ، وبهاء ؛ وكسكتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ؛ أو حلق يتقنع بها بالمتسلح . (٥) أى صار رابطا من ربط جأشه رباطة (بالسكر) اشتد قلبه . (٦) فلان مسعر حرب ومسعر : أى موقد نار الحرب ، ومطر هتان : هطال ، وكاف كذلك ، وهما كناية عن الجود .

(٧) النكراء : الأمر الشديد . (٨) وكان سبب غضب هشام على السكيت : أن حكيم بن عباس الكلبي كان ولما بهجاء مضر والسكيت مضرى - فكانت شعراء مضر تهجوه ويجهيم ، وكان السكيت يقول هو والله أشعر منكم ، قالوا فأجاب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى - والى العراق وهو يمينى - محسن إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، قالوا فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك فحمى السكيت لعشيرته ؛ فقال قصيدته الملهية ؛ وبلغ ذلك خالدا فقال والله لأقتله ، ثم اشترى ثلاثين جارية بأعلى ثمن ؛ وتخبرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ؛ فرواهن الهاشميات - وهى قصائد قلها السكيت فى مدح بنى هاشم ، وكان معروفا بالتشيع لهم مشهورا بذلك ، وتمت هذه القصائد من جيد شعره وبختاره وهى مطبوعة مشهورة - ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشترأهن جميعا ، فلما أنس بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدن الشعر ، فأنشدنه قصائد السكيت الهاشميات ؛ فقال : ويلسكن ! من قاتل هذا الشعر ؟ قلن السكيت بن زيد الأسدى ، قال وفى أى بلد =

حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَى عَلَى نَبِيِّهِ نَحْمُ قَالَ : « أَمَا بَعْدَ : فَإِنِّي كُنْتُ أَتَدَهْدِي ، فِي غَمْرَةٍ ^(١) وَأَعُومُ فِي بَحْرِ غَوَايَةِ ، أَخْنَى عَلَى خَطْلُهَا ، وَاسْتَفْزَنِي وَهَلُمَّا ^(٢) ، فَتَحِيرْتُ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَسَكَّمْتُ فِي الْجَلْهَةِ ، مُهْرَعًا عَنِ الْحَقِّ ، جَائِرًا عَنِ الْقَصْدِ ، أَقُولُ الْبَاطِلَ ضَلَالًا ، وَأَفُوهُ بِالْبَهْتَانِ وَبَالَا ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ ، مُبْصِرِ الْهُدَى ، وَرَافِضِ الْعَمَايَةِ ، فَاعْسِلْ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَوْبَةَ ^(٣) بِالتَّوْبَةِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الزَّلَّةِ ، وَاعْفُ عَنِ الْجَرِمَةِ ^(٤) » ، ثُمَّ قَالَ :

كَمْ قَالَ قَائِلَكُمْ لَعَا لَكَ ، عِنْدَ عَثْرَتِهِ لِعَاثِرُ ^(٥)
وَعَفَرْتُمْ لَذَوَى الذَّنْوِ بَ مِنْ الْأَكْبَرِ وَالْأَصَاغِرِ

== هو ؟ قلن : في العراق ثم في السكوفة . فكتب إلى خالد عامله بالعراق : ابعث إلى برأس السكيت ، فبعث إليه خالد في الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، وعزم لينفذ أمر الخليفة فيه ، وأعمل السكيت الحيلة في الفرار ، فبعث إلى زوجته حبس (بضم ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه لبس ثيابها ، وتثقب ثيابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متنكرا ، وظل متواريا مدة ، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلا في جماعة من بني أسد ، ومازال يسير حتى بلغ الشام ؛ واستجار بمسلمة بن عبيد الملك ، فأجاره واحتال له في عفو الخليفة عنه ، فقال له : إن معاوية بن هشام مات قريبا ؛ وقد جزع عليه جزعا شديدا ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشيابك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره ؛ فأصبح هشام على عادته متظنا من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ؛ فقال : يحار من كان إلا السكيت فإنه لا جوار له ، فقيس : فإنه السكيت ، قال : يحضر أعنف إحصار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بشيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حفظه من الدنيا ، فاجمله هبة له ولنا ؛ ولاتفضحنا فيمن استجار به ، فيسكن هشام حتى انتحب ؛ ثم أقبل على السكيت ؛ فقال له : يا كيت : أنت القائل كذا وكذا - بما أورده في هاشمياته - فقال : لا والله ؛ ولا أتان من أذن الحجاز وحشية ؛ ثم خطب بين يديه يستعطفه ، فمقا عنه وأجازه ، وتوفي السكيت سنة ١٢٦ هـ .

(١) دهدى الحجر فتدهدى : دحرجه ، كدهده ، والغمرة : الانهماك في الباطل ، والشدة .

(٢) الوهل : الضعف والفرع . (٣) الحوبة : الإثم . (٤) الجريمة ككلمة : الجريمة .

(٥) يقال للعائر : لما لك ، وهو دعاء له بأن ينتعش .

أَبْنِي أُمِّيَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقِي لِكُلِّ مُلْكَةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادِنُ الْخَلَا فَيَكْبَرُ مِنْ بَعْدِ كَبَرِ
بِالتَّسْنَةِ الْمُقْتَابِعِينَ خَلَاءً وَبِخَيْرٍ عَاشِرٍ^(١)
وإلى القيامة لا تزا لُ إِشَاعِرٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاه أمير المؤمنين وسماحته وصباحته^(٢) ،
ومَنَاطُ الْمُتَجَمِّعِينَ بِحَبْلِهِ ، مَنْ لَا تُحْلُ حُبُونُهُ لِإِسَاءَةِ الْمُذْنِبِينَ ، فَضْلًا عَنْ اسْتِشْاطَةِ غَضْبِهِ
بِجَهْلِ الْجَاهِلِينَ ، فَقَالَ لَهُ : وَبِلَكَ يَا كَمِيتُ ! مِنْ زَيْنَ لَكَ الْغَوَايَةِ ، وَدَلَالِكَ فِي الْعَمَايَةِ ؟
قَالَ : الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ الْعَهْدَ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا » فَرَضَى عَنْهُ ، وَأَمَرَ
لَهُ بِجَائِزَةٍ . (المقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغانى ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ — مخاصمة عدى بن أرطاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عَدِيّ بْنُ أَرْطَاةٍ عَلَى شَرِيحٍ^(٣) الْقَاضِي يَخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ،
قَالَ : وَعَلَيْكُمْ ، قَالَ : اسْتَمِعْ مِنِّي ، قَالَ : قُلْ أَسْمَعْ ، قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّأْمِ ،
قَالَ : مِنْ مَكَانٍ سَحِيقٍ ، قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بِلَدِكُمْ هَذَا ، قَالَ : خَيْرٌ مَقْدَمٌ ، قَالَ :
وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ، قَالَ : بِالرِّفَاءِ^(٤) وَالْبَنِينَ ، قَالَ : وَإِنِّهَا وَلَدَتْ غُلَامًا ، قَالَ :
لِيَهْنِكَ الْفَارَسُ ، قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرَطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا ، قَالَ : الشَّرْطُ أَمْلَكُ ، قَالَ :

(١) هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء بني أمية . (٢) الصباحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .

(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث السكندی ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاء
عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضيا نحسا وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة
وفكاء ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .

(٤) أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفا الثوب كنع : لأم خرقة ، وضم بعضه إلى بعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال :
قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟ قال : على ابن أُمِّك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة
ابن أختِ خالك . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ - كلمة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحَّ بنو هاشم ، و بنو أمية في ميراث بينهم
عن سُفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم وبين
بنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبو ناعمر ، فقال :
« يا بَنِي : إن لقريشَ دَرَجًا نزلُ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تخشعُ لها رقابُ
الأموال ، وغاياتٍ تقصرُ عنها الجيادُ المسومة ^(١) ، وألسناً تكِلُّ عنها الشُّفار المشحودة
ولو اختلعت الدنيا ما تزيّنت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضافت بِسَمَةِ أخلاقهم ، ثم إنه
ليخيل إلى أنَّ منهم ناساً تخلّقوا بأخلاق العوامِّ ، فصار لهم رِفَق في اللؤم ، وخرق ^(٢)
في الحرص ، ولوا مكنهم لقاسموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكرهاً تملجوا له
الفقر ، وإنَّ عجّلت لهم نعمةٌ آخرُّوا عليها الشكر ، أولئك انضاء ^(٣) الفـكـر ، وعجزـة
حَلَّة الشكر . » (الأمالي ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفرید ٢ : ٤٠)

(١) الخيل المسومة : المرسلة وعليها ركبائها ، أو المعلمة ، أى التى جعل عليها سومة (بالضم) أى سمة
وعلامة ، أو المرعية . (٢) كعقل وسبب : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .
(٣) جمع نضو كحمل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سِماك بن عبيد العباسي في حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها
يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخروج - فنسبت إليه ماه .
وكان يواصل سماكا ويهدي له ويوافي الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة
فقدم الكوفة في إمارة معاوية فقام في الناس بالكوفة فقال :
« يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بذا ، كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك
زمان عمر وعثمان ؛ ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب^(١) وغدر وضيق ،
ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم فإذا ذلك في مولدكم ، فعملت من أين أنيتم ،
فإذا الحب من قبل القبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق
من قبل الأهواز » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٥)

٤١١ - رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلَّ ، وتَجَبُرُ ما انْقَلَّ ،
وَتُكْثِرُ ما قَلَّ ، ففضلك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شَدَّ ، وتؤلف ما نَدَّ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

(١) الحب : الخداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ - خطبة حيان بن ظبيان السلمي

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِنْ أَرْتَثَ^(١) يَوْمَ النَّهْرَوَانِ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعَاءَةِ الَّذِينَ كَانَ عَفَا عَنْهُمْ ، مِنَ الْمُرْتَضَيْنِ يَوْمَ النَّهْرِ - فَكَانَ فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ : فَلَبِثَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الرَّيِّ ، فِي رِجَالٍ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَلَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ بِالرَّيِّ حَتَّى بَلَغَهُمْ قَتْلُ عَلَى كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ أَوْلَئِكَ ، وَكَانُوا بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فَأَتَوْهُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْإِخْوَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَاكُمْ ابْنَ مُلْجَمٍ أَخَا مُرَادٍ قَعَدَ لِقَتْلِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أَغْبَاشِ^(٢) الصَّبِيحِ ، مُقَابِلَ السُّدَّةِ^(٣) الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْجُمُعَةِ ، فَلَمْ يَبْرَحْ رَاكِدًا يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ الْمُقِيمُ الصَّلَاةَ : صَلَاةَ الصَّبِيحِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ حَتَّى مَاتَ » .
فَقَالَ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَبْسِيُّ : لَا يَقْطَعِ اللَّهُ يَمِينًا عَلَتْ قَدَالَ^(٤)هُ بِالسَّيْفِ ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ بِمَحْدُونِ اللَّهِ عَلَى قَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رِضَى عَنْهُمْ وَلَا رَحْمَهُمْ ،
ثُمَّ إِنَّ حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(١) أَرْتَثَ : حَمْلٌ مِنَ الْمَرْكَاتِ رَثِيثًا ، أَيْ جَرِيحًا وَبِهِ رَمَقٌ . (٢) أَغْبَاشُ جَمْعُ غَبْشٍ بِالتَّحْرِيكِ :

وَهُوَ ظِلْمَةٌ آخِرُ اللَّيْلِ . (٣) السُّدَّةُ : بَابُ الدَّارِ ، وَهِيَ هُنَا مَا يَبْقَى مِنَ الطَّاقِ الْمَسْدُودِ .

(٤) الْقَدَالُ : جَمَاعٌ مَوْخَرُ الرُّأْسِ .

« إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالي والأيامُ ، والسَّنونَ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُذْبِقَهُ الموتُ ، فيفارقَ الإخوان الصالحينَ ، ويدعَ الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العَجَزَةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له هَمًّا وشَجَنًا^(١) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُم اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فَلَنَأْتِ إِخْوَانُنَا ، فلندُعُهُم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُذْرَ لَنَا في القعود ، وولائُنَا ظِلْمَةٌ ، وَسُنَّةُ الْهَدَى متروكة ، وَثَأْرُنَا^(٢) الذين قَتَلُوا إِخْوَانُنَا في المجالس آمِنون ، فإن يُظْفِرْنَا اللهُ بهم نَعْمِدُ بَعْدُ إلى التي هي أَهْدَى وأَرْضَى وأَقْوَمُ ، وَبِشْنِي اللهُ بِذَلِكَ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وإن نُقْتَلَ فإن في مفارقة الظالمين راحةً لَنَا ، ولَنَا بأسلافنا أُسوةٌ » .

فقالوا له : كُلُّنَا قَاتِلٌ مَا ذَكَرْتَ ، وَحَامِدٌ رَأْيِكَ الذي رَأَيْتَ ، فَرِذْ بِنَا المِصْرَ ، فَإِنَّا مَعَكَ رَاضُونَ بِهَذَاكَ وأَمْرِكَ ، فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدم معاوية ، وبعث المغيرة بن شُعْبَةَ واليًّا على الكوفة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

(٢) الثَّأْرُ : قَاتِلُ حِمِيكَ .

(١) الشَّجَنُ : الهم والحزن .

اتّمار الخوارج

نم إن الخوارج فى أيام المغيرة فزِعوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المستورد بن علفة التميمى ، وحيّان بن ظبيان السّملى ، ومُعاذ بن جُوَيْن بن حصّين الطائى ، فاجتمعوا فى منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيمن يُؤلّون عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ - مقال المستورد بن علفة

« يا أيّها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ما تحبّون ، وعزل عنكم ما تكرهون ، ولّوا عليكم مَنْ أحببتُمْ ، فوالذى يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ^(١) وما تُخْفِي الصُّدُورُ ، ما أبالى مَنْ كان الوالى علىّ منكم ، وما شرف الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلا الخلود فى دار الخلود » .

٤١٤ - مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان : « أما أنا فلا حاجة لى فيها ، وأنا بك وبكل امرئ من إخوانى راض ، فانظروا مَنْ شئتم منكم فسمّوه ، فأنا أوّل من يبايعه » .

(١) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤١٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قاتلنا أنما هذا ، وأنما سيدا المسلمين ، وذوّا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقهم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً ^(١) بما محمل ، وأنما بحمد الله ممن يرزى لهذا الأمر ، فليتولّه أحدكما » :

قالا : فتولّه أنت : فقد رضييناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنما أسنّ مني ، فليتولّه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فولّوا أيكم أحببتهم ، وكانت خاتمة ذلك النقّاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهّزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤١٦ - خطبة المغيرة بن شعبة أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم
وَنَمَى إِلَى الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ الْخَوَارِجَ خَارِجَةٌ عَلَيْهِ ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سوءٍ إسْفَهائِكُمْ ، فأما الحُلَمَاءُ الْأَتْقِيَاءُ فَلَا ، وإيْمُ اللَّهِ لقد خشيتُ أن لا أجدُ بدّاً من أن يُعَصَّبَ الْحَلِيمُ التَّقَى ، بِذَنْبِ

(١) أي قوة على حمله .

السفيه الجاهل ، فكفّوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشفقة والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حَيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدّتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكنّني كلّ امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحوّ أن عما كنتم تعرفون ، إلى ما تُدْكرُون وعما تحبون إلى ما تسكرهون ، فلا يلم لأيمّ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فنادى الله والإسلام إلا دأبهم على من يزّون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عيد القيس ، فقال :

١٧٤ - خطبة صعصعة بن صوحان

« يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصّكم منه بأحسن القسم ، فأجيتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورُسُلُه ، ثم أقمت عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فنبئت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربّصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلت المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وطى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فنالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١) ، وقالت

(١) أي معاوية ، وكان والياً على الشام ، وهى بالنسبة للعراق في المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وهب اراسي : راسب الأزد ، وقتلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا الله من قبائهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أملاك الله بكم ، وبمن كان على مثل هذاكم ورأيكم ، الداكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهر ، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ ساطعاً) ، ولا قوم أعدى لله وأسىكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إماماً ^(١) . واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تؤثروهم في دُوركم ، أو تكتنوا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد وألله ذكركم أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حُكِّي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم خلال ، ثم قال : يامعشر عبد القيس : إن ولاننا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبه في الناس ، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشايرنا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجه المغيرة لقناتهم معقل بن قيس ارياحي فلما علم المستورد تمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

٤١٨ - خطبة المستورد

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخريف معقل بن قيس قد وُجّه إليكم ، وهو من السَّبئية^(١) المقتربين الكاذبين ، وهو الله وليكم عدو ، فأشيروا على برايكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل وننتجى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتبس الدنيا ، ولا ذكراها ، ولا فخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ آهًا لي بخذافيرها ، وأضعاف ما يُتفأس فيه منها ، بقبال^(٢) نعلِي ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يَهْدِيَنِي الله إلى السكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لأقيم لهم حتى يقدّموا عليّ ، وهم حامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أمعن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فقططموا وتبدّدوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

(١) السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء ، أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وغلا في على ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة وأتى قوم منهم إلى على فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يمدب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شيانة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فبنى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما بلغه مقتل على قال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة على ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الغلاة . (٢) قبالة العمل : زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها .

فخرجوا فضوا على شاطئ دجلة ، فعبروه ومضوا في أرض جوحى ، حتى بلغوا المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمداثن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال :
(تاريخ الطبرى ٦ : ١١٠)

٤١٩ - خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تقعبلوا في آثارهم ، فتتقطعوا وتتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم ^(١) ، وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين . ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد مَعْقِلًا للبارزة فتبارزا ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمّ الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وشدّ أصحابه على الخوارج ، فما لبثوهم أن قتلوهم .
(تاريخ الطبرى ٦ : ١١١)

٤٢٠ - كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسيرى إلى صديق فأفشاه لم أُلْهِ ، لأنى كنت أولى بحفظه ، ويقول : لا تنفس إلى أحدٍ سرّاً وإن كان مخلصاً إلا على جهة المشاورة ، ويقول : كن أحرص على حفظ سِرِّ صاحبك ، منك على حقن دمك ، ويقول : أوّل ما يدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب . ولا يعيب إلا عَمِيبٌ ، ويقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال في حقّه استدعاء للمزيد من الجواد ^(٢) ، وكان يُكثِر أن يقول : لو ملكْتُ الأرض بحذاقيرها ، ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٥٣)

اتِّمَارُ الْخَوَارِجِ ثَانِيَةً

٤٢١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّلَمِيَّ أَصْحَابَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَحْدَثَ اللَّهُ وَأَنْتَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :

« أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَيْنَا الْجِهَادَ ، فَمَنْ مَنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَةً^(١) ، وَمِنْهَا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَأُولَئِكَ الْأَبْرَارُ الْفَائِزُونَ بِفَضْلِهِمْ ، وَمَنْ يَكُنْ مَنًّا مَنْ يَنْتَظِرُ فَهُوَ مِنْ سَلَفِنَا الْقَاضِينَ نَجْبَتِهِمْ ، السَّابِقِينَ بِإِحْسَانٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ اللَّهَ وَثَوَابَهُ ، فَلْيَسْلُكْ سَبِيلَ أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ ، يُؤْتِيَهُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ »

٤٢٢ - خطبة معاذ بن جوين

قَالَ مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ الطَّائِي : « يَا أَهْلَ الْإِسْلَامَ : إِنَّا وَاللَّهِ لَوَعَلَّمْنَا أَنَّا إِذَا تَرَكْنَا جِهَادَ الظَّالِمَةِ ، وَإِنْ سَكَرَ الْجَوْرُ ، كَانَ لَنَا بِهِ عِنْدَ اللَّهِ عُذْرٌ ، لَسَكَانَ تَرْكُهُ أَيْسَرَ عَلَيْنَا وَأَخْفَ مِنْ رُكُوبِهِ ، وَلَسَكُنَا قَدْ عَلَّمْنَا وَاسْتَدْقَيْنَا أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَنَا ، وَقَدْ جَعَلَ لَنَا الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ ، حَتَّى تُنْذِرَ الظُّلْمَ ، وَتُغَيِّرَ الْجَوْرَ ، وَتُجَاهِدَ الظَّالِمِينَ » . ثُمَّ قَالَ ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايَعُكَ ، فَبَايَعَهُ ، وَبَايَعَهُ الْقَوْمُ ، فَضَرَبُوا عَلَى يَدِ حَيَّانَ فَبَايَعُوهُ ، وَذَلِكَ فِي إِمَارَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ التَّمُغِي^(٢) .

* * *

(١) النجبة : الأجل والنذر . (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُمّاذ بن جوين ، فقال لهم حيان :
عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأسرونني أن أخرج ؟ فقال مُمّاذ : إني أرى أن تسير بنا
إلى حُلوان^(١) حتى ننزلها ، فإنها كورة بين السهل والجبل ، وبين المصر والثغر
— يعني بالثغر ارمى — فمن كان يرى رأينا من أهل المصر والثغر والجبال والسّواد^(٢)
لحق بنا .

٤٢٣ — رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُمّاجِلُك قبل اجتماع الناس إليك ، لعمري لا يتركونكم
حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسّبخة ،
أو زُرارة^(٣) والحيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق بربا ، إني والله لقد علمت أنكم لا تقدرون
— وأنتم دون المائة رجل — أن تهزموا عدوكم ، ولا أن يشقد نكايتكم فيهم ، ولكن
متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم ، كان لكم به العذر ،
وخرجتم من الإنم » قالوا : رأينا رأيك .

٤٣٤ — مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأيَ جماعتكم ، فانظروا في رأي
لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتي بالحرب ، وتجربتي للأمور ، فقالوا له : أجل ،
أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل
في كثير ، والله ما تزيدون على أن تحزروم^(٤) أنفسكم ، وتقرّوا أعينهم بقتلكم ،
وليس هكذا تكون المكايدة ، إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم

(١) بلد بفارس . (٢) أي سواد العراق . (٣) محلة بالكوفة . (٤) أي تملكوهم .

ما يضرهم « قالوا : فما رأى ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها مُعَاذُ ابنِ جُوَيْنٍ ، بمعنى حُلُوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمَر ، فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أَتَوْنا من كل جانب وأُوب^(١) » .

٤٢٥ - رد حيان

فقال له حيان : « إياك والله لو سِرْتُ بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمانتم به حتى يَلْحَقَ بكم خيول أهل مصر ، فَأَنَّى تَشْفُونَ أَنْفُسَكُمْ ؟ فوالله ما عدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطمعوا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله مَنْ خالف طاعة الله ، ولا تَرَبَّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجفة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة » قالوا : أما إذا كان لابد لنا ، فإننا لن نخالفك ، فاخرج حيث أحببت .

٤٢٦ - خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم تَخْيِيرٍ ، وعلى خيرٍ ، والله الذي لا إله غيره ، ما سُررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسلستُ سروري لمخرجي هذا على الظلمة الأئمة ، فوالله ما أحب أن الدنيا يحذاقيرها لي ، وأن الله حرَمَني في مخرجي هذا الشهادة ، وإنني قد رأيت أن نمخرج حتى ننزل جانب دار جرير فإذا خرج إليكم الأحزاب ناجزتموم » .

فقال عتريس بن عُرقوب : أئما أن نقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

(١) الأوب : الطريق والجهة .

وتصعد النساء والصبيان والإماء فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بانقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتبكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجة واحد ، فخرجوا ، فبعث إليهم جيش ، فقتلوا جميعاً .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ - خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله في السواد ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكروا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم فاخزاهم مسلم بن عبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيعة .

(١) بانقياً: ناحية من نواحي الكوفة . (٢) قدمنا لك في «مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج» أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقاتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرقهم ماسمعوهم منه ، فتفرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفى ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه ف قيل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلها عودا ، وأكثرها هدداً وأحفظها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتيار^(١)
ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم ،
فن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .
فلما صاروا « بدُولَاب » خرج إليهم نافع ، فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل في المعركة
ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ : (الكامل للمبرد ٢ : ١٨٠)

(١) أى جلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر ، وهى الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وَكَانَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ - وَهُوَ عَلَى قِتَالِ الْأَزَارِقَةِ - يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالتَّحَرُّزِ وَيُخَوِّفُهُمُ النَّبِيَّاتَ ، وَإِنْ بَعُدَ مِنْهُمْ الْعَدُوُّ ، وَيَقُولُ : « احْذَرُوا أَنْ تُسْكَدُوا كَمَا تُسْكَدُونَ ، وَلَا تَقُولُوا هَزَمْنَا وَغَلَبْنَا . فَإِنَّ الْقَوْمَ خَائِفُونَ وَجِلُونَ ، وَالضَّرُورَةُ تَفْتَحُ بَابَ الْحِيلَةِ ، ثُمَّ قَامَ فِيهِمْ خُطِيبًا فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ مَذْهَبَ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ ، وَأَنْهُمْ إِنْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ فَتَنُّوكمُ فِي دِينِكُمْ ، وَسَفَكُوا دِمَاءَكُمْ فَقَاتِلُوهمْ عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ أَوْ لَهمْ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ لَقِيتُهمْ قَبْلَكُمْ الصَّابِرَ الْحَسْبِ مُسْلِمُ بْنُ عُبَيْسٍ ، وَالْعَجَلِ الْمَفْرُطُ عُثْمَانُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ^(١) ، وَالْمَعْصِيُّ الْحِخْلَانِيُّ

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر للذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحارث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفا ، فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتغدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيت أهل العراق إلا جبننا ؟ وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلًا ، وانهزم الناس ، وولى حربهم بعده حارثة بن بدر فهزموه أيضا ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ؛ فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأثناء رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : يا حارث ليس مثل ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فاقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، فأتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفا شديدا ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القبايع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، فَقَتَلُوا جَمِيعًا وَقَتَلُوا ، فَأَلْفَوْهُمْ بِحِدِّ وَحَدٍّ فَإِنَّمَا هُمْ مَهْنَتُكُمْ^(١) وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ، ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم ، ويَطَّشُوا حَرَبَكُمْ .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٢٨٥)

٤٢٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، واهزم الناس بسؤلآف فقال :

« وَاللَّهِ مَا بَكُم مِّنْ قِلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَبَنِ وَالضَّعْفِ ، وَالطَّمَعِ وَالطَّيْعِ^(٢) فَإِنْ يَمَسَّنْكُمْ قَرْحٌ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، فَسِيرُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ » .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٣٨٦)

٤٣٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :
ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدة منكرة ، فأجفل الناس ، وانصأوا^(٤) منهزمين ، لا تلوي^(٥) أم على ولد ، حتى باغ البصرة هزيمة الناس وخافوا السبأ^(٦) ، وأسرع المهلب حتى سبهم إلى مكان يقاع^(٧) ، في جانب عن سَنَنَ المنهزمين ، ثم إنه نادى الناس : إلى "إلى" عباد الله ، فتاب إليه جماعة من قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضي جماعتهم ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) جمع ما هن ، وهو العبد والخادم . (٢) الشين والعيب . (٣) القرح ويقض : عض السلاح ونحوه ما يخرج باليد ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم . (٤) انصاع : انفتل راجعا ممرعا . (٥) مر لايلوى على أحد : أى لايقف ولاينتظر . (٦) السبى . (٧) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم قِيَهْزَمُونَ ، وَيُنْزِلُ النصر على الجمع اليسير فَيُظْهِرُونَ ، ولعمري ما بكم الآن من قِلَّةٍ ، إني لَجَمَاعَتُكُمْ لِرَاضٍ ، ولأنكم لأنتم أهل الصبر وفُرسان أهل المِضر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئ منكم لَمَّا أَخَذَ عَشْرَةَ أَحْجَارٍ^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصْعَبُ بْنُ الزَبِيرِ أَنْ أَقْدَمَ عَلَى ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، وابنُ كبيركم : طاعةٌ وبرٌّ وتبجيلا ، وأخو مثلي : مؤاساةٌ ومناجاةٌ ، فَلْتَحْسُنْ لَهُ طَاعَتَكُمْ ، وَلْيَلِنْ لَهُ جَانِبُكُمْ ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَنِي إِلَيْهِ » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

(١) فساداً . (٢) وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا نحالاً فيها حجارة ،

وارموا بها في وقت الغفلة ، قلنها تصد الفارس ، وتعرض الراجل ، وقال رجل من الخوارج :

أَتَانَا بِأَحْجَارٍ لِيَقْتُلُنَا بِهَا وَهَلْ تَقْتُلُ الْأَبْطَالُ وَبِحِجْ بِالْحَجَرِ ؟

٤٣٢ — خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ، وقتل ابن الماحوز يوم سلى وسلبرى^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيّناً ، فقال لهم : اجتمعوا . فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : « إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ، وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم ابن عبيس ، وربيعة الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحارثة بن بدر ، وأشجيتهم المهلب ، وقتلتم أخاه المَعَارِك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فيوم سلى كان لكم بلاء وتمحيصاً ، ويوم سولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغَابِنَّ على الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثِقُوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين . (السكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٨)

(١) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ، وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

بسلى وسلبرى مصارع فتية كرام وجرحى لم توسد خدودها

(٢) كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبتم فأمركم الربيع بن عمرو الأجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفا وعشرين يوما حتى قتل ، ثم أخذها الحجاج بن باب الحميري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضا ، التقى هو وعمران بن الحارث الراسبي فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تبرى ؛ وبها المعارك ابن أبي صفرة ، فقتلوه وصابوه ، فمضى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تبرى ، فاستنزله ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج : وكان تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتل في الجحيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أَصْفَهَان^(١) ، فحصر بها عَتَّاب بن ورقاء الرِّياحِيّ سبعة أشهر ، وَعَتَّابٌ يحار به في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجُهد الشديد ، دعا أصحابه ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجُهد ما قد تَرَوْنَ ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحَرْى أن يَضْمَعُ عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فانقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لقرسان أهل المصر ، وإنكم لصلحاء من أنتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانقصتم منهم أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشي إلى عدوه من الجُهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءتته ، فقاتل رجُلٌ عن نفسه وَصَبَرَ وَصَدَقَ ، فوالله إني لأرجو إن صدقتموم أن يُظْفركم الله بهم ، وأن يُظهِركم عليهم .

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارثون ، فلم يشعروا بهم حتى غَشَوْهم ، فقاتلوهم بجِدٍّ لم ير الخوارج منهم مثله ، فَمَقَرُّوا منهم خَلْقًا ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدارَ الخوارج أمرهم بينهم ، فولَّوا عليهم قَطْرِيّ بن الفُجَاءة المازنِيّ وبايعوه (تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٩١)

(١) أصهبان : بفتح الهمزة والباء ، وقد تكسر هزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا فافية .

٤٣٤ - نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :

« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَشِطُّ^(٣) بقرش منهم رَجِمُ دَاسَةٌ مَاسَةٌ ، وإن الأزارقة ذُوبَانُ العرب وسِبَاعُهَا ، وليس صاحبهم إِلَّا المُبَاكِرُ المُنَاكِرُ ، المُحَرَّبُ^(٤) المَجْرَبُ ، الذى أَرْضَعَتْهُ الحربُ بِلِبَائِنِهَا ، وَجَرَّسَتْهُ^(٥) وَضَرَّسَتْهُ ، وذلك أخو الأزدِ المهْلَبُ بن أبى صُفْرَةَ ، والله إن غَنَّاكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِيْنِهِ ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهرِ وغَدْرَهُ ، وليس المَجْرَبُ كَمَنْ لَا يُعْلَمُ ، ولا الناصح المشفق ، كالغاشِ المُنْتَهَمِ » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأحدوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَمَّا .

(ذيل الأمالى ص ٣٣)

(١) كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٢٣) .

(٢) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهرًا ، ثم عد لفارس ، وخرج خاله إلى الأهواز ، وتذب للناس رجلا فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، إني قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز فى ثلاثائة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفًا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب فسيعلمون ! » إلى أن قال : فناداهم عبد العزيز ، فوافقوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبئة فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى انتحموا عقبه ، فافتحمها وراهم ، والناس يهونونه ويأبى وكان لهم فى بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراهم خرج عليهم الكمين ، وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا . (٣) أصله من أط الرحل أطيطا : صوت .

(٤) من حرب السنان : حده . (٥) التجريس : التحكيم والتجربة ، وضرسته الحرب تضريسا :

جربته وأحكته أيضا . (٦) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص من سبين ، قال ابن عبد ربه فى المقد لأفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها »

٤٣٥ -- خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت^(٣) بالشهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وَتَحَبَّبَتْ بالعاجلة^(٥) ، وَحَلَّيْتُ^(٦) بالآمال ، وتزيَّنت بالغرور ، لا تدوم حَبْرَتُهَا^(٧) ، ولا تُؤْمَنُ فِجَعَتُهَا ، غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، خَوَّانَةٌ غَدَّارَةٌ ، وَحَائِلَةٌ^(٨) زائِلَةٌ ، ونافذة^(٩) بائِدة ، أَكْثَالَةٌ غَوَّالَةٌ^(١٠) ، بَدَّالَةٌ نَقَّالَةٌ ، لا تَعْدُو إِذَا هِيَ تَنَاهَتْ إِلَى أَمْنِيَّةِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله تعالى : « كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنْ

= في السوق حاضرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كالآل وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالي ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إمام المؤمنين : فقال له : ما تقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت هؤلاء قد تنازعوا عليها ؛ حتى ارتفعت الأصوات ؛ واهمرت الحديق ؛ فلم يبق إلا الخبط بالسيف ؛ فرأيت أن تسعين ألفا في جنب ما خشيت من الفتنة بين المسلمين هيئة ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها » ١٠ .

(١) أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نهج البلاغة ؛ وعزاها إلى الإمام على كرم الله وجهه وكذلك القاضي في دستور معالم الحكم ؛ وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) : « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ؛ ورواها لقطري بن الفجاءة ؛ والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب المونق لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمر المؤمنين عليه السلام وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقي قطري أكثرهم . »

(٢) أي ناضرة ، من خضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أي أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها بمشاع قليل ليس بدائم . (٥) أي وتحببت إليهم بالذلة العاجلة ، (والنفس مولعة بحب العاجل) .

(٦) حلّيت المرأة فهي حال وحالية كتحللت . وفي رواية : « وتخلت » . (٧) الخبرة : المرور . وفي رواية : « لا تقوم نضرتها » ؛ لا تقوم : لا تثبت . والنضرة : النعمة والغنى والحسن .

(٨) أي متحولة متغيرة من حال يحول . وفي رواية « خائلة » أي محادة . (٩) أي هالكة فانية من نفد ينفد كفرح . (١٠) أي مهلكة من غاله يفوله .

السَّمَاءَ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، مع أن اسماً لم يكن منها في حبرة ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عِبْرَةٌ ، ولم يَلْقَ من سَرَّأُهَا بَطْنًا ، إِلَّا مَنَحَتْهُ من ضَرَّأُهَا ظَهْرًا ^(٢) ، ولم تَطْلُ غَيْثُهُ ^(٣) رِخَاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ ^(٤) عليه مَزْنَةٌ بَلَاءً ، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ ، أَنْ تُنْسِيَ لَهُ خَاذِلَةً مُتَسَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى ^(٥) ، أَمَرَ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبَى ^(٦) ، وَإِنْ أَنْتَ اسْمٌ مِنْ غَضَارَتِهَا ^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نِعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، وَلَمْ يُنْسِ اسْمُهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمٍ ^(٨) خَوْفٌ ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، قَانِيَةٌ ، فَإِنْ مَا عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا الْقَوَى ، مِنْ أَقَلِّ مِنْهَا اسْتَكْرَمَ مَا يُؤْمَفُ ، وَمِنْ اسْتَكْرَمَ مِنْهُ اسْتَكْرَمَ مَا يُؤْبَقُ ^(٩) ، وَبُطِلَ حُزْنُهُ ، وَبُنِيَ عَيْنِيهِ ، كَمْ وَائِيَّ بِهَا قَدْ فَجَعْتَهُ ، وَذَى طَمَأْنِينَةً إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْ ^(١٠) ، وَذَى اخْتِيَالٍ ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ

- (١) الهشيم : ماتهشم وتخطم ، وتذروه : أى تطيه . (٢) كنى بالبطان والظهر عن إقبالها عليه وإدبارها عنه لأن الملاقى لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .
- (٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطرا قليلا ، وربما كانت « غيث » مصحفة عن « غيبة » والغيبة بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق .
- (٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفي رواية : « هتنت » هتنت السماء كجلس أيضا هتنا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .
- (٥) أى صار عذبا حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوبى : سهل عن أوبى ، أى صار وبيثا ، وبثت الأرض كفرح وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام . (٧) النضارة : النعمة والسعة والخصب ، وأرهقه : حمله على مالا يطيقه ، وفي رواية : « لا يزال امرؤ من غضارتها رغبا » والرغب بالتمحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأ من غصونها ورقا » ، وفي رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعمة ، أرهقته من نوائبها غما » .
- (٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادة ، وخص الخوف بالقوادم لأنها مقاديم الريش ، والراكب عليها بمرض تسقوط قريب . (٩) يهاك : (١٠) وفي رواية : « وذى حكم ننته إليها قد صرعت » . (١١) الاختيال : السكر والمعجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة والسكر والنخوة .

ذِي أُهْمٍ فِيهَا قَدْ صَيَّرْتَهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتَهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّتَهُ ^(١) لِلدِّينِ وَالْفَمِ ، سُلْطَانَهَا دُولٌ ، وَعَيْشُهَا رَنَقٌ وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ ، وَحُلُوهَا صَبِيرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ^(٢) وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ^(٣) ، وَقِطَاعُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَيْثُهَا بَرَضٌ مَوْتٌ ، وَصَحْبُهَا بَرَضٌ سُقْمٌ ، وَمَنْعِيهَا بَرَضٌ اهْتِضَامٌ ، مَلِكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيمُهَا مَسْكُوبٌ ، وَجَامِعُهَا مَحْزُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، وَهَوَلُ الْمُطْلَعِ ، وَالْوَقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحَاءَهُوا بِمَا عَمَلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْخُسْنَى » .

السَّمُ فِي مَا كُنَ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعْدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْتَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عَتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ، تُعَبَّدُوا ^(٧) لِلدُّنْيَا أَيْ تُعَبَّدُوا لِأَثَرِهَا أَيْ لِإِثَارِهَا وَظَهَنُوا عَنْهَا بِالسُّكْرِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَالَكُمْ أَنْ الدُّنْيَا سَمَحَتْ لَكُمْ نَفْسًا بَغْدِيَّةً ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْكُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتُمْ بِحَطَبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ أَرْهَقْتُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعَضْتُمْ بِالْفَوَائِبِ ، وَعَقَرْتُمْ بِالْمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَفْسُكُرَهَا

(١) صرعته وقلبته . (٢) رنق المساء كفرج ونصر : كدر ، فهو رنق كمدل وكثف وجبل ، وأجاج : ملح مر ، وسام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سبب : وهو الحبل ، ورمام : بالية ، حبل أرمام ، ورمام : أى بال . (٤) السلع : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقلة خبيثة الطعم . (٥) مسلوب ، من حربه حربا كطابه مليا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : العدة ، وقد عتد كسكرم عتادا فهو عتيد : أى حاضر مهيا معد ، وفي رواية : « وأعند عنودا » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : أى مال ، وفي رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أى استعبدتهم الدنيا ، تعيده : اتخذ عيدا . (٨) أى بشأن وأمر . (٩) الفوادح : النوائب المشقة ، من فدحه الدين إذا أثقله ، وفي رواية : « القوادح » والقوادح جمع قادح : وهو أكال يقع في الشجر والأستان ، وفي رواية : « وأوهقتهم » أى جعلتهم في الودق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالأطول . (١٠) وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية « وعقرتهم بالمناخر ، ووطئهم بالمناخم » ، عقرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالنمير (كسبب ويسكن) وهو للتراب والمناخر جمع منخر بفتح الميم والخاء ، وبكسرهما ، وبضمهما وكبلس : الأنف ، والمناخم جمع منخم كبلس وهو خف البعير .

لَمِنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْتَدِ^(٢) ، هَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّفْبَ^(٣) ، وَأَحْلَتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْنِهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارَ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فَبُنِيتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعْمَلُوا - وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ - أَنْتُمْ تَارِكُوهَا لِأَبَدٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(٤) » ، وَاتَّعَظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنْنا قُوَّةً ؟ » ، حُلُّوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثُ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضِيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّرِيحِ أَكْثَانٌ ، وَمِنْ الْقَرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنْ الرِّفَاتِ جَبِرَانٌ^(٦) ، فَهَمْ حَيْرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْفًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ يَقْنَطُوا ، جُمِعَ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجَبِرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتَّاعُونَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ، حُلُمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْفَانُهُمْ ، وَجَهْلَاءٌ

(١) أَيْ خَضَعَ لَهَا وَذَلَّ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « لَمِنْ رَادَهَا » أَيْ طَلَبَهَا : رَوَدَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَال .
(٢) الْمُسْتَدُ : الدَّهْرُ ، وَفِي رَوَايَةٍ هُ إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ . (٣) الْجَوْعُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ » وَالضَّنْكَ : الضَّيْقُ . (٤) نَزَلَتْ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، الرِّيحُ : الْمَرْتَفَعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَيْ أُنْبِيَاءٌ وَقُصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَعْبَثُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَتَطَاوَلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمَبْنِيُّ مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُصُونِ . (٥) وَفِي رَوَايَةٍ « فَلَا يَرْعَوْنَ » أَيْ فَلَا يَرْعَاهُمْ أَحَدٌ . (٦) الْأَكْثَانُ جَمْعُ كُنَ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسِتْرُهُ . وَالصَّرِيحُ : الْقَبْرِ أَوْ الشَّقِ وَسَطُهُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ » وَالْأَجْنَانُ جَمْعُ جَنْنٍ كَسَبَبَ : وَهُوَ الْقَبْرِ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْمَرَاضُ ، وَالرِّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . (٧) الْمَنْدَبَةُ : النَّدْبُ عَلَى الْمَيِّتِ . (٨) وَفِي رَوَايَةٍ : « إِنْ جِيدُوا » مِنْ جَادَهُمُ الْغَيْثُ إِذَا أَمْطَرُوا . (٩) قَحِطَ النَّاسُ كَمَسَحَ ، وَقَحِطُوا وَأَقْعَطُوا مَبْنِيَيْنِ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتَانِ) ، وَبِكُلِّ رَوَى .

قد ماتت أحقادهم ، لا يُخَشَى فَجَعُهُمْ ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وكما قال الله تعالى : « فَتِلْكَ مَآسَا كَيْفُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ، استبدلوا بظهر الأرض بطنًا ، وبالسَّعَةِ ضَيْقًا ، وبالأهل غُرْبَةً ، وبالنور ظُلْمَةً ، ففارقوها كما دخلوها ، حُفَاةَ عُرَاةٍ فُرَادَى ، غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياء الدائمة ، وإلى خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » فاحذروا ما حذرکم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَرَزَقْنَا وَإِيَّاكُمْ أَدَاءَ حَقِّهِ .

(البیان والتبيين ١ : ٦٣ . وصيغ الأعشى ١ : ٢٢٣ . والمقد الفريد ٢ : ١٦٠ . وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبت عقاربُ الخِلاف بين الأزارقة ، وامت بهم يد الشقاق ، خلعوا قَطْرِيَّ ابن الفجاءة ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من ^(١) الشَّطْر ، ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجَلَّتِ الوقعة عنه قَتِيلًا ، وقد جمع أصحابه في الليلة التي قتل في صَدِيعِهَا ، فقال :

« يامعشر المهاجرين : إِنْ قَطَرِيَّا وَعُيَيْدَةُ ^(٢) هَرَبَا طلبَ البقاء ، ولا سبيلَ إليهِ ، فالتقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يَغْلِبَنَّكُمْ على الموت ، فتلقوا الرماحَ بنحوركم والسيوفَ بوجوهكم ، وهبُوا أنفسكم لله في الدنيا ، يَهَبْهَا لَكُمْ فِي الآخِرَةِ .
(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

(١) أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقتل سنة ٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبيدة ابن هلال اليشكري من كبراء الأزارقة .

٤٣٧ - خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرَّح يرى رأى الصُفَرِيَّةِ^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُخْبِئاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بِدَارًا^(٤) وأرض المَوْصِلَ والجزيرة ، له أصحاب يُقرّئهم القرآن ، ويفقههم وَيَقْصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْمُدُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْتَ النِّفْعَ وَالضَّرَّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِبَلَاغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنُصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنُصَحَ الْأُمَّةَ ، وَدُعِيَ إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنُصِرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أَرْضِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغِبُ الْعَبْدَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ ،

(١) هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفريّة ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى مافيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشاً يقوده الحارث بن عميرة فحاربهم وقتل في المعركة صالح . (٢) الصفريّة : فرقة من الفرق الرئيسية الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة أو لخلوهم من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . (٣) أخبت لله : خضع وتواضع . (٤) دارا : بلد بين نصيبين ومباردين من أرض الجزيرة . (٥) حَفِدَ كضرب : خف وأسرع .

وتفرَّغَ بَدَنُهُ لِعِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَثُرَتْ ذِكْرُ الْمَوْتِ تَخْفِيفَ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ، حَتَّى يَنْجَارَ^(١) إِلَيْهِ وَيَسْتَسْكِنَ لَهُ ، وَإِنْ فِرَاقُ الْفَاسِقِينَ حَقٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآنُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وَإِنْ حُبُّ الْمُؤْمِنِينَ لَلْسَبَبُ الَّذِي يُنَالُ بِهِ كَرَامَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَجَنَّتُهُ ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ ، أَلَا إِنْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَمَلَّهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَزَكَاهُمْ وَطَهَّرَهُمْ ، وَفَقَّهَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رِعْوًا رَحِيمًا ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَلِيَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ التَّبَقِيُّ الصَّدِيقُ ، عَلَى الرِّضَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَاقْتَدَى بِهَدْيِهِ ، وَاسْتَنَّا بِسُنَّتِهِ ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ رَحْمَهُ اللَّهُ ، وَاسْتَخْلَفَ عَمْرَ فُلَوَّاهُ اللَّهُ أَمْرَ هَذِهِ الرِّعْيَةِ ، فَعَمِلَ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَحْيَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يُخْنِقْ فِي الْحَقِّ عَلَى جَرَّتِهِ^(٢) ، وَلَمْ يَخْخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا تُثْمَرُ ، حَتَّى لَحِقَ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَوَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ عُمَانُ ، فَاسْتَأْثَرَ بِالْفَيْءِ ، وَعَظَلَ الْحُدُودَ ، وَجَارَ فِي الْحَكْمِ ، وَاسْتَذَلَّ الْمُؤْمِنَ ، وَعَزَّزَ الْحَرَمَ ، فَسَارَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُ ، فَبَرِيءَ اللَّهُ مِنْهُ وَرَسُولُهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلِيَ أَمْرَ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمْ يَنْشَبْ أَنْ حَكَّمَ فِي أَمْرِ اللَّهِ الرِّجَالَ ، وَشَكَّ فِي أَهْلِ الضَّلَالِ ، وَرَكَّنَ^(٣) وَأُدْهَنَ ، فَنَحَنَ مِنْ عَلِيٍّ وَأَشْيَاعِهِ بَرَاءً ، فَتَيْسَّرَ وَارْحَمَهُمُ اللَّهُ لِهَذَا الْأَحْزَابِ الْمُتَحَزِّبَةِ ، وَأُئِمَّةِ الضَّلَالِ الظَّالِمَةِ ، وَلِلْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، وَاللَّحَاقِ بِإِخْوَانِنَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُوقِنِينَ الَّذِينَ بَاعُوا الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَأَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمُ التَّمَّاسَ رِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَلَا تَجَزَّعُوا مِنَ الْقَتْلِ فِي اللَّهِ ، فَإِنَّ الْقَتْلَ أَيْسَرُ مِنَ الْمَوْتِ ، وَالْمَوْتَ نَازِلٌ بِكُمْ — غَيْرَ مَا تَرْجُمُ الظَّنُونُ — فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آبَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَحَلَائِدِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ ،

(١) جَارَ إِلَيْهِ كَنَعَ : رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْإِدْعَاءِ ، وَتَضَرَّعَ وَاسْتَغَاثَ . (٢) أَحَقَّقَ الصَّلْبَ : لَزَقَ بِالطَّبْعِ . وَالْجُرَّةُ : مَا يَخْرُجُهُ الْبَعِيرُ مِنْ جَوْفِهِ وَيَمْضَغُهُ ، كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ عَدَمِ إِضْهَارِهِ الْحَقِّ وَالِدَاغِلِ . (٣) رَكَّنَ إِلَيْهِ : مَالَ .

وإن اشد ذلك كرهكم وحزركم ، ألا فيبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين ، وتعتاقوا الحور العين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يهتدون بالحق وبه يعدلون .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« ببنا أصحاب صالح يخلفون إليهم ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أدرى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مقيمون ؟ هذا الجور قد فشا ، وهذا العدل قد عمأ ، ولا تزداد هذه الولاية على الناس إلا غلوا وعتوا ، وتباعدوا عن الحق ، وجروا على الرب ، فاستعدوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق ، مثل الذى تريدون ، فيأتوكم فلتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عباد الله ، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون^(١) إياكم ، فإنكم إنما خرجتم غضباً لله ، حيث أنتم مكرهون ؟ وعشى فى الأرض ، فسفكت الدماء بغير حيلة ، وأخذت الأموال بغير حقها ، فلا تعبيراً على قوم أعمالاً تم تعملوا بها ، فإن كل ما أنتم عاملون ،

(١) أى يصادونكم .

أنتم عنه مسئولون ، وإن عَظَمَكم رَجَالُهُ ، وهذه دوابُّ لِمُحَمَّد بن مروان في هذا الرُّسْتاق^(١) ، فابْدءوا بها فَنَشُدُّوا عليها ، فاحملوا أَرْجُلَكم ، وتقوُّوا بها على عدوكم .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَحَلَفَ على رِياسَةِ الخوارج الصُّفْرىة بعد مقتل صالح بن مُسَرِّح أحد أصحابه ، وهو شَيْب بن يزيد الشَّبابي ، فَكَتَبَ الحِجَاج لِقِتالِهِ الكُتَّاب ، وَكَانَ أميرها في بعض الوَقَعات زائِدَةُ بن قُدَّامة ، وجاء شَيْب حتى وَقَفَ مُقَابِلَ القوم ، فخرج زائِدَةُ يسير بين الميمنة والميسرة ، يحرِّضُ الناس ويقول :

« عبادَ اللهِ ، إنكم الطَّيِّبون السَّكِينون ، وقد نزل بكم الخبشون القليلون ، فاصبروا جُعِلَتْ لَكم الفِداءُ إنها حَمَلَتان أو ثَلات ، نَمَ هو النصر ليس دونه شيء ، ألا تَرَوْنَهُم والله لا يكونون مائتي رجل ؟ إنما هم أَكَلَةُ رَأْس ، وهم السُّرَّاقُ المُرَّاق ، إنما جاءوكم لِيَهْرِيقُوا دماءكم ، وَيَأْخُذُوا فَيْئَكم ، فلا يكونوا على أَخْذِهِ أَقْوى مِنْكم على منعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل قُوَّة ، وأنتم أهل جِماعَةٍ ، غَضُّوا الأَبصار ، واستَقْبَلوهم بِالأسِنَّة ، ولا تَحْمِلُوا عليهم حتى أَمَرَكم » ، فابرح يقاتلهم مُقْبِلًا غير مُدْبِرٍ ، حتى قتل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ — خطبة الحجاج بن يوسف

ولما هزم شَيْب الجيشَ الذي كان الحِجَاج وجَّهه إليه مع عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحِجَاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) الرُّسْتاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (معرب) .

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيثكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والغیظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيثكم - یعنی جند الشام - » .

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعقِب الأير ، فَلْيَنْدُ بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٢٢ — خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا ، ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن لنا كل المارب الهوان والجفوة ، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأوليئكم كنفاً خشناً ، ولأغر كنكم بكنك كل ثقیل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ — خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئون ومئون ، ألا إني مصلّي الظهر ، ثم سائر بكم إن شاء الله » .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ : ص ٤١٩)

٤٤٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما توقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ، يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثير آمنه قوله : « يأهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحد منه للصابرين ، ألا ترون أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حمد الله فعله فما أعظم درجته ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوك هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قرابة عند الله ، فهم شيرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصص يقصّون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنقرة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله السكّاني بكم وقد قرّرتم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تسقي في استيهر الريح ، وحل عليه شبيب فتفرق عنه كثير من أصحابه وخذّلوه ، وثبت في عصاة قليلة صبرت معه ، وقا تل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ — خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج تجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلّها يقتل أمراءهم ، ويقتل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سفيان بن الأبرد السكّلي ، في أربعة آلاف ، وحبیب بن عبد الرحمن الحسكبي من مذحج في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشذوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، فلا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، ألحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهيد قتال عتّاب ابن ورقاء^(١) . »
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٦ — خطبة عبد الله بن يحيى الإباضي^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، فحمد الله جلّ وعزّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكر وحذّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبيّنا ، والكتب قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضيّا بالحلال حلالا ، لا نبيّ به بدّيلا ، ولا نشترى به تمنا قليلا ، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول

(١) ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لدفاعته ، فشئت جموعه فانصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقى على جسر دجيل ، وحمى بينهما وطيس القتال حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط في الماء ، وكان هلاكه سنة ١٧٧ هـ (٢) هو عبد الله بن يحيى الكندي ، وكان من حضر موت ، وكان مجتهدا عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض — بكر المزمرة —) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وعسفا شديدا ، وسيرة في الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحل لنا المقام على ما نرى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حنيفة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة المسعودي في رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصره فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزان والأموال .

ولا قوّة إلا بالله ، وإلى الله المُشْتَـكَى ، وعليه المَعْوَل ، من زَنَى فهو كافر ، ومن سَرَقَ فهو كافر ، ومن شَرِبَ الخمر فهو كافر ، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائضَ بيّناتٍ ، وآياتٍ مُحْكَماتٍ ، وآثارٍ مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، هَدَلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلّ فِتْرة بقايا من أهل العلم ، يَدْعُونَ من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جَنبِ الله تعالى ، يُقَتِّلُونَ على الحق في سالف الدهور شُهَداءَ ، فإسْمِهم رَبُّهم ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلّكم الله بالقيام به ، فأبْلَوْا الله بلاءَ حَسَنًا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغاني ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبي حمزة الشاري

٤٤٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أهل المدينة : سألناكم عن ولانكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمر الله - فيهم القول ،
قلتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حِلِّه ، فوضعوه في غير حقِّه ، وجاروا
في الحكم ، فحكوا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفقيننا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحسن السيرة في الناس ويلين
جانبيه لهم ، ويكف الأذى عنهم فكثر جمعه وأتته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاة جمع شاركقاض
وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى : أى باع ، سموا بملك اقولهم : شرينا أنفسنا في طاعة الله : أى بعناها
ووهبتها ، أخذنا من قوله تعالى :

« وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتِغَاءً مَرَضًا أَلَلِ » أو لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا ،
أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلمى من
أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى
عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص
إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ،
وجار في الحكم عليكم ، ولا تجمعوا حدنا بكم ، فإننا لانريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء
الله : أنحن نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله أنحن نفسد في الأرض ؟ إنما
خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالثوى ، فانظروا لأنفسكم ، واخلعوا من لم يجعل الله
له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال
بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتل قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ،
منهم من قرىش أربعمائة ونعمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقيت من صقر سنة ١٣٠ ، وهرب
عبد الواحد بن سليمان إلى الشام .

منهم ، وَجَعَلُوا مَقَاسِمَنَا وَحُتُوفَنَا فِي مَهْوَرِ النِّسَاءِ ، وَفُرُوجِ الْإِمَاءِ ^(١) ، فَقُلْنَا لَكُمْ : تَعَالَوْا
نَحْنُ وَأَنْتُمْ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُونَا وَظَلَمُوكُمْ ، وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ ، فَحُكِّمُوا بغير مَا أُنْزِلَ اللَّهُ
فَنُشَادُهُمُ اللَّهَ أَنْ يَقْتَحُوا عَنَا وَعَنْكُمْ ، لِيُخْتَارَ الْمُسْلِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَقُلْتُمْ : لَا يَفْعَلُونَ ، فَقُلْنَا
لَكُمْ : تَعَالَوْا نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَقَاتِلُهُمْ ، فَإِنْ نَظَهَرَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَأْتِ بِمَنْ يُقِيمُ فِينَا وَفِيكُمْ
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُمْ : لَا تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ، فَقُلْنَا لَكُمْ :
فَخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ نَظَرَ نَمْدِلْ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلْ لَكُمْ عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَقْسِمَ فِيكُمْ بَيْنَكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ وَقَاتَلْتُمُونَا دُونَهُمْ ، فَقَاتَلْنَاكُمْ وَقَتَلْنَاكُمْ ،
فَأَبَدَكُمْ اللَّهُ وَأَسْحَقَكُمْ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح
ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ — خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَرْتُ بِكُمْ فِي زَمَنِ الْأَحْوَالِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أَصَابَتْكُمْ
عَاطَةٌ بِتَارِكُمْ ، وَكُتِبَتْ إِلَيْهِ تَسْأَلُونَهُ أَنْ يَضَعَ خَرَاجَكُمْ عَنْكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَيْكُمْ بِوَضْعِهِ
عَنْ قَوْمٍ مِنْ ذَوِي الْيَسَارِ مِنْكُمْ ، فَزَادَ الْغَنَى غِنًى ، وَزَادَ الْفَقِيرُ فَقْرًا ، فَقُلْتُمْ : جَزَاكَ اللَّهُ
خَيْرًا ، فَلَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَلَا جَزَاءَ خَيْرًا » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

(١) وفي رواية : « وسألناكم ، هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام
والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم » .

٤٤٩ — خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون صحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيبون أصحابه ، كَلَدَانَةُ أَسْنَانِهِمْ ، وَخِيفَةُ أَحْلَامِهِمْ ، فَصَعِدَ الْمَذْبَرُ ، وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ غَلِيظٌ ، وَهُوَ مُتَنَكِّبٌ قَوْسًا عَرَبِيَّةً ، لِحَمْدِ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، قَدْ بَلَغْتَنِي مَقَاتِلُكُمْ لِأَصْحَابِي ، وَلَوْلَا مَعْرِفَتِي بِضَعْفِ رَأْيِكُمْ وَقَلَّةِ عَقُولِكُمْ ، لَأَحْسَنْتُ أَدَبَكُمْ ، وَنَحَكَمُ ! إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ ، وَبَيَّنَّ لَهُ فِيهِ السَّنَنُ ، وَشُرِّعَ لَهُ فِيهِ الشَّرَائِعُ ، وَبَيَّنَّ لَهُ فِيهِ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَقَدَّمُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا يُخْجِمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ ، وَعَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ مَعَالِمَ دِينِهِمْ ، وَلَمْ يَدْعُهُمْ مِنْ أَسْرَمٍ فِي شُبْهَةٍ ، وَدَلَّى أَبَا بَكْرٍ صَلَاتَهُمْ ، فَوَلَّاهُ الْمُسْلِمُونَ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ ، حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ دِينِهِمْ ، فَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ ، وَشَمَّرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأَمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ ، ثُمَّ وَلِيَ بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَارَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَجَنَّدَ الْأَجْنَادَ ، وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ ، وَجَبَّى الْقِيَاءَ ، وَفَرَضَ الْأَعْطِيَةَ ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ ، وَحَسَّرَ عَنْ ذِرَاعِهِ ، وَجَلَدَ فِي الْحَرِّ ثَمَانِينَ ، وَجَمَعَ النَّاسَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ^(٢) ، وَغَزَا الْعُدُوَّ فِي بِلَادِهِمْ ، وَفَتَحَ الْمَدَائِنَ وَالْحَصُونِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأَمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَضَوَانَهُ وَمَغْفِرَتُهُ ، ثُمَّ وَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَسَارَتْ سُنَيْنَ بِسِيرَةِ صَاحِبِيهِ - وَكَانَ دُونَهُمَا - ثُمَّ سَارَ فِي السَّيْرِ الْأَوَاخِرِ بِمَا أَحْبَبَ بِهِ الْأَوَائِلَ ، وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الدِّينِ بَعْدَهَا ، فَطَلَبَهَا^(٣) كُلُّ امْرِئٍ

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أى لصلاة القيام ، وفى رواية : « وقام فى شهر رمضان » .

(٣) أى الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معاوية فيها .

لنفسه ، وأَسَرَّ كل رجل منهم سريرةَ أبداها الله عنه ، حق مضوا على ذلك ، ثم وليَ
على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قَصْداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله :
ثم ولي معاوية بن أبي سفيان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنُ لعينه ^(١) ،
وجِلَّف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلَّف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ
عبادَ الله خولا ^(٢) ، ومالَ الله دولا ^(٣) ، وَبَغَى دينه عَوْجاً ودَغلاً ^(٤) ، وأحلَّ الفَرْج
الحرام ، وعمل بما يشتهيه ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ،
يزيد الخُجور ، ويزيد الصَّقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيُود ، ويزيد القُرود ^(٥) ،

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) عبيدا . (٣) جمع دولة بالضم : أى متداولاً بين عشيرته
دون سائر المسلمين . (٤) الدغل : الفساد كالدخل . (٥) روى المسعودى فى مروج الذهب -
ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقُرود ، وفهود ، ومنادمة على الشراب ؛ وجلس
ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - فأقبل على ساقيه ، فقال :

استقى شربة تروى مشائى ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى ولتسديد مغنى وجهادى

(والمشايش كغراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان
يقعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاحى ، وأظهر الناس شرب الشراب ،
وكان له قرد يكتى بأبى قيس ؛ يحضره مجلس منادته ؛ ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله
على أُنان وحشية ؛ قد ريفت وذلك لئلا يسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء فى بعض الأيام
سابقاً فتناول القصبة ؛ ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهر
(مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من
الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبى قيس بفضل عنائها فليس عليها إن سقطت ضبان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به جياذ أمير المؤمنين أتان !

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصمد لا يزال لاهياً
به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالسكمر جمع جل بالضم
والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به » ويهب لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض =

الفاسقُ في بطنه ، المأبون^(١) في فرجه ، يخالف القرآن ، واتباع السكَّهان ، ونادم القردة ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طرِدَ لَعِينُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسقٌ في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه . ثم تداوها بنو مروان بعده ، أهلُ بيت الالعة ، طرَدَاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقومٌ من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلًا ، ولعبوا بدين الله لعبًا ، واتخذوا عباد الله عبيدًا ، يورث ذلك الأكبرُ منهم الأصغر ، فيما لها أمة ! ما أضيعةُها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيئ أعمالهم ، واستخفاهم بكتاب الله تعالى ، قد تَبَذَّروه وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يسكَّدْ وَعَجَزَ عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر - .

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلامٌ ضعيف سَفِيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « فَإِنْ آنَسْتُمْ

= أهل الكوفة أربعمئة ألف دينار جباية وجعلها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضرًا فيها ، فضرِبَ تخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر حود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبلغًا كبيرًا ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شدت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدا بنفسه ، فاشعر إلا بشاب حسن الصورة على فارس جميل ، وعليه زى الملوك ؛ وقد علتة غبرة ، فقام إليه ، وسلم عليه ، فقال له أرايت كلبة عابرة هذا الموضع ؟ فقال : نعم يامولانا ، هاهي في الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، وفظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بجلبها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه مأخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبته بشيء كنصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كمقدمة : العيب . (٢) بلغ أشده : أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اختلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقليل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنْهُمْ رُشْدًا قَدْ ذَفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) ، فَأَمْرُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ فِي أَحْكَامِهَا وَفِرَاجِهَا وَدِمَائِهَا
أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ، غَلَامٌ مَأْبُونٌ فِي بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ ،
يَشْرَبُ الْحَرَامَ ، وَيَأْكُلُ الْحَرَامَ ، وَيَلْبَسُ الْحَرَامَ ، يَلْبَسُ بُرْدَتَيْنِ قَدْ حَبَكْتَاهُ ، وَقَوْمَتَا
عَلَى أَهْلَهُمَا بِالْفِ دِينَارٍ ، وَأَكْثَرُ وَأَقْلُ ، قَدْ أَخَذَتْ^(٢) مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا ، وَصُرِفَتْ فِي غَيْرِ
وَجْهٍ ، بَعْدَ أَنْ ضُرِبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارَ ،
وَاسْتَحِيلَ مَا لَمْ يُحِلَّ اللَّهُ لِعَبْدٍ صَالِحٍ ، وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، نَمَّ يُجْلِسُ حَبَابَةَ عَنْ يَمِينِهِ ،
وَسَلَامَةَ عَنْ شِمَالِهِ ، تَغْنِيَانِهِ بِزَامِيرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ الْعُصْرَاحَ الْحَرَمَةَ نَصَا بَعِينَهَا ،
حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِنْهُ مَأْخُذَهَا ، وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ ، وَغَلَبَتْ سَوْرَتَهَا عَلَى عَقْلِهِ ،
مَزَّقَ حُلَّتَيْهِ ، نَمَّ التَّفْتُ إِلَيْهِمَا فَقَالَ : أَنَا ذُنَانٌ لِي أَنْ أُطِيرَ^(٤) ؟ نَعَمْ ، فَطُرْتُ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ،
وَحَرِيقِ نَارِهِ ، وَالْأَلَمِ عَذَابِهِ ، طُرْتُ إِلَى حَيْثُ لَا يَرُدُّكَ اللَّهُ .

(١) الآية الكريمة في اليتامى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
أَسْتَمْتُمْ . . . » . (٢) أى الدنانير . (٣) فيها : أى في تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو
جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس في جباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبائي الفخرى
ص ١١٧ قال : « كَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ خُلَيْعُ بَنِي أُمَيَّةٍ شَغَفَ بِجَارِيَتَيْنِ أُمَمٍ إِحْدَاهُمَا سَلَامَةُ ، وَالْأُخْرَى حَبَابَةُ
فَقَطَعَ مَعَهُمَا زَمَانَهُ ، قَالُوا : فَعَنَّتْ يَوْمًا حَبَابَةُ :

بَيْنَ التَّرَاقِ وَالْهَوَا حَرَارَةً مَاتَطْمُنٌ وَلَا تَسْوِغُ فَتَبْرَدُ

فَأَهْوَى يَزِيدُ ابْنُ طَيْرٍ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا فَيْكُ حَاجَةٌ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لِطَيْرِينَ ، قَالَتْ : فَمَلُ
مَنْ تَدْعُ الْأُمَّةَ ؟ قَالَ : عَلَيْكَ وَقَبْلَ يَدَيْهَا ، فَخَرَجَ بَعْضُ خُدَمِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « سَخَنْتُ عَيْنَكَ فَا أَسْخَنْكَ »
وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي الْأَغَانِي « ج ١٣ ص ١٤٨ » قَالَ : « كَانَتْ حَبَابَةُ مَوْلَاةً مِنْ مَوْلِدَاتِ الْمَدِينَةِ ،
حُلُوةٌ جَمِيلَةٌ الْوَجْهِ ظَرِيفَةٌ حَسَنَةُ الْغَنَاءِ ؛ وَقَدْ قَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : مَا تَقَرَّرَ عَيْنِي بِمَا أُوتِيتُ مِنَ الْخِلَافَةِ حَتَّى
أَشْتَرِيَ سَلَامَةَ وَحَبَابَةَ ، فَأَرْسَلْتُ فَاشْتَرَيْتَاهُ لِي ، فَلَمَّا اجْتَمَعَتَا عِنْدَهُ قَالَ : أَنَا الْآنَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَانْقَضَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَعَ عَيْنَا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ

وَذَكَرُوا أَنَّ مُسْلِمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَقْبَلَ عَلَى يَزِيدَ يَوْمَهُ فِي الْإِلْحَاحِ عَلَى الْغَنَاءِ وَالشَّرَابِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ
وَلَيْتَ بِعَقَبِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعَدْلِهِ ، وَقَدْ تَشَاغَلْتَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ ، وَالْوَفُودِ بِبَابِكَ ، =

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال: « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طعماً أجهاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فأسكوا الأسر ، وأسلطوا فيه تسلط رُبُوبِيَّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظُّنة ، ويعطون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوثة ، ويُقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَى قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ

= وأصحاب الظلمات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حباية أياما ، فندست حباية إلى الأحوص أن يقول أبياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غلب الحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فن شاء لأمى	ومن شاء آمى في البكاء وأسعدا
وإن فندت في طلب الغنى	لأعلم أنى لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تمسح ولم تدر ما الهوى	فكن حجرا من يابس الصخر جلدا
فا العيش إلا ماتلذ وتشتهى	وإن لام فيه ذو الشتان وفندا

ومكث يزيد جمعة لا يرى حباية ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فطلقتها والعود في يدها ، ففنت البيت الأول ، فغطى وجهه ، وقال : مه لاتفعل ، ثم غنت : فا العيش إلا ماتلذ وتشتهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله ، ففتح الله من لأمى فيك ، يا غلام . مسلمة أن يصل بالناس ، وأقام معها يشرب وتغنيه ، وعاد ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكتب إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، وما ذكره المسعودى : أن حباية اعتلت فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى • فبالأس تساو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^(١) « فَأَقْبَلَ صَنِيفٌ تَاسِعٌ لَيْسَ مِنْهَا ، فَأَخَذَ كُلُّهَا : تِلْكَ الْفَرْقَةُ الْحَاكِمَةُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، فَالْعَنُومُ لِعَنَهُمُ اللَّهُ .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنني سمعت الله عز وجل قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظري نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصيبة لحزب لزومه ، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيياً كان أو رشداً ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدّول في رجعة الموتى^(٢) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدّعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، يقيمون المعاصي على أهلها ويعملون إذا ولّوا بها ، يصيرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها ؛ جفاة في دينهم ،

(١) الصدقات : الزكاة . العاملين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها . والمؤلفة قلوبهم : الذين أسلموا وفيهم ضعيقة في الإسلام ، فتستألف قلوبهم . وفي الرقاب : أى وفي ذلك رقاب المكاتبين ، فيعانون بشئ منها . والغارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير معصية ، ومن غير إصراف إذا لم يكن لهم وفاء .

(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن أعين الناس ؛ فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يمت ، وإنه في جبل رضوى (بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وإنه يعود بعد الغيبة فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والاثنى عشرية « وهى إحدى فرق الشيعة الإمامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الإمام الثاني عشر وهو محمد ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدي المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ، وأنه يخرج في آخر الزمان فيملا الأرض عدلاً وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيبتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجعون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

قليلة عقولهم^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن مؤالاتهم لهم
تُغْنِيهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنْجِيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى
يؤفكون^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تفتقدون ؟ وقد بلغنى
أنكم تنتَقِصون أصحابى ! قاتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم بأهل المدينة !
وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير إلا شبابا
أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم
ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباب الله مُكْتَهِلُونَ^(٣) فى شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن
الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاضة^(٤) عبادة ، وأطلاقُ مَهَرٍ^(٥) ، باعوا
أنفساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية
أصلاّبهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا
مرّ بآية من ذكر النار شهِقَ شهقةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض
رُكَبَهُمْ وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال^(٦) الليل بكلال النهار ، مُضْطَرَّة
ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جنب
الله ، مؤفون بعهد الله ، مُفْجَزُونَ لوعده الله ، حتى إذا رَأَوْا سِيَاهَ العدو وقد فُوقَتْ^(٧) ،
ورماحهم وقد أشرعت^(٨) ، وسيوفهم وقد انتضبت^(٩) ، وَبَرَقَتِ السَّكْتِيَّةُ وَرَعَدَتِ
بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد السكتية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفى البيان والتبيين « جفاة عن القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفكه عنه كضرب : صرفه
وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع فضو كحمل ، وهو
المهزول . (٥) جمع طلع وهو كنضو وزنا ومعنى . (٦) الكلال : التعب والإعياء .
(٧) فوق السهم : جمل له فوقا (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت للرمى .
(٨) سددت . (٩) استلّت .

الكتيبة ، وَلَقُوا شَبَابًا^(١) الأُسُنَّة ، وشائِك السهام ، وظُباتِ السيوف بنحورهم ،
 ووجوههم وصدورهم ، ففنى الشاب منهم قُدُماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
 واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ^(٢) جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ،
 وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى
 بها صاحبها في جَوْف الليل من خَوْف الله ، وكم من يد قد أُبينت عن ساعدها ، طالما
 اعتمد عليها صاحبها راکماً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق^(٣) ، قد فُلق
 بعمد الحديد ، ثم بكى ، وقال : آهِ ، آهِ على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
 وأدخل أرواحهم الجنان » .
 الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
 والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١ .

٤٥٠ — خطبة أخرى

ورق المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أُرْصِبْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، والعمل بكتابه ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،
 وصلة الرحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغير ما عظمت من الباطل ،
 وإمانته ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أمانوا من الحقوق ، وأن يُطاع الله ، وَيُعَصَى
 العبادُ في طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا طاعة للخلق في معصية الخالق ، ندعو
 إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وأنفسهم بالسوءية ، والعدل في اربعة ، ووضع الأخماس في
 مواضعها التي أمر الله^(٤) بها ، تعلمون يا أهل المدينة أننا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرأ

(١) جمع شبابة : وهى حد كل شيء ؛ والظبات : جمع ظبة ؛ وهى حد السيف . (٢) أصابه المقر :

وهو التراب . (٣) كريم .

(٤) قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » .

وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عَبَثًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لِدَوْلَةِ مُلْكٍ نَزِيدَ أَنْ نَخْوِضَ فِيهِ ، وَلَا لِنَارِ قَدِيمِ نَيْلٍ مِنَّا وَلَكِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ أَطْفَأَتْ ، وَمَعَالِمَ الْعَدْلِ قَدْ غُطِّلَتْ ، وَكَثُرَ الْإِدْعَاءُ فِي الدِّينِ وَغَمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُتِفَ الْقَاتِلُ بِالْحَقِّ ، وَقُتِلَ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ ، ضَاقَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَسَمِعْنَا دَاعِيًا ^(١) يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكِّمَ الْقُرْآنُ ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَ اللَّهِ وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٢) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا مِنْ قَبَائِلِ شَتَّى ، النَّفَرُ ^(٣) مَنَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، عَلَيْهِ زَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، يَتَعَاوَرُونَ لِحَافًا وَاحِدًا ، قَلِيلُونَ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَأَوَانَا اللَّهُ وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَأَصْبَحْنَا وَاللَّهُ جَمِيعًا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَطَلَى الدِّينَ أَعْوَانًا ، ثُمَّ لَقِينَا رِجَالَكُمْ بِقَدِيدٍ ، فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكِّمَ الْقُرْآنُ ، وَدَعَوْنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَحُكِّمَ مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ ، فَشَتَّانِ لِعَمْرِ اللَّهِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّشْدِ ! ثُمَّ أَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ وَزَفُونَ ^(٤) ، قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ بَحْرَانَهُ ^(٥) ، وَغَلَتْ بِدِمَائِهِمْ مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وَأَقْبَلَ أَنْصَارُ اللَّهِ عَصَائِبَ وَكِتَابٍ ، بِكُلِّ مَهْنَدٍ ذِي رَوْثٍ ، فَدَارَتْ رَحَانًا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا لِمَرْوَانَ وَآلِ مَرْوَانَ يُسْحَقَتْكُمْ ^(٦) اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، وَبَشَفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ أُولَّكُمْ خَيْرٌ أَوْلَ ، وَآخِرُكُمْ شَرٌّ آخِرَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثْنٍ ، أَوْ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عِصْدِهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَقَّتْهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ اللَّهُ عَدُوٌّ وَلَدَا حَرْبٍ ^(٧) .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨) ، الأغاني ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١

(١) يريد عبد الله بن يحيى السكندري . (٢) أي لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته .

(٣) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظلم وغيره كضرب زفا وزيفيا

وزفوفًا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره : أي استولى عليهم .

(٦) أسحت : استأصله . (٧) روى أنه قال عقب ذلك : « يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية

أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي ، على حبه للضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ — خطبة له في سبّ أهل المدينة وتقريرهم

وخطب المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل المدينة : مالى رأيت رَسَمَ الدين فيكم بقيًا ، وآثاره دارسةً ، لا تقبلون عظمتَه ولا تفقهون من أهله حُجَّةً ، قد بايت فيكم حدُّته ، وانطمست عنكم سُنَّتُه ، تَرَوْنَ معروفَه منكراً ، والمنكر من غيره معروفًا ، إذا انكشفت لكم العِبرَة ، وأُضحت لكم النُّذر ^(١) ، عَمِيت عنها أبصاركم ، وصمَّت عنها أسماعكم ، ساهين في غمَرَةٍ ، لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنقبض عن الحق إذا ذُكر ، مستوحشة من العلم ، مستأنسة بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق مُنفورًا ، تحملون قلوبًا في صدوركم كاللحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو لم تَلِنْ لِكِتَابِ الله الذى لو أُنْزِلَ على جَبَلٍ لرأيتَه خاشعًا مُتصدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، يا أهل المدينة ، ما تُتَنِّى عنكم صحة أبدانكم إذا سِقُمَتْ قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سببًا غالبًا ينقاد له ، ويعطى أمره . وجعل القلوب غالبَةً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب مِيلًا ، كانت الأبدان لها تَبَعًا ، وإن القلوب لا تَلِينُ أهلها إلا بصحتها ، ولا يصحِّحها إلا المعرفة بالله ، وقوَّة النية ، ونفاذ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يا أهل المدينة : داركم دارُ الهِجرة ، ومُنَوًى رسول الله صلى الله عليه وسلم لَمَّا نَبَتَ به دارُه ، وضاق به قَرَارُه ، وآذاه الأعداء وتجهمت ^(٢) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم ، مُتَوَازرين مع الحق على الباطن ، مختارين الآجل على العاجل ، يصبرون للصَّراء رجاء نوابها ، فنصروا الله ، وجاءوا في سبيله ، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النُّورَ

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ، ما يقولون فيه وفيمن عاونوه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغنى أنكم

تنتقصون أصحابي ... الخ » وقد حدثته هنا لوروده في الخطبة السالفة .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو المنذر . (٢) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريبه .

الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، وَآتَرُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(١) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَفْئِدَةً وَاصِفَاتٍ ذَاتِ لُحُومٍ ، وَأَنْتُمْ مُبْصِرُونَ ، وَأَنْتُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَمِنْ بَقِي مَنْ خَلَقَهُمْ ، تَتْرَكُونَ أَنْ تَقْتُلُوا بِهِمْ ، أَوْ تَأْخُذُوا بِسِنِّهِمْ ، تُعْمَى الْقُلُوبُ ، ضُمُّ الْأَذَانِ ، اتَّبَعْتُمُ الْهَوَى ، فَأَرْذَاكُمْ عَنْ الْهُدَى وَأَسْهَأَكُمْ ، فَلَا مَوَاعِظُ الْقُرْآنُ تَزْجُرُكُمْ فَتَزْجُرُونَ ، وَلَا تَعِظُكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ ، وَلَا تُوقِظُكُمْ فَتَسْتَيْقِظُونَ ، لَبِئْسَ الْخُلَافَ أَنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مَضَوْا قَبْلَكُمْ ، مَا سِرْتُمْ بِسِرِّهِمْ ، وَلَا حَفِظْتُمْ وَصِيَّتَهُمْ ، وَلَا احْتَذَيْتُمْ مِثْلَهُمْ ، لَوْ شِئْتَ عَنْهُمْ قُبُورُهُمْ ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَكُمْ ، لَعَجِبُوا كَيْفَ صُفِّى الْعَذَابُ عَنْكُمْ !
(الْأَغْنَى ٢٠ : ١٠٥ ، وَشَرْحُ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وجاء في رواية العقد الفريد :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : أَوَّلَكُمْ خَيْرٌ أَوَّلَ ، وَآخِرَكُمْ شَرُّ آخِرَ ، إِنَّكُمْ أَطْعَمْتُمْ قُرَاءَكُمْ وَفَقَعْتُمْ أَهْلَكُمْ فَاخْتَبَأْتُمْ ^(٢) عَنْ كِتَابِ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ ، بَنَادِيلِ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتَحَالِ الْمُبْطِلِينَ ، فَأَصْبَحْتُمْ عَنِ الْحَقِّ نَآبِينَ ^(٣) ، أَمْوَانًا غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : يَا أَبْنَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصْبَحَ أَضْلَكُمْ ، وَأَسَقَمَ فَرَعَكُمْ ! كَانُوا آبَاؤُكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْدِينِ ، وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلَةِ ، اسْتَعْبَدْتُمْ الدُّنْيَا فَأَدَلَّتْكُمْ ، وَالْأَمَانِيَّ فَأَضَلَّتْكُمْ فَفَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ بَابَ الدِّينِ فَسَدَّدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَفَتَحْتُمُوهُ ، مِرَّاعٌ إِلَى الْفِتْنَةِ ، بَطَالَةٌ عَنِ السُّنَّةِ ، مُعَمَّى عَنْ الْبِرِّهِانِ ، ضُمُّ عَنْ الْعِرْفَانِ ، عَيْبِدِ الطَّمَعِ ، حُلَفَاءُ الْجَزَعِ ، نِعَمَ مَا وَرَّثَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَبِئْسَ مَا تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عَدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعَدَدُكُمْ كَثِيرًا

(١) الْخَصَاصَةُ : الْفَقْرُ . (٢) خَاوُونَ . (٣) أَيْ عَادِلِينَ عَنْهُ مَنْصَرِفِينَ .

خبيث ، اتبعتم الهوى ، فأزداكم ، والاهو فأفسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجركم
فلا تزدرجون ، وتعبركم^(١) فلا تعتبرون »
(المقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ — خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في نائبي فتنه^(٢) ، وقائد ضلالة ، قد طال
جُثومها ، واشتدَّ عليك عُثُومُها ، وتلوَّنت^(٣) مصائدُ عدو الله فيها ، وما نصب من
الشرك لأهل الغفلة عمَّا في عواقبها^(٤) ، فلن يَهْدَّ عمودها ، ولن ينزع أوتادها ،
إلا الذي بيده ملك الأشياء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن الله بقايا من عباده
لم يتحيروا في ظلمها ، ولم يُشايعوا أهلها على شُبهها ، مصاصيحُ النور في أفواههم تزهُو ،
وألسنهم بحجج الكتاب تنطق ، ركبوا منهج السبيل ، وقاموا إلى العلم^(٥) الأعظم ،
هم خصماء الشيطان الرجيم ، بهم يضلح الله البلاد ، ويدفع عن العباد ، فطوبى لهم
وللمستصبحين^(٦) بتورهم ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم^(٧) . »

(المقد الفريد ٢ : ١٦٢)

-
- (١) المراد : تعظيكم ، من العبارة ؛ ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذي فيها : « عبر
الدرهم : وزنها » . (٢) من إضافة الصفة للموصوف أي في فتنة ناشئة ، أي حية شابة .
(٣) تعددت وصارت ذات ألوان : أي نصب العدو لنا المصائد ، ودبر المكائد للإيقاع بنا .
(٤) أي ولسنا منهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستخفون في دعوتهم .
(٦) أي المستصبيين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب مني إسنادها ؛ وهي لأبي
حمزة كما في المقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(١) فقال :
 « يا أهل المدينة : إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نعدّل في أحكامكم ،
 ونحمّدكم على سنة نبيكم ، ونقسم بينكم فيئكم ، وإن يكن ما تمنّون لنا : فسيعلم
 الذين ظلموا أيّ مُنقلبٍ ينقلبون » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١١٠ ، والأغاني ٢٠ : ١١٠ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفّر الحجاج بعمران ^(٢) بن حطان الشّارى . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ،
 فقال عمران : لبئس ما أدّبك أدلك يا حجاج ! كيف أمّنت أن أجيبك بمثل
 ما لقيتني به ؟ أبعد الموت منزلة أصانمك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال : خلّوا عنه ،
 فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربته معنا ،
 فقال : هيهات ! غلّ يداً مُطْلِقُهما ، وأسرَ رقبَةً مُعْتَقُهما .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام ؟ واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ،
 وأمره أن يمضي فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ البين ، ويقااتل عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ،
 وخرج أبو حزة للقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حزة ، وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه
 هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بنى العباس ، ثم سار ابن عطية إلى
 البين ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القعد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ — خطبة سبحان بن زفر الوائلي^(١) (توفي سنة ٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس : فخذوا من دار تمرّكم لدار مقرّكم ، ولا تهتكوا أستاذكم عند من لا تحفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فيها حَيَيِّمٌ وانفيرا خَلِقْتُمْ ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة ما قدّم لله ؟ قدّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم » .

(سرح العيون ص ٩٥)

(١) هو سبحان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في المصاحبة والبيان ، فقيل : « أخطب من سبحان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموجزة ، على أنها ترمز إلى الإمام على - انظر نهج البلاغة ١ . ٢٦٠ - وذكر المبرد في السكامل عن الأصمعي أن أعرابياً خطبها بالبادية - تهذيب السكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي الفارابي في الأمالي ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ - وأبو الفضل الميداني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٣ - والحصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين على عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيره » - م ٣ : ص ٢ . وقد روى ابن نباتة في سرح العيون أنه قدم على معاوية وقد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سبحان فلم يوجد في منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضاباً ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتحنح ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فزال تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ؛ فأشار إليه سبحان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعده ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سبحان : « والمجم والجن والإنس » اه ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ ما يقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين^(١) ، ثم ارجعوها كليلة عن بلوغ
الأمَل ، فإن الماضي عِظَةٌ للباقي ، ولا تجمعوا الغرورَ سبيل العجز عن الجدِّ ، فتَنقَطِعَ
حجبتكم في موقفِ الله سائِلُكم فيه ، ومحاسِبُكم فيما أسلفتم ، أيها الناس : أمْسِ شَاهِدٌ
فاحذَرُوهُ ، واليوم مؤدَّب فاعْرِفُوهُ ، وغداً رسولٌ فأَكْرِموهُ .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعملوا لله رغبةً ورهبةً ، فإنكم نبات نِباتِ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدِ نِعْمَتِهِ ،
ولا تَغْرِسْ لكم الآمالُ ، إلا ما تجتنيه الآجالُ ، وَأَقْلُوا الرغبة فيما يورث العطبَ ،
فكل ما تزرعه العاجلةُ ، تَقْلَعُهُ الآجلةُ ، واحذروا الجديدين ، فهما يكرهان عليكم ،
إن عُقْبَى من بَقِيَ لِحُوقِ بَيْنِ مَضَى ، وعلى أثرٍ من سَلَفٍ ، يَمْضِي من خَلْفٍ ،
فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . »

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد : حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبَلَغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أَخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبُّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ » .

(تهذيب الكمال ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقه مزاه المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشعار الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

كلام الحسن البصرى

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ - خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله ^(١) :

« يان آدم : بيعْ دنيالك بأخرتك ترَبِّحْهُمَا جَمِيعًا ، ولا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ فَتَخْصِرَها جَمِيعًا . يان آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهُمْ فيه ، وإذا رأيتهم في الشرِّ فلا تَقْبِطْهُمْ عليه ، الثَّوَاءُ ^(٢) هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أَمْتَكُم آخر الأُمم ، وأنتم آخر أَمْتِكُم ، وقد أُسْرِعَ بِخياركم ، فإذا تَنَقَّظَروُن ؟ المعايِنَةُ ؟ فَكأنْ قَدْ هَبَّات هِيَّات ! ذهبت الدنيا بِحالِها ^(٣) ، وبقيت الأعمال قلائِدَ في أعناق بني آدم . فيا لها موعظةٌ لو وافقت من القلوب حياةً ! أما إنا والله لا أُمَّةَ بَعْدَ أَمْتِكُم ، ولا نبيَّ بَعْدَ نَبِيِّكُم ، ولا كتابَ بَعْدَ كِتَابِكُم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يَلْحَقَهُ آخِرُكم ، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً ، لم يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبْنَةٍ ، ولا فَصْبَةً عَلَى قَصْبَةٍ ، رُفِعَ لَهُ عِلْمَ فَشْمَرٍ إِلَيْهِ ^(٤) ، فالوَحَاءُ الوَحَاءُ ^(٥) »

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسين وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ وأصل بن عطاء شيخ المعتزلة . (٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهي حال وحالية : ليست الحلى ، والمعنى ذهبت بزخرفها الذى تزينت به الناس فأضلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها » وهو تحريف . (٤) وفى نسخة : « فها إليه » . (٥) الوحاء ويعد : العجلة والإسراع .

وَالنَّجَاءَ النِّجَاءَ ، عَلَامَ تَعْرِجُونَ ؟ أُبَيِّتُمْ وَرَبَّ السَّكْبَةِ اِقْدَ اسْرِعْ بِخِيَارِكُمْ : وَأَنْتُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَرْدُلُونَ^(١) ، فَمَاذَا تَنْظُرُونَ ؟ إِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ، اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَكَانَ صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَرَسُولُهُ إِلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَوْضِعًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ^(٢) ، وَآتَاهُ مِنْهَا قُوتًا وَبُلْغَةً ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فَرِغَ أَقْوَامٌ عَنْ عَيْشِهِ ، وَسَخِطُوا مَا رَضِيَ لَهُ رَبُّهُ ، فَأَبْغَدَهُمُ اللَّهُ وَأَسْحَنَهُمْ^(٣) .

يَا بَنَ آدَمَ : طَلَّ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ قَبْرُكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَذِهِ عَمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ . رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَتَفَكَّرَ ، وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ ، فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامٌ وَلَمْ يَصْبِرُوا ، فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُدْرِكُوا مَا طَلَبُوا ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا فَارَقُوا .

يَا بَنَ آدَمَ : اذْكُرْ قَوْلَهُ : « وَكُلْ إِنْشَانُ الْأَزْمَنَاءَ طَائِرَهُ^(٤) فِي عُنُقِهِ ، وَخُجِرْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يُلْقَاهُ مَنْشُورًا ، أَفْرَأُ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . عَدَلَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خَذُوا صِفَا الدُّنْيَا ، وَذَرُّوا كَدَرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَرًا ، وَلَا السَّكْدَرُ مَا عَادَ صَفْوًا ، دَعُوا مَا يُرِيْبُكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَفَّتِ^(٥) الشُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحِبْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ حَبِيبَتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ^(٦) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا عَلَيْهَا - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحْلَ اللَّهُ لَهُمُ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِيَ أَسْمَعَ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَى

(١) أى تصيرون أرضًا لا جمع رذل : وهو اللدون الخسيس . (٢) أى موضعًا ساميًا .

(٣) أى أبغدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم . (٤) أى عمله يحمله فى عنقه ،

والتصير به لما كانوا يتيمنون ويتشامون بالطائر السانع والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر .

(٥) بحيث . (٦) أعوف

أُنَيْسًا ، ذهب الناس وبقى النِّسْناس^(١) ، لو تفككنا شقتم ما تدافقتم ، تهاديتم الأطباق ، ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعِذُوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قِبَلِ ربه ، إن هذا الحق قد جَهَّدَ أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عَرَفَ فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذمَّ الآخرة ، وليس بكرة لِقَاءِ اللهِ إِلَّا مُقِيمٌ عَلَى سَخَطِهِ .

يا ابن آدم : الإيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ولكنه ما وقر في القلوب ، وصدَّقه العمل .

(البيان والبيان ٣ : ٦٨ وحيون الأخبار ٢ م ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦٩)

٢٦٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ^(٢) » قال :
عَمَّ أَلْهَاكُمْ ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ^(٣) ، هذا والله فَضَحَ القومَ ، وَهَتَكَ السُّتْرَ ، وأبدى العوار^(٤) ، تُنفِقُ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهْوَاتِكَ سَرَقًا ، وتمنع في حق الله دِرْهَمًا ! ستعلم يا أَلَكَمَ^(٥) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛ فأما المؤمن : فقد أُلْجِهَ الخوفُ وَقَوَّاهُ ذِكْرُ الْعَرْضِ ؛ وأما الكافر : فقد قَمَعَهُ السَّيْفُ ، وَشَرَّدَهُ الخوفُ ، فَادَّعَنَ بِالْجُزْئِيَّةِ ، وَتَمَتَّحَ بِالضَّرْبِيَّةِ ؛ وأما المنافق : ففي الْحُجُرَاتِ وَالطَّرِيقَاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلَنُونَ ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ، فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، ويا أَلَكَمَ ؟ قنلت وليه ، ثم تمتعني عليه جَنَّتُهُ ؟ .
(البيان والبيان ٣ - ٦٩)

(١) في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقى النسناس » قيل : فالنسناس ؟ قال :
« الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير ، منه : أنهم خلق على صورة
الناس خالفوهم في أشياء ، وليسوا منهم .

(٢) التباهى بالكثرة . (٣) لا تنفى . (٤) العوار مثلث اللين : العيب .

(٥) ألكم : التيم والاحتق .

٤٦١ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله ، فَعَرَّضَ عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعْتَبَ وأناب ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صلاتكم صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم ، جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرْحَمَكُم ، فإن الله تبارك وتعالى أننى على عهد من عباده ، فقل : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . يابن آدم : كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارُك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمّنك الناس ؟ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٦٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصحح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر فإنك إذا رأيت مَرَك مكانه ، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فَضْلًا ، وَجَهَّوْا هَذِهِ الْفُضُولَ ^(١) حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ ، وَضَعُوهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِنْ مِنْكُمْ قَلِيلٌ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغَتِهِمْ ، وَيُؤْثِرُونَ بِالْفَضْلِ ، أَلَا إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَضَرَ بِالدُّنْيَا فَفَضَحَهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُو لُبٍّ فِيهَا فَرَحًا ، فَإِذَا كُمْ وَهَذِهِ السَّبِيلُ الْمَتَفَرِّقَةُ ، الَّتِي جَمَاعُهَا الضَّلَالَةُ ، وَمِيعَادُهَا النَّارُ ، أَدْرَكْتُ مِنْ صَدَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمًا كَانُوا إِذَا جَنَّتْهُمْ اللَّيْلُ فَقِيَامَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ خُدُودَهُمْ ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يَنَاجُونَ مَوْلَاهُمْ فِي فِكَكَ رِقَابِهِمْ ، إِذَا عَمَلُوا الْحَسَنَةَ سَرَّاهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ ، وَإِذَا عَمَلُوا سَيِّئَةً سَاءَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ ، يَابْنَ آدَمَ : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَلَيْسَ هَاهُنَا شَيْءٌ يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَالْقَائِلُ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ ، يَابْنَ آدَمَ : لَا تَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرُكْهُ حَيَاءً .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٤ - خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنْ الْعُلَمَاءُ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَوْا بَعْلَهُمْ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بَعْلَهُمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دُنْيَاهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً فِي عِلْمِهِمْ ، فَأَصْبَحَ لِلْيَوْمِ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عِلْمَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُمْ ، فَغَرِبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عِلْمِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَوْضِعِهِمْ عِنْدَهُمْ » ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُوَارِي

(١) جمع فضول : وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، ويُبْدِي لى فقره ، وَيُغْلِقِ دونى بابِه ، ويمعنى ما عنده ، وأدع
من يفتح لى بابِه ، ويُبْدِي لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده .
(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ - خطبة أخرى

وكان يقول : « يابن آدم ، لاغنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك
من الآخرة أفقر ، مؤمن مُهْتَمٌّ ، وعِلْج اغْتَمٌّ ، وأعرابى لافِقُهُ له ، ومنافق مَكْذَبٌ ،
ودنياوى^(١) مُتَرَفٌّ ، نَعَقَ بهم ناعق فاتبعوه ، فَرَّاشُ نارٍ^(٢) ، وَذِبَّانُ طَمَعٍ ، والذى نَفْسُ
الحسن بيده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن
راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بَلَاءٌ صاروا إلى
حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أى قوم : إن نعمة الله عليكم
أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ،
ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همِّه .
(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ - خطبة أخرى

وقال فى يوم فِطْرٍ - وقد رأى الناس وهيتائهم - : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان
مِضْماراً لخلقهِ ، يَسْتَبِقُونَ فيه بطاعته إلى مَرْضَاتِهِ ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون
خفاً ، فالعَجَبُ من الضاحك اللاعب ، فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه
المبطلون ، أما والله أن لو كُشِفَ الغطاء ، أشْغِلَ محسن بإحسانه ، ومُسيء بإساءته ،
عن ترجيل^(٣) شِعْرٍ ، أو تجديد نوب .
(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أى هم كالقراش يتهافت على النار بحسبها نافعة له فحرقه .
(٣) وفى رواية الكامل للمبرد : « ترطيل بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن وتكسيه وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ - مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما وَلِيَ عُمرُ بنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ الْعِرَاقَ - وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ - اسْتَدْعَى الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ ، وَ مُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ ، وَالشَّعْبِيَّ ، سَنَةَ ثَلَاثٍ وَمِائَةٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنْ يَزِيدَ خَلِيفَةُ اللَّهِ ، اسْتَخْلَفَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمِ الْمِيثَاقَ بِطَاعَتِهِ ، وَأَخَذَ عَهْدَنَا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَقَدْ وَلَّانِي مَا تَرَوْنَ ، فَيَكْتُبُ إِلَيَّ بِالْأَمْرِ مِنْ أَمْرِهِ ، أَعْرِفُ فِي تَنْفِيذِهِ الْهَلَكَةَ ، فَأَخَافُ إِنْ أَطَعْتُهُ غَضَبَ اللَّهِ ، وَإِنْ عَصَيْتُهُ لَمْ أَمِنْ سَطَوْتِهِ ، فَمَا تَرَوْنَ ؟ فَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ وَالشَّعْبِيُّ قَوْلًا فِيهِ تَفَيُّهُ ، وَكَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ لَا يَسْتَشْفِي دُونَ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الْحَسَنِ ، فَقَالَ : قُلْ مَا عِنْدَكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ، فَقَالَ : « يَا بَنُ هُبَيْرَةَ : خَفِ اللَّهَ فِي يَزِيدَ وَلَا تَخَفْ يَزِيدَ فِي اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ يَمْنَعَكَ مِنْ يَزِيدَ ، وَإِنْ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنْ اللَّهِ ، وَأَوْشَكَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ مَلَكًا ، فَيُزِيلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ ، وَيَخْرِجَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ ، إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ ، نَحْمُ لَا يُنْجِيكَ إِلَّا عَمَلُكَ ، يَا بَنُ هُبَيْرَةَ : إِنْ تَعَصَى اللَّهُ ، فَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ هَذَا السَّلْطَانَ نَاصِرًا لِلدِّينِ وَاللَّهِ وَعِبَادِهِ ، فَلَا تَرْكَبَنَّ دِينَ اللَّهِ وَعِبَادَهُ بِسُلْطَانِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِلْخَلْقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ » .

وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ : « أَقُولُ وَاللَّهِ إِنَّهُ يُؤْشِكُ أَنْ يَبْزُلَ بِكَ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ فَظَّ غَلِيظٌ ، لَا يَعْصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ ، فَيَخْرِجَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ ، إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ ، فَلَا يُغْنِي عَنْكَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ شَيْئًا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُعْصِمُكَ مِنْ يَزِيدَ ، وَإِنْ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ اللَّهِ ، فَاتَّقِ اللَّهَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَإِنَّكَ لَا نَأْمَنُ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَأَنْتَ عَلَى أَقْبَحِ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ يَزِيدَ ، نَظْرَةً يَمَقُّتُكَ بِهَا ، فَيُؤْمِلِقُ عَنْكَ بَابَ الرَّحْمَةِ ، وَاعْلَمْ أَنِّي أَخَوْفُكَ مَا خَوْفُكَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حِينَ يَقُولُ : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ » وَإِذَا كُنْتَ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي طَاعَتِهِ كَمَا كُنْتَ بِوَأْتِ (١) يَزِيدَ ، وَإِنْ كُنْتَ مَعَ يَزِيدَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ اللَّهُ إِلَى يَزِيدَ حِينَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » .

فبكى عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا ^(١) له فَسَفَسَفَ لنا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان والياً على البصرة - الحسن البصري يوماً ، فقال : يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خالق الدنيا وما فيها من رباشرها ^(٢) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال الحسن :

« أبها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجحت ^(٣) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يعطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيتها ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالاته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مهيئاً ، وحدَّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فإلغنا إليه بفضلِهِ ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

(١) سَفَسَفَ عمله : لم يبلغ في إحكامه . (٢) الرياش : اللباس الفاخر والمال والخصب والمال .

(٣) أى ملت إليها ، من ترجعت به الأرجوحة : مالت .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لننجب ربنا ، فقال الحسن :
 « لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه :
 « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » فجعل سبحانه أتباعه صلى الله
 عليه وسلم علما للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله أيها الرجل في نفسك ،
 وإني والله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك ، يعملون المنابر ، وتهتز لهم المراكب
 ويحرقون الذبول بطرأ ورياء الناس ، يبنون المدر^(١) ، ويؤثرون الأثر^(٢) ، ويتنافسون
 في النياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ،
 ونزلوا على أعمالهم ، قالويل لهم يوم التغابن^(٣) ، ويا ويحكمهم - يوم يفر المرء من أخيه
 وأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .
 (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٠)

٤٦٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيذك الله ، إن أخاك من نصحك في دينك ، وبصرك عيوبك ،
 وهداك إلى مرادك ، وإن عدوك من غرك ومنأك ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت
 مخالفا للقوم في الهدى والسير ، والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمني الأمان ،
 وترجع في طلب العذر ، والناس أصلحك الله طابان ، فطالب دنيا ، وطالب
 آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واخترم^(٤) ،

(١) المدر : قطع الطين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر على أصحابه : اختار
 لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة بالضم والكسر ، والجمع أثر
 كفرصة وفرص . (٣) غينه في البيع يغنيه ، والتغابن : أن يغيب بعض القوم بعضا ، وسمى يوم القيامة
 يوم التغابن لأن أهل الجنة تغيب أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا . (٤) هلك .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني ، وترك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكماً قال :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سفاها بكأس الموت ساقها
نعوذ بالله من الحوز بعد الكوز^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت أيها الأمير
عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخوثة أميناً ، وعلى
أعمالهم معيناً » . (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٧٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال :
« الحمد لله : إن الملوك أيرؤن لأنفسهم عزاً ، وأنا آنرى فيهم كل يوم عزاً ، بعمد
أحدهم إلى قصر فبيشده ، وإلى فرش فينجده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب فيحسها ،
ثم يحف به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأحباب سوء ، فيقول : أنظروا ما صنعت ! فقد
رأينا أيها الغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ،
وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغررت في دار
الغرور ، لتذل في دار الحيود ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على
العلماء ، لكيبيذنه للناس ولا يكتمونونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام أيشتمني
عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو
يمرك شفقيه بما لم يسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي
عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوفك حتى

(١) الحوز : النقصان ، والكوز : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحوز بعد الكوز » أي من النقصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها : وأصله من كوز العمامة وهو لفها وجمعها . (٢) واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها . (٣) التنجيد : التزيين ، والتجاذب : الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

تبلغ أَمْنَكَ أرفق بك وأحبّ فيك من أَمْنِكَ حتى تبلغ الخوف، وما أردتُ الذي سبق إلى وهلك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فاقبل الأولى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحبّاه .
وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ منّي عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَأَمَّا بِالْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي » عَلِمُ على وعثمان عند الله قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية^(١) وعَلَف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحِبِي عند شِدَّتِي ، ويا رُلِّي نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودّته ، واصرف عني أذاه » ففعل ربي عز وجل .

ز الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ ، والنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمال السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ — صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام المادل قوام كل مائل ، وقَصْد^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، وَنَصْفَة^(٤) كل مظلوم ، ومَفْزَع كل مالهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي ير تاد

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامهما في سلك الوصايا .

(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها أطيب الرعى ، ويذودها عن مرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفها من أذى الحر والقر^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسقى لهم صيفاراً ، ويملمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويذخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً ، وتقطعه أخرى ، وتفرح بهافيته ، وتقمّ بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، ربّي صغيرهم ، ويؤنّ كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويرى بهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تسكن يا أمير المؤمنين فيما مأكلك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفترق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلتهم من يقتصّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبّائك ، يُسَلِّونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأبى وأبيه ، وصاحبته وبنيّه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القُبُور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتّاب لا يُعادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد

(١) مثلث القاف : البرد .

الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يَرَقِبُونَ في مؤمنٍ إلا^(١) ولا ذِمَّةً ، فنبؤ بأوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يفرتك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في تجميع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت^(٢) الوجوه للحَيِّ المَيُومِ ، إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بمظلي ما بلغه أولو الدُّهَى من قبلي ، فلم آلك^(٣) شفقةً ونُصْحًا ، فَأَنْزِلْ كتابي إليك كدأوى حبيبهِ ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجوه في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »
(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلى يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فسكان الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو كائن قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن المَوَى ، وإن أذاقك طعم حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة . »

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤)

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلت . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : اَكْتُبْ إِلَى يَا أَبَا سَعِيدٍ بِذِمَّةِ الدُّنْيَا ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

«أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ ظَنٍّ ^(١) وَانْتِقَالٍ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ إِقَامَةٍ عَلَى حَالٍ ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْهَا آدَمُ عَقُوبَةً ، فَاحْذَرُهَا فَإِنَّ الرَّاغِبَ فِيهَا تَارَكَ ، وَالْغَنَى فِيهَا فَقِيرٌ ، وَالسَّعِيدُ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا ، إِنَّهَا إِذَا اخْتَبَرَهَا اللَّيْبُ الْحَازِقُ ، وَجَدَهَا تَذِيلَ مَنْ أَحْزَاهَا ، وَتَفَرَّقَ مِنْ جَمْعِهَا ، فَهِيَ كَالسَّمِّ يَأْكُلُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَيَرْغَبُ فِيهِ مَنْ يَجْهَلُهُ ، وَفِيهِ وَاللَّهِ خَيْفَةٌ ؛ فَكُنْ فِيهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمَدَاوِي جِرَاحَهُ ، يَحْتَمِي قَلِيلًا ، مَخَافَةَ مَا يَكْرَهُ طَوِيلًا ، الصَّبْرُ عَلَى لَأْوَأْئِهَا ^(٢) ، أَيْسَرُ مِنْ احْتِمَالِ بَلَائِهَا ، وَاللَّيْبُ مَنْ حَذَرَهَا وَلَمْ يَغْتَرَّ بِزِينَتِهَا ، فَإِنَّهَا غِدَارَةٌ خَيَْالَةٌ ^(٣) خِدَاعَةٌ ، قَدْ تَعَرَّضْتُ بِأَمَالِهَا ، وَتَزِينْتُ لُحْطَائِهَا ، فَهِيَ كَالْعَرُوسِ ، الْعَيُونَُ إِلَيْهَا نَظَرَةٌ ، وَالْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَالِهَةٌ ^(٤) ، وَهِيَ - وَالَّذِي بَمَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ - لِأَزْوَاجِهَا قَاتِلَةٌ ، فَاتَّقِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَرَغَتَهَا ، وَاحْذَرِ عَثْرَتَهَا ، فَالْرَّخَاءُ فِيهَا مُوَصُولٌ بِالشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ ، وَالْبَقَاءُ مُوَدَّةٌ إِلَى الْهَلَكَةِ وَالْفَنَاءِ .

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَّ أَمَانِيَّهَا كَاذِبَةٌ ، وَأَمَالُهَا بَاطِلَةٌ ، وَصَفْقُوهَا كَدْرٌ ، وَعَيْشُهَا نَكْدٌ ، وَتَارِكُهَا مُوَفَّقٌ ، وَلِلتَّمَسُّكِ بِهَا هَالِكٌ غَرِيقٌ ، وَالْفُطْنُ اللَّيْبُ مِنْ خَافَ مَا خَوَّفَهُ اللَّهُ وَحَذَرَ مَا حَذَرَهُ ، وَقَدَّرَ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ الْيَقِينُ ، الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَارُ عَقُوبَةٍ ، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ ، وَبِهَا يَغْتَرُّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، وَالْحَازِمُ اللَّيْبُ مَنْ كَانَ فِيهَا كَالْمَدَاوِي جِرَاحَهُ ، يَصْبِرُ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، لِمَا يَرْجُو مِنْ

(٢) شَتَائِهَا .

(١) ارْتِمَالٌ .

(٤) مِنَ الْوَلَهْ بِالتَّحْرِيكِ : وَهُوَ ذَهَابُ الْعَقْلِ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ .

(٣) خِدَاعَةٌ .

للعافية ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الدَّارِ ، وَالدُّنْيَا وَيَأْمُرُ اللَّهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حُلُمٌ ، وَالْآخِرَةُ يَفْقَظَةُ ، وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَهُمَا الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادُ فِي أَصْفَاتِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَاتِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ نَاجِيًا .
وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ :
يَرْحَمُ اللَّهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَوْقِظُنَا مِنَ الرَّقَدَةِ ، وَيَنْبَهِنَا مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَلِلَّهِ هُوَ مِنْ مُشْفِقٍ مَا أَنْصَحُهُ ! وَوَاعِظٍ مَا أَسْدَقُهُ وَأَفْصَحُهُ !

(الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ص ٥٤ ، وَسِيرَةُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ص ١٢١)

٤٧٤ - كَلِمَاتُ حِكْمَةٍ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ

وَقَالَ : احْذَرِ مَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ حَدِيثَ غَيْرِكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْقُلُ إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثَكَ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كُنْتُمْ لَا تَتَأَلَوْنَ مَا تَحِبُّونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ ، وَلَا تُدْرِكُونَ مَا تَأْمُلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَسْكُرُهُونَ . الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، فَنَاقِضٌ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّبْرَيْنِ . أَفْضَلَ الْجِهَادِ جِهَادُ الْهَوَى . لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَجْمَعُ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ وَحِكْمَ الْحُكَمَاءِ ، وَيَجْرِي فِي الْحَقِّ بِمَجْرَى الشُّفَهَاءِ . مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . لَوْلَا ثَلَاثَةٌ مَا طَاطَأَ ابْنُ آدَمَ رَأْسُهُ : الْمَوْتُ ، وَالْمَرَضُ ، وَالْفَقْرُ ، وَإِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَوَثَابٌ . احْذَرُوا الْعَابِدَ الْجَاهِلَ ، وَالْعَالِمَ الْفَاسِقَ ، فَإِنْ فِيهِمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ . تَرَكُ الْخَطِيئَةَ أَهْوَنُ مِنْ مَعَالِجَةِ التَّوْبَةِ . لَا تَكُنْ شَاةُ الرَّاعِي أَعْقَلَ مِنْكَ ، تَنْزِجُهَا الصَّيْحَةَ ، وَتَطْرُدُهَا الْإِشَارَةَ . الْمُؤْمِنُ تَلْقَاءُ الزَّمَانِ بَعْدَ الزَّمَانِ ، بِأَسْرٍ وَاحِدٍ ، وَوَجْهٍ وَاحِدٍ ، وَنَصِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنَّمَا يَتَبَدَّلُ الْمُنَاقِقُ لَيْسَتَا كُلُّ كُلٍّ قَوْمٌ . الْمُؤْمِنُ صَدَّقَ قَوْلُهُ فَعَلَهُ ، وَسَرَّهُ عِلَانِيَتُهُ ، وَمَشْهَدُهُ مَخْفِيَةٌ . لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَكَانَتِ الْفِكْرَةُ مِنْ عَمَلِهِ

والد كُرُّ من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشرًا ما استعمل التسويف ، واتَّبِعَ الهوى ، وأكثَرَ الغفلة ، ورجَّح في الأمانى . الحقُّ مُرٌّ لا يصير عليه إلا من عَرَفَ حُسْنَ العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب حادِّثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدُّور^(١) ، واقدِّعوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طُلُمة^(٣) ، وإنسِكُم إلا تَزَعُّوها^(٤) تنزع بكم إلى شرِّ غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمِّدك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمُّك ، وكذلك ليالك إنما أنت أيها الإنسان عدَدٌ ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضُك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشدُّ الناس صُراخًا يوم القيامة ؟ فقال : رجل رُزِقَ نعمةً فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قَتَلَ الليل حتى ينحني ظهرك ، وصُغِمَتِ النهار حتى يَسْتَقِمَ جسمُك ، لم يذمَّكَ ذلك إلا بورع صادق . وسمع رجلاً يُكثِرُ الكلام ، فقال : يابن أخى أمسِكْ عليك لسانك . فقد قيل : ما شيء أحقَّ بِسَجْنٍ من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خلق الله إلى الله فأنسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذلَّ .

وقال : « يا عَجَبًا لِقَوْمٍ قد أُمروا بالزاد ، وأوذِنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعرى ! ما الذى ينتظرون ؟ » وقال : اجعل الدنيا كالتنظرة : تجوز عليها ، ولا تَعْمُرْها ، وقال : ليس العَجَبُ بمن عَطِبَ كيف عَطِبَ ، إنما العَجَبُ بمن نجا كيف نجا ، وقال : « من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وجرص على العلم ، وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبرٌّ في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال . » (الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ — ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى ١ : ١١٠ — ١١١ . وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

(١) دُور القلوب : أسماء الذكر منها . (٢) كفوها واكبحوها . (٣) نفس طُلُمة : تكثُر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية : « عنموها » .

٤٧٥ - خطبة واصل بن عطاء^(١) المنزوعة الرائ

الحمد لله القديم بلا غاية ، والبقاء بلا نهاية ، الذي علا في دُنُوّه ، ودنا في عُلوّه ،
فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يُثوده^(٢) حِفْظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالٍ
سبق ، بل أنشأ ابتداء ، وعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتَمَّ مشيئته ،
وأوضح حكْمته ، فدل على ألوهيَّته ، فسبحانه لَمُعَقَّب^(٣) الحُكْمه ، ولا دافع لقضائه ،
تواضع كل شيء لِعَظَمته ، وذلَّ كل شيء لسلطانهِ ، ووسَّع كل شيء فضله ، لا يعزُّب
عنه مثقالُ حَبَّة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلهاً تقدَّست
أسماءه ، وعظمتُ آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع ،
فلا تبْلُغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول ولا الأذهان ، يُعَصَّى فيحلم ، وَيُدْعَى فيسمع ،
ويقبل التوبة من عباده ، وَيَغْفُو عن السيِّئَات ، وَيَعْلَم ما تفعلون ، وأشهد شهادة حق ،
وقول صدق ، بإخلاصٍ نيَّة ، ورحمة طويَّة ، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالسته^(٤)
وصفيَّه ، اتبعته إلى خلقه بالبينَّة والهدى ودين الحق ، فبأنَّ مَأْلُكته^(٥) ، ونصح لأُمته ،
وجاهد في سبيل الله ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يصدّه عنه زعم زاعم ، ماضيا
على سنته ، مؤفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى الله على محمد ، وعلى آل محمد

(١) هو أبو حليفة واصل بن عطاء شيخ المعتزليين ، وأحد الأئمة المعكلمين ، وكان يلغ
بالراء ، فيجعلها غينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتجل
هذه الخطبة وعراها من حرف الراء ، وأبدع في القول :

ففضل عبد الله خطبة واصل وضوء في قسم الصلوات له الشك

(والشك بالضم : العطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . (٢) يشقله ، آده أودا (كنصر) بلغ
منه المجهود . (٣) لا راد له . (٤) هذا الشيء خالصة لك : أى خاصة . (٥) المألكة : بضم
اللام وتفتح : الرسالة .

أفضل وأزكى ، وأنتم وأنى ، وأجل وأعلى صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضعاف ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والجانبية لمعصيته ، وأحضكم على ما يذنبكم منه ، ويُرْزَلْكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تُلهيَنكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها ، وفوائد لذاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شئ منها يزول ، فكم عابتم من أعاجيبها ، ولم نصبَت لكم من حبالها ، وأهلكت من جنح إليها ، واعتمد عليها ! أذاقهم خلوا ، ومزجت لهم سما ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأرثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملَكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بمَحَامِلِهَا^(١) ، وطحنهم بكلِّ كَلِمَةٍ^(٢) ، وعرضهم بأنبيائها ، وعاضتهم من السمّة ضيقاً ، ومن العِزّة ذُلّاً ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللحد ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا ترى إلا مَسَا كِفَتَهُمْ ، ولا تجد إلا مَعَالِمَهُمْ ، ولا تُحِسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً ، فتزدوا عافا كم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تُفْلِحُونَ ، جعلنا الله وإياكم بمن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، ومن يستمعُ القولَ فيَتَّبِعُ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزّكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا نُتِلَ عليكم فأنصتوا له ، وأنسموا لعلكم تُفْلِحُونَ ، أعوذ بالله القوي ، من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، ثم قال :

(١) الحمل : شقان على البعير يحمل فيهما المنيلان ، والمراد أحتوت عليهم .

(٢) الكلكل : الصدر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالوحي المبين ، وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ ، وَأَدْخَلْنَا وَإِيَّاكُمْ جَنَّاتِ النِّعَمِ .
(مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٧٦ - وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يَا بَنِي أُمَيَّةَ : ابْذُلُوا نَدَاكُمْ ، وَكُفُّوا أَذَاكُمْ ،
وَاعْفُوا إِذَا قَدَّرْتُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا إِذَا سُئِلْتُمْ ، فَإِنْ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَفَادَ جَدًّا ، أَوْ نَفَى ذِمًّا ،
وَلَا يَقْوَانَّ أَحَدُكُمْ : ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، فَإِنَّمَا النَّاسُ عِيَالُ اللَّهِ ، قَدْ تَسْكُلُ اللَّهُ
بِأَرْزَاقِهِمْ ، فَن وَسَّعَ أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ » .
(الأمال ٢ : ٣٢)

٤٧٧ - وصية عبد الله بن شداد لابنه^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابنًا له يقال له محمد ، فقال :
« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَرَى دَاعِيَ الْمَوْتِ لَا يُقْلَعُ ، وَأَرَى مِنْ مَضَى لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ
فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ^(٢) ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلْيَكُنْ
أَوَّلَى الْأُمُورِ بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحُسْنُ النِّيَّةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّ الشُّكْرَ يَزِدُّدُ ،
وَالْتَقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَنْ كَمَا قَالَ الْحَطِيبَةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمُضِي بَعِيدُ

(١) هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة اللبني ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على

الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . (٢) يشتاقه .

ثم قال : أئى بُنَى ، لاتزهدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالْأَيَّامُ
ذات نَوَائِبَ ، على الشاهد وَالْغَائِبَ ، فكم من راغِبٍ أصبح مطلوباً مَالِدِيهِ ، واعلم
أن الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمان يَرِ المَوان ، وَكن أئى بُنَى كما قال
أبو الأسود الدَّوَلِى :

وَعُدُّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمةً عليك ، إذا ما جاءَ لَعْرِفِ طالبُ^(١)
وإن امرأ لا يُرْتَجَى الخَيْرُ عنده يَكُنْ مَيناً ثَقِلاً على مَنْ يصاحبُ
فلا تمنعَنَّ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لاتَدْرِى متى أنت راغِبُ
رأيتُ التَّوَا هذا الزمانِ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوائِبُ^(٢)

ثم قال : أئى بنى ، كن جَوَاداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
الخلق ، فإن أحمدَ جُود المرء الإنفاقُ فى وجهِ البرِّ ، وإن أحمدَ بُخْل الحرِّ الضَّنُّ^(٣)
بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ التَّلاَدِ ، وإئنى بسرِّكَ عَمَّن سألنى لَضَيْنُ^(٤)
إذا جازز الإثنين سرُّ فإنه بذثِّ ، وتكثيرِ الحديثِ قَيْنُ^(٥)
وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتنى مكانُ سِوَدَاءِ الْفَوَادِ مَسْكِينُ^(٦)

ثم قال : أئى بنى ، وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدعِ الحيلة على حال ، فإن
الكريم يحتال ، والدنى عيالُ^(٧) ، وكن أحسنَ ما تكون فى الظاهر حالا ، أقلَّ

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اوج .

(٣) الضمن بالكسر والضمانة بالفتح : البخل . (٤) سأل يسأل من باب خاف لغة فى سأل

المهموز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نث الحديث : أفشاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الإثنين للضرورة .

(٦) سوداء الفواد ؛ وسويداءه ، وسواده ، وأسوده : حبه . (٧) العيال جمع عيل كجيد :

وهو ما يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) .

ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمته طبعته ، وظهرت عند الإنفاق^(١) نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي^(٢) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ خِلَالًا قَدْ تَمَدَّدَ مِنَ الْمَعَالَى^(٣)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَجْمَلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْتُ الْغَنَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ وَلَمْ أُخْصَصْ بِجَفَوَاتِي الْمَوَالِي^(٤)

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها حياء^(٥) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وَمَا مِنْ شَيْئِي شَمُّ ابْنِ عَمِّي وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مِنْ يَرْتَجِمْنِي
وَكَلِمَةٍ حَاسِدٍ فِي غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مَرُّى فَأَفْذِنِي^(٦)
فَمَا بُوْهَا عَلَى وَلَمْ تَسُوْنِي وَلَمْ يَعْزَقْ لَهَا يَوْمًا جَبِينِي
وَذَوِ الْوُثَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا وَلِبْسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَا تَلِينِي^(٧)
سَمِعْتُ بِمَيْمَنِهِ فَصَفَحْتُ عَنْهُ مُحَافَظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا تؤاخذ امرأ حتى تعاشره ، وتتمقّد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٨) ، فواخه على إقالة المثرة ؛ والمواساة في المصرة ، وكن كما قال المقتضب الكندي :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أُرِدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّعَ فَمَا لَهُمْ وَتَفَقَّدَ

(١) الفقر . (٢) هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . (٣) بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد . (٤) الموالى جمع مولى : وهو هنا القريب . (٥) قد حياله وبحياله : بإزائه ، أى إن تركتها تجرى في مجراها . (٦) نفذهم : جازهم . (٧) ائتل : قصر ، أى لا يقصر في نهش عرضى . (٨) الخبر والخبرة بكسر الحاء فيهما ، ويضمان : العلم بالشئ كالإختبار .

فَإِذَا ظَنَرْتُ بِذِي اللَّابَةِ وَالْتَمَقْتُ فَبِهِ الْيَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) نَاشِدُ^(١)
وَإِذَا رَأَيْتَ (وَلَا مَحَالَةَ) زَلَّةً فَعَلَى أَحْبَبِكَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فَارْدُدِ
ثُمَّ قَالَ : أَيْ بَنِي ، إِذَا أَحْبَبْتَ فَلَا تُفْرِطْ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُشْطِطْ^(٢) ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ
يُقَالُ : أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بِبَغِضِكَ يَوْمًا مَّا ، وَأَبْغَضُ بَغِضِكَ
هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبِكَ يَوْمًا مَّا ، وَكَانَ قَالَ هُذَيْفَةُ بْنُ الْخَشْرَمِ الْعُدْرِيُّ :
وَكَانَ مُعْقِلًا لِلْحِلْمِ وَأَصْنَعَ عَنِ الْخُلْفَاءِ فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَبِيتَ وَسَامِعُ^(٣)
وَأَحْبَبُ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ^(٤)
وَأَبْغَضُ إِذَا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
وَعَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ، وَكَانَ كَمَا
قَالَ الشَّاعِرُ :

أَحْبَبِ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رَبُّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرَبِ
وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَأْنُكَ فَاشْتُمِ ذَا حَسَبِ
إِنَّ مَنْ شَأْنُكَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ^(٥)
وَأَصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبِ

(الأمالي ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧ ، ١٢٨)

(١) لب من باب تمب ؛ وفي لغة كقرب مع الفتح في المضارع لبابة : أي صار ذا لب بالضم وهو العقل . (٢) شط في حكمه . وأشط : جار . (٣) المقل : اللجأ ، والخنأ : الفحش .
(٤) نزح عن الشيء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكمر الصاد لغة : النحاس .

٤٧٨ - وصية أسماء بن خارجة لابنته^(١)

زَوْجِ أَسْمَاءَ بِنَ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هَذَا مِنْ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبِنَاءُ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بُنَيَّةُ ، إِنْ الْأُمَمَاتِ يُودُّنَ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ أُمَّكَ هَلَكَتْ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطِيبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ الْحَسَنِ السَّكْحِلِ ، وَإِيَّاكِ وَكَثْرَةَ الْمَعَانِيَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لَوْدٌ ، وَإِيَّاكِ وَالْغَيْرَةَ ، فَإِنَّهَا يَفْطَاحُ الطَّلَاقِ ، وَكَوْنِي لَزَوْجِكَ أُمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي الْقَائِلُ لَأُمَّكَ :

خَدِي الْعَفْوَ مَنِ تَسْتَدِيرِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(٢)
وَلَا تَنْقُرِي نَفْرَةَ اللَّفِّ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبِثِ الْحَبُّ يَذْهَبُ
(الْأَغَانِي ١٨ : ١٢٨ ، وَالْيَمَانُ وَالْعَبِيدُ ٢ : ٤٥)

٤٧٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وَخَرَجَ الزُّهْرِيُّ يَوْمًا مِنْ عِنْدَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ، وَلَا سَمِعْتُ كَأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، تَسْكُمُ بِهِنَ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامٍ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، فِيْهِنَّ صَلَاحٌ مُلْكِكَ ، وَاسْتِقَامَةٌ رِعْيَتِكَ » . قَالَ : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « لَا تَعْدُ عِدَّةً لَا تَتَّقُ مِنْ نَفْسِكَ إِنْجَازَهَا ، وَلَا يَفْرُكَكَ الْمُزْنَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا إِذَا كَانَ الْمُتَحَدِّرُ وَغَرًّا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ جَزَاءٌ ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَقَعَاتٍ ، فَكُنْ طَلِي حَذَرًا » .

قال عيسى بن دأب : فحدثت بهذا الحديث المهدي ، وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه ،

(١) أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته

(٢) السورة : الحدة .

فأمسكها ، وقال : وَيَنْحَكْ ! أَعِدْ عَلَى ، فقلت : يا أمير المؤمنين أَسِخْ^(١) لقمتهك ، فقال :
حديثك أعجبُ إليَّ .

(زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٢) رسالة إلى الكتاب بوصيهم فيها ، قال :
« أما بعدُ حفظكم الله بأهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن
الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد
الملوك المكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم في صنوف الصناعات ،
وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب
في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنظم للخلافة محاسنها ،
وتستقيم أمورها ، وينصأحكم بصلاح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لا يستغنى
الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ، فوقعكم من الملوك موقع أسماءهم التي
بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي
بها يبيطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه^(٣)
من النعمة عليكم .

وليس أحد أحوَجَ إلى اجتماع خلال الخير المحموده ، وخصال الفضل المذكورة
المعدودة منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكتاب يحتاج من نفسه ، وبحاج منه صاحبه الذي يشقُّ به في مهمات أموره ، أن
يكون حليماً في موضع الحلم ، فهِماً في موضع الحكمة ، مقدماً في موضع الإقدام ، محتجماً
في موضع الإحجام ، مؤثراً للعفاف ، والعدل والإنصاف ، كفوئاً للأسرار ، وفياً عند

(١) ابتلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء

الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ . (٣) أسبغ .

الشَّدَائِدِ ، علماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطَّوَارِقَ أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يُحْكَمْه ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بغيره عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيمُدُّ لكل أمر عُدَّتَه وعَتَادَه^(١) ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتدقِّسوا ، يا معشر الكتّاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف^(٢) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطَّ ، فإنه حليَّة كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تضيقوا النظر في الحساب ، فإنه قوامُ كُتَّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيَّهَا^(٣) ، ودَنِيَّهَا ، وسَفَسَافِ^(٤) الأمور ومحقرها ، فإنها مدلَّة للرِّقاب ، مفسدة للكتّاب ، ونزَّهوا صناعتكم عن الدَّعَاة ، وأزبوا^(٥) بأنفسكم عن السَّعَاية والنَّمِيمة ، وما فيه أهل الجَهَالَات ، وإياكم والكِبَر والصِّلَفَ والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عزَّ وجلَّ في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليقُّ بأهل الفضل والعدل والنَّيْل من سَلَمِكُمْ

وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه واسؤوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب^(٦) إليه أمره ، وإن أقمد أحدكم الكِبَرُ عن مَكَلَبِهِ ولقاء إخوانه ، فزُوروه وعظّموه وشارروه ، واستظهِروا^(٧) بفضل تجربته ، وقَدِّم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَتْ في الشُّغْل مَحْمَدَة ، فلا يُضَيِّفها إلا إلى صاحبه ، وإن عَرَضَتْ مَدَمَة ، فليحملها

(١) للعتاد : العدة . (٢) الثقاف في الأصل : ماتسوى به الرماح . (٣) ربيعها .

(٤) الردىء من كل شيء . (٥) رباً : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقووا .

هو من دونه ، وليحذر السَّقطةَ والزَّلةَ ، والمَلَلُ عند تَغيرِ الحال ، فإن العيبَ إليكم معشر الكتاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاءِ ، وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجلَ منكم إذا صحَّبه الرجلُ ، يَبْذُلُ له من نفسه ما يجب له عليه من حقِّه ، فواجبٌ عليه أن يعتدَّ له من وقائِهِ ، وشكرِهِ ، واحتمالِهِ ، وصَبْرِهِ ، ونصيحتِهِ ، وكتِّانِ سرِّهِ ، وتدبيرِ أمرِهِ ، ما هو حَزَّاءُ لِحَقِّهِ ، ويصدِّقُ ذلك بفعله عند الحاجةِ إليه ، والاصطِرارِ إلى ما لديه .

فاستشعروا إذا كنتم - وفقَّكم الله من أنفسكم - في حالة الرِّخاءِ والشَّدةِ والحِرمانِ والمواساةِ والإحسانِ ، والسَّراءِ والصَّراءِ ، فنفِعتِ الشَّيْمةُ هذه لمن وُسمَ بها من أهل هذه الصَّناعةِ الشَّريفةِ ، فإذا وُلِّيَ الرجلُ منكم ، أو صيِّرَ إليه من أمر خلق الله وعِيالِهِ أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثِّرَ طاعتهُ ، وليكن على الضَّعيفِ رقيقاً ، وللمظلومِ مُنصِفاً ، فإن الخلقَ عِيالُ الله ، وأحبُّهم إليه أرقُّهم بعِيالِهِ ، ثم ليكن بالعدلِ حاكماً ، وللأشرافِ مُكرِّماً ، وللقِيَّاءِ موقِّراً ، وللبِلادِ عامِراً ، وللعِروةِ متألِّفاً ، وعن إيذاهِهم منخفِّفاً ، وليكن في مجلسِهِ متواضعاً حليماً ، وفي سِجِلَّاتِ خِراجِهِ واستقضاءِ حقوقِهِ رقيقاً ، وإذا صحِّبَ أحدكم رجلاً فليختبر خلائِقَهُ ، فإذا عَرَفَ حَسَنَها وقبيحَها ، أعانهُ على ما يوافقهُ من الحَسَنِ ، واحتالَ لصَرَفِهِ عما يهواه من القَبِيحِ ، بأطفِ حيلةٍ ، وأجل وسيلةٍ ، وقد علمتم أن سائِسَ الهِيمَةِ إذا كان بصيراً بَسِيَّاتِها ، التمسَ معرفةَ أخلاقِها ، فإن كانت رَمُوحاً^(١) لم يَهْجِها إذا رَكِبَها ، وإن كانت شَبُوباً^(٢) انتَقاها من قَبْلِ يَدِها ، وإن خافَ منها شُرُوداً توقَّفاً من ناحيةِ رأسِها ، وإن كانت حَرُوناً قَمَعَ بَرَقِ هِواها في طَريقِها ، فإن استمرَّت عَطْفُها يسيراً ، فَيَسْئَلُ له قِيادُها ، وفي هذا الوصف من السِّياسَةِ دلائِلُ لمن ساسَ الناسَ وعاملَهُم ، وخدمَهُم ودَخلَهُم .

والسَّكاتبُ بفضْلِ أدبِهِ ، وشَريفِ صَنعَتِهِ ، ولطيفِ حِيلَتِهِ ، ومعامَلَتِهِ لمن يحاورُهُ

(١) رَمَحَ الفرسَ كَنَعَ : رَفَعَهُ . (٢) شَبَّ الفرسُ كَضَرَبَ ونَعَرَ : رَفَعَ يَدِيهِ .

من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم
 وده ، من سائس البهيمة التي لا تُحير^(١) جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،
 إلا بقدر ما يُصَيِّرُها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر ،
 وأعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتوه الفموة ،
 والاستفقال والجفوة ، ويَصِيرُ^(٢) منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ،
 إن شاء الله تعالى .

ولا يجازنَّ الرجل منكم - في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومركبته ، ومطعمه ،
 ومشربه ، وبنائه^(٣) وخدمته وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقه ، فإنكم - مع ما فضلكم
 الله به من شرف صنعةكم - خدمة لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة
 لا تُحْتَمَل منكم أعمال التضييع والتبذير ، واستعينوا على هفأكم بالقصد في كل ما ذكرته
 لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما
 يُمَقِّبان الفقر ، ويُذِلَّان الرقاب ، وَيَفْصَحَان أهلكما ، ولا سيما الكتاب ، وأرباب
 الآداب ، والأُمُور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤنتف^(٤) أعمالكم
 بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أروخها حجة : وأصدقها حجة
 وأحدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفة متتلفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ،
 فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ،
 وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لعله ، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره ،

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا ؛ مجزوم في جواب الأمر ، أو بمباراة أخرى جواب لشرط محذوف مع
 فعل الشرط أي إن تعملوا . . . تأمنوا ؛ ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب
 والرفع كما هو مشهور . فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود .
 (٣) بنى مل أهله ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَٰةٍ تَوْفِيْقَهُ ، وَإِمْدَادَهُ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةً وَقَوْعَهُ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدْبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا ، أَوْ قَالَ قَاتِلًا : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صِنْعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِمَعْبَأِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مِنْ رَحَى الْمُعْجَبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزَكِيَةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَدُّ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيْحَةَ ^(١) يَلْزِمِهِ الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَمْتُهُ بِهِ ، تَوَلَّيْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ ، بِمَا يَقُولُ بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
(صَبِيحُ الْأَعْمَى ١ : ٨٥)

(١) فِي نَسْخَةِ : « الصَّحَّة » ، وَذَكَرَ الْجَاهِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ (٢ : ٤٦) أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ كَلَامِ الْأَحْنَفِ السَّائِرِ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبيل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نيبانة ابن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نيبانة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثلاً ، فلدارآم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم وسأط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون

(١) هو أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصوراً من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

(٢) من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قد تبعاً لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هارباً ، وتفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نيبانة بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فأتى بها كذا .

المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرِّ والتقوى من عِثْرَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسَلَطَكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشدَّ عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهد إلى الإمام^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرمكم الله عز وجل عليهم ، فتَهْزَمونهم وتقتلونهم .

وقد قرئ على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهضْ عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرُك ، فإذا ظَهَرَتْ عليهم ، فأنخنْ في القتل » فالتقوا في مستهلِّ ذى الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٨٢ — خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، وللعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالتقوا بجِدِّ واحتساب ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلمه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحميمة (كجھينة) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه في حران ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأدخل لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بني العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبويع بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهوا في أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبئت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة ريد المدينة ، فلما كانت بسرّيف أنبئت بمقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْرَ فسترت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن الفوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حَدَثتْ سِنَّتُهُ ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحِمَى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طَباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نَحْلَص منه كما نَحْلَص الذهب من خَبَثِهِ ، أو الثوب من دَرَنِهِ ، إذ ماصوه^(١) كما يماص الثوب بالماء . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

(١) الموص : غسل لين ولذلك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) ما يأتي :

جاء في مقال الحسن بن علي رضي الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حد الله في الزنا ثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه » . وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فاتهمه أبو بكر - أخو زياد - هو ونفر معه بأنه زنى بأُم جيل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل المغيرة وأبو بكر ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مأتى إلا أمراته ، وكان اليهود عليه : أبا بكر ، وشبل بن معبد البجل ، ونافع بن كلفة ؛ وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكر ، فشهد عليه أنه زنى بأُم جيل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فحماه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشفى من الأعب

فقال : أسكت ، أسكت الله نامتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجعتك بأحبارك .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	٧	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	٧	١
تعبئة الجيوش لقنال معاوية		
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٩	٢
مقال عدى بن حاتم	٩	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	١٠	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	١١	٥
خطبته في الصلح بينه وبين معاوية	١٢	٦
خطبة له بعد الصلح	١٢	٧
خطبة لمعاوية في أهل الكوفة	١٤	٨
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	١٤	٩
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٥	١٠
خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح	١٦	١١

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة له في عهد خلافته	١٧	١٢
» أخرى له	١٨	١٣
مخاصمة ومهاجاة	١٩	
بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية		
مقال عمرو بن العاص	٢١	١٤
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	٢١	١٥
» عتبة بن أبي سفيان	٢٢	١٦
» المغيرة بن شعبة	٢٢	١٧
رد الحسن بن عليّ عليهم	٢٢	١٨
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضي الله عنهما	٣١	١٩
مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه		
تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة		
نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضي الله عنهما	٣٥	٢٠
بعثة مسلم بن عقيل إلى الكوفة		
خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري	٣٧	٢١
» النعمان بن بشير	٣٧	٢٢
» عبيد الله بن زياد	٣٨	٢٣
» أخرى له	٣٩	٢٤
» كثير بن شهاب	٣٩	٢٥
» عبيد الله بن زياد	٤٠	٢٦

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة

نصيحة ابن عباس له	٢٧	٤٢
» أبى بكر بن عبد الرحمن المخزومى اه	٢٨	٤٤
خطبة عبيد الله بن زياد	٢٩	٤٥
» للحسين رضى الله عنه	٣٠	٤٦
» أخرى له	٣١	٤٦
» » »	٣٢	٤٧
» زهير بن القين البجلي	٣٣	٤٧
» للحسين أيضاً	٣٤	٤٨
خطبته ليلة قتله	٣٥	٤٩
رد أهل بيته عليه	٣٦	٥٠
» أصحابه	٣٧	٥٠
خطبته غداة يوم قتله	٣٨	٥١
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٩	٥١
خطبته وقد دنا منه القوم	٤٠	٥٢
خطبة أخرى	٤١	٥٢
» زهير بن القين	٤٢	٥٤
» الحر بن يزيد	٤٣	٥٦

طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه

خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٤	٥٨
خطبة رفاعة بن شداد	٤٥	٥٩
» سليمان بن صرد	٤٦	٦٠
» خالد بن سعد بن نفيل	٤٧	٦١
» سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٨	٦٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٩	٦٢
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٥٠	٦٣
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥١	٦٥
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥٢	٦٦
رد المسيب بن نجبة .	٥٣	٦٦
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٤	٦٧
خطبة سليمان بن صرد	٥٥	٦٨
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٦	٦٨
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٧	٦٨
رأى ابن صرد	٥٨	٦٩
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٩	٧٠
» سليمان بن صرد	٦٠	٧٠
» أخرى له	٦١	٧١
» »	٦٢	٧٢
» عبد الملك بن مروان	٦٣	٧٣
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين رضي الله عنه	٧٤	٧٤
خطبته حين قدم الكوفة	٦٤	٧٤
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٥	٧٥
خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٦	٧٦
رد السائب بن مالك	٦٧	٧٧
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٨	٧٨
» أخرى له	٦٩	٧٨
» محمد بن الحنفية	٧٠	٧٩
» المختار	٧١	٧٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٨٠	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٨١	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٨٢	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٨٢	٧٥
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٨٣	٧٦
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٨٣	٧٧
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٨٤	٧٨
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٨٥	٧٩
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٨٧	٨٠
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٨	٨١
<hr/>		
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام -	٩٠	٨٢
عبد الله بن عباس ومعاوية	٩١	٨٣
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٩٤	٨٤
» ابن عباس	٩٥	٨٥
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لابن عباس	٩٥	٨٦
» ابن عباس	٩٦	٨٧
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لبني هاشم	٩٧	٨٨
» ابن عباس	٩٧	٨٩

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

مقال معاوية	٩٠	٩٨
د ابن عباس	٩١	٩٩
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً	٩٢	٩٩
عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان	٩٣	١٠٠

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

جواب ابن عباس	٩٤	١٠١
مقال عمرو بن العاص	٩٥	١٠٢
جواب ابن عباس	٩٦	١٠٢
مقال مروان بن الحكم	٩٧	١٠٣
جواب ابن عباس	٩٨	١٠٤
مقال زياد	٩٩	١٠٥
جواب ابن عباس	١٠٠	١٠٥
مقال عبد الرحمن بن أم الحكم	١٠١	١٠٦
جواب ابن عباس	١٠٢	١٠٦
مقال المغيرة بن شعبة	١٠٣	١٠٧
جواب ابن عباس	١٠٤	١٠٧
مقال يزيد بن معاوية	١٠٥	١٠٨
جواب ابن عباس	١٠٦	١٠٩
مقال معاوية	١٠٧	١٠٩
جواب ابن عباس	١٠٨	١٠٩

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

مقال ابن عباس	١٠٩	١١١
---------------	-----	-----

الخطبة أو اللوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
رد ابن العاص	١١٠	١١٢
عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضا	١١١	١١٣
عمرو بن العاص وابن عباس	١١٢	١١٤
مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس	١١٣	١١٤
ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم		
مقال ابن الزبير	١١٤	١١٩
» » عباس	١١٥	١٢٠
<hr/>		
خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بني هاشم	١١٦	١٢٠
» ابن الزبير يتنقص ابن عباس	١١٧	١٢٣
رد ابن عباس عليه	١١٨	١٢٥
عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص	١١٩	١٢٧
الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص	١٢٠	١٢٩
الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم	١٢١	١٣٠
عقيل بن أبي طالب ومعاوية	١٢٢	١٣١
خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام	١٢٣	١٣٤
خطبة السيدة زينب بنت علي عليها السلام بين يدي يزيد	١٢٤	١٣٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٥	١٣٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٦	١٤٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٧	١٤٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٢٨	١٤٥
رد قيس بن سعد	١٢٩	١٤٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٤٦	١٣٠
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٤٨	١٣١
» » » وعبد الله بن عباس	١٥٠	١٣٢
» » » ورجل من بنى فزارة	١٥٤	١٣٣
رجل من آل صوحان يحبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٥٥	١٣٤
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٥٦	١٣٥
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٥٧	١٣٦

خطب الزبيرين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٥٩	١٣٧
» معاوية	١٥٩	١٣٨
» ابن الزبير	١٦٠	١٣٩
» معاوية	١٦٢	١٤٠

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٦٤	١٤١
عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٦٥	١٤٢
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٦٨	١٤٣
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٦٩	١٤٤
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٧٣	١٤٥
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٧٤	١٤٦
» لما بلغه قتل مصعب	١٧٥	١٤٧
خطبة أخرى له	١٧٧	١٤٨
خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق	١٧٧	١٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٧٨	١٥٠
خطبته يوم قتله	١٧٩	١٥١
خطبة أخرى	١٨٠	١٥٢
مصعب بن الزبير »	١٨١	١٥٣

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٨٢	١٥٤
خطبة أخرى له بالمدينة	١٨٣	١٥٥
» له بالمدينة	١٨٣	١٥٦
خطبته حين ولى المغيرة بن شعبة الكوفة	١٨٤	١٥٧
خطبة له فى يوم صائف	١٨٥	١٥٨
آخر خطبة له	١٨٥	١٥٩
خطبته وقد حضرته الوفاء	١٨٥	١٦٠
وصيته لابنه يزيد	١٨٧	١٦١

خطب يزيد بن معاوية

خطبته بعد موت معاوية	١٨٩	١٦٢
خطبة أخرى له	١٨٩	١٦٣
» معاوية بن يزيد	١٩٠	١٦٤
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز	١٩١	١٦٥

خطب عبد الملك بن مروان

خطبته بمكة	١٩٢	١٦٦
------------	-----	-----

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة له موجزة	١٦٧	١٩٢
خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص	١٦٨	١٩٣
» لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير	١٦٩	١٩٤
» عام حججه	١٧٠	١٩٥
» وقد علم بخروج ابن الأشعث	١٧١	١٩٦
وصيته لبعض أمرائه	١٧٢	١٩٧
» للشعبي	١٧٣	١٩٧
» لأخيه عبد العزيز بن مروان	١٧٤	١٩٨
» لولده عند وفاته	١٧٥	١٩٨

خطبة للوليد بن عبد الملك	١٧٦	١٩٩
» لسليمان بن عبد الملك	١٧٧	٢٠٠

خطب عمر بن عبد العزيز

أولى خطبه	١٧٨	٢٠١
خطبة له بالمدينة	١٧٩	٢٠١
خطبة أخرى	١٨٠	٢٠٢
خطبة أخرى	١٨١	٢٠٣
» »	١٨٢	٢٠٤
» »	١٨٣	٢٠٤
» »	١٨٤	٢٠٥
» »	١٨٥	٢٠٥
» له يوم عيد	١٨٦	٢٠٦
» أخرى	١٨٧	٢٠٦
» »	١٨٨	٢٠٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	١٨٩	٢٠٧
» »	١٩٠	٢٠٨
» »	١٩١	٢٠٨
» »	١٩٢	٢٠٨
» »	١٩٣	٢٠٩
» »	١٩٤	٢١٠
» »	١٩٥	٢١٠
» »	١٩٦	٢١١
آخر خطبة له	١٩٧	٢١١
نص آخر	١٩٨	٢١٢
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٩	٢١٣
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	٢٠٠	٢١٤
تأيينه ابنه عبد الملك	٢٠١	٢١٧
<hr/>		
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	٢٠٢	٢١٨
وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه	٢٠٣	٢١٩
<hr/>		
خطب عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهدد أهل مصر	٢٠٤	٢٢٠
» » في تقريرهم وتهدهم	٢٠٥	٢٢١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٦	٢٢١
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢٠٧	٢٢٢
» فيهم إذ طعنوا على الولاة	٢٠٨	٢٢٢
» بمكة	٢٠٩	٢٢٣
» في علته التي مات فيها	٢١٠	٢٢٤
وصيته لمؤدب ولده	٢١١	٢٢٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
وصية سعيد بن العاص لابنه	٢٢٥	٢١٢

خطب عمرو بن سعيد الأشدق

خطبة له بالمدينة	٢٢٨	٢١٣
» » بمكة	٢٢٩	٢١٤
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢٣٠	٢١٥
خطبته حين غلب على دمشق	٢٣١	٢١٦

خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢٣٢	٢١٧
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢٣٣	٢١٨
نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٢٣٤	٢١٩
تأديب معاوية لجلسائه	٢٣٤	٢٢٠
كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه	٢٣٤	٢٢١
تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله	٢٣٥	٢٢٢

طلب معاوية البيعة ليزيد

خطبة الضحاك بن قيس الفهري	٢٣٧	٢٢٣
عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	٢٣٨	٢٢٤
ثور بن معن السلمى	٢٣٩	٢٢٥
عبد الله بن عصام الأشعري	٢٤٠	٢٢٦
عبد الله بن مسعدة الفزاري	٢٤٠	٢٢٧
عمرو بن سعيد الأشدق	٢٤١	٢٢٨
الأحنف بن قيس	٢٤٢	٢٢٩
الضحاك بن قيس	٢٤٢	٢٣٠
الأحنف بن قيس	٢٤٣	٢٣١
عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	٢٤٤	٢٣٢

الخطبة أو الوصية رقم الصفحة رقم الخطبة

خطبة معاوية	٢٣٣	٢٤٤
يزيد بن المقنع »	٢٣٤	٢٤٥
الأحنف »	٢٣٥	٢٤٥
معاوية »	٢٣٦	٢٤٦
عبد الله بن عباس »	٢٣٧	٢٤٧
عبد الله بن جعفر »	٢٣٨	٢٤٧
عبد الله بن الزبير »	٢٢٩	٢٤٨
عبد الله بن عمر »	٢٤٠	٢٤٨
معاوية »	٢٤١	٢٤٩
مروان بن الحكم »	٢٤٢	٢٥٠
معاوية »	٢٤٣	٢٥١
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٤٤	٢٥١
خطبة معاوية	٢٤٥	٢٥٣
الحسين »	٢٤٦	٢٥٥
معاوية »	٢٤٧	٢٥٧
عبد الله بن عمر »	٢٤٨	٢٥٧
معاوية »	٢٤٩	٢٥٨
عبد الله بن الزبير »	٢٥٠	٢٦٠
معاوية »	٢٥١	٢٦١

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٥٢	٢٦٣
عطاء بن أبي سفيان الثقفى »	٢٥٣	٢٦٤
عبد الله بن مازن »	٢٥٤	٢٦٤
غيلان بن مسلمة الثقفى »	٢٥٥	٢٦٥

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهده	٢٥٦	٢٦٦
وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	» ٢٥٧	٢٦٧
وقد استلحقه معاوية	» ٢٥٨	٢٦٩
حين ولى البصرة (وهى البتراء)	» ٢٥٩	٢٧٠
بالكوفة وقد ضمت إليه	» ٢٦٠	٢٧٤
خطبة أخرى له بالكوفة	٢٦١	٢٧٥
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٦٢	٢٧٥
خطبة أخرى له	٢٦٣	٢٧٦
» »	٢٦٤	٢٧٦
وصية لزياد	٢٦٥	٢٧٧
ما كان يقوله لمن ولاه عملا	٢٦٦	٢٧٧
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٧	٢٧٨
خطبته عند موت معاوية	٢٦٨	٢٧٩
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٩	٢٨٠
عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	» ٢٧٠	٢٨١
رد معاوية على ابن زياد	٢٧١	٢٨٣
مقال يزيد بن معاوية	٢٧٢	٢٨٤
وصية المهلب بن أبى صفرة لأبنائه	٢٧٣	٢٨٥

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٤	٢٨٧
خطبته بعد قتل ابن الزبير	٢٧٥	٢٨٧

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

٢٨٨	٢٧٦	خطبته حين ولي العراق
٢٩١	٢٧٧	» وقد سمع تكييزاً في السوق
٢٩٢	٢٧٨	» وقد قدم البصرة
٢٩٣	٢٧٩	» بعد وقعة دير الجماجم
٢٩٥	٢٨٠	خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام
٢٩٥	٢٨١	» له بالبصرة
٢٩٦	٢٨٢	» أخرى له بالبصرة
٢٩٧	٢٨٣	خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية
٢٩٧	٢٨٤	خطبة أخرى
٢٩٨	٢٨٥	خطبته لما مات عبد الملك بن مروان
٢٩٨	٢٨٦	» حين أُرلد الحج
٢٩٩	٢٨٧	» لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد
٣٠٠	٢٨٨	» وقد أرجف أهل العراق بموته
٣٠١	٢٨٩	خطبة له في الوعظ
٣٠٢	٢٩٠	» أخرى
٣٠٢	٢٩١	» »
٣٠٣	٢٩٢	» »
٣٠٣	٢٩٣	» »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي

٣٠٤	٢٩٤	خطبته يحث على الجهاد وقد تهاى لغزو طخارستان
٣٠٥	٢٩٥	» وقد تهاى لغزو بلاد السغد
٣٩٦	٣٩٦	» وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة
٣٠٧	٢٩٧	» حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك
٣١٠	٢٩٨	خطبة أخرى

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

خطبة أخرى ٢٩٩ ٣١٠

» » ٣٠٠ ٣١١

كلمات حكيمة لقنتية بن مسلم ٣٠١ ٣١٢

خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس ٣٠٢ ٣١٤

نص آخر لخطبة طارق ٣٠٣ ٣١٦

خطبة عثمان بن حيان المرمي ٣٠٤ ٣١٦

وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد ٣٠٥ ٣١٨

نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بني ٣٠٦ ٣٢٠

خطب خالد بن عبد الله القسري

خطبته بمكة بدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة ٣٠٧ ٣٢١

خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد ٣٠٨ ٣٢٢

خطبته بمكة في الحججاج ٣٠٩ ٣٢٢

» في الحث على مكارم الأخلاق ٣١٠ ٣٢٣

» يوم عيد ٣١١ ٣٢٤

قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه ٣١٢ ٣٢٤

خطبة يوسف بن عمر الثقفي ٣١٣ ٣٢٤

خطبة له ٣١٤ ٣٢٥

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري ٣١٥ ٣٢٦

» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام ٣١٦ ٣٢٧

» مسلم يحرضهم ٣١٧ ٣٢٧

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة ابن حنظلة يمحرض أصحابه	٣٢٨	٣١٨

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣٢٩	٣١٩
» أخرى له	٣٢٠	٣٣٠
» عمرو بن حريث	٣٢١	٣٣١
» عمرو بن مسمع	٣٢٢	٣٣١
خطبة الأحنف بن قيس	٣٢٣	٣٣٢
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣٢٤	٣٣٤
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣٢٥	٣٣٦

خطبة الغضبان بن القبعري يحض على قتل الحجاج	٣٣٦	٣٣٧
خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة	٣٢٧	٣٣٨
» » »	٣٢٨	٣٣٨
خطبة سعيد بن المجالد	٣٢٩	٣٣٩

فتنة ابن الأشعث

خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٣٠	٣٤٠
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٣١	٣٤٠
خطبة عامر بن وائلة السكتاني	٣٣٢	٣٤١
» عبد المؤمن بن شيث بن ربيع	٣٣٣	٣٤٢
» ابن الأشعث بالمربد	٣٣٤	٣٤٢
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٣٥	٣٤٣
عامر الشعبي والحجاج	٣٣٦	٣٤٤
أيوب بن القرية والحجاج	٣٣٧	٣٤٤
كلمة لابن القرية	٣٣٨	٣٤٨

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٩	٣٤٩
يزيد بين يدي الوليد »	٣٤٠	٣٥٠
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبد العزيز »	٣٤١	٣٥٠
يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال »	٣٤٢	٣٥٢
أخرى له »	٣٤٣	٣٥٣
» » »	٣٤٤	٣٥٤
الحسن البصري يشبط الناس عن يزيد بن المهلب »	٣٤٥	٣٥٤
مروان بن المهلب »	٣٤٦	٣٥٥

خطب الأحنف بن قيس التميمي

الأحنف ومعاوية	٣٤٧	٣٥٦
» » أيضاً	٣٤٨	٣٥٧
قوله في مدح الوالد	٣٤٩	٣٥٨
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٥٠	٣٥٨
نصيحته لقومه	٣٥١	٣٥٨
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٥٢	٣٥٩
كلمات حكيمة للأحنف	٣٥٣	٣٦٠
صفية بنت هشام المنقرية تؤ بن الأحنف	٣٥٤	٣٦١

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٥٥	٣٦٣
وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٥٦	٣٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة زياد	٣٦٤	٣٥٧
» معاوية	٣٦٥	٣٥٨
» الأحنف بن قيس	٣٦٥	٣٥٩
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٦٥	٣٦٠
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٦٩	٣٦١
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٦٩	٣٦٢
وفود العرب ومعاوية	٣٧١	٣٦٣
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٧٢	٣٦٤
» زيد بن منية على معاوية	٣٧٣	٣٦٥
» ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية	٣٧٤	٣٦٦

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٧٥	٣٦٧
» أم سنان بنت خيثمة على معاوية	٣٧٨	٣٦٨
» بكارة الهلالية على معاوية	٣٨٠	٣٦٩
» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٨١	٣٧٠
أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٨٤	٣٧١
دارمية الحجونية ومعاوية	٣٨٥	٣٧٢

شداد بن أوس ومعاوية	٣٨٧	٣٧٣
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٨٨	٣٧٤
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان	٣٨٩	٣٧٥
حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية	٣٩٠	٣٧٦
حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٩١	٣٧٧
سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية	٣٩٢	٣٧٨

الخطبة أو التوسية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مصقلة بن هيرة ومعاوية	٣٩٣	٣٧٩
روح بن زنباع ومعاوية	٣٩٣	٣٨٠
مخاضمة أبي الأسود الدؤلى وامرأته بين يدى زياد بن أبيه	٣٩٤	٣٨١
صورة أخرى	٣٩٥	٣٨٢
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٩٨	٣٨٣
كلام خطيب الأزدي بين يدى عبد الملك بن مروان	٣٩٨	٣٨٤
سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به	٣٩٩	٣٨٥
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان	٣٩٩	٣٨٦
قدوم الحجاج مع أشراف المصريين على عبد الملك	٤٠٢	٣٨٧
وفود ممالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٤٠٣	٣٨٨
» كعب الأشقرى على الحجاج	٤٠٤	٣٨٩
سليك بن سلكة والحجاج	٤٠٥	٣٩٠
جامع المحاربى والحجاج	٤٠٦	٣٩١
ليلي الأخيلى والحجاج	٤٠٧	٣٩٢
الغضبان بن القبيعى والحجاج	٤١٢	٣٩٣
ابن القرية يعدد مساوى المزاح	٤١٤	٣٩٤
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٤١٥	٣٩٥
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٤١٦	٣٩٦
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٤١٧	٣٩٧
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٤١٨	٣٩٨
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٤١٩	٣٩٩
خالد بن صفوان يغزى عمر بن عبد العزيز ويهنته	٤٢٠	٤٠٠
خطبة عبد الله بن الأهم	٤٢٠	٤٠١
مقام محمد بن كعب القرظى بين يدى عمر بن عبد العزيز	٤٢٢	٤٠٢
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٤٢٢	٤٠٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٤٢٤	٤٠٤
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٤٢٦	٤٠٥
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٤٢٧	٤٠٦
خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٤٢٨	٤٠٧
مخاضة عدى بن أوطاة لا مرأته عند شريح القاضي	٤٣٢	٤٠٨
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٣٣	٤٠٩
خطبة دينار	٤٣٤	٤١٠
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤٣٤	٤١١
خطب الخوارج وما يتصل بها	٤٣٥	
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤٣٥	٤١٢
اثمار الخوارج	٤٣٧	
مقال المستورد بن علفة	٤٣٧	٤١٣
حيان بن ظبيان »	٤٣٧	٤١٤
معاذ بن جوين »	٤٣٨	٤١٥
خطبة المغيرة بن شعبة	٤٣٨	٤١٦
صعصعة بن صوحان »	٤٣٩	٤١٧
المستورد بن علفة »	٤٤١	٤١٨
معقل بن قيس الرياحي »	٤٤٢	٤١٩
كلمات حكيم للمستورد	٤٤٢	٤٢٠
اثمار الخوارج ثانية	٤٤٣	
خطبة حيان بن ظبيان	٤٤٣	٤٢١
معاذ بن جوين »	٤٤٣	٤٢٢

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
رد حيان بن ظبيان	٤٤٤	٤٢٣
مقال عتريس بن عرقوب	٤٤٤	٤٢٤
رد حيان	٤٤٥	٤٢٥
خطبة حيان	٤٤٥	٤٢٦
مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة	٤٤٦	٤٢٧
خطب للمهلب بن أبي صفرة	٢٤٨	
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤٤٨	٤٢٨
خطبة أخرى له في جنده	٤٤٩	٤٢٩
نص آخر	٤٤٩	٤٣٠
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٥٠	٤٣١
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٥١	٤٣٢
عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار	٤٥٢	٤٣٣
نصيحة عرهم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٥٣	٤٣٤
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٥٤	٤٣٥
عبد ربه الصغير	٤٥٨	٤٣٦
صالح بن مسرح	٤٥٩	٤٣٧
أخرى له	٤٦٠	٤٣٨
»	٤٦١	٤٣٩
زائدة بن قدامة	٤٦٢	٤٤٠
الحجاج بن يوسف	٤٦٢	٤٤١
أخرى للحجاج	٤٦٣	٤٤٢
شبيب بن يزيد الشيباني	٤٦٣	٤٤٣
عتاب بن ورقاء	٤٦٤	٤٤٤
الحجاج	٤٦٤	٤٤٥

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى	٤٦٥	٤٤٦

خطب أبى حمزة الشارى

خطبته حين دخل المدينة	٤٦٧	٤٤٧
خطبة أخرى له	٤٦٨	٤٤٨
خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه	٤٦٩	٤٤٩
خطبة أخرى	٤٧٦	٤٥٠
خطبته فى سب أهل المدينة وتقريرهم	٤٧٨	٤٥١
خطبة أخرى	٤٨٠	٤٥٢
خطبته حين خرج من المدينة	٤٨١	٤٥٣
عمران بن خطان والحجاج	٤٨١	٤٥٤

الخطب الوعظية والوصايا

خطبة سحبان بن زفر الوائلى	٤٨٢	٤٥٥
» معاوية	٤٨٣	٤٥٦
» عبد الملك بن مروان	٤٨٣	٤٥٧
» لعمر بن عبد العزيز	٤٨٤	٤٥٨

كلام الحسن البصرى

خطبة له	٤٨٥	٤٥٩
» أخرى	٤٨٧	٤٦٠
» »	٤٨٨	٤٦١
» »	٤٨٨	٤٦٢
» »	٤٨٩	٤٦٣
» »	٤٨٩	٤٦٤
» »	٤٩٠	٤٦٥

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أخرى	٤٩٠	٤٦٦
مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة	٤٩١	٤٦٧
مقام الحسن البصري عند النضر بن عمرو	٤٩٢	٤٦٨
مقام آخر له عند النضر	٤٩٣	٤٦٩
مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط	٤٩٤	٤٧٠
صفة الإمام العادل	٤٩٥	٤٧١
موعظته لعمر بن عبد العزيز	٤٩٧	٤٧٢
موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً	٤٩٨	٤٧٣
كلمات حكيمة للحسن البصري	٤٩٩	٤٧٤
خطبة واصل بن عطاء	٥٠١	٤٧٥
وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية	٥٠٣	٤٧٦
» عبد الله بن شداد لابنه	٥٠٣	٤٧٧
» أسماء بن خارجة لابنته	٥٠٧	٤٧٨
رجل ينصح لهشام بن عبد الملك	٥٠٧	٤٧٩
وصية عبد الحميد بن يحيى السكاك للكتاب	٥٠٨	٤٨٠

الصراع بين الأموية والعباسية

خطبة قحطبة بن شبيب الطائي	٥٠٩	٤٨١
» أخرى له	٥١٠	٤٨٢

استدراك على الجزء الأول

خطبة السيدة عائشة حين أنبثت بقتل عثمان	٥١١	٤٨٣
--	-----	-----

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أم البراء بنت صفوان : ٣٨٤	(١)
أم سنان بنت خيثمة : ٣٧٨	إبراهيم بن الأشتر : ٨٣
السيدة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ١٣٤	إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٦٦ - ٣٩٩
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٩	أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٤
أيوب بن القرية : ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٤٤٤	أبو بكر بن عبد الرحمن : ٤٤
(ب)	أبو بكر الهذلي : ٤٠٢
بكاره الهلالية : ٣٨٠	أبو حازم الأعرج : ٤١٧ - ٤١٨
بلال بن أبي بردة : ٤١٦	أبو حاضر الأسدي : ٣٩٨
(ث)	أبو حمزة الشاري : ٤٦٧ - ٤٦٨ -
ثور بن معن السلمى : ٢٣٩	٤٦٩ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٨٠ -
(ج)	٤٨١
جامع المحاربي : ٤٠٦	أبو صخر الهذلي : ١٧٣
(ح)	الأحنف بن قيس : ٢٤٢ - ٢٤٣ -
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ - ٢٨٨ -	٢٤٥ - ٣٣٢ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٥ -	٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ -
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ -	٣٦٤
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : ٣٨١
٤٠٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ -	أسماء بن خارجة : ٥٠٧

الحر بن يزيد : ٥٦

الحسن البصرى : ٤٨٥ — ٤٨٧ —

٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١ —

٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٧ —

٤٩٨ — ٤٩٩ —

الحسن بن علي رضي الله عنه : ٧ — ٦ —

١٠ — ١١ — ١٢ — ١٤ — ١٦ — ١٧ —

١٨ — ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٠ —

الحسين بن علي رضي الله عنه : ٤٥ —

٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥١ —

٥٢ — ١٣٩ — ٢٥٥ —

حيان بن ظبيان : ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٤٣ —

٤٤٤ — ٤٤٥ —

(خ)

خالد بن سعد بن نفيل : ٦١

خالد بن صفوان : ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٢٠ —

٤٢٤ — ٤٢٦ — ٤٢٧ —

خالد بن عبد الله بن أسيد : ٢٣٣ —

خالد بن عبد الله القسرى : ٣٢١ —

٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٤ —

خالد بن يزيد : ٢٣٢ —

الحيار بن أوفى النهدي : ٣٩٠ —

(د)

دارمية الحجونية : ٣٨٥ —

دغفل بن حنظلة : ٣٦٥ — ٣٦٩ —

دينار : ٤٣٤ —

(ذ)

ذكوان : ١٥٩ —

(ر)

رفاعة بن شداد : ٥٩ —

روح بن زنباع : ٣٣٤ — ٣٣٦ — ٣٩٣ —

(ز)

زائدة بن قدامة : ٤٦٢ —

الزبير بن علي : ٤٥١ —

زهير بن القين البجلي : ٤٧ — ٥٤ —

زياد بن أبيه : ١٠٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩ —

٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٣٦٤ —

زيد بن منية : ٣٧٣ —

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :

١٣٦

(س)

السائب بن مالك : ٧٧ —

سحبان بن زفر : ٤٨٢ —

سعد بن حذيفة بن اليمان : ٦٢ —

سعيد بن العاص : ٢٢٥ —

سعيد بن عثمان بن عفان : ٣٩٢ —

سعيد بن المجالد : ٣٣٩ —

سليك بن السلسكة : ٤٠٥ —

سليمان بن صرد : ١٥ — ٦٠ — ٦٨ —

٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢ —

سليمان بن عبد الملك : ٢٠٠ —

سودة بنت عمارة : ٣٧٥ —

(ش)

شبيب بن يزيد الشيباني : ٤٦٣ —

شداد بن أوس الطائي : ٣٨٧

شريح القاضي : ٤٣٣

(ص)

صالح بن مسرح : ٤٥٩ — ٤٦١

صخير بن حذيفة بن هلال : ٦٨

صعصعة بن صوحان : ١٤٦ — ١٤٨ —

١٥٠ — ١٥٤ — ٣٦٩ — ٤٣٩

صفية بنت هشام المنقرية : ٣٦١

(ض)

الضحاك بن قيس : ٢٣٧ — ٢٤٢ —

٢٧٨ — ٢٧٩

ضرار بن حمزة الصدائي : ٣٧٤

(ط)

طارق بن زياد : ٣١٤ — ٣١٦

(ع)

السيدة عائشة رضي الله عنها : ٥١١

عابس بن أبي شبيب : ٣٧

عامر الشعبي : ٣٤٤

عامر بن واثلة الكنانى : ٣٤١

عبد الحميد بن يحيى : ٥٠٨

عبد ربه الصغير : ٤٥٨

عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٥١

عبد الرحمن بن أم الحكم : ١٠٦

عبد الرحمن بن شريح : ٧٨

عبد الرحمن بن عثمان : ٢٣٨ — ٢٤٤

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٣٤٠ —

٣٤٢ — ٣٤٣

عبد العزيز بن زرار : ٣٧٢

عبد العزيز بن مروان : ٤٢٠

عبد الله بن الأهم : ٤٢٠

عبد الله بن جعفر : ١٢٧ — ٢٤٧

عبد الله بن الحنظل : ٦٢

عبد الله بن حنظلة الأنصارى : ٣٢٦ —

٣٢٨

عبد الله بن الزبير : ١١٤ — ١١٩ —

١٢٣ — ١٦٠ — ١٦٤ — ١٦٥ —

١٦٨ — ١٦٩ — ١٧٣ — ١٧٤ —

١٧٥ — ١٧٧ — ١٧٨ — ١٧٩ —

١٨٠ — ٢٤٨ — ٢٦٠

عبد الله بن سعد : ٦٨

عبد الله بن شداد : ٥٠٣

عبد الله بن عباس : ٤٢ — ٩١ — ٩٥ —

٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ —

١٠٤ — ١٠٥ — ١٠٦ — ١٠٧ —

١٠٩ — ١١١ — ١١٣ — ١١٤ —

١٢٠ — ١٢٥ — ٢٤٧

عبد الله بن عبد الحجر : ٣٨٩

عبد الله بن عصام : ٢٤٠

عبد الله بن عمر : ٢٤٨ — ٢٥٧

عبد الله بن الكواء : ١٤٦

عبد الله بن مازن : ٢٦٤

عبد الله بن مسعدة : ٢٤٠

عبد الله بن مطيع : ٧٦ — ٨٢ — ٨٣

عمر بن عبد العزيز : ٢٠١ - ٢٠٢ -
 ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ -
 ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ -
 ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ -
 ٢١٧ - ٤٨٤

عمر بن هيرة : ٣٢٠

عمرو بن حريث : ٣٣١

عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٢٨ - ٢٢٩ -
 ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤١

عمرو بن العاص : ٢١ - ١٠٢ - ١١٢ -
 ١١٣ - ١١٤ - ١٤٠ - ١٦٥

عمرو بن عتبة بن أبي سفيان : ٢٣٤ - ٤٣٣

عمرو بن مسمع : ٣٣١

عمران بن حطان : ٤٨١

(غ)

الغضبان بن القبعثري : ٣٣٧ - ٤١٢

غيلان بن مسلمة الثقفي : ٢٦٥

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ -
 ٣٠٧ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢

قحطبة بن شبيب الطائي : ٥٠٩ - ٥١٠

قطري بن الفجاءة : ٤٥٤

قيس بن سعد بن عبادة : ١٤٦

(ك)

كثير بن شهاب : ٣٩

كعب بن معدان الأشقري : ٤٠٤

عبد الله بن هاشم : ١٤٠ - ١٤٥

عبد الله بن همام السلولي : ٢٦٣

عبد الله بن وال التيمي : ٦٧

عبد الله بن يحيى الأباضي : ٤٦٥

عبد الله بن يزيد الأنصاري : ٦٥ - ٧٠

عبد المؤمن بن شعث بن ربيع : ٣٤٢

عبد الملك بن مروان : ٧٣ - ١٩٢ -

١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -

١٩٧ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٤٨٣ -

٥٠٣

عبيد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤٥ - ٢٨١ - ٣٢٩

عبيد الله بن عبد الله المري : ٦٣

عتاب بن ورقاء الرياحي : ٤٥٢ - ٤٦٤

عتبة بن أبي سفيان : ٢٢ - ٢٢٠ -

٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٦٤

عفريس بن عرقوب : ٤٤٤

عثمان بن حيان المري : ٣١٦

العجاج بن رؤبة : ٣٩٩

عدى بن حاتم : ٩

عدى بن أرطاة : ٤٣٢

عرابة بن أوس بن حارثة : ٣٩١

عرهم العدوي : ٤٥٣

عطاء بن أبي صيفي : ٢٦٤

عقيل بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦

عمر بن عبد الرحمن : ٤٥

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٧ -

٢٣٤ - ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ -

٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ -

٢٦١ - ٣٨٢ - ٣٦٥ - ٣٧١ -

٣٨٨ - ٤٨٣

معاوية بن يزيد : ١٩٠

معقل بن قيس : ٤٤٢

المغيرة بن شعبة : ٢٢ - ١٠٧ - ٤٣٨

المهلب بن أبي صفرة : ٢٨٥ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٠

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٧ - ٢٨٠

(و)

واصل بن عطاء : ٥٠١

الوليد بن عبد الملك : ١٩٩

الوليد بن عقبة : ٢١ - ٢٣٠

(ى)

يزيد بن أبي مسلم : ٤١٥

يزيد بن أنس الأسدي : ٨٢

يزيد بن معاوية : ١٠٨ - ١٨٩ - ٢١٩ - ٢٨٤

يزيد بن المقنع : ٢٤٥

يزيد بن المهلب : ٣١٨ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -

٥٣٣ - ٣٥٤

يزيد بن الوليد : ٢١٨

يوسف بن عمر الثقفي : ٣٢٤ - ٣٢٥

تم فهرس أعلام الخطباء

السكيت بن زيد الأسدي : ٤٢٨

(ل)

ليلي الأخيلية : ٤٠٧

(م)

مالك بن بشير : ٤٠٣

محمد بن أبي الجهم العدوي : ٤٢٣

محمد الباقر : ١٥٧

محمد بن الحنفية : ٣١ - ٣٥ - ٩٠

محمد بن عبيد بن عطار : ٤٠١

محمد بن كعب القرظي : ٤٢٣

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٧٤ - ٧٥ -

٨١ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٨

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٣٥٠

مروان بن الحكم : ١٠٣ - ١٩١ - ٢٥٠

مروان بن المهلب : ٣٥٥

المستورد بن علفة : ٤٣٧ - ١٤٤ - ٤٤٢

مسلم بن عبيس : ٤٤٦

مسلم بن عقبة : ٣٢٧

المسيب بن نجبة : ٥٨ - ٦٦

مصعب بن الزبير : ١٨١

مصقلة بن هيرة : ٢٩٣

مطرف بن المغيرة : ٣٣٨

معاذ بن جوين : ٤٣٨ - ٤٤٣

معاوية بن أبي سفيان : ١٤ - ٩٤ - ٩٥ -

٩٧ - ٩٨ - ١٠٩ - ١٤٥ - ١٤٦

١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٥ -